

بسم الله الرحمن الرحيم

## جامعة أم القرى

### كلية الشريعة والدراسات الإسلامية


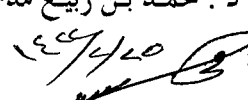

نموذج رقم (٨)

#### إجازة أطروحة علمية في صيغتها النهائية بعد إجراء التعديلات

الاسم : ( رباعي ) : أمال رمضان عبد الحميد صديق  
قسم : الدراسات العليا التاريخية والحضارية  
كلية : الشريعة والدراسات الإسلامية  
الأطروحة المقدمة لنيل درجة : الماجستير  
عنوان الأطروحة : " الحياة العلمية في الاسكندرية في العصر المملوكي " .  
" ٦٤٨ - ٩٢٣ هـ / ١٢٥٠ - ١٥١٧ م "

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وعلى آله وصحبه وبعد :  
فبناء على توصية اللجنة المكونة لمناقشة الأطروحة المذكورة عاليه والتي تمت مناقشتها بتاريخ  
١٤٢٢/١/٢٤ هـ بقبول الأطروحة بعد إجراء التعديلات المطلوبة وحيث قد تم عمل اللازم . فإن اللجنة  
توصي بإجازة الأطروحة في صيغتها النهائية للدرجة العلمية المذكورة أعلاه .  
وبالله التوفيق ،،،،

### أعضاء اللجنة

|   |   |   |
|---|---|---|
| المشرف  | مناقش   | مناقش   |
| الاسم : د. عبد الله بن سعيد الغامدي   | الاسم : د. محمد بن ربيع مدخلي   | الاسم : د. بندر بن محمد الهمزاني  |
| التوقيع :   | التوقيع :   | التوقيع :   |
|  |  |  |

يعتهد :

### رئيس قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية

أ . د . ضيف الله بن يحيى الزهراني

\* يوضع هذا النموذج أمام الصفحة المقابلة لصفحة عنوان الأطروحة في كل نسخة من الرسالة .



٣٠١٠٢٠٠٠٠٠٣٧٢٣



س٤٧ ص ١٦٦٠

المملكة العربية السعودية  
وزارة التعليم العالي  
جامعة أم القرى  
كلية الشريعة و الدراسات الإسلامية  
قسم الدراسات العليا — طالبات

# الحياة العلمية

## في الإسكندرية

### في العصر المملوكي

(٦٤٨ - ٩٢٣ هـ) - (١٢٥٠ - ١٥١٧ م)

بحث مقدم لنيل درجة الماجستير في التاريخ الإسلامي

إشراف: فضيلة الدكتور / عبد الله سعيد الغامدي

إعداد الطالبة

أمال رمضان عبد الحميد

١٤٢١هـ - ٢٠٠١م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

" وَقُلْ رَبِّي زَدَنِي عِلْمًا "

سورة طه : آية ١١٤

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه... أما بعد..

فتعد مدينة الإسكندرية مركزاً حضارياً وعلمياً منذ نشأتها ، كما تردد اسمها كثيراً ضمن المدن العلمية خلال الدولة الإسلامية، حتى كانت أزهى عصورها في العصر المملوكي حيث صارت مرحولاً إليها لطلب العلم ولاسيما الحديث والقرآن والفقهاء المالكي.

وهذه الدراسة تسهم في بيان الدور الرائد لعلماء الإسكندرية في نشر العلوم الشرعية في العهد المملوكي تحت رعاية سلاطين المماليك والذين عنسوا بنشر العلم الشرعي، وأحبوا العلماء وقاموا بالعمل على التمكين للمذهب السني بعد أن رزحت مصر تحت حكم الشيعة رداً من الزمان.

وقد جاءت الدراسة في مقدمة وتمهيد وخمسة فصول، بينت في المقدمة أسباب اختيار الموضوع وأهميته والتعريف بأهم مصادر البحث، وأما التمهيد فخصصته لبيان الحركة العلمية في الإسكندرية في العصر الأيوبي قبيل قيام دولة المماليك، والمظاهر العلمية التي أولتها الدولة الصلاحية للعلماء من أهل السنة، ونشر الفقه السني والحديث النبوي في ربوع الدولة عامة والإسكندرية خاصة.

وأما الفصل الأول: فخصصته لبيان (الأوضاع العامة في الإسكندرية خلال العصر المملوكي)، تناولته في أربعة مباحث ، درست فيه الأوضاع السياسية من اهتمام السلاطين بالثغر وعمارته وتحصينه وما إلى ذلك، ثم تحدثت عن الأوضاع الاجتماعية وأظهرت طبقات المجتمع المملوكي في الإسكندرية وأهم الاحتفالات التي كانت تجري دينية أو موسمية، وكذلك تحدثت عن الملابس المملوكية بالإسكندرية وعادات أهل الثغر والوافدين وما إلى ذلك، وكذلك درست الأوضاع الاقتصادية من الحركة التجارية التي كانت في الثغر ولاسيما من التجار البنادقة والجنوبيين والقطلان، وأما الأوضاع الدينية فخصصت الحديث فيه عن القضاء في الإسكندرية والمناصب الدينية ، ثم تحدثت عن مركز التصوف بالثغر ، وبينت في كل هذه المباحث تأثير كل منها على الحركة العلمية بالثغر .

وأما الفصل الثاني: فخصصته لبيان (مظاهر الحركة العلمية في الإسكندرية في العهد المملوكي) وتناولته في عدد من المباحث، خصصت الأول لبيان إحياء الخلافة العباسية في القاهرة، وأثره على الحياة العلمية بالإسكندرية، ثم تحدثت عن اهتمام الخلفاء العباسيين والسلاطين المماليك وكبار رجلا الدولة بالحركة العلمية بالإسكندرية، ثم أفردت حركة التأليف بمبحث تناولت فيه طرق وأهم المؤلفات بالثغر في هذا العصر، ثم تحدثت عن خزائن الكتب العامة والخاصة، ومن ثم تناولت بعد ذلك الأسر العلمية بالثغر بالدراسة والتحليل، ثم تحدثت عن موارد الإنفاق على التعليم بالثغر من أوقاف وأحباس وهبات وصدقات وإنفاق حكومي وغيره، ثم تحدثت عن العلاقات العلمية بين الإسكندرية وبعض البلدان المجاورة وكيف تخرج الإسكندريون من مدرسة العلم بالثغر ثم صاروا في المناصب الدينية في مختلف بلدان العالم الإسلامي، وكان آخر مباحث هذا الفصل بيان للاتجاه السني للحركة العلمية في الإسكندرية وأثره في التمكين للمذهب السني بها.

وأما الفصل الثالث: فخصصته لبيان (دور العلم في الإسكندرية ونظمه ووسائله خلال العصر المملوكي)، تحدثت فيه عن المساجد والكتاتيب والمدارس النظامية ودور العلماء والأربطة، وأثر شيخ الإسلام ابن تيمية على الحياة العلمية بالإسكندرية، والرحلات ، والإجازات العلمية، والمناظرات والندوات، وكذلك عن المدرسين وطرق التدريس.

وأما الفصل الرابع: فخصصته لبيان (دور الرحالة والحجاج في إثراء الحركة العلمية في الإسكندرية في العصر المملوكي) ، ودرست في ذلك دور الرحالة من مدن مصر الإسلامية ومن المشرق الإسلامي ثم دور الحجاج المغاربة والأندلسيين، ثم تحدثت عن دور الرحالة المغاربة والأندلسيين، وكان آخر المباحث دراسة دور الرحالة الأوربيين، وبيان الأسباب التي أدت إلى ضعف هذا التأثير في الإسكندرية في حين كان لهم دور في غير الإسكندرية من بلاد العالم الإسلامي.

وأما الفصل الخامس: فخصصته لدراسة النشاط العلمي في الإسكندرية في العصر المملوكي ، درست فيه النشاط العلمي من خلال العلوم الشرعية: القراءة والتفسير والحديث والعقيدة والفقه والأصول والفرائض، ثم العلوم اللغوية والأدبية والشعر، وكذلك العلوم الاجتماعية من تاريخ وجغرافيا وتربية ، ثم ختمت ببيان النشاط من خلال العلوم التطبيقية من طب وصيدلة ورياضيات وفلك وفيزياء وكيمياء.

وقد بحثت في ذلك كله أثر العلماء في نشاطهم في التدريس والتأليف ، وبحثت كذلك فيه أهم الكتب المتداولة في الثغر في هذه العلوم ، وكذلك المؤلفات في الثغر مما يتعلق بهذه العلوم . ، وأما الخاتمة : فقد خصصتها لبيان أهم نتائج البحث وتوصياته،

وفي النهاية أسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم ، وينفعني به في الدارين.. آمين ، والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

المشرف

د. عبد الله سعيد الغامدي

الطالبة

أمال رمضان عبد الحميد صديق

عميد كلية الشريعة

أ.د. محمد العقلا



## الإهداء

\* إلى والديَّ الكريمين أول من حبانني العطف ،  
ووضع قدمي على طريق العلم .

أهدي رسالتي هذه

أمال رمضان عبد الحميد صديق

## شكر وتقدير

من لم يشكر الناس لم يشكر الله<sup>(١)</sup>

أتوجه بالشكر وعاطر الثناء للأستاذ الدكتور / عبد الله بن سعيد الغامدي المشرف على هذه الرسالة ، والذي أفادني بعلمه الجم، ولم يبخل علي بجهد أو وقت، وأمدني بكثير من المصادر والمراجع من مكتبته الخاصة وكان لتوجيهاته الأثر الكبير في ظهور هذه الرسالة بالصورة التي أمل أن تكون مشرفة مقبولة فهذه الرسالة وما فيها من جهد وتوفيق، فالفضل لله أولا ثم لأستاذي متعه الله بالصحة والعافية وجزاه الله عني خير الجزاء كما أشكر جامعة أم القرى التي أتاحت لي فرصة طلب العلم بين أروقتها ومكاتبها وعلى أيدي علمائها الأفاضل، والشكر موصول لعمادة الكلية وقسم الدراسات العليا التاريخية لما يبذلونه من خدمات جلييلة لطلبة وطالبات العلم، ثم إن ذكر المعروف واجب وشكره أوجب ، فأشكر كل من أسدى إلي معروفا ، وسددني بنصح أو توجيه، أسأل الله أن يجزي الجميع عني أفضل الجزاء إنه ولي ذلك والقادر عليه، وأسأله كذلك أن يلهمني رشدي ويعيذني من شر نفسي ، ويجعل ما سطرته عملا متقبلا وعلما ينتفع به وخيرا لي في الدارين .

وصلي اللهم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

أمال رمضان عبد الحميد

(١) نلفظ حديث رواه أبو داود والترمذي وقال حسن صحيح.

# المقدمة

- أسباب اختيار الموضوع
- أهمية الموضوع .
- خطة البحث .
- التعريف بأهم المصادر .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده ، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده ، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد ... فتعتبر مدينة الإسكندرية - التي بناها الإسكندر المقدوني حين حط برحاله على أرض مصر في القرن الرابع قبل الميلاد - من أهم المدن الواقعة على ساحل البحر المتوسط ، فهي عبارة عن ميناء هام اكتسب حماية طبيعية ضد التيارات البحرية التي تهب على الحوض الشرقي لهذا البحر ، هذا بالإضافة إلى وجود جزيرة فاروس التي تقع بالقرب من الإسكندرية والتي تشكل حاجزاً طبيعياً يحميها من العواصف العاتية التي كثيراً ما تهب على هذه الأماكن . وهذا الموقع أهل الإسكندرية لأن تتحكم في طرق الملاحة البحرية التي تربط بين الشام وسواحل الشمال الأفريقي من ناحية وبين مصر وسواحل جنوب القارة الأوروبية من ناحية أخرى .

وهذه الأهمية الاقتصادية ساعدت الإسكندرية على أن تتألق في الميدان الفكري على مر العصور ففي عصر البطالمة ثم الرومان شهدت الحياة الفكرية نشاطاً ملحوظاً توج بإنشاء (دار الحكمة museum) والمكتبة الملكية بالإسكندرية (عام ٢٨٠ ق.م.) .

والمعروف أنه عندما خرج الفاتحون المسلمون الأوائل من جزيرة العرب تمكنوا في عهد الخلافة الراشدة من فتح بيت المقدس (١٥ هـ / ٦٣٧ م) ، ومدن جنوب فلسطين ، ثم واصلوا سيرهم جنوباً إلى الأراضي المصرية حيث نجح الصحابي الجليل عمرو بن العاص في فتح مصر عام (٢١ هـ / ٦٤٣ م) وأصبحت مصر ومدنها بما فيها الإسكندرية التي كانت حاضرة الوجود البيزنطي جزءاً هاماً من كيان الدولة الإسلامية .

وقد اهتم الخلفاء الأمويون ثم العباسيون بمدينة الإسكندرية اهتماماً كبيراً باعتبارها ثغراً بحرياً واجهوا من خلاله الأخطار التي كانت تهدد السواحل الشامية والمصرية من قبل البيزنطيين ، فضلاً عن أنهم اتخذوا من الإسكندرية قاعدة لانطلاق حركة الفتح الإسلامي لبعض جزر البحر المتوسط كمالطة وكريت

وغيرهما ، وبعد أن ضعفت الخلافة العباسية وقامت على إثر ذلك بعض الدويلات المسنقة في مصر اهتم حكام هذه الدويلات كاطولونيين (٢٥٤هـ-٢٦٢هـ/٨٦٩م-٩٠٤م) ، والأخشيديين (٣٢٣هـ-٣٥٨هـ/٩٣٤م-٩٦٨م) بثغر الإسكندرية أيما اهتمام ولم يقتصر ذلك الاهتمام على المجالات العسكرية لمواجهة أخطار الروم البيزنطيين على سواحل الشام ومصر ، بل تعداه إلى المجالات الاقتصادية والاجتماعية والفكرية .

ورغم خضوع مصر لحكم الفاطميين الشيعة منذ سنة ٣٥٨هـ/٩٦٨م إلا أنهم لم ينجحوا في تثبيت وترسيخ مذهبهم الشيعي في الإسكندرية ، ولا شك أنه كان للحياة الفكرية النشطة بها - آنذاك - دور كبير في مقاومة هذا الترسيع الشيعي ، ومن ثم التمكين للمذهب السني بها .

وبعد أن نجح صلاح الدين الأيوبي في القضاء على الخلافة الفاطمية في مصر سنة (٥٦٧هـ/١١٧٢م) كانت الإسكندرية سندا قويا له في التصدي لمؤامرات الشيعة في مصر ، ومن ثم غدت الإسكندرية طوال العهد الأيوبي مركزاً لحركة علمية نشطة شملت جميع مجالات النشاط العلمي ، وخاصة في مجال نشر المذهب السني .

وعندما انتقلت السلطة إلى المماليك - الذين امتد حكمهم في مصر من منتصف القرن السابع الهجري ، الثالث عشر الميلادي ، إلى الربع الأول من القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي - شكل عصرهم أهمية خاصة على الصعيدين العالمي والمحلي ، ذلك لما واكبه من حوادث مثيرة وتيارات قوية بارزة في مختلف الأنشطة الحربية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية ، وعليه يمكن القول إنه إذا كانت القاهرة تمثل - آنذاك - الثقل السياسي للعالم الإسلامي والمحور للعلاقات العالمية ، فإن الإسكندرية وقتها تفرغت بدرجة كبيرة للحياة العلمية ، وغدت لحظ أنظار الكثير من طلبة العلم لما حوته من نشاط فكري شمل جميع مجالات الحياة العلمية ، وذلك لما توفر لهذه المدينة من اهتمام فائق في هذا المجال وبالأخص بعد إحياء الخلافة العباسية في مصر سنة ٦٥٩هـ/١٢٦١م

حيث أولى الخلفاء العباسيون في مصر الحياة العلمية جلّ اهتمامهم ، وحذا حذوهم سلاطين الدولة المملوكية .

وإلى جانب ذلك حرص كبار رجال الدولة المملوكية وبعض البيوتات العلمية بها على إثراء الحياة العلمية وذلك بتوفير الدعم المادي والمعنوي لحركة التأليف وبناء المدارس والكتاتيب وخزانات الكتب ، فضلاً عن تشجيعهم للمناظرات والندوات العلمية والتي أسهم فيها الرحالة والحجيج القادمون لثغر الإسكندرية، والتي كانت تضم في ركابها بعضاً من صفوة العلماء والفقهاء والأدباء وغيرهم كما اتخذها الكثير من علماء الأندلس ملجأً ومأوى لهم بعد اضطهاد الأسبان لهم ونجاحهم في استئصال شأفتهم من الأندلس .

ومما ساعد على تنشيط الحياة العلمية في الإسكندرية في العصر المملوكي تخصيصُ موارد للإنفاق عليها ، والتي تمثلت في الأوقاف والأحباس والهبات والصدقات بالإضافة إلى الإنفاق الحكومي المنظم .

كما حفل ثغر الإسكندرية خلال هذا العصر باتجاهات فكرية متباينة أدت إلى تفاعل المناظرات ، وهذا بدوره أدى بطبيعة الحال إلى إذكاء الحياة العلمية في المساجد والمدارس والمنتديات ، بل ومنازل الأسر المهتمة بالنواحي العلمية .

ولعل من أهم الجوائز التي دفعتني إلى اختيار هذا الموضوع؛ هو الرغبة في إبراز الدور الذي قامت به الخلافة العباسية بعد إحيائها في مصر عامة، والإسكندرية خاصة في تنشيط الحياة العلمية، ودورها في التمكين للمذهب السني في الأراضي المصرية، ناهيك عن بيان أهم مظاهر الحياة العلمية في الإسكندرية ، والممثلة في حركة التأليف والترجمة ومنح الإجازات العلمية وعقد الندوات ، وخطقات الوعظ التي كانت سبباً مباشراً في إثراء الحياة العلمية في هذه المدينة، مع توضيح أهمية دور العلم في الإسكندرية ، والتي كان لها دور كبير في نشر الحياة العلمية ليس بين أبناء الإسكندرية فحسب ، بل شمل أعداداً وافرة من الوافدين عليها ، أضف إلى ذلك : الإشارة إلى دور الرحالة وقوافل الحج في إثراء الحياة العلمية، ودراسة لأهم النتاج العلمي بالمدينة خلال فترة البحث.

وقد اعتمدت الدراسة على مصادر أصلية، إذ المعروف أنه ظهرت في العصر المملوكي مؤلفات عظيمة كانت بمثابة (سجل التراث العلمي) لتلك الحقبة الزمنية المتألفة، ولقد كان لمصر النصيب الأوفر والحظ الأكبر من هذه المؤلفات لما كان لها من دور ريادي في العالم الإسلامي آنذاك، ولما كانت مدينة الإسكندرية القاعدة الثانية بالديار المصرية فقد نقيت عناية كبيرة من قبل الكتاب والمؤلفين، سواء كان ذلك في حولياتهم والتي تبدأ بسنة معينة، وتنتهي قبيل وفاة المؤلف، أو المؤلفات في التراجم والطبقات والوفيات لأعيان العلماء والأدباء ونحو ذلك، أو المؤلفات الموسوعية التي تشمل التاريخ والجغرافيا واللغة وغير ذلك، وقد شكل كل هذا نتاجا ضخما عن تأريخ مصر عامة، وتأريخ الإسكندرية خاصة، ولا شك أنه يصعب في خلال هذه المقدمة الإلمام بدراسة كل هذه المصادر بالتفصيل، ولذا أتناول هنا أهمها وأبرزها، كما أشير إلى مصادر أخرى مرتبطة بالبحث، كمعاجم المؤلفين وكتب اللغة ونحو ذلك<sup>(١)</sup>.

وتسهيلا على القارئ الكريم رأيت أن أقسم هذه الدراسة التحليلية لأهم مصادر البحث إلى أقسام بحسب أنواع الكتب كما يلي:

أولا: كتب التراجم :

وهي تشكل القسم الأكبر من المصادر، لأنها حوت في بطونها معلومات عن جميع جزئيات البحث ومفرداته.

وعلم تراجم الرجال علم متشعب الفروع، تعددت أنواعه ومصادره، فمن العلماء من جعل كتبه في التراجم كتباً عامة، ومنهم من أفرد القراء والفقهاء والأدباء، ومنهم من ترجم لأهل زمانه ومن عاصره.

كما أن منهم من رتب كتابه على حروف المعجم، ومنهم من رتب على الطبقات، ومنهم من التزم حوادث السنين بحسب الوفيات.

---

(١) يجدر هنا التنبيه على أن التراجم للعلماء الإسكندرانيين شملت العلماء الذين ولدوا بها، أو مكثوا فيها مستوطنينها متفرغين لطلب العلم أو مشغولين بالمناصب العلمية أو الدينية، كما يشمل كذلك من رحل منها إلى أقطار العالم الإسلامي رحلة في طلب العلم، أو لتولية المناصب العلمية والدينية.

فمن كتب التراجم التي أفاد منها البحث في دراسة تراجم قراء مدينة الإسكندرية في هذه الحقبة كتاب: "معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار" لشمس الدين الذهبي (ت ٧٤٨هـ/١٣٢٧م)، وكتاب "غاية النهاية في طبقات القراء" لشمس الدين محمد ابن الجزري (ت ٨٣٣هـ/١٤٢٩م)، وما كان من قراء بالثغر بعد هذه الفترة، استفدته من كتب التراجم الأخرى، كالدرر والضوء وغيرهما.

وأما كتب تراجم المفسرين، فقد اعتمدت على كتاب "طبقات المفسرين" للإمام السيوطي عبد الرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١هـ/١٥٠٥م)، فقد أستوعبت مفسري الفترة، وإن كان لم يسهب في تراجم المفسرين، وربما لأن كثيراً منهم كان يشتهر بالحديث أكثر منه مفسراً.

كذلك استفدت كثيراً من الكتب التي أفردت لحفاظ الحديث في تراجم محدثي الإسكندرية، ولا سيما المجموعة التي افتتحها الإمام الذهبي بكتابه "تذكرة الحفاظ" وقد أطل فيه، فذيل عليه الحسيني (ت ٧٦٥هـ/١٣٦٣م) في "ذيل تذكرة الحفاظ"، وذيل عليه ابن فهد محمد بن فهد المكي (ت ٨٧١هـ/١٤٦٦م) في "لحظ الألبان بذيل طبقات الحفاظ"، ثم السيوطي (ت ٩١١هـ/١٥٠٥م) بذيله "ذيل طبقات الحفاظ"، ثم ختم الموضوع بكتاب شامل أسماه "طبقات الحفاظ".

وقد ذخرت هذه الكتب بأسماء العديد من حفاظ الحديث بمدينة الإسكندرية وأسماء من زار الثغر لأخذ الحديث وروايته.

ومن الكتب التي أفادت البحث في تراجم الفقهاء ومصنفاتهم يأتي في مقدمتها كتاب ابن فرحون اليعمرى (ت ٧٩٩هـ/١٣٩٦م) والمعروف بـ "الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب"، حيث جمع بين دفتيه تراجم الكثير من علماء الثغر المالكية، واشتمل على أسماء الكثير من المؤلفات التي صنفوها.

و"طبقات الشافعية الكبرى" للقاضي تاج الدين السبكي (ت ٧٧١هـ/١٣٦٩م)، و"طبقات الشافعية" لابن قاضي شهابية (ت ٨٥١هـ/١٤٤٧م)، وقد أفدت منه التراجم المتأخرة عن كتاب القاضي ابن السبكي.



ولم يخل الأمر من الاستفادة من كتب التراجم العامة ولا سيما للفترة المتبقية بعد كتاب ابن شهبة والتي تخص الفقهاء الشافعية، رغم قلتهم بالإسكندرية. وأفاد البحث من ذيل الحافظ ابن رجب البغدادي (ت ٧٩٥هـ/١٣٩٢م) على طبقات الحنابلة لأبي يعلى، وكذلك من "المنهج الأحمد في تراجم أصحاب الإمام أحمد" للعليمي (ت ٩٢٨هـ/١٥٢٢م)، و"السحب الوايلة على ضرائح الحنابلة" لمفتي الحنابلة في مكة المكرمة ابن حميد النجدي (ت ١٢٩٥هـ/١٨٧٩م)، فقد أفادت الدراسة منها ولا سيما في تراجم شيخ الإسلام ابن تيمية وأصحابه ممن نزل مدينة الإسكندرية.

كذلك اعتمدت الدراسة في تراجم اللغويين والنحاة على كتاب "بغية الوعلة في بطقات اللغويين والنحاة" للسيوطي (ت ٩١١هـ/١٥٠٤م).

واعتمدت الدراسة أيضاً في دراسة سير الخلفاء والملوك والولاة والقضاة على جملة كتب إما خاصة ببعض الملوك، أو عامة، ولا سيما كتب ممن تولى المناصب في الدولة التركية كابن عبد الظاهر وشافع بن علي وهما ممن تولى ديوان الإنشاء، فبالنسبة لابن عبد الظاهر (ت ٦٩٢هـ/١٢٩٢م)، فقد استفدت من كتابيه "الروض الزاهر في سيرة السلطان الظاهر"، و"تشریف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور"، وذلك فيما يتعلق باهتمامات الظاهر بيبرس بالإسكندرية، وكذلك سيرة عميد الأسرة القلاوونية بثغر الإسكندرية والإصلاحات الاقتصادية التي أقامها به.

أما شافع بن علي (ت ٧٣٠هـ/١٣٢٩م)، فكتابه "حسن المناقب السرية المنزعة من السيرة الظاهرية"، يعد من أشهر الكتب التي تناولت سيرة ومناقب الظاهر بيبرس، وقد استفدنا منه كثيراً في معرفة مدى اهتمامات الظاهر باللوائح العسكرية والحضارية والاجتماعية للثغر السكندري.

كذلك استفاد البحث من مؤلفات بيبرس الندوادر (ت ٧٢٥هـ/١٣٢٤م)، فكتابه "زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة" يعتبر موسوعة ضخمة تضم (١١ مجلداً)، وقد طبع منها الجزء التاسع والذي يشمل حوادث مصر من سنة ٦٥٦هـ/١٢٨٥م إلى سنة ٧٠٩هـ/١٣٠٩م، وقد اعتمدنا عليه فيما ذكره عن مدينة الإسكندرية من



٣٠٤٣

أحوال وإدارة ونحو ذلك، كما أمدنا بمعلومات في غاية الأهمية عن أحوال الثغر السياسية والعسكرية خاصة ما كان يتعلق بغارات الفرنج، كذلك أمدنا بمعلومات عن الثغر أثناء الكوارث الطبيعية التي أصابته ، كذلك لم تتعدم الفائدة من كتابيه "مختار الأخبار تاريخ الدولة الأيوبية ودولة المماليك البحرية حتى سنة ٧٠٢هـ—" و "التحفة المملوكية في الدولة التركية".

ثم يلي ذلك من كتب التراجم التي أفاد منها البحث في هذا الجانب : ما كتبه ابن حبيب (ت ٧٧٩هـ/١٣٧٧م) في سيرة المنصور قلاوون وبنيه "تذكرة النبيه في سيرة الملك المنصور وبنيه"، ثم جاء المقرئ (ت ٨٤٥هـ/١٤٤١م) فوضع كتابه السلوك لمعرفة دول الملوك" ، ومن بعده السخاوي (ت ٩٠٢هـ/١٤٩٦م)، في ذيله المسمى "التبر المسبوك في ذيل السلوك"، كما أفاض ابن حجر (ت ٨٥٢هـ/١٤٤٨م) القول في كتابه "رفع الإصر عن قضاة مصر" عن قضاة الإسكندرية ومن تولى قضاء الثغر و سيما وأن ابن حجر من كبار العلماء وكان يشغل منصب قاضي القضاة.

وأما كتب التراجم العامة والمتنوعة ، فقد أفاد البحث من عدة كتب على رأسها الكتب المذيلة على كتاب "وفيات الأعيان" لابن خلكان (ت ٦٨١هـ/١٢٨٢م). وهي "قوات الوفيات" لابن شاكر الكتبي (ت ٧٦٤هـ/١٣٦٢م)، وذيله الآخر "درة الحجال في أسماء الرجال" لابن القضي الكناسي (ت ١٠٢٥هـ/١٦١٦م)، أما الصفي (ت ٧٦٤هـ/١٣٦٢م) فيعد كتابه "الوافي بالوفيات" من المصادر المهمة في هذه الفترة ولا سيما في تراجم أهل الأدب والشعر لاهتمامات الصفي بذلك، ثم جاء ابن تغري بردي (ت ٨٧٤هـ/١٤٦٩م) فأتم هذه المجموعة بكتابه "المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي" والذي هو كالمستدرك على كتاب الصفي جمع فيه نحو من ثلاثة آلاف ترجمة لمشاهير العلماء والأمراء والسلاطين الذين عاشوا في مصر والشام في عصر دولتي سلاطين المماليك الأولى والثانية، فهو موسوعة تراجمية واسعة استفدت منها كثيرا في بيان العلماء والمشاهير في الثغر، وقد طبع منه سبع مجلدات فقط، وقد لخصه ابن تغري في كتابه الآخر "الدليل الشافي على المنهل

الصافي"، وقد استفادت الدراسة من هذا الأخير بعض التراجم التي كانت في الأجزاء التي لم تطبع من المنهل.

وأما "مرآة الجنان" لليافعي (ت ٧٦٨هـ/١٣٦٦م)، فقد كان من ضمن الكتب التي تمت الاستفادة منها أيضاً، إلا أنه يعيب اليافعي شدة تصوفه واعتقاده في أقطاب الصوفية حتى إنه ليكيل لهم المدح، ويطعن في المؤرخين الذين لا يمدحونهم، مثلما طعن في الذهبي عند ترجمة أبي الحسن الشاذلي وغير ذلك.

وأما "المقفى الكبير" للمقريزي (ت ٨٥٦هـ/١٤٥٢م)، فقد استفدت منه في دراسة التراجم التي لم أجدتها في غيره.

كما استفاد البحث من "تكت الهميان في نكت العميان" للصفدي (ت ٧٦٤هـ/١٣٦٢م)، و"نظم العقيان في أعيان الأعيان" للسبيوطي (ت ٩١١هـ/١٥٠٥م)، في بعض التراجم ولا سيما والكتبان حويا تراجم يعز علينا أن نجدتها في غيرهما بهذا الإسهاب.

#### ثانياً: كتب التواريخ العامة والخاصة :

فبخصوص تاريخ الإسكندرية<sup>(١)</sup>، فقد أفاد البحث من كتاب (الإمام بالأعلام فيما جرت به الأحكام والأمور المقضية في واقعة الإسكندرية) لمحمد بن قاسم بن محمد النويري الهالكى السكندري (ت ٧٧٩هـ/١٣٧٧م)، وهو مؤرخ مشهور بالشعر، برع في عدد من العلوم كالأدب والشعر والجغرافيا والتاريخ، عمل ناسخاً للكتب لأغنياء الثغر، وقد وضع هذا الكتاب بسبب هجوم القبارصة على الإسكندرية عام (٧٦٧هـ/١٣٦٥م)، وقد ضم الكتاب فوائد متنوعة ومختلفة ما

(١) لم أحصل على مصادر لتاريخ مدينة الإسكندرية سوى كتاب الإمام، وودت لو حصلت على مخطوطة لتاريخ الثغر، كتاريخ ابن عرام، وكان ذلك أكثر إثراءً ومنفعة للبحث، وقد بحثت عن مخطوطته ومظنة مكان وجودها فيما أطلعت عليه من فهارس المخطوطات؛ وأيضاً بسؤال أساتذة التاريخ، فلم أجد إجابة، كما أن كبار أساتذة التاريخ المعاصرين ممن اشتغل بتاريخ الإسكندرية لم يسيروا إلى وجودها، غير أن حسبي أن مؤرخي العصر المملوكي ينقل بعضهم من الآخر، وتتكرر نفس المعلومات من كتاب لآخر لكن بزاوية مختلفة حسب نظر المؤرخ، فقلعه لم يفت الكثير بفقد مثل هذه المخطوطات والله أعلم.

بين تاريخية وجغرافية وأدبية، وبرغم أن الكلام عن الإسكندرية في كتابه كانت لا تمثل العشر من الخضم الهائل من المعلومات المختلفة والمتنوعة والمتشعبة، إلا أنه أفادنا إفادة كبيرة في معرفة بنيانها الحضاري وشوارعها وفنادقها ومعالمها وأسوارها وأبوابها ومساجدها ومدارسها وأربطتها وغير ذلك كثير، كذلك استفدنا منه في معرفة الحوادث والقصص والعادات الاجتماعية التي كانت بالثغر في العهد المملوكي، ولقد صار هو المرجع الأساسي لكل من تناول مدينة الإسكندرية بالبحث والدراسة.

وأما بالنسبة لكتب التواريخ العامة، فقد استفادت الدراسة من عدد من التواريخ العامة التي أرخت لهذه الفترة موضع البحث ومن ذلك "ذيل مرآة الزمان" لليونيني (ت ٧٢٦هـ/ ١٣٢٥م)، و "المختصر في أخبار البشر" لأبي الفداء (ت ٧٣٢هـ/ ١٣٣١م) وذيله "تتمة المختصر" لابن الوردي (ت ٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م)، وقد اعتمدت كثيراً على المجموعة التاريخية الرائعة للذهبي (ت ٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م) "سير أعلام النبلاء" و"تاريخ الإسلام" و "دول الإسلام" و"العبر في خبر من غير" و "ذيله"، والذهبي مؤرخ منصف تعلق عباراته الدقة وليس مسفاً في انتقاده. و استفاد البحث أيضاً من كتاب "نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان" للصيرفي (ت ٨٤٢هـ/ ١٤٣٨م).

ومن التواريخ أيضاً التي اعتمدت عليها الدراسة : "عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان" للعيني (ت ٨٥٥هـ/ ١٤٥١م)، وقد جعله موسوعة تاريخية وأسهب وأفاض الكلام فيه جداً، وهو معتمد على تاريخ ابن كثير وابن دقماق، وقد أفاد البحث منه في تأريخ بعض الحوادث السياسية والاجتماعية الخاصة بمدينة الإسكندرية وكذلك بعض تراجم العلماء من فقهاء ومحدثين ونحو ذلك.

ومن التواريخ العامة أيضاً التي اعتمد عليها البحث : كتاب "بدائع الزهور في وقائع الدهور" لابن أبياس (ت ٩٣٠هـ/ ١٥٢٤م)، وهو المؤرخ الذي أرخ لسقوط الدولة، وقد غطى بتاريخه هذا جزء كبيراً من تاريخ دولة المماليك مشاركاً غيره ومنفرداً بالعقود الأخيرة من عهدها، وقد استفدت منه في هذه الفترة أكثر ممن أرخ بعده ممن لم يحضرها، لأن عباراته كانت أكثر وضوحاً وصراحة.

وقد جاء ابن العماد الحنبلي (ت ١٠٨٩هـ / ١٦٧٨م) صاحب "شذرات الذهب في أخبار من ذهب" فغطى هذه الفترة أيضاً، إلا أن عباراته جاءت مختصرة وتراجمه مقيدة.

وقد ظهر في هذا العصر أيضاً التأريخ لفترات زمنية والتأريخ للمعاصرين، وقد استفدت من جملة من هذه الكتب التي غطت فترة المماليك، فمن ذلك كتاب للصفدي (ت ٧٦٤هـ / ١٣٦٢م) وهو "أعيان العصر وأعيان النصر" قصرة على ترجمة معاصريه ممن أدركهم أو لقيهم في حياته، أو أخذ عنهم، أو كانوا في زمنه في العالم الإسلامي، وتناول في ذلك ترجمة الشعراء والأدباء بالإضافة إلى العلماء والأمراء والكتاب والقضاة وحتى من يقوم على خدمة المساجد ودور العلم أي تراجم من كان في عصره ممن له شأن ما بين عام (٦٩٦هـ - ٧٦٤هـ / ١٢٩٦م - ١٣٦٢م).

وكتب الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ / ١٤٤٨م) كتابين في ذلك، الأول: "إنباء الغمر بأنباء العمر" والذي أرخ فيه لمعاصريه، وذكر في أوله أنه تعليق جمع فيه حوادث الزمان الذي أدركه، متحدثاً عن وفيات الأعيان مستوعباً رواة الحديث، وقد وصف كتابه بأنه كالذيل على البداية والنهاية وعلى وفيات ابن رافع، فإنه قال: (وهذا الكتاب يحسن من حيث الحوادث أن يكون ذيلاً على تاريخ الحافظ ابن كثير، فإنه انتهى في ذيل تاريخه إلى هذه السنة، ومن حيث الوفيات أن يكون ذيلاً على الوفيات التي جمعها نقي الدين ابن رافع، فإنها انتهت إلى أوائل هذه السنة)، وقد استفدت كثيراً مما كتبه ابن حجر، ولا سيما في تراجم محدثي الإسكندرية الذين عاصروهم وأخذ عنهم، وأما الكتاب الثاني فهو "الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة" وهو معجم ضمنه تراجم أعيان القرن الثامن الهجري من سنة ٧٠١هـ - ٨٠٠هـ / ١٣٠١م - ١٣٩٧م من الأعيان والعلماء والملوك والأمراء والكتاب والوزراء والأدباء والشعراء، وقد استقى كثيراً من معلوماته من أعيان العصر للصفدي وسير النبلاء للذهبي ووفيات ابن رافع وخطط المقرئ وغير ذلك كما جاء في مقدمته للكتاب، وبهذا يكون الكتاب قد غطى قرناً من الزمان أي ما يزيد عن ثلث الفترة موضوع البحث، وقد استفدنا

منه كثيراً فيما يخص الثغر سواء كان ذلك من النواحي السياسية والاجتماعية والاقتصادية والدينية فضلاً عن الأوضاع العلمية.

وقد أكمل الشمس السخاوي (ت ٩٠٢هـ/١٤٩٦م) هذا العمل بكتابه المطول "الضوء اللامع لأهل القرن التاسع" وهو تاريخ كبير جمع فيه مؤلفه الوفیات من سنة ٨٠١هـ إلى سنة ٩٠٠هـ (١٣٩٨م-١٤٩٤م) ، مرتباً إياها على حروف المعجم في الأدباء والعلماء والقضاة والرواة والشعراء والأدباء والخلفاء والملوك وغير ذلك، وقد استفدت منه كثيراً في نقل صورة تاريخية تحمل النقد الهادئ لكثير من علماء الثغر وفقهائه مع كثير من مؤلفاتهم التي حرص السخاوي على حشد الكثير منها في التراجم.

ومنها أيضاً: كتاب "إنباء الهصر بأبناء العصر" للخطيب الجوهري على بن داود الصيرفي (ت ٨٤٢هـ/١٤٣٨م)، وقد وضعه على غرار إنباء الغمر لابن حجر، وترجم فيه لمعاصريه ، ولقد أفدت منه كذلك في تراجم علماء القرن التاسع بمدينة الإسكندرية.

ومن الكتب الشاملة أيضاً للتواريخ العامة : "نظم العقيان في أعيان الأعيان" للسيوطي (ت ٩١١هـ/١٥٠٥م)، وضعه على نحو ما صنّفه المتقدمون قبله من العلماء وذكر في ديبachtته أنه لتراجم أعيان العصر على طريقة أهل العلم الراسخين لا عموم المؤرخين، والكتاب به (٢٠٠) ترجمة مختصرة، أفدت منه في تراجم علماء الثغر كالدمايني وغيره، ولا يخلوا في الجملة من فوائد جمة.

ولقد أفدت في بحثي هذا من كتاب الشوكاني محمد بن علي (ت ١٢٥٠هـ/١٨٣٤م) "البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع" في كثير من التراجم ولا سيما التي كانت في آخر الدولة المملوكية لما لم يبلغه أصحاب الكتب المتقدمة.

### ثالثاً: كتب تواريخ البلدان والمدن:

فهذا اللون من كتب التاريخ يجمع فيه المصنف تاريخ البلد سياسياً وحضارياً واقتصادياً واجتماعياً وعلمياً، ولم أحصل على تاريخ للإسكندرية سوى كتاب "الإمام" المتقدم الذكر، إلا أن البحث أفاد من تواريخ مدن رحل بعض

علمائها إلى الإسكندرية فمن ذلك كتاب "الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد لأبي الفضل جمال الدين جعفر بن ثعلب الأدفوي (ت ٧٤٨هـ/١٣٤٧م)، وقد جمع في هذا الكتاب أسماء وأعلام صعيد مصر ممن كان لهم ذكر حتى منتصف القرن الثامن الهجري، وقد أفدت منه في ترجمة كثير من العلماء الذين نزلوا مدينة الإسكندرية وكان لهم نشاط مع علماء الثغر.

ومن هذه النوعية من الكتب أيضاً كتاب: "العقد الثمين في أخبار البلد الأمين" للثقي الفاسي (ت ٨٣٢هـ/١٤٢٨م)، واستفاد منه البحث كثيراً في تراجم المكيين الذي زاروا الإسكندرية طلباً للعلم أو الذين أخذوا الإجازات من علمائها، أو طلبوا الاستدعاء بالإجازة منهم، ولاسيما من النساء المحدثات، وكذلك تراجم علماء من الإسكندرية جاؤوا ببلاد الحرمين وكان لهم اشتغال بالعلوم الشرعية هناك.

ومن هذه الكتب أيضاً: "النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة" لأبي المحاسن ابن تغري بردي (ت ٨٧٤هـ/١٤٦٩م)، وهو أشهر كتبه وأجلها وهو تاريخ عام لمصر الإسلامية، كتبه بعد المنهل الصافي وحوادث الدهور كما تظهر من الإحالات في كتابه النجوم على كتابه المنهل والحوادث، وقد استمر تأريخه في النجوم حتى سنة (٨٧٢هـ/١٤٦٨م)، أي قبل وفاته بعامين فقط، ولذا يعد أتم وأطول تاريخ لمصر الإسلامية.

وكتاب آخر على هذا النمط هو كتاب السيوطي (ت ٩١١هـ/١٥٠٥م) "حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة" وهو كتاب في غاية الأهمية، يترجم فيه السيوطي لتاريخ مصر ويذكر عجائبها وفتحها زمن الصحابة، ومن كان بها من الفقهاء والعلماء، ثم يتدرج حسب السنين حتى يقدم إلينا ثبناً شاملاً للعلماء والمفكرين من تراجم ورجالات مصر الإسلامية، وبالكتاب تراجم مفيدة لعلماء يصعب العثور عليهم في مكان آخر، ولقد استفدت من هذا الكتاب التراجم التي حواها ولاسيما تراجم القراء الذين ظهروا بعد الذهبي وابن الجزري.

ومن أكثر الكتب التي استفدت منها على هذه الشاكلة في تاريخ مدن الأندلس كتاب "نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب" لابن المقري أحمد بن

محمد المغربي (ت ١٠٤١هـ / ١٦٣١م)، فقد استفدت منه تراجم الكثير من الحجاج والرحالة الأندلسيين والمغاربة الذين نزلوا مدينة الإسكندرية وكان لهم دور في الحياة العلمية بها.

#### رابعاً: كتب المشيخات والمعاجم والبرامج وكتب الرحلات:

فقد كثرت هذه الأنواع من المؤلفات في العصر المملوكي مما أتاح التعرف على كثير من الشيوخ والكتب المتداولة في هذا العصر ولعل من أبرزها: برنامج الرعيني وبرنامج التجيبي، وبرنامج الوادي آشي، وثبت البلوي، والمعجم المختص بالشيوخ للذهبي، والمجمع المؤسس من المعجم المفهرس لابن حجر العسقلاني، ومعجم شيوخ ابن فهد المكي، وقد أفاد البحث من هذه الكتب جميعها ولا سيما في الفصل الخامس في تراجم العلماء بالثغر وذكر مؤلفاتهم.

وأما كتب الرحلات : فقد اجتمع لي جملة من كتب الرحلات وأهمها: رحلة العبدري وابن رشيد والتجيبي ، وابن بطوطة والبلوي ، وقد قمت بالتعريف بها في الفصل الرابع من الرسالة، وقد استفدت من هذه الرحلات استفادة كبيرة جداً في التعرف على الإسكندرية ومدارسها ومساجدها وإجازات العلماء بها وطرق التدريس وأهم العلوم المتداولة بالإضافة إلى الأحوال الاجتماعية والاقتصادية والدينية في الإسكندرية.

وقد أفادت الدراسة أيضاً في التعريف بالكثير من الكتب المصنفة ومؤلفيها من كتاب "مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوع العلوم" لطاش كبرى زادة (ت ٩٦٨هـ / ١٥٦١م)، و"كشف الظنون" لمصطفى بن عبد الله القسنطيني الرومي الحنفي (ت ١٠٦٧هـ / ١٦٥٦م)، وكتاب "إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون" و"هدية العارفين" وكلاهما لإسماعيل بن محمد البغدادي (ت ١٣٣٩هـ / ١٩٢١م) ، وكذلك معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة ، وقد استفدت من هذه الكتب في تعريفات العلوم، وتراجم المؤلفين ، وتراجم الكتب المختلفة التي كانت تتداول في الثغر أو هي من نتاج المؤلفات السكندرية في العصر المملوكي.



وأما تعريف البلدان والأماكن فأشهر ما أفادت منه الدراسة في هذا الباب موسوعة "معجم البلدان" لياقوت الحموي (٦٢٦هـ/١٢٢٨م)، و "الروض المعطار" في خبر الأقطار" للحميري .

وأما ما يتعلق بكتب اللغة والمصطلحات فقد اقتضى البحث الرجوع إلى كتب اللغة لتحديد التعريفات المختلفة لمفردات البحث، فرجعت في ذلك إلى "لسان العرب" لابن منظور (٧١١هـ/١٣١١م)، و"تاج العروس من جواهر القاموس" للزبيدي (١٢٠٥هـ/١٧٩٠م)، وغير ذلك من كتب اللغة.

وأما المصطلحات المملوكية، فقد أفدت من الموسوعة الكبيرة "صبح الأعشى في فنون الإنشاء" لأبي العباس القلقشندي (٨٢١هـ/١٤١٨م)، حيث احتوت على تعريف الكثير من ألقاب الملوك وأرباب السيوف والعلماء والكتاب والقضاة، وكذلك سائر الصفات والألقاب في مختلف الفنون والعلوم، كذلك عثرنا في كتابه على سجل تدريس لأحد العلماء بالإسكندرية، كما أورد بعض الإجازات ومراسيم تنصيب قاضي وخطيب وناظر للثغر وناظر للصادر وغير ذلك من المهن والوظائف مدينة الإسكندرية وبالجملة فكتابه بمثابة التأريخ السياسي والإداري للدولة المملوكية.

#### وأما مباحث الرسالة :

فقد اشتمل البحث على مقدمة وتمهيد وخمسة فصول وخاتمة اقتصرت المقدمة على بيان أسباب اختيار الموضوع ، وأهميته ، وعرض موجز لأهم مصادر البحث ، وناقش التمهيد ملامح الحياة العلمية في الإسكندرية قبيل العصر المملوكي ، والمظاهر العلمية التي أولتها الدولة الصلاحية للعلماء من أهل السنة، ونشر الفقه السني والحديث النبوي في ربوع الدولة عامة والإسكندرية خاصة.

وأما الفصل الأول: فكان لبيان (الأوضاع العامة في الإسكندرية خلال العصر المملوكي)، تناولته البحث في أربعة مباحث ، بدراسة الأوضاع السياسية من اهتمام السلاطين بالثغر وعمارته وتحصينه وما إلى ذلك، ثم الأوضاع الاجتماعية وبيان طبقات المجتمع المملوكي في الإسكندرية وأهم الاحتفالات التي كانت تجري دينية أو موسمية، وكذلك الملابس المملوكية بالإسكندرية وعادات

أهل الثغر والوافدين ، وكذلك تمت دراسة الأوضاع الاقتصادية من الحركة التجارية التي كانت في الثغر ولا سيما من التجار البنادقة والجنوبيين والقطان ، وأما الأوضاع الدينية فخصص الحديث فيها عن القضاء في الإسكندرية والمناصب الدينية ، ثم إظهار مركز التصوف بالثغر وأثره السيء على الإسكندرية.

وأما الفصل الثاني: فكان مخصصاً لبيان (مظاهر الحياة العلمية في الإسكندرية في العهد المملوكي) في عدد من المباحث، الأول لبيان إحياء الخلافة العباسية في القاهرة، وأثره على الحياة العلمية بالإسكندرية، ثم اهتمام الخلفاء العباسيين والسلاطين المماليك وكبار رجال الدولة بالحياة العلمية بالإسكندرية، ثم أفردت الدراسة عن حركة التأليف تناولت فيه طرق وأهم المؤلفات بالثغر في هذا العصر، ثم بينت الدراسة خزائن الكتب العامة والخاصة، ومن ثم تناولت الدراسة بعد ذلك الأسر العلمية بالثغر بالدراسة والتحليل، ثم تحدثت عن موارد الإنفاق على التعليم بالثغر من أوقاف وأحباس وهبات وصدقات وإنفاق حكومي وغيره، ثم تحدثت عن العلاقات العلمية بين الإسكندرية وبعض البلدان المجاورة وكيف تخرج الإسكندريون من مدرسة العلم بالثغر ثم صاروا في المناصب الدينية في مختلف بلدان العالم الإسلامي، وكان آخر مباحث هذا الفصل بيان للاتجاه السني للحركة العلمية في الإسكندرية وأثره في التمكين للمذهب السني بها.

وأما الفصل الثالث: فناقش (دور العلم في الإسكندرية ونظمه ووسائله خلال العصر المملوكي)، تحدثت الدراسة فيه عن المساجد ودورها في الحياة العلمية بالإسكندرية، ثم الكتابيب والمدارس النظامية ودور العلماء والأربطة والخانقاوات وأثر شيخ الإسلام ابن تيمية على الحياة العلمية بالإسكندرية، والرحلات العلمية والإجازات العلمية والمناظرات والندوات ، والمدرسون وطرق التدريس.

وأما الفصل الرابع : فخصصته لبيان (دور الرحالة والحجاج في إثراء الحياة العلمية في الإسكندرية في العصر المملوكي) ، وتناولت الدراسة في ذلك دور الرحالة من مدن مصر الإسلامية ومن المشرق الإسلامي ثم دور الحجاج

المغاربة والأندلسيين، ثم تحدثت عن دور الرحالة المغاربة والأندلسيين، وكان آخر المباحث دراسة دور الرحالة الأوربيين، وبيان الأسباب التي أدت إلى ضعف هذا التأثير في الإسكندرية في حين كان لهم دور في غير الإسكندرية من بلاد العالم الإسلامي.

وأما الفصل الخامس: فخصصته لدراسة النشاط العلمي في الإسكندرية في العصر المملوكي، أوضحت الدراسة فيه النشاط العلمي من خلال العلوم الشرعية: القراءة والتفسير والحديث والعقيدة والفقه والأصول والفرائض، ثم العلوم اللغوية والأدبية والشعر، وكذلك العلوم الاجتماعية من تاريخ وجغرافيا وتربية، ثم بيان النشاط من خلال العلوم التطبيقية من طب وصيدلة ورياضيات وفلك وفيزياء وكيمياء، وفي ذلك كله تم إيضاح أثر العلماء في نشاطاتهم في التدريس والتأليف، وكذلك أهم الكتب المتداولة في الثغر في هذه العلوم، وما كان من المؤلفات بالإسكندرية مما يتعلق بهذه العلوم.

وأما الخاتمة: فقد كانت لبيان أهم نتائج البحث وتوصياته، وجاء عقبها: الملاحق ثم الفهارس من جريدة المصادر والمراجع وفهرس الموضوعات.

وبعد .. فلا يسعني هنا إلا أن أنقل ما ذكره النويري السكندري<sup>(١)</sup> في مقدمة كتابه عن بعضهم قوله: (من صنف كتابا فقد استشرف للمدح والذم، فإن أحسن فقد استهدف للحسد والريبة، وإن أساء فقد تعرض للشتم بكل لسان، ولو أني

---

(١) اختلفت النسبة إلى الإسكندرية فيما وقفت عليه من تراجم، (إسكندري، سكندري، إسكندراني)، وقد بحثت في لسان العرب، والقاموس المحيط، وشرحه تاج العروس، فلم ينصوا على النسبة إلى الإسكندرية، وإنما ذكروا أنها اسم لبضعة عشر موضعا، وراجعت كتب الأنساب كالأنساب واللباب وغيرهما، فلم يذكروا إلا النسبة الأخيرة (إسكندراني)، وقد سألت المتخصصين في اللغة، فأفادوا بأن النسبة (إسكندري) جاءت موافقة للقاعدة العربية في النسب، وكذلك فالنسبة (سكندري) موافقة للقاعدة مع حذف الأول، وله شواهد، وقد يكون خاضعا لنظام اللغة اليونانية القديمة، وأما النسبة (إسكندراني) فهي سماعية شاذة كما قيل: (فوق، فوقاني)، (نفس، نفساني)، (روح، روحاني)، وفي هذا العصر (أمريكي، أمريكياني)، وعليه فلا إشكال في النسب الثلاثة والله أعلم.

كففت لساني ، ولم أذكر ما عاناني ، لكنك إذا مستورا ، ولكن كان ذلك في الكتاب  
مسطورا ، وسأذكر هنا بلسان التقصير والخضوع ما قاله الشاعر :

يا من غدا ناظرا فيما جمعت ومن أضحي فيما قلته النظرا  
ناشدتك الله إن عاينت لي خطأ فاستر على فخير الناس من ستر). (١)  
وإن كنت أرى نفسي مقصرة لكن حسبي أني حاولت وجاهدت، وعزائي  
فيما قاله بعض الحكماء:

أسير خلف ركاب النجب ذا عرج مؤملا كشف ما لاقيت من عوج  
فإن لحقت بهم من بعدما سبقوا فكم لرب الورى في ذاك من فرج  
وإن بقيت بظهر الأرض منقطعا فما على عرج في ذاك من حرج.  
وفي النهاية أسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه  
الكريم ، وينفعني به في الدارين، وهو حسبي ونعم الوكيل والحمد لله رب  
العالمين، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

أمال رمضان عبد الحميد صديق

مكة المكرمة - ١٤٢١هـ

---

(١) النويري السكندري الإمام، ج ١، ص ١٤.

## التعمية

**التمهيد**

**ملاحم الحياة العلمية في الإسكندرية قبيل**

**العصر المملوكي .**

التمهيد:

## ملامح الحياة العلمية في الإسكندرية قبيل العصر المملوكي

عاشت مصر الإسلامية عهداً كثيراً، اختلف فيها شروق شمس العلم والمعرفة بين بزوغ ظاهر، وأقول هادئ أحياناً، وحيث إن الحياة العلمية في عصر المماليك حلقة في سلسلة علمية متصلة بما قبله، لذا كان لزاماً أن يتم إلقاء الضوء على الحالة العلمية السابقة لهذا العهد، والواقع أن العهد الفاطمي العبيدي والذي حكم فيه الفاطميون مصر ما يزيد على قرنين من الزمان اندثر فيه كثير من العلم والهدى الصالح حتى إن المساجد عطلت فيها خطب الجمعة، كما أن المدارس معطلة والعلماء السنيون مقهورون<sup>(١)</sup>.

وعندما بدأ نجم هذه الدولة في الأفول، ظهر وزراء ونواب سنيون تولوا مناصب عليا بالدولة، وضعفت قبضة الخلفاء الفاطميين، وبدأت تظهر في الأفق حركة علمية صحيحة، بدأت تعلو شيئاً فشيئاً، وزادت قوة مع تولي أسد الدين شيركوه ومن بعده ابن أخيه صلاح الدين الوزارة في مصر<sup>(٢)</sup>، وعليه يمكن ربط الحركة العلمية في مصر مع الحركة العلمية التي ظهرت مع أفول حكم الفاطميين وإقبال عهد الأيوبيين. حيث نشطت الحركة العلمية في مصر كلها في عهد الأيوبيين، ونالت الإسكندرية شهرة كبيرة وذلك لسبقها مدن مصر في النشاط العلمي السني في وقت كانت ترزح القاهرة تحت الحكم الشيعي والنشاط السني بها قليل لا يكاد يظهر له أثر آنذاك، وكانت الإسكندرية أول مدن مصر الفاطمية خروجاً على المذهب الشيعي للدولة، وظهرت بوادر ذلك منذ أواخر عهد الفاطميين، فقد أقام بها كثير من العلماء السنيين، قادوا الحركة السنية بالثغر،

(١) النويري: نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ٣٤٦.

(٢) للوقوف على مزيد من التفصيل على تولي أسد الدين شيركوه ثم ابن أخيه صلاح الدين الوزارة في مصر، ومن ثم انتقال الحكم من أيدي الفاطميين إلى الأيوبيين أنظر: الحنبلي: شفاء القلوب، ص ٢٥ - ٣٦، ٦٦ - ٧٧.

ولعل من أشهرهم الإمام أبو بكر الطرطوشي<sup>(١)</sup>، الذي نزل الثغر واستقر به وتزوج من أهله وبنى مدرسة (أهلية) في عام (٤٩٠ هـ / ١٠٩٦ م) درس بها المذهب المالكي، لما شاهده من إقفار المساجد والمدارس من طلاب العلم والعلماء بسبب ملاحقة العبيدية لعلماء السنة وتشريدهم وقتلهم وإيذائهم<sup>(٢)</sup>، ونزل بها أيضاً الحافظ السلفي (ت ٥٧٦ هـ / ١١٨٠ م) و أبو الطاهر إسماعيل بن عوف (ت ٥٨١ هـ / ١١٨٥ م) وقد عمّر الأخيران فجاوز كل منهما التسعين وطبقت شهرتهم الآفاق فكانت الرحلة إليهما لطلب الفقه والحديث<sup>(٣)</sup>.

كما كانت الإسكندرية أول مدن مصر الفاطمية تقطع الخطبة للخليفة الفاطمي العاضد<sup>(٤)</sup> وتقيم الجمعة في شتى مساجدها باسم الخليفة المستتجد بالله

(١) هو أبو بكر محمد بن الوليد، المالكي، الطرطوشي، وطرطوشة: هي آخر حد لبلاد المسلمين في شمالي الأندلس، محاذة بأوروبا، كان إماما عادلا، زاهدا، متقشفا، متقلبا من الدنيا، تحول إلى الثغر وتخرج به أئمة، حدث عنه السلفي، وآخرون، توفي بثرغ الإسكندرية سنة (٥٢٠ هـ / ١١٢٥ م)، ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٣، ص ٣٩٣؛ ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، ج ٢، ص ٤٢٤.

(٢) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ١٩، ص ٤٩٠.

(٣) سيأتي ذكر ترجمته هؤلاء الأعلام عند الكلام عن المدارس من الفصل الثالث بهذه الرسالة .

(٤) العاضد لدين الله : هو أبو محمد عبد الله يوسف بن الحافظ، بويع بالخلافة سنة (٥٥٥ هـ / ١١٥٩ م)، تذكر المصادر التاريخية أنه كان شديد التشيع، متغاليا في سب الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، إذا رأى سنيا استحل دمه، في عهده حاصر الصليبيون القاهرة فطلب النجدة من نور الدين صاحب الشام فأرسل له جيشا بقيادة أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين الأيوبي، فلما سمع الصليبيون بقدوم الجيش رحلوا، واستطاع الجيش دخول المدينة عام (٥٦٢ هـ / ١١٦٦ م)، وخلع العاضد على شيركوه الوزارة، وبعد موته تولى الوزارة صلاح الدين الأيوبي، وفي عام (٥٦٧ هـ / ١١٧١ م) خلع العاضد، وأقام صلاح الدين الخطبة لبني العباس وأبطل اسم الفاطميين، وكانت وفاة العاضد في مطلع عام ٥٦٧ هـ، ولم يدر ما تم، وبموته انتهت الدولة الفاطمية، وتسلم صلاح الدين أمر مصر كلها.

انظر: النويري: نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ٣٤٦؛ ابن خلدون: العبر، ج ٤، ص ٨١؛ ابن دقماق: الجواهر الثمين، ص ٢١٧ - ٢١٨؛ المقرئ: اتعاظ الحنفاء، ج ٣، ص ٤٣؛ حسن



العباسي<sup>(١)</sup> فقد سبقت بهذا مدينتي الفسطاط والقاهرة<sup>(٢)</sup>، وهذا يدل على أصالة المذهب السني في الإسكندرية، فقد كان سكان الإسكندرية متمسكين بمذهب أهل السنة ويدافعون عنه، ففي نهاية الدولة الفاطمية وبداية عهد الأيوبيين امتنع أهل الثغر بمنارة الإسكندرية بعد دخول (شاور) عدو الأيوبيين إلى المدينة سنة ٥٦٢هـ ، وكان ذلك تحت رعاية الفقيه أبي الطاهر بن عوف<sup>(٣)</sup> .

ولما حاول أحد دعاة الشيعة ويدعى قديد القفاجي معاودة الدعوة للفاطميين بها، بادر أهل الإسكندرية بالكشف عنه والتصدي لدعوته، فتم القبض عليه وقتل<sup>(٤)</sup> مما يدل على أن المذهب الشيعي قد ولى عن الإسكندرية إلى غير رجعة<sup>(٥)</sup>.

- 
- إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية، ص ٢٠٠، ٢٠١. وفي اعتقادنا أن كره العاضد للسنة وأهلها لم يمنعه من طلب النجدة منهم، خوفا على ضياع ملكه ومملكته في أيدي الصليبيين.
- (١) المستنجد بالله: هو المظفر يوسف، بن المقتدي لأمر الله، بويع له بالخلافة سنة ٥٥٥ هـ ، وأظهر سيرة جميلة، وأسقط مكوسا، وورد الأموال إلى أهلها، وكان موصوفا بالفهم الثاقب، والرأي الصائب، والذكاء الغالب، له نظم بديع، ونثر بليغ، ومعرفة بآلات الفلك والاسطرلاب، وغير ذلك ، مات مسموما سنة (٥٦٦هـ / ١١٧٠م)
- ابن العمراني ، الأنباء في تاريخ الخلفاء، ص ٢٢٦، ابن دقماق: الجواهر الثمين، ص ١٦٩، محمود شاكر: التاريخ الإسلامي، ج ٦، ص ٢٩٩.
- (٢) ابن العبري: مختصر الدول، ص ٣٧٣ - ٣٧٤؛ أبو شامة: الروضتين، ج ٢، ص ٥٠٤.
- (٣) أبو شامة: الروضتين، ج ٢، ص ٤٨٦، عبد العزيز سالم: تاريخ الإسكندرية، ص ٢٣٧ .
- (٤) أبو شامة: الروضتين، ج ٢، ص ٥٦٦؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج ١، ص ٢٥٠؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٦، ق ١٢، ص ٢٩٦.
- (٥) كان لصالح الدين جهود كبيرة للتمكين للمذهب السني بدولته منها القضاء على الثورات المنصورة للمذهب الشيعي كثورة عماره اليمني وصاحب الكنز، كذلك قام لصالح الدين باستبدال القضاء الشيعة بقضاة سنة وأنشأ مدارس سنية في مصر والشام، ولمعرفة المزيد عن جهود لصالح الدين في محاربة التشيع بمصر وإحلال السنة انظر: ابن الأثير: الكامل، ج ١١، ص ٣٦٦؛ أبو شامة: الروضتين، ج ١، ص ٤٦٥؛ عبد الله الغامدي: لصالح الدين والصليبيون، ص ٥١ - ٥٦.

وقد اهتم الأيوبيون بالإسكندرية بوجه خاص دون كثير من مدن القطريين المصري والشامي ولا شك أن اهتمام الدولة بمكان يضيف بظلاله على النواحي العامة فيها بما في ذلك الناحية العلمية<sup>(١)</sup>، أضف إلى ذلك اهتمام الأيوبيين بالناحية العلمية عامة وبالناحية العلمية بالتحيز خاصة فقد اشتهر سلاطين الأيوبيين بحبهم للعلم والعلماء ، فكان صلاح الدين يجمع حوله العلماء ويحضر مجالسهم ليستمع إليهم ، وربما شاركهم في أبحاثهم<sup>(٢)</sup> ، إذ وصفه ابن الأثير فقال: (كان عنده علم ومعرفة، وسمع الحديث وأسمعه)<sup>(٣)</sup>.

وقد تردد سلاطين الأيوبيين على الإسكندرية للنظر في أمرها وكانت هذه الزيارات حافلة أيضا بزيارة العلماء وسماع الفقه والحديث، فقد زارها صلاح الدين في عام (٥٦٦هـ/١١٧٠م) أيام توليه منصب الوزارة في حياة الخليفة العاضد ، ثم زارها في عام (٥٦٧هـ/١١٧١م) غداة وفاة العاضد وإعادة مصر إلى حوزة الخلافة العباسية السنية<sup>(٤)</sup>، ثم زارها للمرة الثالثة عام (٥٧٢هـ/١١٧٦م) مصطحبا معه ولديه الأفضل والعزيز عثمان فسام بها قسما من شهر رمضان وسمع الحديث على الحافظ أبي الطاهر السلفي، وروى أحاديث كثيرة عنه<sup>(٥)</sup>، ويذكر ابن واصل أن تردد صلاح الدين إلى الحافظ السلفي في كل جمعة ثلاثة أيام الخميس والجمعة والسبت<sup>(٦)</sup>، كما زارها في عام (٥٧٧هـ/١١٨١م) وقال: (نغتنم حياة الشيخ أبي الطاهر بن عوف)، فحضر عنده وسمع عليه موطأ

- (١) سيأتي تفصيل ذلك في مبحث اهتمام المماليك بالإسكندرية من الفصل الثاني من الرسالة .
- (٢) ابن كثير: البداية وتوابعها، ج ٧، ق ١٣، ص ٦.
- (٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص ٩٧.
- (٤) عن سقوط الخلافة الفاطمية وإقامة الخطبة بمصر للخليفة العباسي، انظر: حامد غنيم أبو سعيد: الجبهة الإسلامية المتحدة، ج ٢، ص ٥٦؛ عبد الله سعيد الغامدي: صلاح الدين والصليبيون، ص ٢٥، ٣٥.
- (٥) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ٩.
- (٦) ابن واصل: مفرج الكروب ج ٢، ص ٥٦.

مالك بن أنس برواية عن الطرطوشي وتم له ولأولاده السماع<sup>(١)</sup>، كما كان صلاح الدين يعظم الفقيه ابن عوف ويرأسله، ويستفتيه في الأمور الشرعية التي تمس مصالح الدولة والرعية، فقد روى الصفي في كتابه "نكت الهميان" أن القاضي ابن أبي عصرون أضر في آخر عمره أثناء توليته القضاء، وأصابه العمى، وثار الجدل حول جواز بقائه في منصبه بعد إصابته، وكان ابن أبي عصرون حريصا على أن يظل في منصبه، فألف رسالة أيد فيها جواز أن يكون القاضي أعمى، وهو رأي تقول به القلة من الفقهاء وترفضه الكثرة، ولما كان صلاح الدين على ما يبدو حريصا على علمائه وعلى إرضاء ابن أبي عصرون كتب بخطه إلى القاضي الفاضل يقول فيه: (إن القاضي قال: إن قضاء الأعمى جائز، فتجتمع بالشيخ أبي الطاهر بن عوف الإسكندراني، وتسأله عما ورد من الأحاديث في قضاء الأعمى)<sup>(٢)</sup>، وبعد موت صلاح الدين، زارها ابنه العزيز عثمان<sup>(٣)</sup> في علم (٥٨١هـ/١١٨٥م) وكان محبا للإسكندرية حتى إنه رفض ما بذله له ابن البيساني<sup>(٤)</sup> في تولي قضاء الثغر وكان مالا جزيلا وكان العزيز في حاجة للمال جدا وقتها قائلا للأمير الذي حمل إليه المال: (أعد المال إلى أصحابه، وقل له:

(١) البنداري: سنا البرق الشامي، ص ١٨٨؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٢، ص ١١٢؛ ابن كثير:

البداية والنهاية، ج ٦، ق ١٢، ص ٣٢٩.

(٢) الصفي: نكت الهميان، ص ١٨٤، ١٨٥، وللوقوق على المزيد من سيرة ابن أبي عصرون انظر: صادق أحمد جودة: المدارس العسرونية في بلاد الشام، ص ١٥ - ٤٤.

(٣) العزيز عثمان ابن صلاح الدين الأيوبي، عينه والده واليا على الديار المصرية، واستقل بحكمها بعد وفاته سنة (٥٨٩هـ/١١٩٣م)، كان ملكا عادلا، كريما، حسن الأخلاق، حسن العقيدة، شديد الخوف من الله، محبا إلى العلماء، سمع الحديث بالإسكندرية، وحدث عن أبي طاهر السلفي، وابن عوف، توفي سنة (٥٩٥هـ/١١٩٨م)، ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٣، ص ٢٥١ - ٢٥٢؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٣، ص ٨٢؛ النويري: نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ٤٥٥؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٧، ق ١٣، ص ٢٠؛ ابن دقماق: الجوهر الثمين، ص ٢٣٠.

(٤) هو عبد الكريم بن علي البستاني، أخو القاضي الفاضل، كان واليا على إقليم البحيرة، وجمع مالا عظيما، ثم صرف من عمله وسكن الإسكندرية، وفيها أساء العشرة مع زوجته الموسرة

إياك والعود إلى مثلها، فما كل ملك يكون عادلا وعرفه أني إذا قبلت هذا منه أكون قد بعث أهل الإسكندرية وهذا ما لا أفعله أبدا<sup>(١)</sup> .

ولما تعرضت الإسكندرية للوباء في سنة (٥٩٢ هـ / ١١٩٥ م) قصدها العزيز لتفقد أحوال أهلها<sup>(٢)</sup> ، كما زارها الملك العادل الأيوبي<sup>(٣)</sup> سنة (٦٠١ هـ / ١٢٠٤ م) وكرر زيارتها في أعوام ٦٠٨، ٦١٢، ٦١٣ لتفقد أحوالها<sup>(٤)</sup> ، وزارها ابنه الملك الكامل محمد<sup>(٥)</sup> مرتين خلال عامي (٦٢٨ هـ / ١٢٣٠ م) ،

لسوء خلق فيه فما كان من أبوها سوى الالتجاء إلى قاضيها، بعد أن أثبت الضرر الواقع على ابنته، وكان عبد الكريم قد أغلق عليها الدار من الداخل، فأمر القاضي بنقب أحد جدرانها وأخرج المرأة وسلمها إلى أبيها، وأعاد الثغرة، فغضب عبد الكريم لتصرف القاضي، وعزم على عزله من منصبه، وأن يظفر هو بنفسه بمنصب قاضي الإسكندرية مكانه، مهما كلفه ذلك من ثمن، نكاية بقاضي الإسكندرية، فعرض مبلغا كبيرا ثمنا للمنصب في وقت كان الملك العزيز في أمس الحاجة إليه، انظر ذلك في: ابن الحنبلي: شفاء القلوب، ص ٢٤٣، ٢٤٤ .

(١) ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٣، ص ٨٤ ، ٨٥ .

(٢) المقرئزي: السلوك، ج ١، ق ١، ص ١٣٨ .

(٣) هو الملك العادل: أبو بكر بن أيوب، أخو السلطان صلاح الدين، ملك الديار المصرية سنة (٥٩٦ هـ / ١١٩٩ م)، وكان ذا رأي سديد، حليما، راجح العقل، متمسكا بأوامر الشرع الشريف ونواهيها، منفذا لأحكام الشريعة، مات سنة (٦١٥ هـ / ١٢١٨ م)، ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٤، ص ١٦٨؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٣، ص ٢٧٠؛ النويري: نهاية الأرب، ج ٢٩، ص ٨٤؛ ابن دقماق: الجوهر الثمين، ص ٢٣٢؛ الحنبلي: شفاء القلوب، ص ٢٠٠ .

(٤) يذكر النويري في أحداث سنة (٦١٣ هـ / ١٢١٦ م)، أن نحو ثلاثة آلاف رجل من تجار الفرنج تجمعوا بالإسكندرية فخاف أهل الثغر جانبهم، فخرج العادل بعساكره إلى الثغر وقبض على تجار الفرنج، واستصفى أموالهم، واعتقلهم، النويري: نهاية الأرب، ج ٢٩، ص ٧٧، ٧٨؛ وأنظر أيضا: المقرئزي: السلوك، ج ١، ق ١، ص ١٧٤، ١٨٥ .

(٥) هو الملك الكامل: محمد بن العادل أبي بكر، تولى السلطنة بالديار المصرية سنة (٦١٥ هـ / ١٢١٨ م) ، كان ملكا مهابا، شجاعا، أدبيا، محبا للعلماء، والعلم، يحضر مجلسه الفقهاء كل يوم، ويتحدث معهم ، و يشاركهم في فنونهم، مات سنة (٦٣٥ هـ / ١٢٣٧ م)، ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٤، ص ١٧٢، النويري: نهاية الأرب، ج ٢٩، ص ٢٢٦، ابن دقماق: الجوهر الثمين، ص ٢٣٨، الحنبلي: شفاء القلوب، ص ٣٠٠ .

و(٦٣٤هـ/٢٣٦م) (١) ، فلاشك أن لهذه الزيارات المتكررة أثرها البالغ في النشاطات المتعددة بالثغر ومن ذلك الحركة العلمية .

ومما ساعد على نشاط الحركة العلمية بالإسكندرية كثرة المساجد بها، فهو محل تجمع المسلمين للعبادة والتعليم فخطب الجمع والمواعظ، بل والقراءة الجهرية في الصلوات، كل هذا من أساليب بث العلم في العوام هذا بالإضافة إلى كون المساجد محل تجمع العلماء وإلقاء دروس العلوم الشرعية المتعددة، وقد اشتهرت الإسكندرية خلال العهد الأيوبي بكثرة مساجدها، فقد وصفها الرحالة ابن جبير خلال زيارته لها بأنها: (أكثر بلاد الله مساجدا حتى إن تقدير الناس لها يطفف، فمنهم المكثر والمقل ، فالمكثر ينتهي في تقديره إلى اثني عشر ألف مسجد، والمقل مادون ذلك لا ينضب فمنهم من يقول ثمانية آلاف، ومنهم من يقول غير ذلك ، وبالجملة فهي كثيرة جدا، تكون منها الأربعة والخمسة في موضع) (٢)، ويذكر محمد بن عبد الوهاب بن خزيمة أنه كان هناك مائة وتسعون مسجدا (١٩٠) للخطبة في الإسكندرية في سنة (٥٦٠ هـ / ١١٦٤ م) حين قدمها (٣).

ويزودنا الهروي بعدد لا بأس به من مساجدها حين زارها في أواخر القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي، حيث قال: (وبها مسجد المواريث يزار، ومسجد سارية، والجامع القديم .. وبها مسجد التوبة والرحمة .. ومسجد

(١) المقرئزي: السلوك، ج ١، ق ١، ص ٢٤١.

(٢) ابن جبير: الرحلة، ص ١٦. وأي كان هذا الرقم صحيحا أو مبالغا فيه فإنه يدل على كثرة المساجد بها في الجملة.

(٣) نقلا عن السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الإسكندرية، ص ٢٥٦.

النحاة..<sup>(١)</sup>، كما أضاف بأن بالإسكندرية جامع منسوب لعمر بن العاص وأنه  
مصلى الجمعة للمالكين<sup>(٢)</sup>.

ولا شك أن كثرة هذه المساجد تعكس مدى ازدياد الوعي الديني والثقافي  
لدى أهل الثغر حتى شيّدوا هذه المساجد الكثيرة<sup>(٣)</sup>.

أما عدد المدارس فسبق القول أن الإسكندرية تعد أول مدينة بنيت فيها  
مدرسة بمصر الفاطمية وهي مدرسة أبي بكر الطرطوشي وقد استطاع زهيران  
سنيان من وزراء الدولة الفاطمية أن يبنيا مدرستين سنيتين بالثغر، حظيتا بدعم  
وتوجيه حكومي، أولاهما المدرسة العوفية وتسمى أيضا بالعدلية وبالرضوانية<sup>(٤)</sup>  
فقد استصدر الوزير رضوان بن ولخشي<sup>(٥)</sup> سجلا من الخليفة الفاطمي الحافظ<sup>(٦)</sup>  
بإنشائها سنة (٥٣٢هـ / ١١٣٧م)، والأخرى المدرسة السلفية أقامها الوزير علي

(١) الهروي: الإشارات، ص ٢٧، من الواضح من كلام الهروي أن كثيرا من المساجد التي أورد  
ذكرها كانت تحتوي على قبور أو أنها اتخذت للتبرك والزيارة وهذا بالطبع فيه مخالفة شرعية  
من شد الرحال للمساجد والتبرك بها، إضافة إلى النهي عن اتخاذ القبور مساجد.

(٢) الهروي: الإشارات: ص ٢٧.

(٣) ولا تزال الإسكندرية حتى يومنا هذا مليئة بالمساجد مختلفة الأحجام والعمران.

(٤) هكذا سماها المقرئ نسبة لبانيها رضوان بن ولخشي، انظر: اتعاظ الحنفا: ج ٣، ص ١٦٧.

(٥) ابن ولخشي: هو الوزير الفاطمي رضوان بن الولخشي، التحق بخدمة الدولة وترقى في

الخدم حتى أصبح أحد الأمراء المميزين في خلافة الأمر، ومن ثم أصبح على حجابة باب ابن

الخليفة الحافظ، عرف الشجاعة، والإقدام، وكان شوكة في جبين الوزير الفاطمي بهرام الذي

كان يخشى منه أن يكيد له ويحل محله، مات مقتولا سنة (٥٤٢هـ / ١١٤٧م)، ابن ميسر:

تاريخ مصر، ص ٧٩ - ٨٠؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ج ١٠، ص ٤٥٨، ٤٥٩؛ المقرئ:

اتعاظ الحنفا، ج ٣، ص ١٦٧.

(٦) الحافظ هو: الإمام أبو الميمون عبد المجيد، الحافظ لدين الله، ولي مملكة الديار المصرية

سنة (٥٢٤هـ / ١١٢٩م)، كان موصوفا بالبطش والتيقظ، توفي سنة (٥٤٤هـ / ١١٤٩م)،

انظر: أبوا الفدا: المختصر في أخبار البشر، ج ٤، ص ٥، ٦؛ النويري: نهاية الأرب، ج ٢٨،

ص ٣٠٨؛ ابن دقماق: الجوهر الثمين، ص ٢١٣.

بن السلار<sup>(١)</sup> سنة (٥٤٤هـ / ١١٤٩م)، وظلت المدرستان تؤديان دورهما طوال العصر الأيوبي والمملوكي.

وكان العلم المدرس بهاتين المدرستين هو الحديث والفقہ المالكي، ولا شك أنهما علمان مغايران لخط الدولة الفاطمية، ومؤكدا لهوية الثغر السني، فلما جاء العهد الأيوبي انتشرت المدارس جدا حتى أحصى، محمد بن عبد الوهاب بن خزيمة عدد المدارس سنة (٥٦٠هـ / ١٢٦٢م) فبلغت ١٨٠ مدرسة لطلب العلم<sup>(٢)</sup>. وبالإضافة إلى المدارس التي أنشأها الأيوبيون في الثغر، والتي كانت تمثل نوعا من التعليم النظامي في ذلك الوقت، وجدت أيضا في هذا العصر كتاتيب لتعليم الصغار القراءة والكتابة، وتحفيظهم القرآن، ولم تكن هذه الكتاتيب قاصرة على أبناء الأغنياء فقط بل حرص الأيوبيون وعلى رأسهم صلاح الدين الذي أنشأ عددا من هذه الكتاتيب لتعليم الفقراء والأيتام خاصة، وقد اعتبر ابن جبير ذلك من (مآثره الكريمة المعربة عن اعتناؤه بأمور المسلمين عامة)<sup>(٣)</sup>.

ونظرا لاحتياج هذه المنشآت التعليمية [ من مساجد ومدارس، وكتاتيب] إلى مصادر ثابتة تضمن بقاءها، وذلك للقيام بشؤونها والصرف عليها وعلى المعلمين والمتعلمين فيها ليتفرغوا إلى طلب العلم دون الانشغال بالكسب، لذا لجأ سلاطين الأيوبيين إلى تدعيم هذه المنشآت بالأوقاف التي تكفي حاجات هذه المنشآت<sup>(٤)</sup>، ويؤكد هذا ابن جبير عندما تحدث عن مدارس ومحارس<sup>(٥)</sup>

(١) ابن السلار هو: الوزير الملك العادل سيف الدين أبو الحسن علي بن السلار، وزير الظافر بالله العبيدي بمصر، تولى الثغر الإسكندراني قبل الوزارة، لقب بالملك العادل أمير الجيوش، كان بطلا شجاعا، سنيا، ليس على دين العبيدين، مات قتيلًا في فراشه، سنة (٥٤٨هـ / ١١٥٢م)، الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ٣، ص ٣٠٠، ج ٢٠، ص ٢٨١؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٦، ق ١٢، ص ٢٤٨.

(٢) نقلا عن الشيال: تاريخ مدينة الإسكندرية، ص ٨١.

(٣) ابن جبير: الرحلة، ص ٢٧.

(٤) سعيد عاشور: مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، ص ١٢٢.

(٥) المحارس والواحد محرس: مأوى مخصص للدارسين والزهاد والمسافرين والفقراء، ابن

جبير: الرحلة، الهامش، ص ١٥

الإسكندرية، فقد ذكر أن صلاح الدين عمل على ترتيب: (أوقاف من قبله حاشا ما عينه من زكاة العين لذلك، وأمر على المتولين لذلك متى نقصهم من الوظائف المحروسة شيء أن يرجعوا إلى صلب ماله، ولا فائدة للسلطان بهذا البلد سوى الأوقاف المعينة من قبله لهذه الوجوه، وجزية اليهود والنصارى وما يطرأ من زكاة العين خاصة، على وجوه الطلبة، وليس له فيها سوى ثلث أثمانها والخمسة الأثمان مضافة للوجوه المذكورة)<sup>(١)</sup>.

وإلى جانب هذا كله فقد كان لموقع الإسكندرية الهام على سواحل البحر المتوسط دور بارز جعلها ترتبط ارتباطا وثيقا ببلاد المغرب والأندلس، فلقد تأثر الثغر بوفود الحجاج والرحالة من المغرب والأندلس، كما كان لوجود العوفي والسلفي بالإسكندرية الأثر البالغ في استقطاب الرحالة وطلاب العلم إليه ليغتتموا فرصة القراءة والسماع على علمائها<sup>(٢)</sup>.

وقد تضافرت عدة عوامل ساعدت على هذا التفاعل الثقافي منها: انتصار المذهب المالكي على المذهب الإسماعيلي في إفريقية وانفصالها عن الخلافة الفاطمية بمصر على يد الأمير المعز بن باديس<sup>(٣)</sup> في سنة ٤٤٣ هـ<sup>(٤)</sup>، وهذا الحدث الكبير جعل كثيرا من الناس في مصر يحلمون بطرد الفاطميين، حتى تحقق على يد صلاح الدين الذي أسقط الخلافة الشيعية وأعاد مصر للمذهب

(١) ابن جبير: الرحلة، ص ١٥.

(٢) محمد زغلول: الأدب في العصر الأيوبي، ص ١٥٩.

(٣) المعز بن باديس بن المنصور بن بلكتين بن زيري الصنهاجي، صاحب إفريقية وما ورائها، من بلاد المغرب، كان ملكا جليلا، عالي الهمة، محبا للعلم والعلماء، كثير العطاء، مدحه الشعراء والأدباء، كان مذهب أبي حنيفة أظهر المذاهب في أفريقيا، فحمل جميع أهل المغرب على التمسك بمذهب الإمام مالك بن أنس، وحسم مادة الخلاف في المذاهب، وقطع الخطبة عن الخليفة الفاطمي العبيدي المستنصر بالله، وخلص طاعته، وخطب للخليفة العباسي في بغداد القائم بأمر الله، توفي سنة (٤٥٤ هـ / ١٠٦١ م)، ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٤، ص ٣٢١ - ٣٢٢.

(٤) لمزيد من التفاصيل انظر: ابن عذاري: البيان المغرب في أخبار المغرب، ج ١، ص ٤١٥؛ ابن خلدون: العبر، ج ٦، ص ٣٢٣، السيد عبد العزيز السالم: المغرب الكبير، ج ٢، ص ٦٥٣.



السني<sup>(١)</sup>، وإلى جانب ذلك كان أهل المغرب يولون الإسكندرية اهتماما كبيرا جعلهم يتفاعلون مع حوادثها السياسية والحربية وأدى هذا التفاعل إلى نشوء علاقات ودية نشطت خلالها الحركة العلمية بين الطرفين، ومما يذكر في هذا أن صلاح الدين لما عين طعاما ورزقا لأبناء السبيل المغاربة، استوطن كثير منهم الثغر للمرابطة وطاب العلم فيه، فيذكر ابن جبير في رحلته أن السلطان صلاح الدين (عين لأبناء السبيل من المغاربة خبزتين لكل إنسان في كل يوم)<sup>(٢)</sup>، وظل المغاربة ينزلون الإسكندرية في طريقهم إلى الحج، واستوطنها الكثير منهم، واتخذوها دار رباط حتى نهاية عصر المماليك<sup>(٣)</sup>.

ولقد كان للمغاربة دور بارز في تنشيط الحركة العلمية في الثغر، فقد تخرج بالثغر كثير من العلماء كان معظمهم من الوافدين من بلاد المغرب والأندلس، ومنهم على سبيل المثال لا الحصر: اليسع بن حزم أبو يحيى الغافقي الأندلسي (ت ٥٧٥هـ/ ١١٧٩م) سكن الإسكندرية وأقرأ بها، أكرمه الناصر صلاح الدين، كان فقيها نسابه، له تاريخ في المغرب سماه "المغرب"<sup>(٤)</sup>، ومنهم: قاضي الإسكندرية جمال الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن محمد المالكي المغربي (ت ٥٨٩هـ/ ١١٩٣م)<sup>(٥)</sup>، وأبو القاسم بن فيرة المعروف بالشاطبي (ت ٥٩٠هـ/ ١١٩٣م) مصنف "الشاطبية" في القراءات<sup>(٦)</sup>، ومحمد بن أحمد بن موسى بن هزيل الأندلسي (ت ٥٩٣هـ/ ١١٩٦م)، رحل إلى المشرق وحج، وسمع بالإسكندرية من أبي الطاهر السلفي وابن عوف وغيرهم<sup>(٧)</sup>، وأبو بكر محمد بن

(١) لمزيد من التفصيل انظر: عبد الله الغامدي: صلاح الدين والصليبيون؛ مسفر الغامدي: الجهاد ضد الصليبيين حتى قيام الدولة الأيوبية.

(٢) ابن جبير: الرحلة، ص ١٥.

(٣) السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الإسكندرية، ص ٢٣٦.

(٤) السيوطي: حسن المحاضرة، ج ٢، ص ٢٣٦.

(٥) السيوطي: حسن المحاضرة، ج ١، ص ٢١٣-٢١٤.

(٦) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٧، ق ١٣، ص ١١.

(٧) المراكشي: الذيل على التكملة، ج ٦، ص ٦٩.

خلف التجيبي الاشبيلي (ت ٥٩٦هـ / ١١٩٩م)، رحل إلى المشرق وحج، أخذ الحديث عن جماعة منهم أبو الحكم مروان بن مخلوف بن هشام الطرابلسي نزيل الإسكندرية الفقيه المحدث، الطبيب<sup>(١)</sup>، وأبو عبد الله محمد بن عمر بن يوسف، المقرئ الفقيه القرطبي المالكي (ت ٦٣١هـ / ١٢٣٣م)، قرأ القراءات على الشاطبي، وسمع وحدث، جلس للإقراء بعد موت الشاطبي<sup>(٢)</sup>، ومنهم: جمال الدين أبو محمد عبد الله بن إبراهيم الريغي، المغربي المالكي (ت ٦٤٥هـ / ١٢٤٧م) قاضي الإسكندرية وخطيبها، له مصنف جليل في علم اللغة<sup>(٣)</sup>.

ولقد بلغ من اهتمام الأيوبيين بالنشاط العلمي في الإسكندرية أنهم حرصوا على تأمين مساكن وحمامات وبمارستانات لخدمة العلماء والمتعلمين بها، يدلنا على ذلك ما ذكره ابن جبير من أن صلاح الدين أنشأ أثناء زيارته للإسكندرية سنة (٥٥٧هـ / ١١٨٢م) مدرسة جامعة يدرس بها عدد كبير من الغرباء الذين كانوا يفدون على المدينة من أصقاع متعددة، مختلف العلوم والفنون، وألحق بها عددا من المساكن للطلبة، والحمامات لخدمة منسوبيها، ومارستانا لعلاج من يمرض منهم، وقد عبر ابن جبير عند زيارته للإسكندرية عن ذلك بقوله: (ومن مناقب هذا البلد ومفاخره العائد في الحقيقة إلى سلطانه: المدارس والمحارس الموضوعة فيه لأهل الطلب والتعبد يفدون من الأقطار النائية، فيلقى كل واحد منهم مسكنا يأوي إليه، ومدرسا يعلمه الفن الذي يريد تعليمه وإجراء يقوم به في جميع أحواله، واتسع اعتناء السلطان بهؤلاء الغرباء الطارئین حتى أمر بتعيين حمامات يستحمون فيها متى ما احتاجوا إلى ذلك، ونصب لهم مارستانا لعلاج من مرض منهم، ووكل بهم أطباء يتفقدون أحوالهم، وتحت أيديهم خدام يأمرونهم بالنظر في مصالحهم التي يشيرون بها من علاج وغذاء، وقد رتب أيضا فيه أقوام يرسم

(١) المراكشي: الذيل على التكملة، ص ٤٤٤.

(٢) ابن قاضي شعبة: طبقات النحاة، ص ٢٢٠.

(٣) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ٢٣، ص ٢٧٢.

الزيارة للمرضى الذين يتزهون عن الوصول للمارستان المذكور من الغرباء خاصة ، وينهون إلى الأطباء أحوالهم ليتكفوا بمعالجتهم<sup>(١)</sup>.

هذا بالإضافة إلى أن الأيوبيين انشأوا بهذه المدارس مكتبات خاصة ، فضلا عما كان بالمدينة من مكتبات عامة للاطلاع عليها وتأكيدا لسنية الدولة، ودفعوا لمسيرة العلم في المدينة في ذلك الوقت، فيذكر ياقوت الحموي أنه كان بالإسكندرية في عصر الأيوبيين دار كتب كبيرة تسمى (دار كتب الحكيم ارسططاليس)<sup>(٢)</sup>.

ولقد كان من نتائج هذا الاهتمام الذي أبداه الأيوبيون أن شهدت الإسكندرية في عصرهم حركة علمية دؤوبة كان قوامها كوكبة من علماء أجلاء لهم باع في كافة فنون المعرفة والعلم، منهم على سبيل المثال ظافر بن القاسم بن منصور الإسكندراني المعروف بابن الحداد، (ت ٥٢٩هـ / ١١٩٥م) كان من شعراء الإسكندرية المشهورين، له ديوان شعر<sup>(٣)</sup>، ونصر الله بن عبد البر بن مخلوف ابن قلاقس الإسكندراني، (ت ٥٧٢هـ / ١١٧٦م) له تصانيف عديدة منها " الزاهر الباسم في أوصاف أبي القاسم" وقد صنفه لقائد صقلية أبي القاسم بن الحجر حين كان بها، وله أيضا "روضة الأزهار في الأدب"<sup>(٤)</sup>، وأبو طاهر أحمد بن محمد بن أحمد الأصفهاني، السلفي (ت ٥٧٦هـ / ١١٨٠م)، كان علما في الحديث، استوطن ثغر الإسكندرية بضعا وستين سنة ينشر العلم ويحصل الكتب<sup>(٥)</sup>، وأبو القاسم عبد الرحمن بن مكي بن حمزة بن موقا الأنصاري (ت ٥٧٩هـ / ١١٨٣م) كان يعد من أشهر علماء الحديث بها<sup>(٦)</sup>، وإسماعيل بن مكي، بن إسماعيل بن

(١) ابن جبير: الرحلة، ص ١٥.

(٢) ياقوت الحموي: معجم الأدباء، ج ٢، ص ٣٦٤.

(٣) الذهبي: السير، ج ١٩، ص ٥٩٧؛ البغدادي: هدية العارفين، ج ٥، ص ٣٥٦.

(٤) ياقوت الحموي: معجم الأدباء، ج ١٩، ص ٢٢٦، ٢٢٧؛ البغدادي: هدية العارفين، ج ٦،

ص ٣٨١.

(٥) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ٢١، ص ٥.

(٦) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ٢١، ص ٣٩٢.

عوف المالكي الإسكندراني (ت ٥٨٢هـ / ١١٨٥م)، برع في الفقه على المذهب المالكي وصنف تذكرة في الأصول<sup>(١)</sup>، وعبد الكريم بن عطاء الله أبو محمد الإسكندراني (ت ٦١٢هـ / ١٢١٥م)، كان إماما في الفقه والأصول والعربية، من تصانيفه، "شرح التهذيب"، "مختصر التهذيب"، "مختصر المفصل"<sup>(٢)</sup>، ومنهم: علي بن إسماعيل بن علي، أبي الحسن الأبياري (ت ٦١٦هـ / ١٢١٩م)، برع في علوم شتى منها: الفقه، وأصوله، وعلم الكلام، واللغة، له تصانيف حسنة منها: "شرح البرهان"، "سفينة النجاة"<sup>(٣)</sup>، ومنهم: عبد الرحمن بن عبد المجيد بن إسماعيل الصفراوي، (ت ٦٣٦هـ / ١٢٣٨م)، شيخ المقرئين بالثغر، برع في القراءات، يقول عنه السيوطي: (انتهت إليه رئاسة الإقراء والإفتاء ببلده)<sup>(٤)</sup>، وله مصنفات عدة منها "التقريب والبيان في القراءات" و"الإعلان"<sup>(٥)</sup>، وشرف الدين أبو المكارم محمد بن عبد الله بن الحسن الإسكندراني المعروف بابن عين الدولة (ت ٦٣٩هـ / ١٢٤١م) الشافعي، قاضي الإسكندرية، له مشاركة في الفقه والأدب<sup>(٦)</sup>، ورشيد الدين ابن عوف الفقيه، عبد العزيز بن عبد الوهاب ابن أبي الطاهر بن عوف (ت ٦٤٤هـ / ١٢٤٦م)، سمع من جده الموطأ، كان ورعا زاهدا<sup>(٧)</sup>، و عثمان بن أبي بكر بن يونس المصري المعروف بابن الحاجب (ت ٦٤٦هـ / ١٢٤٨م)، اشتغل بالفقه والعربية والقراءات، وبرع فيها وأتقنها غاية الإتقان، كان محبا للعلم وأهله ناشرا له، صنف تصانيف عديدة منها: "أمالي الإيضاح في شرح المفصل"، "جامع الأمهات في الفقه"، "جمال العرب في علم

- (١) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ٢١، ص ١٢٢؛ البغدادي: هدية العارفين، ج ٥، ص ١٧٤؛ كحالة: معجم المؤلفين، ج ٢، ص ٢٩٧.
- (٢) السيوطي: حسن المحاضرة، ج ١، ص ٤٥٦.
- (٣) ابن فرحون: الديباج، ج ٢، ص ١٢١.
- (٤) السيوطي: حسن المحاضرة، ج ١، ص ٤٥٦.
- (٥) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ٢٣، ص ٤١؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٥، ص ١٨٠.
- (٦) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ٢٣، ص ١٠٥؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج ١، ص ١٩٢.
- (٧) السيوطي: حسن المحاضرة، ج ١، ص ٤٥٦؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٥، ص ٢٣٨.

الأدب"، شافية في التصريف"، "كافية ذوي الأرب في معرفة كلام العرب"، "الوافية في نظم الكافية"، وغير ذلك من التصانيف<sup>(١)</sup>.

وفي مجال الطب كان هناك الشيخ موفق شمس الرياسة، أبو العشائر هبة الله (ت ٥٩٤هـ/١١٩٨م)، من الأطباء المشهورين، يقول عنه ابن أبي أصيبعة: (كان كثير الاجتهاد في صناعة الطب، حسن المعالجة، جيد التصانيف)<sup>(٢)</sup>، كان له مجلس عام للذين يشتغلون عليه بصناعة الطب، من مصنفاة: "الإرشاد لمصالح الأنفس والأجساد"، "التصريح بالمكنون في تنقيح القانون"، "مقالة في الليمون"، وأخرى في "علاج القولون" أيضا له "رسالة في طب الإسكندرية، وحال هوائها، ومياهاها، ونحو ذلك من أحوالها، وأحوال أهله"<sup>(٣)</sup>.

أيضا كان للمرأة دورا في كثير من مجالات الحركة العلمية سواء ميدان علوم الدين أو اللغة والأدب فعلى سبيل المثال كانت هناك: طبيبة، معتقة المحدث عبد الوهاب بن رواح، سمعت وروت، وماتت بالإسكندرية سنة (٦٤٢هـ/١٢٤٤م)<sup>(٤)</sup>.

وفي مجال الأدب فقد برزت الشاعرة الإسكندرانية، تقيية بنت المحدث غيث بن علي الصوري (ت ٥٧٩هـ/١١٨٣م)، قال عنها السلفي في معجمه: (ولم تر عيني شاعرة قط سواها)<sup>(٥)</sup>، ومن شعرها في وصف إحدى رياض الإسكندرية والورد يحكي وجنة محمرة انحل من فرط الحياء لثامها<sup>(٦)</sup>.

(١) عبد الباقي اليماني: إشارة التعيين في تراجم النحاة واللغويين، ص ٢٠٤؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ٢٣، ص ٢٦٤؛ ابن فرحون: الديباج، ج ٢، ص ٨٦؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج ١، ص ٤٥٦؛ البغدادي: إيضاح المكنون، ج ٥، ص ٥٢٦.

(٢) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنبياء في طبقات الأطباء، ج ٢، ص ١١٥.

(٣) حاجي خليفة: كشف الظنون، ج ١، ص ١١٤.

(٤) الذهبي: تاريخ الإسلام، ص ١٢١.

(٥) السلفي: معجم السفر، ص ٢٢٠.

(٦) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ٢١، ص ٩٤.

ولقد شهدت مدينة الإسكندرية في العصر الأيوبي وفود الكثير من الرحالة والمؤرخين والجغرافيين قصداً ومروراً، إلا أنهم لم ينسوا أن يمدوننا بالكثير من المعلومات الهامة عنها في ما دونوه في كتبهم ورحلاتهم، ولقد كان للكثير منهم دور بارز في إثراء الحياة العلمية بالمدينة وحلقة وصل لعلوم الشرق بالغرب كذلك نقل الكثير من العلوم التي اشتهرت بالثغر كالفقه والحديث إلى البلدان المختلفة، فمن هؤلاء: الرحالة أبي الحسن علي بن أبي بكر الهروي (ت ٦١١هـ/١٢١٤م)، صاحب كتاب "الإشارات إلى معرفة الزيارات"<sup>(١)</sup>، فقد كانت الإسكندرية واحدة من البلاد التي ساح فيها الهروي، ووصفها في كتابه، حيث بهرته بآثارها القديمة مثل عمود السواري والمنار ومقبرة وعلة، ونال إعجابه اتساع شوارعها ونظافتها، واهتم أيضاً بذكر مساجدها والتي بهرته، فقال: (وبها من المساجد والمعابد ما لا رأيت به غيرها)<sup>(٢)</sup>. ومنهم الرحالة الأندلسي ابن جبير أبو الحسن محمد ابن أحمد الشاطبي البنسي، كان شاعراً مجيداً، كريم الأخلاق مشهور بالصلاح، قال عنه ابن الأبار: (عني بالآداب فبلغ فيها الغاية، وبرع في النظم والنثر، ودون شعره، ونال دنيا عريضة)<sup>(٣)</sup>، رحل ثلاث رحلات إلى المشرق الأولى كانت لأداء فريضة الحج، وقد سجل ابن جبير تفاصيل هذه الرحلة والتي كانت سنة (٥٧٨هـ/١١٨٢م)، أما الرحلة الثانية فكانت عقب وصول أخبار فتح صلاح الدين لبيت المقدس له، وكانت لمدة سنتين من عام (٥٨٥هـ/١١٨٩م) وحتى عام (٥٨٧هـ/١١٩١م)، وقد أدى فيها فريضة الحج أيضاً ورجع إلى غرناطة لينشغل بتدريس الحديث منقطعاً عن الكتابة، وأما الثالثة فهي التي عقب وفاة زوجته عام (٦٠١هـ/١٢٠٣م)<sup>(٤)</sup>، فجاء لمكة طلباً للسلوان وجاورها مدة ثم انتقل إلى بيت المقدس، ثم تجول بمصر وقرر الاستقرار بمدينة الإسكندرية وهناك أخذ يعمل

(١) حاجي خليفة: كشف الظنون: ج ١، ص ١٣٣؛ بروكلمان، ج ٥، ص ٢٢٠.

(٢) الهروي: الإشارات، ص ٤٧، ٤٨.

(٣) ابن الأبار: التكملة، ص ٣١٢، ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، ج ٢، ص ٣٨٤، الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ٢٢، ٤٥، بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ج ٥، ص ٢١٤.

(٤) انظر: المقري: نفح الطيب، ج ٢، ص ٤٨٩.

بالتدريس إلى أن توفاه الله<sup>(١)</sup> وقد حفلت رحلته "تذكرة بالأخبار عن انفاق الأسفار" بالكثير من القصص والأخبار وأسماء العلماء والأمراء والمشايخ. ومنهم **ياقوت الحموي**، شهاب الدين أبو عبد الله الرومي (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٨م)، السفر النحوي الإخباري، له تصانيف عديدة منها "معجم البلدان"<sup>(٢)</sup>، الذي نص فيه على رؤيته لمدينة الإسكندرية ومشاهدته لكثير من معالمها، كالمنار، وعمود السواري، فيقول وقد أخذه العجب: (ولقد دخلت الإسكندرية وطوفتها، فلم أر فيها ما يعجب منه إلا عمودا واحدا يعرف الآن بعمود السواري، تجاه باب من أبوابها يعرف بباب الشجرة..)<sup>(٣)</sup>، ومنهم: الرحالة **عبد اللطيف البغدادي** (ت ٦٢٩هـ/١٢٣١م)، فقد زار مصر مرتين، وطاف بمدنها، ومن بينها الإسكندرية، وألف كتابه "الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر"<sup>(٤)</sup>، الذي ضمنه مشاهداته عن الإسكندرية، حيث قام بوصف منارها وعمود السواري بها فيقول: (رأيت بالإسكندرية عمود السواري، عمود أحمر منقط، من الحجر الصوان، عظيم الغلظ، شاهق الطول)<sup>(٥)</sup> أيضا نراه يتحدث في مكان آخر من كتابه عن المجاعة التي أصابت مصر سنة (٥٩٥هـ/١١٩٨م)، وعن مدى الأثر الذي تركته في مدينة الإسكندرية، حيث يقول: (وسمنا من الثقات عن الإسكندرية أن الإمام صلى يوم الجمعة على سبعمائة جنازة)<sup>(٦)</sup>. ومن المؤرخين المؤرخ **عماد الدين أبو عبد**

(١) المنذر: التكملة، ج ٢، ص ٤٠٧؛ التجيبي: استفاد الرحلة ص ٢٤٣؛ ابن القاضي: جذوة الاقتباس، ج ١، ص ٢٨٠؛ ابن الخطيب: الإحاطة ج ٢، ص ٢٣٠؛ ابن العماد الحنبلي: الشذرات، ج ٥، ص ٦٠؛ الزركلي: الأعلام، ج ١، ص ٢٧٤، وسيأتي في الفصل الرابع زيادة بيان لرحلة ابن جبير في معرض الحديث عن الرحلات.

(٢) لمعرفة المزيد عن ترجمته ومصنفاته انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ٢٢، ص ٣٠٨؛ البغدادي: هدية العارفين، ج ٦، ص ٣٩٩؛ بروكلمان: تاريخ الأدب العربي، ج ٥، ص ٢١٧-٢٢٠.

(٣) ياقوت الحموي: معجم البلدان، ص ١٨٤.

(٤) البغدادي: هدية العارفين، ج ٥، ص ٤٤٩؛ بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ج ٥، ص ٢٢٠.

(٥) عبد اللطيف البغدادي: الإفادة، ص ٥١.

(٦) عبد اللطيف البغدادي: الإفادة، ص ٩٨.

الله محمد بن محمد الأصبهاني (ت ٥٩٧هـ / ١٢٠٠م)، تولى وزارة صلاح الدين الأيوبي، وكانت له مشاركات في فنون عديدة من فقه وأدب وشعر، له مصنفات عدة منها "خريدة القصر ودمية العصر"، و"البرق الشامي" (١)، زار الإسكندرية حين كان في معية السلطان صلاح الدين الأيوبي، وذهب معه إلى عالمها أبي الطاهر بن عوف، وقد دون ذلك في كتابه وقال: (نغتم حياة الشيخ الإمام أبي طاهر بن عوف، فحضرنا عنده وسمعنا عليه موطأ مالك رضي الله عنه برواية عن الطرطوشي، وتم له ولأولاده وكتابه السمع والرواية) (٢). ومنهم: المؤرخ، عثمان بن إبراهيم النابلسي (ت ٦٨٥هـ / ١٢٨٦م)، ولي رئاسة الدواوين في عهد الصالح نجم الدين الأيوبي، وألف كتاب "لمع القوانين المضية في دواوين الديار المصرية" (٣)، وهو من الكتب الهامة لدراسة النظم الإدارية بمصر في العصر الأيوبي، وفي أحد أبواب الكتاب يتحدث عن إهمال الموظفين لخليج الإسكندرية والحالة السيئة التي وصل إليها والحلول الجادة لإصلاحه (٤). ومنهم المؤرخ شمس الدين، يوسف أبو المظفر سبط ابن الجوزي، صاحب كتاب "تاريخ مرآة الزمان"، الذي ذكر فيه أنه دخل الإسكندرية سنة (٦٤١هـ / ١٢٤٣م) وقال: (وجدتها كما قال الله تعالى: {ذات قرار ومعين} (٥)، مغمورة بالعلماء والأولياء، كالشيخ محمد القباري، والشاطبي: وابن أبي شامة، ووعظت مرتين) (٦)، ثم يقول: (وجدتها كما قال القيسراني في وصف دمشق:

(١) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ٢١، ص ٣٤٥.

(٢) البنداري: سنا البرق الشامي، ص ١٨٨؛ أبو شامة: الروضتين، ج ٢، ص ٢٤.

(٣) البغدادي: هدية العارفين، ج ٥، ص ٥٢٥.

(٤) النابلسي: لمع القوانين، ص ٥٥ - ٥٦.

(٥) سورة المؤمنون، الآية: ٥٠.

(٦) وقد ذكر الذهبي أن سبط ابن الجوزي جلس مجلسين في الإسكندرية فتأب فيها نحو ألفين،

فلما عزم على العودة إلى القاهرة قام بعض أفاضلها وأنشد أبياتاً، قال في آخرها

فنحن ضيوف والقرا ثلاثة وجودك يا مولى الأنام شفيعي

فكان البيت الأخير باعث إلى أن عزز لهم بمجلس ثالث، انظر: الذهبي: تاريخ الإسلام، ص ٦.



أرض تحل الأماني في أماكنها بحيث تجتمع الدنيا وتفترق  
إذا شدا الطير في أغصانها وقفت على حدائقها الأسماع والحدق  
فعقب عليه صاحب "النجوم" الذي روى خبر هذه الزيارة بقوله: (وأين قول  
أبي المظفر من قول مجير الدين بن تميم في وصف الإسكندرية:

لما قصدت الإسكندرية زائرا ملأت فؤادي بهجة وسرورا  
ما زرت فيها جانبا إلا رأيت عيناى فيها جنة وحريرا<sup>(١)</sup>.

هذه أهم ملامح الحياة العلمية في الإسكندرية في العصر الأيوبي،  
وسيتضح من خلال فصول الدراسة أن هناك تشابها كبيرا بين العهد الأيوبي،  
وعهد المماليك، ولا سيما عهد المماليك البحرية، مما يؤكد على ثبات الحركة  
العلمية في الإسكندرية لعدة قرون من الزمان، وهذا بدوره يؤكد أصالتها، ورسوخ  
المبادئ التي قامت عليها وبالأخص أن الدولتين أسهمتتا بشكل ملحوظ في دعم  
المذهب السني في مصر والشام وغيرها من البلاد التي خضعت لهما.

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٣٤٦.

**الفصل الأول**  
**الحياة العامة في الإسكندرية**  
**خلال العصر المملوكي**  
**وأثر ذلك على الحياة العلمية**

- . الأوضاع السياسية .
- . الأوضاع الاقتصادية .
- . الأوضاع الاجتماعية .
- . الأوضاع الدينية .

## الأوضاع السياسية

تميز عصر المماليك<sup>(١)</sup> بتقلبات سياسية كثيرة نشأت عن الوضع السياسي المضطرب في العالم الإسلامي، بدءاً بالحملات الصليبية التي واكبت مطلع العصر متوافدة على الشام ومصر، واستمرت إلى ما بعد قيام دولة المماليك<sup>(٢)</sup>، وكذلك الهجمة المغولية الشرسة التي اكتسحت دول المشرق الإسلامي، والتي انتهت بسقوط الخلافة الإسلامية في بغداد سنة (٦٥٦هـ/١٢٩٨م)، وما نتج عن هذه الأحداث من فوضى واضطراب، ولقد ألفت هذه الأحداث بظلالها على مدينة الإسكندرية، ولا سيما رشي ثغر جهادي له ارتباطه بصد الحملات الصليبية خاصة القادمة من القبارصة.

(١) لقد قسم انمؤرخون دولة المماليك إلى قسمين بحرية وهي التي حكم سلاطينها البلاد من عام (٦٤٨هـ - ٧٨٤هـ) // (١٢٥٠م - ١٣٨٢م)، وسمو بالمماليك البحرية، نسبة لجزيرة الروضة التي سكنوا بها، بعد أن كثر عددهم أيام سيدهم نجم الدين أيوب، كذلك سمو بالنجمية والصالحية نسبة لاسم ولقب سيدهم، وقد حكموا مصر والشام والحجاز مدة أربع وأربعين ومائة سنة، ولمعرفة المزيد عن المماليك البحرية، انظر: المقرئزي: السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٣٤٠؛ الخطط، ج ٢، ص ١٨٣، ١٨٥؛ العبادي: قيام دولة المماليك الأولى، ص ٩٩؛ محمود شاكر: التاريخ الإسلامي، ج ٧، ص ٣٥-٣٩، وانظر في أسماء سلاطين المماليك البرجية ومدة حكم كل منهم بالملحق ص ٥٩٨.

أما القسم الثاني: فهم المماليك الجراكسة "البرجية"، وقد حكموا البلاد من سنة (٧٨٤هـ - ٩٢٣هـ) // (١٣٨٢م - ١٥١٧م)، وقد سمو بالبرجية نسبة إلى أبراج القلعة التي سكنوها، وبالجراكسة نسبة إلى موطنهم الأصلي، وقد حكموا مصر والشام والحجاز قرابة مائة وثمانية وثلاثين سنة، ولمعرفة المزيد عنهم انظر: المقرئزي: الخطط، ج ٢، ص ٢١٣؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ٢٢١؛ محمد مصطفى زيادة: الدولة المملوكية الثانية (ضمن كتاب "تاريخ الحضارة المصرية"، ج ٢، ص ٥٠٨؛ سعيد عاشور: العصر المماليكي في مصر والشام، ص ١٤٢، وانظر في أسماء السلاطين البرجية ومدة حكم كل منهم بالملحق ص ٦٠٠.

(٢) لمعرفة المزيد عن حملات الصليبيين على مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، انظر: سعيد عاشور: مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك؛ جوزيف نسيم يوسف: حملة لويس التاسع على مصر.

لقد اهتم المماليك<sup>(١)</sup> بالأمر السياسي في الإسكندرية، بحكم موقعها المتميز فتكررت زيارات السلاطين للثغر وأهمهم السلطان الظاهر بيبرس<sup>(٢)</sup> المؤسس الفعلي للدولة، فقد أولى الإسكندرية جل اهتمامه ورعايته، خاصة بما يتعلق بالمنشآت العسكرية وتوفير وسائل الدفاع عن المدينة من خلال ما قام به من تحصينات وعناية بدار صناعة الأسطول<sup>(٣)</sup>، ففي العام الثاني لتولييه السلطنة (٦٥٩هـ/١٢٦١م) أصدر مرسوما بعمارة أسوار مدينة الإسكندرية، ورتب لذلك جملة من المال كل شهر ينفق على هذه العمارة، وأمر بحفر خنادقها، وإصلاح ما

(١) كلمة مماليك جمع ومفردها: مملوك، ويقصد بها ما يملك بقصد تربيته، والاستعانة به في الجندية وحكم الدولة، وكان المماليك الذين جلبهم الأيوبيون وسلاطين المماليك من بعدهم في مصر خليط من الأتراك والشراكسة والروم والروس والأكراد، وكانوا يتلقون تعليمهم الديني والحربي، الذي يؤهلهم لتولي المناصب والوظائف في الدولة. انظر: المقرئزي: الخطط، ج ٢، ص ٢١٤؛ عبد المنعم ماجد: نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر، ج ١، ص ١١؛ على إبراهيم حسن: تاريخ المماليك البحرية، ص ٢٧ - ٣٥.

(٢) هو بيبرس بن عبد الله، من بلاد القفجاق، من مماليك الصالح نجم الدين أيوب، كان شهما شجاعا، قضى وقته مدافعا عن الإسلام وبلاد المسلمين من خلال الحملات الجهادية التي قام بها في بلاد الشام وأثمرت باسترداد عدد من المدن التي كانت بيد الصليبيين وفي مقدمتها أنطاكية، وشهدت البلاد المصرية والشامية في عهده عدة إصلاحات حربية وعمرانية، توفي مسموما ودفن بدمشق، لمعرفة المزيد عن ترجمته انظر: ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص ٤٦، ابن دقاق: الجواهر الثمين: ص ٢٧١، العيني: عقد الجمان، ج ٢، ص ١٧٤، المقرئزي: السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٦٣٥؛ ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج ٣، ص ٤٤٧؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٥، ص ٣٥٠.

(٣) لم يقتصر اهتمام الظاهر بيبرس على العناية بثغر الإسكندرية بل تعداه إلى جميع الثغور الإسلامية بدولته، فلقد بنى برشيد مرقبا، وأمر بردم فم بحر دمياط خوفا من هجمة صليبية مباغتة، انظر: عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص ٩١؛ شافع بن علي: حسن المناقب، ص ٤٣؛ ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، ج ٢، ص ٨٤؛ المقرئزي: الخطط، ج ١، ص ٢٢٤؛ السيد عبد العزيز سالم، تاريخ الإسكندرية، ص ٢٧٥.

وهن منها، والعناية بأسطولها<sup>(١)</sup>، وحرص على الإشراف على ذلك بنفسه، فقد زارها مرات عدة، أشرف خلالها على كثير من الأعمال الإنشائية والإصلاحات الحربية والعمرائية في المدينة، فقد زارها للمرة الأولى عام (٦٦١هـ/١٢٦٢م)، واستقبل من قبل أهلها بالحفاوة والترحيب<sup>(٢)</sup>، وما إن استقر به المقام بالثغر حتى أمر برد مال السهمين<sup>(٣)</sup>، ونظر بنفسه إلى المظالم والشكايات المقدمة من أهالي الثغر، فأسقط المكس المفروض على تجارة البهار<sup>(٤)</sup>، كذلك أصدر أوامره بإصلاح أبراج المدينة وترميمها، وزودها بالرجال، وشحنها بالسلاح، وطاف بنفسه على الأسوار وتفقد ما وهن منها<sup>(٥)</sup>، وزار دار العدل، وجلس لسماع المظالم والشكاوي<sup>(٦)</sup>، ثم زارها مرة ثانية سنة (٦٦٢هـ/١٢٦٣م) للنزهة والصيد، وأكد

- (١) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص ٩١؛ بيبرس الدوادار: مختار الإخبار، ص ٢٣؛ المقرئزي: السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٢٤٦؛ سرور: دولة الظاهر بيبرس، ص ١٥٠؛ السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الإسكندرية، ص ٢٧٥.
- (٢) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص ١٧٥؛ شافع بن علي: حسن المناقب، ص ٦٤؛ المقرئزي: السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٤٩٩؛ السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الإسكندرية، ص ٢٧٨.
- (٣) مال السهمين: يعود إلى عهد السلطان الأيوبي الكامل محمد، الذي أخرج من زكاة المال مقدار سهمين خصصهما للفقراء والمساكين، وما لبث أن توقف ذلك الأمر من بعده، حتى عهد الظاهر بيبرس الذي أمر برده بناءً على رغبة أهالي الثغر السكندري، انظر: النويري: نهاية الأرب، ج ٣٠، ص ٨٨؛ المقرئزي: السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٢٦٠.
- (٤) كان يفرض على كل قنطار من البهار بباع ما قيمته ربع دينار، فاستجاب الظاهر بيبرس لمطلب أهل الثغر بإلغاء المكس وأمر بإبطاله عن الثغر وسائر الرعية، ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص ١٧٥؛ بيبرس الدوادار: مختار الإخبار، ص ٣٤٠؛ المقرئزي: السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٤٤٩؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج ١، ق ١، ص ٣٤٠؛ حماد: الإسكندرية في عصر سلاطين المماليك، ص ٣٥.
- (٥) العيني: عقد الجمان، ج ١، ص ٣٦٣، ٣٦٤؛ السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الإسكندرية، ص ٢٧٨؛ علي إبراهيم حسن: تاريخ المماليك البحرية، ص ٥٢.
- (٦) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص ١٧٦؛ ابن شاعر الكتبي: الوافي في الوفيات، ج ١، ص ١٦٨؛ المقرئزي: السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٥٠٠؛ الشيال: تاريخ مدينة الإسكندرية، ص ١٢٥؛ عبد العزيز سالم: تاريخ الإسكندرية، ص ٢٨١.

على استنباب الأمن بها<sup>(١)</sup>، وفي الزيارة الثالثة التي قام بها الظاهر بيبيرس للإسكندرية سنة (٦٦٤هـ/١٢٦٥م) أصدر أوامره بتطهير خليج الإسكندرية من الرواسب الطينية التي تجمعت في مجرى فم الخليج وقامت بسده، وذلك بناء على شكوى من أهالي النغر<sup>(٢)</sup>، وفي سنة (٦٦٨هـ/١٢٦٨م) قام بزيارة رابعة للإسكندرية، وذلك لتفقد تحصيناتها بعد أن بلغت مسامعه تحركات صليبية نحو الإسكندرية، وذلك إبان حصاره لحصن الأكراد<sup>(٣)</sup>، فبادر بالعودة إلى مصر، وهناك علم أن اثني عشر مركبا للصليبيين تسللت إلى الإسكندرية وقام رجالها بالاعتداء على مركب للتجار وأخذوا ما فيه ثم أحرقوه، فخشى بيبيرس أن يكون ذلك مقدمة حملة صليبية كبيرة، خاصة وقد بلغه أن عددا من ملوك الصليبيين اجتمعوا بصقلية، وشرعوا في تجهيز الأساطيل دون أن يحددوا وجهتهم<sup>(٤)</sup>،

(١) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص ٢١٨؛ المقرئزي: السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٥٢٠، هذا وقد أغفل عبد العزيز سالم ذكر هذه الزيارة واعتبر زيارة بيبيرس للنغر سنة (٦٢٤هـ/١٢٦٥م) هي الزيارة الثانية له، انظر: عبد العزيز سالم، تاريخ الإسكندرية، ص ٢٨٢.

(٢) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص ٢٤٧؛ اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج ٣، ص ٢٥٨؛ العيني: عقد الجمان، ج ١، ص ٤٢٨؛ المقرئزي: الخطط، ج ١، ص ١٧١؛ والسلوك، ج ١، ق ٢، ص ٥٤٣؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ١٩٣، وانظر الملحق ص ٦٢١.

(٣) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص ٣٦١، وحصن الأكراد أو قلعة الحصن، قلعة تقع على مقربة من نهر العاص، فيما بين حمص وطرابلس، تمتاز بالقوة والمنعة، واتخذت اسمها من الأكراد الذين سكنوها عام (٤٢٢هـ) واستولى عليها الاستبارية سنة (٥٠٣هـ/١١١٠م)، واستعادها بيبيرس منهم عام (٦٦٩هـ/١٢٧١م)، انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ٥٨٦؛ أبو الفدا: تقويم البلدان، ص ٢٥٨؛ جوزيف نسيم: العدوان الصليبي على الشام، ج ١، ص ٣٥.

(٤) اتجهت هذه الحملة إلى تونس بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا على نجد استمالة من المنتصر محمد الحفصي، صاحب تونس، أو الاستيلاء على بلاده، ومن ثم الزحف إلى مصر للقضاء على العقبة الكوردا في سبيل الوصول إلى بيت المقدس، ولكنه فشل في تحقيق مطامعه وهلك على أبواب قرطاجنة اثر مرض أصابه سنة (٦٦٩هـ/١٢٧٠م). لمعرفة المزيد عن هذه

فتحرز ببيرس على الإسكندرية، فأمر بقتل الكلاب الموجودة بها، ومنع الناس من فتح حوانيتهم بعد المغرب، ومنع إيقاد النار أثناء الليل، وأمر بعمل جسرين على مراكب أحدهما يصل بين مصر وجزيرة الروضة، والآخر بين الجزيرة والجزيرة<sup>(١)</sup>، وذلك لتسهيل عبور عساكره نحو الإسكندرية إذا داهمها العدو<sup>(٢)</sup>.

وفي سنة (٦٧٣هـ/١٢٧٤م) قام الظاهر بزيارته الأخيرة للإسكندرية فاطلع على شؤونها، ونظم أحوالها، وأمر بترميم المنارة بعد أن تداعت أركانها، ووقع جانب كبير من بنائها<sup>(٣)</sup>، كما اطلع على الشكاوي المقدمة من أهل الثغر في حق واليها شمس الدين بن باخل الهكاري، حيث كثر ظلمه ونمى ماله من خلال استيلائه على أموال الخمس والديوان، فقام ببيرس بضربه وتغريمه خمسين ألف دينار، وهدم بستان كبير له<sup>(٤)</sup>، وعاد ببيرس إلى القاهرة ولم يزر الإسكندرية مرة أخرى، حيث وافته المنية سنة (٦٧٦هـ/١٢٧٧م)<sup>(٥)</sup>، وخلفه ابنه الملك السعيد ناصر الدين أبو المعالي، الذي لم يمهل أعداؤه ليظهر حنكته أو سياسته في تدبير

---

الحملة انظر: ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص ٣٧٠، ٣٧٣؛ ابن خلدون: العبر، ج ١٠، ص ٨٤١؛ المقرئ: السلوك، ج ٣، ق ٢، ص ٧٢٣؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ١٤٩؛ جوزيف نسيم: العدوان الصليبي على مصر، ص ٢٨١؛ حسن الكفاني: حملة لويس التاسع، ص ١٨٧.

(١) جزيرة الروضة هي: محلة من محال الفسطاط يحيط بها النيل إذا فاض فتقطع عن الفسطاط وهي من متزهات مصر وفيها بساتين كثيرة، وتنسب إلى الوزير الفاطمي الأفضل بين أمير الجيوش بدر الجمالي الذي شيد بها بستان الروضة الكبير، فأصبحت منذ ذلك الوقت تعرف بجزيرة الروضة، انظر: صفي الدين البغدادي: مرصد الاطلاع، ج ١، ص ٣٣٣، أما الجزيرة: فتقع غربي الفسطاط وهي منطقة واسعة من أفضل مناطق مصر، انظر: مرصد الاطلاع، ج ١، ص ٣٦٧؛ المقرئ، الخطط، ج ١، ص ١٧٧.

(٢) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة الزاهرة، ج ٧، ص ١٤٩؛ السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الإسكندرية، ص ٢٨٤.

(٣) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص ٤٤٨.

(٤) انظر: ابن شاکر كُتبي: عيون التواريخ، ج ٢١، ص ٣٥٠.

(٥) ابن تغري: المنهل الصافي، ج ٢، ص ٤٤٧؛ ابن العماد: شذرات الذهب، ج ٥، ص ٣٥٠.

الدولة، فقد قتل سنة (٦٧٨هـ/١٢٧٩م)<sup>(١)</sup>، وجاء من بعده أخوه الملك العادل بدر الدين سلامش، الذي حال صغر سنه وقصر فترة حكمه دون تقديم أي شيء يذكر من أعمال للدولة<sup>(٢)</sup>، ولما تسلطن المنصور قلاوون<sup>(٣)</sup>، اكتفى بما قام به الظاهر بيبرس من تحصينات وترميمات في الإسكندرية، وإن كانت بعض المصادر تشير إلى أنه خرج بنفسه وصحبته العسكر المصري سنة (٦٨٢هـ/١٢٨٣م) لحفر خليج الإسكندرية من جهة (الطيرية)<sup>(٤)</sup> من أعمال البحيرة، حيث بدأت الرواسب الطينية تترسب فيه من جديد مما أدى إلى انقطاع الماء عن الإسكندرية، وتعطيل

(١) هو الملك السعيد ناصر الدين أبو المعالي تولى السلطنة بعد وفاة أبيه، واستمر في الحكم حتى سنة (٦٧٨هـ/١٢٧٩م)، حيث خرج الأمراء عن طاعته، واختلفوا حول إبقائه أو قتله، فخلع نفسه من السلطنة، وتوفي من نفس العام مخلوعاً، انظر: ابن شاکر الكتبي: عيون التواريخ، ج ٢١، ص ٢٢٥؛ ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج ١، ص ٥٣؛ ابن دقماق: الجواهر الثمين، ص ٢٨٦؛ العيني: عقد الجمان، ج ٢، ص ٢٢٢؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ٢٥٩؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج ٢، ص ١٠٥.

(٢) هو السلطان الملك العادل سلامش، تولى السلطنة بعد خلع أخيه الملك السعيد، وعمره سبع سنين وشهر، وخطب له على المنابر، ولكن ما لبث أن تأمر عليه الأمير المنصور قلاوون، فقام بخلعه، وتولى السلطنة بعده، انظر: ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج ١، ص ٤٨؛ ابن دقماق: الجواهر الثمين، ص ١٩٣؛ العيني: عقد الجمان، ج ٢، ص ٢٢٣؛ المقرئزي: السلوك، ج ١، ق ٣، ص ٦٥٦؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ٢٨٨؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج ٢، ص ١٠٦.

(٣) هو السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون الصالح، كان ملكاً حليماً، مهيباً، كثير العفو حسن السياسة، وافر الوقار، فتح الفتوحات الجلية، وكسر التتار، كانت مدة حكمه أحد عشر عاماً وشهرين، توفي سنة (٦٨٩هـ/١٢٩٠م)، لمعرفة المزيد عن ترجمته انظر: ابن شاکر كتبي: فوات الوفيات، ج ٢، ص ٢٦٩؛ النويري: نهاية الأرب، ج ٣١، ص ١٧٣؛ ابن دقماق: الجواهر الثمين، ص ٢٩٥؛ الصقاعي: تالي وفيات الأعيان، ص ١٢٩.

(٤) الطيرية: ترعة تخرج من النيل قرب قرية تعرف بهذا الاسم، من أعمال البحيرة، وهي من البلاد القديمة بمركز كوم حمادة، انظر: المقرئزي: السلوك، ج ١، ق ٣، ص ٧١٣؛ ابن الجيعان: التحفة السنية، ص ١٢٠؛ محمد رمزي: القاموس الجغرافي، ج ٢، ق ٢، ص ٣٣٣.



حركة الملاحة فيها<sup>(١)</sup>، ونظرا لأهمية الثغر الجهادي، فقد أوصى المنصور قلاوون قبيل وفاته ابنه الأشرف خليل<sup>(٢)</sup> بالاهتمام والعناية به، ولكن نظرا لانشغال الأشرف بمحاربة الصليبيين في بلاد الشام، وقصر فترة حكمه فلم تجد الإسكندرية العناية الكافية في عهده، غير أنها بلغت أوج ازدهارها في عهد الناصر محمد<sup>(٣)</sup> بن المنصور قلاوون الذي أولى المدينة عنايته واهتمامه، فعندما تعرضت الإسكندرية لزوال سنة (٧٠٢هـ/١٣٠٣م) والذي ألحق بها أضرارا بالغة خاصة في المجال العمراني، فندب الناصر الأمير ركن الدين بيبرس الدوادار إلى الثغر لمباشرة جميع الإصلاحات فيه، فقام بتفقد الدمار الذي لحق بالمنشآت المعمارية، و أمر بترميمها، ومنها على سبيل المثال منارتها والتي انشقت وتصدعت أجزاء كبيرة منها من أثر الزلزال، كما قام بإعادة إعمار ما تهدم من أسوارها

(١) أبو الفداء: المختصر، ج ٤، ص ١٧؛ ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج ١، ص ٤٨.

(٢) هو السلطان الملك الأشرف صلاح الدين خليل، ابن المنصور قلاوون، كان ملكا مهيبا عالي الهمة، أبطل الكثير من المكوس، واستعاد عكا ونال شرف تصفية الوجود الصليبي من بلاد الشام، وقتل غدرا وهو يتصيد على يد نائبه بيدرا سنة (٦٩٣هـ/١٢٩٣م)، انظر: النويري: نهاية الأرب، ج ٣١، ص ١٩٥ - ٢١٣؛ الذهبي: العبر، ج ٥، ص ٢٢٧؛ ابن حبيب، تذكرة النبيه، ج ١، ص ١٢٧، ١١٧؛ ابن الفرات: تاريخ الدول والملوك، ج ١، ق ٣، ص ١٦٨، ابن دقماق: الجواهر الثمين، ص ٣١٠.

(٣) هو الناصر محمد بن المنصور قلاوون، تولى عرش السلطنة المملوكية ثلاث مرات الأولى واستمرت سنة واحدة من (٦٩٣ - ٦٩٤هـ) // (١٢٩٣ - ١٢٩٤م)، والثانية بدأت في سنة (٦٩٨هـ/١٢٩٨م) وانتهت في سنة (٧٠٨هـ/١٣٠٨م)، والثالثة وهي أطول فترات حكمه وبدأت من سنة (٧٠٩هـ/١٣٠٩م)، وانتهت بوفاته سنة (٧٤١هـ/١٣٤٠م)، وبذلك يكون صاحب أطول فترة حكم عاشها عاهل مملوكي، وكان الناصر ملكا جليلا، خبيرا بسياسة الملك، طالت مدة وعظم شأنه، فقد تولى السلطنة ثلاث مرات، كسر جيش التتار في وقعة شقحب، وفتحت في أيامه الحصون والقلاع، أبطل الكثير من المكوس والمظالم، انظر ترجمته في: ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج ٢، ص ٣٢٥، ص ٢٣٠؛ المقريزي: السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٤٥٦؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٩، ص ٢١٠؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٦، ص ١٣٤.

وأبراجها<sup>(١)</sup>، وقد أمر السلطان بإصلاح وإعمار جميع ما تهدم من ماله الخاص<sup>(٢)</sup>، ومن اهتمامات الناصر بالثغر إعادة حفر خليج الإسكندرية، الذي تعطل بسبب تراكم الرواسب الطينية في مجراه، حيث بدأ العمل فيه عام (٧١٠هـ/—/١٣١٠م)، وقد حصل النفع به على أهالي الإسكندرية حيث استخدمت مياهه للشرب والسقيا، وزراعة الأراضي والبساتين على ضفتيه<sup>(٣)</sup>، وفي عهد السلطان الأشرف شعبان<sup>(٤)</sup> حول ولاية الإسكندرية إلى نيابة<sup>(٥)</sup>، وذلك بعد واقعة القبارصة، ثم زارها سنة (٧٧٠هـ/—/١٣٦٨م) حيث أشرف بنفسه على التحصينات والأسوار والخنادق، وإعادة تعمير ما هدمه القبارصة<sup>(٦)</sup>.

أما في عهد دولة المماليك البرجية فقد زارها السلطان فرج بن برقوق<sup>(٧)</sup>

(١) بيبرس الدوادر: التحفة المملوكية، ص ٢٨، ٣٢؛ ابن أبيك: كنز الدرر، ج ٩، ص ١٠٢؛ ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج ١، ص ٢٥٣؛ المقرئزي: السلوك، ج ١، ق ٣، ص ٩٤٤؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج ٤، ص ١٤٥؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج ١، ق ١، ص ٤١٦.

(٢) العيني: عقد الجمان، ج ٤، ص ٢٦٥.

(٣) النويري السكندري: الإمام، ج ٣، ص ٢٤٩؛ المقرئزي: الخطط، ج ١، ص ١٧١؛ حماد: الإسكندرية في عصر سلاطين المماليك، ص ١٠٩.

(٤) هو الملك الأشرف علاء الدين كجك بن الملك الناصر محمد ابن قلاوون، تولى أمر السلطنة بعد عزل أخيه المنصور ولكن لم يدم له الملك طويلا حيث خلع بعد خمسة أشهر من توليته أمور السلطنة سنة (٧٤٢هـ/—/١٣٤١م)، لمعرفة المزيد عن ترجمته انظر: ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج ٣، ص ٢، ج ٢، ص ٢٦، ص ٣٢٣؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ١٠، ص ١٦؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج ٢، ص ٧٧.

(٥) انظر خريطة لمدينة الإسكندرية في عهد الأشرف شعبان بالملاحق ص ٦٢٠.

(٦) النويري السكندري: الإمام، ج ٦، ص ٥؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ٣٠؛ السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الإسكندرية، ص ٣٥٢.

(٧) هو السلطان الناصر أبو السعادات، فرج ابن السلطان برقوق، تولى السلطنة سنة (٨٠١هـ/—/١٣٩٨م) وكان ملكا كريما، إلا أنه كانت فيه حدة وميل لسفك الدماء، قتل من قبل المؤيد شيخ الذي تولى السلطنة من بعده، وذلك في سنة (٨١٥هـ/—/١٤١٢م)، ولم يتجاوز عمره

سنة (٨١٤هـ/٤١١م)، وأبطل بعض المكوس، وخفف بعض الضرائب<sup>(١)</sup>،  
 فقد ذكر ابن حجر في حوادث سنة (٨١٤هـ/٤١١م) أن السلطان الناصر فرج:  
 (في حال إقامته بالإسكندرية شكوا إليه المغاربة أنه يؤخذ منهم ثلث أموالهم في  
 المكس، ويؤخذ من الفرنج العشر، فغضب من ذلك، وأمر أن لا يؤخذ من المغاربة  
 إلا العشر، فشكر المسلمون له ذلك، فكانت حسنة من حسناته النادرة)<sup>(٢)</sup>، وقد  
 شهدت الإسكندرية أحداثا سياسية وعسكرية هامة في عهدي السلطان المؤيد  
 شيخ<sup>(٣)</sup> والأشرف برسباي<sup>(٤)</sup>، من خلال هجمات القبارصة والكتيلان<sup>(٥)</sup> على  
 سواحل مصر والشام، وخاصة الإسكندرية، وقد وضع برسباي حدا لذلك بمهاجمة  
 قبرص واستردادها، كما سيأتي بيانه إن شاء الله، كما اهتم برسباي بإعادة حفر  
 خليج الإسكندرية في زمن قياسي، فقد تم حفره في نحو تسعين يوما، وكان ذلك  
 في سنة (٨٢٦هـ/٤٢٢م)<sup>(٦)</sup>.

الخامسة والعشرين، انظر في ترجمته: الصيرفي: نزهة النفوس، ج ٢، ص ٣٠٨؛ ابن تغري  
 بردي: الدليل الشافي، ج ٢، ص ٥٢٠؛ السخاوي: الضوء اللامع، ج ٦، ص ١٦٨؛ الشوكاني:  
 البدر الطالع، ج ٢، ص ٢٦.

(١) ابن إياس: بدائع الزهور، ج ٤، ص ٤٣٦؛ السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الإسكندرية، ص ٣٨٦.

(٢) ابن حجر: إنباء الغمر، ج ٢، ص ٤٨٧.

(٣) هو أبو النصر الملك المؤيد شيخ المحمودي، كان ملكا مهابا، شجاعا، كثير الصدقات على  
 الفقراء وأهل العلم، له الكثير من المنشآت الجليلة، توفي سنة (٨٢٤هـ/٤٢١م)، انظر ترجمته  
 في: الصيرفي: نزهة النفوس، ج ٢، ص ٤٨٨؛ الشوكاني: البدر الطالع، ج ١، ص ٢٨٣.

(٤) هو السلطان الأشرف برسباي، أبو النصر، ساس الملك، ونالته السعادة ودانت له البلاد  
 وأهلها، كانت أيامه هدوءا وسكونا، وصف بالبخل والشح، له مآثر عظيمة كالمدارس وغيرها،  
 مات سنة (٨٤١هـ/٤٣٧م)، انظر ترجمته في: الصيرفي: نزهة النفوس، ج ٣، ص ٤٢١؛  
 الشوكاني: البدر الطالع، ج ١، ص ١٦١.

(٥) الكتيلان نسبة إلى كاتلونيا وهي منطقة شمالي أسبانيا عاصمتها برشلونة، انظر: القلقشندي:

صبح الأعشى، ج ٥، ص ٤٠٩؛ الموسوعة العربية الميسرة، ص ١٣٨٧.

(٦) الصيرفي: نزهة النفوس، ج ٢، ص ٢٨٩؛ المقرئ: الخطط، ج ١، ص ٣٢٠ : ٣٢١؛ السيد  
 عبد العزيز سالم: تاريخ الإسكندرية، ص ٣٩٠.

وقد زار الأشرف قايتباي<sup>(١)</sup> الإسكندرية مرتين الأولى سنة (٨٨٢هـ/٤٧٧م)، والثانية في سنة (٨٨٤هـ/٤٧٩م)، وقد أقام بها مدرسة وقلعة محل المنار القديم<sup>(٢)</sup>، ولعل خوف قايتباي من الدولة العثمانية كان السبب وراء إنشاء هذه التحصينات التي استخدمها وأنفق عليها ما يزيد على المائة ألف دينار، وبوفاة الأشرف قايتباي، كان طريق رأس الرجاء الصالح قد تم اكتشافه، وبدأ الخطر البرتغالي يهدد مدخل البحر الأحمر بهدف ضرب اقتصاد دولة المماليك بالحد من تجارتها مع موانئ الهند وجنوب شرق آسيا، وقد أثر هذا على مكانة الإسكندرية وازدهارها<sup>(٣)</sup>.

وقد زارها السلطان قانصوه الغوري<sup>(٤)</sup> سنة (٩٢٠هـ/١٥١٤م)، وكانت في غاية الترحل والخراب فاهتم بتحسينها ودخل قلعة قايتباي، وأقيمت بين يديه

---

(١) هو السلطان الأشرف قايتباي المحمودي، كان في أول أمره مملوكا ثم ترقى في الخدم حتى ثبت قدمه وتسلطن، كان محبا للعلم والعلماء، مقبلا على أفعال الخير، توفي سنة (٩٠١هـ/٤٩٥م)، انظر ترجمته في، الشوكاني: البدر الطالع، ج٢، ص٥٥.

(٢) السخاوي: الضوء اللامع، ج٥، ص٢٠٦؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج٣، ص٣١، ٧١، ١٥٦؛ السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الإسكندرية، ص٤٠٠، وانظر صور للقلعة بالملحق ص ٦١٥.

(٣) إبراهيم طرخان: مصر في عهد دولة الجراكسة، ص١٦٨، ٣٠٢؛ أحمد السيد دراج: المماليك والفرنج، ص١٣٢، ١٥٠.

(٤) هو السلطان قانصوه الغوري، أحد مماليك السلطان قايتباي، كان أميا لا يعرف شيئا، لأنه جلب من بلاده وهو كبير، وصار السلطان قايتباي يرقيه لكونه أخا لزوجته، كان قوي التدبير، شجاعا، قتل تحت سنايك خيل ابن عثمان، سنة (٩٢٣هـ/١٥١٧م)، انظر في ترجمته: ابن إياس: بدائع الزهور، ج٥، ص٥٦؛ القزي: الكواكب السائرة، ج٢، ص٢٩٥؛ الشوكاني: البدر الطالع، ج٢، ص٥٤.

بعض الاستعراضات العسكرية<sup>(١)</sup>، ثم زارها مرة ثانية سنة (٩٢١هـ/١٥١٥م) لتفقد تحصيناتها<sup>(٢)</sup>، وريدم أبراجها، حيث أرسل البنائين والحجارين لإعادة إعمار ما خرب منها، وذلك تحسبا لأي خطر قد يهددها من جهة البحر من أي قوة خارجية خاصة بعد أن ساءت العلاقات بينه وبين الدولة العثمانية<sup>(٣)</sup>، وفي العام التالي قام بتجديد أبراجها، زيادة لتحصين الإسكندرية، وأرسل مائتين من المدافع الحديد بالإضافة إلى مدافع صوان، وذلك حين بلغ مسامعه أن ابن عثمان جهز عدة مراكب لمهاجمة السواحل المصرية<sup>(٤)</sup>، ولما استولى العثمانيون على مصر المملوكية دخل السلطان سليم الأول عام (٩٢٣هـ/١٥١٦م) الإسكندرية وصى بها الجمعة، وكانت بها بعض الدور قائمة وما سواها خراب وأطلال<sup>(٥)</sup>.

(١) ابن إياس: بدائع الزهور، ج ٤، ص ٢٩٦؛ إبراهيم طرخان: مصر في عصر دولة المماليك، ص ٣١٢.

(٢) ابن إياس: بدائع الزهور، ج ٤، ص ٤٧٥.

(٣) رأى السلطان العثماني سليم الأول (ت ٩٢٦هـ/١٥٢٠م) أنه لا بد من توحيد المسلمين أمام البرتغاليين، فطلب من المماليك مساعدته على قتال الصفويين الشيعة الذين حرضهم الأوربيون على الدولة العثمانية تخفيفا من التوغل العثماني في أوروبا، فما كان من المماليك إلا أن وقفوا على الحياد أولا، ثم تحالفوا مع الصفويين بسبب الخلاف على إمارة (ذو قادر) عندما عين العثمانيون بالقوة حاكما مواليا لهم بدلا من الحاكم الموالي للمماليك، كل هذا أدى إلى توتر العلاقة بين المماليك والعثمانيين، والتي انتهت بإخضاع دولة المماليك للدولة العثمانية بدخول السلطان سليم الأول مصر وإعدام آخر سلاطين المماليك طومان بياي في عام (٩٢٣هـ/١٥١٧م). انظر في الخلاف بين المماليك والعثمانيين وأسبابه: محمود شاكر: التاريخ الإسلامي، ج ٧، ص ٨٨ - ٩١، ج ٨، ص ١٠٠ - ١٠٣؛ ناجلا محمد: العلاقات السياسية والاقتصادية بين مصر والبنديقية في عصر دولة المماليك الثانية، ص ١٥٥.

(٤) ابن إياس: بدائع الزهور، ج ٥، ص ١٤، ٩٤.

(٥) ابن إياس، بدائع الزهور، ص ١٦٣؛ السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الإسكندرية، ص ٤١٥، ويذكر المؤرخون أن سليم الأول العثماني انتصر على السلطان الغوري في موقعة مرج دابق سنة (٩٢٢هـ/١٥١٦م) ببلاد الشام، ثم واصل زحفه إلى الديار المصرية وانتصر على طومان بياي، آخر سلاطين المماليك الجراكسة، في معركة الريدانية سنة (٩٢٣هـ/١٥١٧م)، وبذلك طويت صفحة دولة المماليك الشراكسة، وانتقلت من مسرح التاريخ إلى كتبه، انظر:

هذا ولم يكن اهتمام المماليك بالثغر السكندري قاصرا على الزيارات التفقدية أو التحصينات الحربية والعمرائية بل تعداه إلى وضع التنظيمات الإدارية الخاصة بالثغر، ولعله من المناسب قبل الخوض في النظام الإداري لمدينة الإسكندرية إعطاء لمحة موجزة عن نظام الحكم في الدولة المملوكية عامة.

فقد كان النظام السائد في الدولة المملوكية هو نظام يعتمد على قوة السلطان، والذي هو أحد المماليك الذين بايعهم كبار الأمراء والمماليك ليكون سلطانا عليهم، ومع إحياء الخلافة العباسية في القاهرة صار الخليفة هو الذي يقلد السلطنة للسلطان، ويفوض له الصلاحيات<sup>(١)</sup>، ونادرا ما كان السلطان هو الخليفة<sup>(٢)</sup>، وإن كان قد نعى بعض المؤلفين على هذا العصر أن الخلافة فيه صورية، إلا أنه حتى السلطنة كانت أحيانا صورية لأن السلطان إنما يحتفظ بمنصبه من خلال قوة ممالিকে ومقدار إخضاعه لغيرهم من المماليك،

وكان السلطان يعتمد في إدارة شئون الدولة على كبار الموظفين الإداريين، وكان بمصر في ذلك العصر عدة دواوين<sup>(٣)</sup> حكومية يشرف كل منها على ناحية معينة من نواحي الإدارة العامة، وأهم هذه الدواوين: ديوان الإنشاء، الذي يتولى أمر العلاقات الخارجية وتحرير الرسائل إلى حلفاء السلطان<sup>(٤)</sup>، وديوان الخاص، ويدير الشئون المالية المتعلقة بالسلطان<sup>(٥)</sup>، وديوان

---

ابن إياس: بدائع الزهور، ج ٥، ص ٩٤ - ١٠٥؛ عبد العزيز الشناوي: الدولة العثمانية، ص ١٩؛ محمود شاكر: التاريخ الإسلامي، ج ٩، ص ٩٩.

(١) المقرئزي: السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٤٧٧.

(٢) وذلك كما حدث سنة (٧٧٨هـ/١٣٧٦م)، حيث تولى السلطنة الخليفة المتوكل على الله، بأمر من المماليك، السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص ٣٣٤.

(٣) الدراوين: جمع ديوان، وهي كلمة فارسية معناها سجل أو دفتر، وقد أطلق اسم الديوان من باب المجاز على المكان الذي يحفظ فيه الديوان، والديوان موضع لحفظ ما يتعلق بحقوق السلطنة من الأعمال والأموال ومن يقوم بها من الجيوش والعمال، انظر: الماوردي: الأحكام السلطانية، ص ١٩١.

(٤) العمري: التعريف بالمصطلح الشريف، ص ١٥١؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ج ١، ص ٩٥، ١١٣.

(٥) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ٣٠؛ السيوطي: حسن المحاضرة ج ٢، ص ٨٤.

النظر، ويشبه وزارة المالية، حيث يشرف على حسابات الدولة وعلى أرزاق الموظفين<sup>(١)</sup>.

وكانت المناصب الإدارية الكبرى هي: نيابة السلطنة<sup>(٢)</sup>، والأتابكية<sup>(٣)</sup>، والوزارة<sup>(٤)</sup>، وولاية القاهرة وولاية الأقاليم، وقد كانت الإسكندرية ولاية من ولايات الوجه البحري، يعين عليها والي من أمراء الطبلخانات<sup>(٥)</sup>، وذلك فيل أن تتحول إلى نيابة سنة (٧٦٧هـ/١٣٦٥م)، ويعود تحويلها إلى نيابة لعدة أسباب لعل من أهمها، وقعة القبارصة على المدينة، وأيضا لما وصلت إليه المدينة من مكانة اقتصادية، حيث أصبحت في العصر المملوكي من أهم مراكز التجارة على البحر الأبيض، وعين لها نائب اختير من الأمراء المقدمين<sup>(٦)</sup>، وتمتع بما كان يتمتع به نواب السلطنة في طرابلس وحماة وصفد من نفوذ وعظمة، ثم ما لبث أن أصبحت مرتبته توازي مرتبة نائب السلطنة بمصر<sup>(٧)</sup>، وكان أول من تولى وظيفة نائب

(١) العمري: التعريف بالمصطلح الشريف، ص ١٤٩؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ٣٠؛ المقرئزي: الخطط، ج ٣، ص ٢٢٤.

(٢) كان يتولاها نائب السلطنة، ومن أعماله توقيع المراسيم والمنشورات وتنفيذ القوانين، وتعيين الموظفين، انظر: السبكي: معيد النعم، ص ٣٤؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ١٧.

(٣) كان يتولاها الأتابك، وهو القائد العام للعساكر، انظر: القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ١٨.

(٤) كان يتولى منصب الوزارة؛ الوزير أو صاحب وهو الذي ينظر في شئون الدولة ويقوم بتصريف أمورها، انظر: القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ٣٨.

(٥) الطبلخاناه: (كرتبة) هي درجة من درجات الإمارة، ومن أمراء الطبلخاناه تكون الرتبة الثانية من أرباب الوظائف والكشاف وأكابر الولاة، وعدة كل منهم في الغالب أربعون فارسا، وتطلع الطبلخاناه على بيت الطبل ويشمل على الطبول والأبواق وتوابعها من الآلات، القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ١٣، ١٥.

(٦) يقصد بذلك أمير مائة مقدم ألف، وهي أكبر رتب الأمراء في عصر سلاطين المماليك، ولصاحبها الحق في أن يمتلك مائة مملوك ويقود ألفا في حالة الحرب، انظر: سعيد عاشور: العصر المماليكي في مصر والشام، ص ٤١٥.

(٧) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٣، ص ٤٠٤، ج ٤، ص ٢٤.

الإسكندرية، الأمير بكتسر الشريف<sup>(١)</sup>، وقد أنعم عليه السلطان بإمارة مائة وتقدمة ألف، وعظم قدر نائبها وصار يسمى ملك الأمراء<sup>(٢)</sup>، وقد كان هناك سياسيون وإداريون يعاونون النائب، منهم ناظر الثغر<sup>(٣)</sup>، وحاجب أمير عشرة<sup>(٤)</sup>، وحاجب جندي، وأجناد حلقة<sup>(٥)</sup> والوالي<sup>(٦)</sup>، وناظر الصادر<sup>(٧)</sup>، وناظر الخاص<sup>(٨)</sup>.

(١) هو بكتمر بن عبد الله المؤمني، الأمير سيف الدين، كان ذا مهابة ومعرفة وتدبير ودهاء، تدرج في الوظائف، حتى ولى نيابة الإسكندرية، ثم ولى نيابة حلب، ثم صار بعد ذلك أمير آخور بالديار المصرية إلى أن توفي سنة (٧٧١هـ/١٣٦٩م)، ابن حجر: الدرر الكامنة، ج ٢، ص ٢١؛ ابن تغري بردي: المنهل الصافي: ج ٣، ص ٣٩٧.

(٢) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ٣٠؛ السيد سالم: تاريخ الإسكندرية، ص ٣٥٤.

(٣) ناظر الإسكندرية: وظيفته موضوعها التحدث في الأموال السلطانية بالإسكندرية مما يتحصل من المأخوذ من تجار الفرنج، وسائر المتاجر الواصلة برا وبحرا بالقبض والصرف والحمل إلى الأبواب السلطانية، انظر القلقشندي: صبح الأعشى، ج ١١، ص ٤١٩.

(٤) الحجوبية: موضوعها أن صاحبها ينصف بين الأمراء تارة بنفسه وتارة بمراجعة النائب، انظر: صبح الأعشى، ج ٤، ص ٢٠، وأمير عشرة: مرتبة حزبية يكون في خدمة صاحبها عشرة فوارس، ومن هذه الطبقة يكون صغار الولاة ونحوهم من أرباب الوظائف، انظر: القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ١٥، ٢٢.

(٥) هم طائفة من الجنود النظامية، تتكون من محترفي الجندية من مماليك السلاطين السابقين وأولادهم، وهي جيش الدولة الذي لا يتغير بتغير السلطان، انظر: القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ١٦؛ المقرئ: الخطط، ج ٢، ص ٢١٥.

(٦) الوالي: وظيفته نشر العدل بين الرعية، ومعاملتهم معاملة حسنة، والعمل على استتباب الأمن وإقامة الحدود، والحث على الجهاد، القلقشندي: صبح الأعشى، ج ١١، ص ٥٩.

(٧) ناظر الصادر: وظيفة موضوعها التحدث في قدر مقرر يؤخذ من تجار الفرنج الواردين إلى الإسكندرية، وعليه مرتبات لناس مخصوصين من أهل العلم والصلاح ينفق عليهم بمقادير معلومة من متحصل هذه الجهة، القلقشندي: صبح الأعشى، ج ١١، ص ٤١٦.

(٨) ناظر الخاص: هو لقب من يتولى وظيفة نظر الخاص، وهي وظيفة محدثة، أحدثها السلطان الناصر محمد حين أبطل الوزارة، وصاحبها ينظر في خاص أموال السلطان، وقد صار كالوزير لقربه من السلطان، انظر: القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ٣٠، ج ٥، ص ٤٦٥.



والقضاة، والمحتسب، وناظر دار الطراز<sup>(١)</sup> ونائب وكيل بيت المال<sup>(٢)</sup>، وغير ذلك.

ويصف لنا القلقشندي موكب نائب الإسكندرية، فيقول: (وعادة الخدمة السلطانية بها في أيام المواكب أن يركب نائب السلطنة من دار النيابة وفي خدمته مماليكه، وأجناد المائتين المتقدم ذكرهم، ويخرج من دار النيابة عند طلوع الشمس، ويسير في موكبه والشبابة السلطانية بين يديه، حتى يخرج من باب البحر، ويخرج الأمراء المركزون على حدتهم أيضا، ويجتمعون في الموكب، ويسيرون خارج باب البحر ساعة ثم يعودون، ويتوجه النائب إلى دار النيابة في مماليكه وأجناد المائتين، وقد فارقه الأمراء المركزون، وتوجه كل منهم إلى منزله، فإذا صار إلى دار النيابة، فإن كان في ذلك الموكب سماطا، وضع الكرسي في صدر الإيوان مغشي بالأطلس الأصفر، ووضع عليه سيف بنمجاه، سلطانية<sup>(٣)</sup>، ومد السماط تحته، وأكل مماليك النائب وأجناد المائتين، وجلس النائب بجنبه من الإيوان، والشباك مقل على ميناء البلد، ويجلس القاضي المالكي عن يمينه والقاضي الحنفي عن يساره، والناظر تحته، والموقع بين يديه، ورؤوس البلد على قدر منازلهم، وترفع القصص فيقروها الموقع، على النائب فيفصلها بحضرة القضاة، ثم ينصرف الموكب)<sup>(٤)</sup>

(١) ناظر دار الطراز: وظيفة موضوعها كسوة الكعبة والأقمشة السلطانية والتفاصيل المنقوشة والخلع والتشريف، ومن مهام صاحبها أن يصون ذهبها عند صرفه وقبضه، وأن يستجلب رجالها وصناعها ويستجد أصنافها وأنواعها ويتفقد أحوالها وأماكنها، القلقشندي: صبح الأعشى، ج ١١، ص ٤٢٥، ج ١٢، ص ٣٩٤.

(٢) بيت المال: وظيفة دينية موضوعها مبيعات بيت المال ومشترواته من أرض ودور وغير ذلك ولا يليها إلا أهل العلم والديانة ومجلسه بدار العدل، القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ٣٧، ص ٦٣، ج ١١، ص ٤٠، ٥٧، ٤٢٥.

(٣) النمجة السلطانية: خنجر مقوس شبه السيف القصير، وهو معرب من اللفظ الفارسي (تيمجة)، القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ٢٤.

(٤) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ٦٣ - ٦٤.

ويلى وظيفة نائب الإسكندرية من حيث الأهمية ، ناظر الثغر، فهو يباشر  
تحصيل أموال الثغر، وتنمية متاجره، والنظر في أحوال التجار، وكان للناظر  
مجلس يعقده لبحث القضايا والمشكلات المتعلقة بمجال اختصاصه<sup>(١)</sup>، وكان  
يساعده في المجلس متولي الثغر الذي تعتبر وظيفته من الدرجة الثانية من حيث  
التسلسل الإداري الوظيفي، ومهمته العمل على استتباب الأمن ، و الاهتمام بشؤون  
جنده ليكونوا على أهبة الاستعداد لمواجهة أي خطر قد يهدد المدينة، و كذلك من  
مهامه إقامة الحدود ونشر العدل بين الناس، والمحافظة على أنفس وبضائع  
التجار<sup>(٢)</sup>.

ولقد شهدت الإسكندرية في عصر سلاطين المماليك أحداثا سياسية هامة  
واتصالات دبلوماسية شتى، كما شهدت أيضا معارك بحرية ضارية، وغارات  
وحشية مستهدفة.

أما فيما يختص بالأحداث السياسية والاتصالات الدبلوماسية، فقد كان على  
سلطنة المماليك وهي إحدى قوى البحر المتوسط ذات السيطرة على أهم طرق  
التجارة بين الشرق والغرب، أن يكون لها اتصالات سياسية بالدول الأوربية ذات  
المصالح التجارية والسياسية في البحر المتوسط، وقد لعبت الإسكندرية دورا مهما  
ورئيسيا في رسم السياسات الخارجية وتوقيع المعاهدات الدولية والإتفاقات  
التجارية بين دولة المماليك والدول الأخرى، من ذلك أن قام المنصور قلاوون  
وابنه الأشرف خليل قاما بإعطاء امتيازات وتوقيع معاهدات مع المدن التجارية  
الأوربية<sup>(٣)</sup>.

وبرغم المصالح التجارية التي كانت تحكم سير العلاقات بين المماليك  
والمدن التجارية الأوربية، فقد ظل الصراع واضحا بين المماليك والصليبيين  
طيلة حكم المماليك البحرية نتيجة للحملات الصليبية على الشرق الأدنى، وقيام  
الإمارات الصليبية في فلسطين وساحل بلاد الشام، في الفترة الزمنية السابقة لدولة

(١) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ١١، ص ٤٠.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ١١، ص ٥٧.

(٣) أناجلا محمد: العلاقات السياسية والاقتصادية بين البندقية ومصر، ص ٢١١.

المماليك أي في (الدولة الأيوبية)، ولقد منى الصليبيون بكثير من الهزائم الساحقة كانت معركة حطين بدايتها<sup>(١)</sup>، ثم توالى تلك الهزائم في خلال عهد المماليك البحرية حتى تم تصفية الإمارات الصليبية وطرد الصليبيين نهائيا من فلسطين<sup>(٢)</sup>. وقد قطعت الكنسية شوطا كبيرا في إذكاء نار الكراهية ضد دولة المماليك في مصر والشام مهددة بتوقيع قرارات الحرمان على كل من يقوم بالاتجار مع الدولة المملوكية، وعملت على إعداد بعض السفن وتسليحها لمراقبة تنفيذ الحظر الاقتصادي الذي فرضته على الاتجار مع موانئ دولة المماليك في مصر والشام. وقد بدأ هذا انحظر الاقتصادي واضحا، ولاسيما بعد سقوط عكا على يد السلطان خليل بن قلاوون في عام (٦٩١هـ/١٢٩١م) حيث سارع البابا نيقولا الرابع بإصدار قرار تحريم التجارة مع البلدان الخاضعة للسلطان، وتأييد هذا القرار من قبل مجلس الشيوخ بالبندقية (السناتو)، وساند ذلك الملك هنري لوزينان (HENERY LOZJENAN) الثاني ملك قبرص بالمشروع الذي تقدم به للبابا كلفت الخامس والذي ينص على أن يكون الأسطول الصليبي المكلف بالحصار مستقلا عن نفوذ ملك الجمهوريات التجارية الإيطالية، والتي تشكك هنري في ولائها للحركة الصليبية<sup>(٣)</sup>.

- 
- (١) لمعرفة التفاصيل عن انتصارات صلاح الدين في معركة حطين انظر: الاصفهاني: الفتح القسى في الفتح القدسي، ص ٧٧؛ ابن الاثير: الكامل في التاريخ؛ ج ١١، ص ٥٣٣-٥٣٧.
- (٢) لمعرفة المزيد عن جهود صلاح الدين في طرد الصليبيين من بلاد الشام وفلسطين انظر: العماد الاصفهاني: الفتح القسى في الفتح القدسي، ص ٦٥؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٢، ص ١٨٩؛ السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص ٩١؛ عبد الله الغامدي: صلاح الدين والصليبيين، الفصل الثالث والرابع والخامس.
- (٣) سعيد عاشور: الحصار الاقتصادي على مصر زمن الحروب الصليبية، ضمن بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى، ص ١٥٥؛ عفاف صبره: العلاقات بين الشرق والغرب، ص ٩٩.

ولكن هذا الحصار لم يدم طويلا، لأن مصالح الجمهوريات الإيطالية (كالبندقية، وجنوة)، والممالك الأسبانية (كأرغون وقشتاله) تعارضت مع هذا الحصار فعملوا على إلغائه، أو عدم تطبيقه<sup>(١)</sup>.

كما أن الدولة المملوكية من جانبها أعطت تسهيلات ومنحت امتيازات للتجار الفرنج ورحبت بهم في بلادها كما أوضحنا سابقا، كل ذلك دفع الكنيسة إلى إحياء فكرة مهاجمة مصر عسكريا لكن الظروف لم تساعد على تقوية المماليك، والروح الجهادية العالية التي تمتع بها المسلمون والذين ضربوا أروع الأمثلة في الجهاد مع الصليبيين.

ومن هنا قام الفرنج بتحويل النظر إلى الضربات الخاطفة والقرصنة البحرية وتخريب الموانئ المملوكية<sup>(٢)</sup>، فتوالت غارات القراصنة الكتلان والاسبتارية<sup>(٣)</sup> ورودوس وقبرص وغيرهم على السواحل والثغور الشامية والمصرية، وكانت الإسكندرية في كثير من الأحيان مسرحا لتلكم الهجمات الشرسة، خاصة من قبل القبارصة، حيث كانت المشكلة القبرصية من كبريات المشاكل السياسية والعسكرية التي واجهت الإسكندرية خلال عقود من دولة المماليك، وكانت لها التأثيرات السلبية على النواحي الاقتصادية والاجتماعية

(١) المقريري: السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٣٣٣؛ أحمد دراج: المماليك والفرنج، ص ٧؛ حياة حجي: العلاقات بين سلطنة المماليك والمماليك الأسبانية، ص ٣٥٤.

(٢) سعيد عاشور: بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى، ص ١٥٧.

(٣) الاسبتارية: من الطوائف الدينية العسكرية ففي سنة (٤٦٥هـ/١٠٧٠م) أنشأت جماعة من الأماقيين اشتهروا بـ"تنقري" والصلاح دارا ببيت المقدس لينزل بها الحجاج والفقراء بعد أن أخذوا إذنا بذلك من والي الخليفة الفاطمي على بيت المقدس، وكان القائم عليهم رجل يدعى (جيرار)، استطاع أن يجمع من حوله الاتباع خاصة الحجاج الصليبيين، وكانت هذه الطائفة لا تخضع سوى للبابا في روما والذي وهبها الهبات الكثيرة، وتطورت هذه الطائفة مع الوقت والإمكانات إلى أن أصبحت من أهم واجباتها إعداد الفرسان الذين وهبوا أنفسهم للقتال، وجعلوا شارتهم قطعة من النسيج الأبيض برسم الصليب فوق سترتهم التي يختفي تحتها السلاح. انظر عن هذه الطائفة، العريني: الشرق الأوسط والحروب الصليبية، ج ١، ص ٣٥٧ - ٣٥٩.

بالمدينة، ومن ثم انعكس ذلك على الحياة العلمية بها، ولم تنته هذه المشكلة إلا بعد فتح قبرص في عهد السلطان برسباي، في أواخر دولة المماليك الجراكسة.

**فلقد كانت قبرص قبل سقوط عكا<sup>(١)</sup> في أيدي المسلمين معقلا هاما للصليبيين الغربيين، توجه منها الحملات على الشرق الإسلامي، وكان يتولى حكمها أسرة لوزينان الفرنسية، وظلت مناوشات القبارصة للإسكندرية مستمرة<sup>(٢)</sup> حتى كانت الواقعة المشهورة عام (٧٦٧هـ/١٣٦٥م)، حيث كان السلطان الأشرف شعبان وقت وصول الحملة ما زال صبيبا عمره (١٣) سنة<sup>(٣)</sup>، وكانت السلطنة في يد الأتابك يلغا العمري الخاصكي<sup>(٤)</sup>، والذي لم يأل جهدا في الاستبداد بشئون الدولة، وارتكب من الفظائع وضروب العسف والاستبداد ما أشاع الفوضى في البلاد<sup>(٥)</sup>، وكانت البلاد لا تزال تعاني من آثار الطاعون الذي أصابها في سني (٧٥٤، ٧٦١، ٧٦٣، ٧٦٤)، ومات بسببه عدد كبير من السكان<sup>(٦)</sup>، كما كان متولي الثغر صلاح الدين خليل بن عرام وقتها يؤدي فريضة الحج<sup>(٧)</sup>، وكان**

(١) سقطت عكا في أيدي المسلمين عام (٦٩٠هـ/١٢٩١م)، وكانت آخر معقل من معاقل الصليبيين في الشام، انظر: المقرئزي، السلوك، ج ١، ق ٣، ص ٧٦٥؛ رنسمان كتاريخ الحروب الصليبية، ج ٣، ص ٦٩٧.

(٢) مثال ذلك ما حدث سنة (٦٦٨هـ/١٢٦٩م)، حيث أتت مراكب قبرص إلى ميناء الإسكندرية واستولت على مركبين من مراكب المسلمين، كما تكرر هذا الاعتداء عندما أغارت اثنا عشر مركبا للقبارصة على الإسكندرية فما كان من الظاهر بيبرس سوى أن استدعى بعض زعماء الصليبيين بالشام وعاتبهم عتابا شديدا لغدر صاحب قبرص، انظر: ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٧، ق ١٣، ص ٢٧١؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ١٤٩.

(٣) السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الإسكندرية، ص ٣٠٩.

(٤) انظر: حامد غانم: الأزمات والأوبئة في عصر المماليك.

(٥) سعيد عاشور: قبرص والحروب الصليبية، ص ٦٢؛ الشيبال: الإسكندرية في العصرين الأيوبي والمملوكي، ص ١٠٠؛ وليم موير: تاريخ دولة المماليك في مصر، ص ١٠٦.

(٦) انظر: حامد غانم: الأزمات والأوبئة في عصر المماليك، ص ٤٦.

(٧) سعيد عاشور: العصر المماليكي، ص ١٣٢.

ينوب عنه الأمير جنفرا، ولم يكن على الأهلية التي كانت لابن عرام، فاغتر بصور الحراس الذين كانوا يحرسون الثغر، وكانوا يهتمون بمظاهرهم وأناقتهم، واشتغلوا بذلك عن أداء دورهم على الوجه المطلوب، إضافة إلى ضعف دفاعات المدينة من الجهة الشرقية، فالأسوار لم يكن بها مدافعون أكفاء ولا يحيط بها خنادق، تمنع العدو من التسلق<sup>(١)</sup>.

وعندما ظهرت مراكب القبارصة في صباح الخميس من المحرم سنة (٧٦٧هـ/١٣٦٥م) أمام سواحل الإسكندرية، بدأ أهل الثغر بالاستعداد لمواجهة القبارصة، غير مكثرين بهم، فقد خدعتهم دعاية أن قوتهم لا تقهر، أما القبارصة فقد أرسلوا الجواسيس لمعرفة مدى تحصينات المدينة، فاطلعوا عن قرب عن مدى ضعف تحصينات المدينة واستخفاف الأهالي بسفهم<sup>(٢)</sup>، كما أنهم لم يصغوا لنصيحة أحد تجار المغاربة بالتحصين بالأسوار حتى وصول النجدة من القاهرة، بل نزلوا إلى الساحل بغير عدة كافية، وبدنوا أول سفن القبارصة من المدينة تصدى لها المغاربة، ولم يكن ثم تنسيق بينهم وبين رماة النفط، فسرعان ما قضى عليهم وتقدم القبارصة وهم كما يقول النويري: (يلبسون الحديد من المفروق إلى القدم والمسلمين كلحم على وضم فكيف يقاتل اللحم الحديد، وكيف يبرز العاري لمن كسى الزرد النضيد)<sup>(٣)</sup>، وقد أدى تدافع الناس نحو أبواب المدينة إلى هلاك الكثير منهم، بينما آثر البعض منهم القتال والاستشهاد، ولما رأى جنفرا الهزيمة المحققة وكان قد أصيب بسهم فدخل المدينة من باب الخوخة وأتى إلى بيت المال وحمل ما فيه من الذهب والفضة خشية أن يقع غنيمة في أيدي

(١) النويري السكندري: الإمام، ج ١، ص ١١٢، ١٣٣؛ السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص ٢٩١.

(٢) النويري السكندري: الإمام، ج ١، ص ٣٢٥: ٣٣٥؛ العبادي: تاريخ البحرية الإسلامية، ص ٣١٢.

(٣) النويري السكندري: الإمام، ج ٢، ص ١٤٣.

القبارصة، ثم أمر باعتقال تجار الصليبيين وقناصلتهم بالمدينة، وكان عددهم خمسين رجلاً<sup>(١)</sup>.

وعندما دخل القبارصة الإسكندرية نهبوا متاجرها وخاناتها وأسواقها حتى امتلئت سفنهم بالبصائع والمتاع والذخيرة<sup>(٢)</sup>، ولم يكتفوا بذلك بل قاموا بحرق المساجد والمدارس<sup>(٣)</sup>، وقتلوا الناس في الدور والحمامات والشوارع والخانات بحيث بلغ عدد القتلى نحو من أربعة آلاف شخص، ثم حملوا معهم الغنائم واستاقوا نحواً من خمسة آلاف أسير، وخرجوا من المدينة بعد ثمانية أيام<sup>(٤)</sup>، ويصور لنا النويري السكندري جزءاً من هذه المأساة بقوله: (إن الفرنج كانوا يذبجون المرأة ويذبجون ولدها على صدرها، وقيل إنهم كانوا يجذبون الصبي الصغير بين اثنتين فيتقطع ويتمزق، وقيل: يضربون الصغار في الحيطان فيهلكون)<sup>(٥)</sup>، كما ذكر أن عدداً من المتطوعة بلغ الثلاثين رجلاً، لما حوصروا في رباط ابن سلام ونفذت سهامهم سعد إليهم الصليبيون، وذبحواهم عن آخرهم بخناجرهم، فصارت أدميتهم تجري من ميازيب الرباط كجري الأمطار حين نزولها<sup>(٦)</sup>.

ولما وصلت النجدة من القاهرة، واستقبلها متولي الإسكندرية ابن عرام ومعه يلبيغا الخاصكي الذي بكى من هول ما رآه، فحمله الألم على الثأر من

(١) النويري السكندري: الإمام، ج ٢، ص ١٥٤ — ١٥٥.

(٢) ابن خلدون: العبر، ج ٥، ص ٤٥٤ — ٤٥٥.

(٣) سعيد عاشور: العصر المماليكي في مصر والشام، ص ١٣٢.

(٤) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ٢٩.

(٥) النويري السكندري: الإمام، ج ٢، ص ٣٠٧.

(٦) النويري السكندري: الإمام، ج ٢، ص ١٥٠ — ١٥١. ويبدو أن ما ذكره النويري ليس بالأمر المستغرب على مثل هؤلاء الصليبيين الحاقدين على الإسلام وأهله، فهذا هو دأبهم ونهجهم ضد المسلمين في كل مكان وزمان، وفضائحهم في البوسنة والهرسك وكوسوفا والشيشان، وبلدان شتى كثيرة تؤكد على ذلك.

العدو، فتهيأ لعمارة المراكب وجمع الأسلحة، وآلات الحرب، ومصادرة جميع أموال النصارى والرهبان بالديار المصرية، وجمع من ذلك أموالاً طائلة<sup>(١)</sup>.

ونستطيع أن نؤكد من مجريات هذه الحوادث، أن بطرس لوزينان (PIETRO LOZJNAN) لم يكن هدفه تملك مصر أو الإسكندرية لأنه يعلم أن القبارصة مهما بلغت درجة انتصارهم في الإسكندرية، ومهما حققوا من مكاسب، فإنهم لن يستطيعوا الصمود أمام العساكر المصرية.

وإنما استهدف من ذلك: إرهاب سلاطين المماليك، وإشعارهم بالخزي والعار أمام الرأي العام الإسلامي، وإضعاف هيبة مصر في الداخل والخارج، وبت روح الهزيمة في قلوب المسلمين، وممارسة نوع من الضغط على حكام دولة المماليك عن طريق المساومة بالأسرى الذين شحنوا بهم سفنهم إلى قبرص، كما أن من أهدافهم الإطاحة بالاقتصاد المملوكي بنهب السلع والبضائع المكسدة باللنجر وبايقاع الفتنة بين المماليك والبنادقة<sup>(٢)</sup>.

وعليه يمكن القول إن ما قام به القبارصة لا يعدو كونه مجرد قرصنة بحرية استهدفت سواحل الإسكندرية، وهذا ما أكده النويري السكندري والذي ذكر أن ملوك أوروبا وجهوا اللوم لملك قبرص قائلين له: ( أن الذي فعلته هو فعل اللصوص، لا فعل الملوك كنت لما ملكتها أقممت بها، وناضلت عنها، كما فعلت الجنوبية بطرابلس الغرب، ولكنك دخلتها لصاً وخرجت منها لصاً، وذلك لعدم قدرتك على مقابلة جيش مصر)<sup>(٣)</sup>.

(١) النويري السكندري: الإمام، ج ٢، ص ٢٠٨؛ سعيد عاشور: العصر المماليكي، ص ١٣٣؛ قبرص والحروب الصليبية، ص ٦٩.

(٢) سعيد عاشور: قبرص والحروب الصليبية، ص ٦٠؛ السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الإسكندرية، ص ٣١٨.

(٣) النويري السكندري: الإمام، ج ٢؛ سعيد عاشور: العصر المماليكي في مصر والشام، ص ١٣٣؛ سعاد ماهر: البحرية في مصر الإسلامية، ص ١٢١.



أما على المستوى الداخلي، فقد تحولت الإسكندرية من ولاية إلى نيابة، وقام ابن عرام بتحسين المدينة وشحنها بالرجال والعتاد<sup>(١)</sup>، وإن كان ذلك أفادها من الناحية العسكرية، إلا أن ذلك لم يرجع لها نشاطها التجاري ولا مكائنها الاقتصادية، فمنذ ذلك الوقت أخذ نجم الإسكندرية التجاري في الأفول، وقد علق المقريري على هذه الحالة بقوله: ( وكانت هذه الواقعة من أشنع ما مر بالإسكندرية من الحوادث، ومنها اختلت أحوالها، واتضع أصلها، وقلت أموالهم وزالت نعمهم)<sup>(٢)</sup>.

أما من الناحية الاجتماعية، فقد خلفت هذه الواقعة الكثير من الأرامل والأيتام والعجزة بالإضافة إلى آلاف الأسرى<sup>(٣)</sup>، وقد أدى هذا إلى تعاطف المسلمين في المغرب مع اخوانهم في المشرق الإسلامي، من ذلك أن الغني بالله محمد بن إسماعيل سلطان مملكة غرناطة بالأندلس قام بالهجوم على بعض مدن الأندلس ومنها مدينة جيان<sup>(٤)</sup> وطاف المسلمون في شوارع غرناطة يهتفون بعبارة (يا لثارات أهل الإسكندرية)<sup>(٥)</sup>.

وفي المشرق صادر الخان المغولي أويس بن الشيخ حسن ببغداد، منسوجات حملها طائفة من الصليبيين إلى مدينة توزين<sup>(٦)</sup> في سنة (٧٦٧هـ/١٣٦٥م)، وكان من جملتها أقمشة مخيطة وغير مخيطة مما نهبهه

(١) سعيد عاشور: قبرص والحروب الصليبية، ص ٦٩.

(٢) المقريري: السلوك، ج ٣، ق ١، ص ١٣٥.

(٣) لقد كان من ضمن الأسرى حرائر، منهن من عاد من الأسر، ومنهن من بيع في سوق الرقيق، ويؤكد ذلك الجبرتي بقوله: (إن الفرنساوي الذي يكون في أذنه قرط أمه أصلها من النساء المأسورات في تلك الواقعة)، انظر: تاريخ عجائب الآثار، ج ١، ص ٣٥.

(٤) جيان: مدينة مشهورة بالأندلس، في شرقي قرطبة، وتجمع قرى كثيرة، ينسب لها عدد من العلماء، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ١٨٥؛ الحميري: الروض المعطار، ص ١٨٣.

(٥) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٦، ص ٥٥١؛ العبادي: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، ص ٤٤٥.

(٦) توزين أو تيزين: بلدة من أرض حلب، صفي الدين البغدادي: مرصد الاطلاع، ج ١، ص ٢٨١.

القبارصة من الإسكندرية، وباعوها لتجار صليبيين، ثم أمر بالحوطة غلى أموالهم وقتالهم عن آخرهم وكانوا نحو ثمانمائة شخص (١).

وتحدث إمام جامع دمشق في خطبة الجمعة عما اقترفه القبارصة من الجرائم في الإسكندرية فتباكى الناس كثيرا، وصدر المرسوم من مصر إلى نائب السلطنة بدمشق بالقبض على النصارى والفرنجة دفعة واحدة، وإيداعهم في الحبوس بالقلعة وأن يصادر ربع أموالهم لعمارة ما خرب من عمران الإسكندرية، ولعملرة مراكب لغزو الفرنج، ونودي بالبلاد ألا يعامل الفرنج البنادقة والجنوبيين والكتيلان (٢).

وأما على مستوى الغرب الأوروبي، فعلى الرغم من ابتهاج أهله لهذه الواقعة ومبادرة البابوية بتهنئة صاحب قبرص، ومطالبة دول أوروبا بتقديم العون والمساعدة إلى (الأسد الشجاع) ملك قبرص على حد تعبيرها، إلا أن الجمهوريات الإيطالية لم تكن على نفس الموقف، بل استتكرت هذه الواقعة أشد استتكار خوفا على مصالحها التجارية وحدث بالفعل أن أرسلت البندقية وفدا إلى السلطان الملك الأشرف شعبان تؤكد أن السفن التي هاجمت الإسكندرية ليس لها علاقة بالبندقية، إلا أن السلطان أمر بإيقاف التعامل مع البنادقة أو غيرهم حتى يتم الثأر من القبارصة، وتوجه التجار البنادقة إلى قبرص يطلبون من ملكها وقف الغارات على مصر والشام وتعهدوا لبطرس بدفع الأموال التي أنفقها على حملة جديدة، كان يريد تسيرها إلى بيروت على أن يقوم بالصلح مع المماليك، ولكن مفاوضات الصلح تعثرت مرارا، رغم وساطة البنادقة وغيرهم بسبب غارات القبارصة على سواحل الشام التي لم تأت بنتائج لأن المسلمين كانوا على أهبة الاستعداد في جميع الثغور (٣).

(١) النويري السكندري: الإمام، ؛ السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الإسكندرية، ص ٣٤٧.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٧، ق ١٤، ص ٣٣٨.

(٣) سعد عاشور: قبرص والحروب الصليبية، ص ٧٠؛ السيد عبد العزيز سالم: تاريخ

الإسكندرية، ص ٣٤٨؛ تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص ٣٠٤.

وفي عام (٧٧٠هـ/١٣٦٩م) أغار القبارصة مرة ثانية على الإسكندرية، ولكن هيهات فالمؤمن لا يلدغ من حجر مرتين، فإن المدينة كانت قد استعدت استعداداً حربياً، وكان من بين قوادها البحريين (إبراهيم التازي)، رئيس دار الصناعة بالإسكندرية، وكان ماهراً في الحروب البحرية مما أفسد على القبارصة خطتهم وأصابتهم سهام المسلمين، فرجعوا خائبين يرمون قتلاهم في البحر، ويدأون جرحاهم<sup>(١)</sup>.

وعندما سيطر الجنويون على قبرص سنة (٧٧٥هـ/١٣٧٣م) بعد صراع مرير مع حكامها<sup>(٢)</sup>، استمرت القرصنة الصليبية على ثغر الإسكندرية، ولما زاد التنافس بينهم وبين البنادقة بدأوا يغيرون على سواحل الشام ومصر ومعهم الكتيلان وأهل رودوس والقبارصة<sup>(٣)</sup>، ومع أنهم بادروا بمصالحة السلطان برقوق<sup>(٤)</sup> سنة (٧٨٨هـ/١٣٨٤م)، إلا أن ذلك لم يمنعهم من الاستمرار في أعمال القرصنة، فقاموا بمهاجمة سفن جماعة من التجار كانوا قادمين من بلاد الشام ومعهم أخت الملك الظاهر برقوق وبعض أقاربه، وأخذوا المراكب وأشروا من فيها. فأمر السلطان جميع نواب السلطنة بالبلاد الساحلية بالقبض على جميع من عندهم من تجار الصليبيين وغيرهم، ونفذ نائب الإسكندرية ذلك بدقة حتى أضطره الجنويون إلى إطلاق سراح الأسرى ورد والأمتعة وما نفق منها فلس واحد<sup>(٥)</sup>.

(١) النويري السكندري: الإمام، ج ٥، ص ١٩١، ١٩٦، ٢٨٠؛ السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الإسكندرية، ص ٤٩٥.

(٢) السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الإسكندرية، ص ٣٦٥ — ٣٦٦.

(٣) أحمد دراج: الممالك والفرنج، ص ٩.

(٤) اسمه الطنبغا، ولكن سمى ببرقوق، لنتوء في عينيه كأنهما البرقوق، تولى السيادة سنة (٧٨٤هـ/١٣٨٠م)، اتصف بالشجاعة والحزم والصرامة، له باع وخبرة في السياسة وتدبير الحكم وكان يتصدى للأحكام بنفسه، توفي سنة (٨٠١هـ/١٣٩٨م)، انظر في ترجمته: ابن دقماق: الجواهر الثمين، ص ٤٧٦؛ ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج ٣، ص ٢٨٥؛ الشوكاني: البدر الطالع، ج ١، ص ١٦٢.

(٥) السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الإسكندرية، ص ٣٨٥.

وعاث القبارصة ومعهم الكتيلان فسادا في البحر وكثرت غاراتهم على الإسكندرية وغيرها في عهد كل من السلطان المؤيد شيخ، والأشرف برسباي، ففي سنة (٨٢٥هـ/١٤٢١م) في بداية عهد الأشرف برسباي هجم القبارصة على ميناء الإسكندرية وبه مركب تجاري تصل شحنته إلى نحو مائة ألف دينار، فقرر برسباي على وضع حد لهذه الاعتداءات المتكررة، فسير ثلاث حملات إلى قبرص، الأولى سنة (٨٢٧هـ/١٤٢٣م)، حيث هاجمت سفن المسلمين على الجزيرة وغنمت، ثنائم كثيرة وعادت إلى السواحل المصرية سالمة<sup>(١)</sup>، والثانية في سنة (٨٢٨هـ/١٤٢٤م) حيث وصلت سفن المماليك إلى سواحل جزيرة قبرص، ودخلت ميناء الماغوصة، فاستولى رجالها على قلعتها<sup>(٢)</sup>، أما الثالثة فقد خرجت في صيف سنة (٨٢٩هـ/١٤٢٥م) بقيادة الأمير إينال الحكمي والأمير تغري بودي المحمودي ووصلت إلى سواحل قبرص، واستولى رجالها على ليماسول<sup>(٣)</sup>، وفي تلك الأثناء كان ملك قبرص قد جمع جيوشه واستعد لمنازلة المسلمين، فدارت بين الطرفين معركة عند (خيروكتيا) الواقعة إلى الشمال الشرقي من ميناء ليماسول، هزم فيها القبارصة شر هزيمة، ووقع ملكهم أسيرا في قبضة المماليك<sup>(٤)</sup>، وقد استمر زحف الحملة المسلمة حتى وصلت إلى نيقوسيا عاصمة قبرص<sup>(٥)</sup>، ثم عادت الحملة إلى القاهرة ومعها مئات الأسرى من ضمنهم ملك قبرص جالينوس، والذي ظل أسيرا حتى عام (٨٣٠هـ/١٤٢٦م)، حتى أفرج عنه برسباي بعد دفع

(١) الصيرفي: نزهة النفوس، ج ٣، ص ٧٧؛ سعيد عاشور: الأيوبيين والمماليك، ص ٣٠٧.

(٢) الصيرفي: نزهة النفوس، ج ٣، ص ٧٨ - ٧٩؛ السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الإسكندرية، ص ٣٨٩، ٣٩٠.

(٣) الصيرفي: نزهة النفوس، ج ٣، ص ٧٨ - ٨٨؛ المقرئزي: السلوك، ج ٤، ق ٣، ص ٧٢٢؛ العبادي: تاريخ البحرية الإسلامية، ص ٣٣٤.

(٤) الصيرفي: نزهة النفوس، ج ٣، ص ٧٨ - ٨٨؛ ابن حجر إنباء الغمر، ج ٢، ص ١١٢؛ سعيد عاشور: قبرص والحروب الصليبية، ١٠٨؛ العبادي: تاريخ البحرية، ص ٣٣٤.

(٥) ابن حجر: إنباء الغمر، ج ٢، ص ١١٢؛ سعيد عاشور: قبرص والحروب الصليبية، ص ١١٣.

فدية كبيرة والاعتراف بسيادة سلطنة المماليك على قبرص، حيث ظلت بعدها قبرص من جملة (بلاد السلطان) حتى نهاية العهد المملوكي<sup>(١)</sup>.

وبهذا توقف خطر قبرص على ثغر الإسكندرية باستثناء بعض أعمال القرصنة الخاطفة والتي قام بها حاكم جنوة بالاشتراك مع ملك قبرص وفرسان الاسبتارية في جزيرة ردوس سنة (٨٠٦هـ/١٤٠٣م) بشن غارة خاطفة على ميناء الإسكندرية، ثم تلا ذلك عبث القرصنة الكتلان بسفن المماليك، مما دفع السلطان المؤيد إلى تطبيق مبدأ المسؤولية الجماعية إزاء جميع تجار الفرنج وقناصلهم بالإسكندرية، وتحديدًا تجار الكتيلان وقنصلهم، فقد أمر بسجنهم بأحد أبراج القلعة<sup>(٢)</sup>، فسارعت البندقية بإرسال سفير من قبلها يؤكد له براءة البنادقة من هذه الأعمال، وقد نجح السفير البندقي في مهمته، وعقد معه معاهدة مؤرخة في سنة (٨١٨هـ/١٤١٥م)<sup>(٣)</sup>.

وعندما اعتلى الفونسو (Alfonso) الخامس عرش مملكة أرغون عام (٨١٩هـ/١٤١٦م) بدأت هذه المملكة تدخل الصراع بقوة مع المماليك، متذرة بما قام به المؤيد ضد الكتيلان، فقد استدعى المؤيد قنصل الكتيلان بالإسكندرية وحاكمه على تدخله في محاولة منع الكتيلان بدمشق من دفع التعويض المالي الذي كان حكم عليهم بسبب بيع التجار التونسيين كرقيق في برشلونة غدرا، وقد قام المؤيد بجلده بالسياط حتى أدمى ظهره ثم سجنه بالإسكندرية، فغادر الكتيلان الإسكندرية تاركين أموالهم وبضائعهم والتي صادرتها السلطات المملوكية وفاء

(١) ابن شاهين: زبدة كشف المماليك، ص ١٤٤؛ الصيرفي: نزهة النفوس، ج ٣، ص ٩٤؛ ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج ٣، ص ٢٧٦؛ سعيد عاشور: قبرص والحروب الصليبية، ص ١٢٦؛ العبادي: تاريخ البحرية الإسلامية، ص ٣٣٦. هذا وقد ظلت قبرص خاضعة لحكم المصريين حتى بعد سقوط دولة المماليك سنة (٩٢٣هـ/١٥١٧م)، حيث استمرت الجزيرة تدفع الجزية إلى السلطان العثماني، حتى سنة (٩٨٥هـ/١٥٧٧م) حيث حكمها الأتراك حكما مباشرا عن طريق ولايتهم الأتراك، انظر: العبادي: تاريخ البحرية، ص ٣٣٦.

(٢) ناجلا محمد: العلاقات السياسية بين البندقية ومصر، ص ٢٣٦.

(٣) أحمد دراج: المماليك والفرنج، ص ٢٣.

بالتعويض المذكور<sup>(١)</sup>، فأمر الفونسوا الخامس القراصنة الكتيلان بشن الغارات على السواحل المملوكية، ومن ضمنها الإسكندرية، ففي عام (٨١٩هـ / ١٤١٦م) هاجم الكتيلان ميناء الإسكندرية واستولوا على إحدى سفن المغاربة، ولم ينج من ركبها سوى نفر قليل، ألقوا بأنفسهم في البحر حتى وصلوا إلى الشاطئ سباحة<sup>(٢)</sup>، وفي السنة ذاتها رست ثلاثة سفن لهم بميناء الإسكندرية متظاهرين بقدم وفد للتفاوض وعقد الصلح معهم، فرحبت السلطات المملوكية بهم وسمحت لمن معهم من التجار بإنزال سلعهم وبيعها وشراء التوابل، فانتهز الكتيلان هذه الفرصة فقاموا في إحدى الليالي بتخليص قنصلهم من سجن الإسكندرية ثم أغاروا على الميناء وأشعلوا النار بكل ما كان فيه من السفن واشتبكوا في قتال دموي مع قوات الميناء، ومن كان بها وقتئذ من التجار فقتلوا منهم وأسروا نحو ستين من الرجال والنساء، كما استولوا على سفينتين للجنوية وأخرى للبنادقة، وسفينة أخرى للمسلمين كانت راسية بالميناء وأبحروا بها وبمن عليها من تجار إلى رودس<sup>(٣)</sup>.

وقد أصدر السلطان ططر<sup>(٤)</sup> مرسوما حدد بمقتضاه مدة إقامة جميع طوائف الفرنج في أراضي الدولة المملوكية بأربعة أشهر على أكثر تقدير، وهي المدة التي رآها كافية لإنهاء عملياتهم التجارية، وقصد بذلك منعهم من الإقامة الدائمة بالبلاد تجنباً لتآمرهم مع القراصنة، حيث كانوا يمدون القراصنة بالمعلومات عن التحصينات بالسواحل والموانئ وعن أخبار وصول التجار المسلمين ومغادرتهم للموانئ وعن استعدادات المسلمين لمواجهة غاراتهم وغير ذلك<sup>(٥)</sup>.

(١) أحمد دراج: المماليك والفرنج، ص ٢٤؛ عبد العزيز سالم: تاريخ الإسكندرية، ص ٣٨٧.

(٢) الصيرفي: نزهة النفوس، ج ٢، ص ٣٧٠.

(٣) أحمد دراج: المماليك والفرنج، ص ٢٥؛ السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الإسكندرية، ص ٣٨٨.

(٤) هو السلطان الظاهر ططر، تولى الحكم سنة (٨٢٤هـ / ١٤٢١م)، كان ملكاً عارفاً فطناً، عنده أقدام وجرأة وكرم مفرط، توفي من نفس العام الذي تسلطن فيه، فكانت مدة ملكه أربعة وتسعين يوماً، انظر: ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج ٦، ص ٣٩٧؛ الشوكاني: البدر الطالع، ج ١، ص ٣٠٢.

(٥) أحمد دراج: المماليك والفرنج، ص ٢٨.

وقد تتابعت غارات الكتيلان وقرصنتهم على سفن المماليك ففي عهد السلطان الأشرف برسباي شن الكتيلان هجوما على ميناء الإسكندرية في سنة (٨٢٥هـ/٤٢٢م)، وقد كانت هذه الغارة من الشدة والعنف بحيث تعذر تقدير الخسائر في الأنفس والاموال، فيذكر ابن تغري بردي أن من ضمن الخسائر التي لحقت بتجار الإسكندرية أن: (الفرنجة أخذوا مركبا للتجار من ميناء الإسكندرية بها بضائع بنحو مائة ألف دينار، فشق ذلك على الملك الأشرف إلى الغاية)<sup>(١)</sup>. مما اضطر برسباي إلى التخطيط للسيطرة على قبرص وإنهاء هذه الاعتداءات. ومع بزوغ نجم السلطان جقمق<sup>(٢)</sup> بدأت تراوده فكرة السيطرة على جزيرة رودس ليضيف انتصارا جديدا للمماليك على الصليبيين، وبدأ بإنشاء سلسلة من الإجراءات الدفاعية، وعلى الرغم من استئناف العلاقات التجارية مع الصليبيين في عهده إلا أنه جدد المرسوم الططري فأعلن في سنة (٨٤٣هـ/٤٣٩م)، بأنه لن يسمح لتجار الصليبيين بأن يقيموا بدمشق والإسكندرية أكثر من ستة شهور، وأنه لن يسمح لقناصلهم الإقامة في هاتين المدينتين أكثر من عام واحد<sup>(٣)</sup>، وقد كان دخول رودس حلما لسلفه برسباي الذي قام بفتح قبرص، لكن توتر العلاقات بين الدولة المملوكية والدول المجاورة بالمشرق من التيموريين<sup>(٤)</sup> والعثمانيين صرفه

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ١٤، ص ٢٤٩ - ٢٥٠.

(٢) هو السلطان الظاهر أبو سعيد الجركسي، تولى الحكم سنة (٨٤٢هـ/٤٣٨م)، اتصف بالعدل والشجاعة والعفة مع التدين وحب الخير، تنازل عن الحكم لولده الملك المنصور بعد مردن طويل ألم به، ثم ما لبث أن توفي بعد تنازله بإثني عشر يوما سنة (٨٥٧هـ/٤٥٣م)، انظر ترجمته في ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج ٤، ص ٢٧٥؛ السخاوي: الضوء اللامع، ج ٣، ص ٧١؛ الشوكاني: البدر الطالع، ج ١، ص ١٨٤.

(٣) أحمد دراج: المماليك والفرنج، ص ٥٥؛ حياة حجي: العلاقات بين سلطنة المماليك والمماليك الأسيانية و ص ٣٣٦.

(٤) لقد ساءت العلاقة بين الدولة المملوكية وتيمورلنك بسبب توسعته على حساب المماليك فقد دخل حلب ودمشق وبغداد وارتحل إلى تبريز وجعلها قاعدته الحربية، وفي أثناء وجوده ببلاد الشام عام (٨٠٤هـ/٤٠١م) انقاد له السلطان المملوكي فرج بن الظاهر برقوق، فدفع له أتاوة وخطب باسمه، وقد ظلت بغداد وتبريز في أيدي أسرة تيمورلنك حتى سنة

مرغما إلى قبول ما عرضه فرسان الاستبارية من صلح عام (٨٣١هـ/٤٢٧م)، والذي بموجبه تعهدوا بعدم حماية قرصنة الكتيلان بجزيرتهم، وقد قدم وفد إلى القاهرة للتوقيع على هذه المعاهدة<sup>(١)</sup>.

إلا أن معاودة الصليبيين بتهديد سواحل الإسكندرية سنة (٨٣٢هـ/٤٢٨م)<sup>(٢)</sup>، دفع السلطان جقمق إلى القيام بثلاث حملات محاولا فتح جزيرة رودس، كانت أولها سنة (٨٤٥هـ/٤٤١م)، وقد قام الرهبان الفرنسيون بدير صهيون وبيت لحم بنقل أخبارها إلى فرسان الاستبارية، فاستعدوا للحملة، ومن هنا أصدر جقمق أوامره بمنع التجار الصليبيين من شحن بضائعهم التي في ميناء الإسكندرية، وفرض عليهم شراء البهار بأثمان مرتفعة، ولما رفضوا ذلك أمر بالقبض عليهم وترحيلهم من الإسكندرية ليسجنوا بالقاهرة، كل تلك الإجراءات الصارمة من قبل جقمق جعلت البنادقة يخافون على مصالحهم التجارية، فأعلنوا حيادهم في الصراع بين المماليك والاستبارية في رودس، حيث أصدرت تعليمات بعدم تعرضهم لسنن السلطان، وتجنب الإبحار إلى رودس، وهددوا من يخالف هذه الأوامر بتوقيع عقوبة الموت عليه<sup>(٣)</sup>.

ورغم فشل الحملة الثانية التي سيرها جقمق إلى الجزيرة سنة (٨٤٦هـ/٤٤٣م)، إلا أنه أرسل حملة ثالثة لغزو الجزيرة، وكان ذلك سنة

---

(٨٧٤هـ/٤٦٩م) ثم وقعت في أيدي الأقيونيون التركمان ومن بعدهم الصفويين سنة (٩١٤هـ/٥٠٨م)، ولقد كان لوجود التيمورلنكيين ببغداد وتبريز خطر بالغ على بلاد الشام مما أدى إلى سوء العلاقات ما بين الدولتين، الصيرفي: نزهة النفوس والأبدان، ج٢، ص٦٧، ٩٧، ج٤، ص٥٧؛ محمود شاكر: التاريخ الإسلامي، ج٧، ص٢٠٥.

(١) طرخان: مصر في عصر دولة المماليك والجراسية، ص١٠٥؛ إبراهيم حسن: البحرية في عهد سلاطين المماليك، ص٢٦٨.

(٢) العيني: عقد الجمان، ص٣٣٦، ٣٦٠؛ ابن حجر: إنباء الغمر، ج٣، ص٤٢٠، ٤٢٣؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٤، ص٣٢٩.

(٣) أحمد دراج: المماليك والفرنج، ص٥٧؛ حياة حجي: العلاقات بين سلطنة المماليك والمماليك الأسبانية، ص٣٥٧.



(٨٤٨هـ/٤٤٤م)<sup>(١)</sup>، إلا أن الحملة لم تحقق الآمال المرجوة منها، ويعلق السخاوي على ذلك بقوله: ( أنه لم يتم للعسكر قصد ولا رجوعوا بطايل، ولهذا فترت همتهم عن الجهاد في تلك المدة لهذه الجهة، والله عاقبة الأمور)<sup>(٢)</sup>. وفي أواخر عهد السلطان الأشرف إينال<sup>(٣)</sup> أغار الصليبيون على سواحل مصر سنة (٨٦٣هـ/٤٥٩م)، فتصدت لهم قواته، وتعقبتهم في عرض البحر وأعقب ذلك معاقبة تجار جنوة الذين حامت حولهم الشبهات، فقبض على تجارهم وعلى قناصلهم بالإسكندرية<sup>(٤)</sup>.

وفي عهد الأشرف قايتباي كرر الصليبيون غاراتهم على سواحل الإسكندرية وأسروا تسعة أنفار وعبثوا بالميناء، فأمر السلطان بخروج تجريدة لتتبعهم<sup>(٥)</sup>، وفي سنة (٨٨٠هـ/٤٧٠م)، شن القراصنة الصليبيون غارة على ميناء الإسكندرية، وقاموا بأسر بعض تجارها منهم تاجر السلطان ابن عليبة<sup>(٦)</sup>، ثم عادوا إلى ديارهم، مما دفع السلطان إلى القبض على جميع التجار المقيمين بالإسكندرية مع مصادرة أموالهم ومتاجرهم، وإلزامهم بمكاتبة ملوك الصليبيون

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ١٥، ص ٣٦٠.

(٢) السخاوي: التبر المسبوك، ص ٨٩؛ إبراهيم حسن: البحرية في عصر سلاطين المماليك، ص ٢٧٤.

(٣) هو السلطان الأشرف إينال بن عبد الله، تولى الحكم سنة (٨٥٧هـ/٤٥٣م)، كان ملكا جليلا، عادلا، معظما في دولته، توفي سنة (٨٦٥هـ/٤٦٠م)، انظر في ترجمته: ابن تغري بردي: الدليل الصافي، ج ١، ص ١٧٥؛ السخاوي: الضوء اللامع، ج ٢، ص ٣٢٨؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٧، ص ٣٦٦.

(٤) أحمد دراج: المماليك والفرنج، ص ٩٠.

(٥) ابن إياس: بدائع الزهور، ج ٣، ص ٨٩.

(٦) ابن عليبة هو: بدر الدين حسن بن إبراهيم بن عليبة السكندري أحد رؤساء الكارم بالثغر، وتاجر السلطان قايتباي، وقع في أسر قراصنة الصليبيين أثناء غارتهم على المدينة سنة (٨٨٠هـ/٤٧٥م)، وظل في الأسر لمدة عام حتى أطلق سراحه نظير فدية من المال، غير أنه ظل يعاني من مرض الذي أصابه نتيجة الأسر حتى وافته المنية عام (٨٨٩هـ/٤٨٤م)، ابن إياس: بدائع الزهور، ج ٣، ص ١٤٤، ١١٩، ٢٠٧.

لإطلاق سراح التجار المسلمين، وتحت التهديدات المملوكية أطلق القراصنة الصليبيون أسرى المسلمين<sup>(١)</sup>.

وفي عهد السلطان قانصوه الغوري استمرت غارات القراصنة الصليبيين تهدد السواحل المملوكية، ففي سنة (٩١٥هـ/١٥٠٥م) هاجم فرسان الاسبتارية على خمس سفن قادمة من ميناء الإسكندرية، و كانت تحمل عددا من المغاربية فأسروهم، واستولوا على متاجرهم، وقيل إن هذا كان بالاتفاق مع بحارة السفن الفرنسية، فقام الغوري بالقبض على القنصل الفرنسي بالإسكندرية وعلى جميع تجارهم بها مع مصادرة متاجرهم<sup>(٢)</sup>، ثم كرر الاسبتارية في سنة (٩١٦هـ/١٥١٠م) الهجوم على عدد من السفن المصرية في عرض البحر والتي كانت محملة بالأخشاب لبناء أسطول جديد، فقام السلطان الغوري بالقبض على جميع تجار الصليبيين المقيمين بالإسكندرية ومصادرة أموالهم والتحفظ على متاجرهم<sup>(٣)</sup>.

ولم تقتصر دائرة الصراع وتهديد الموانئ المملوكية على الصليبيين بل ضمت الشاه إسماعيل الصفوي<sup>(٤)</sup> الذي اتفق مع الفرنج على أن يهاجم مصر من البر وهم من البحر<sup>(٥)</sup>، فلما علم الغوري بذلك سارع بالقبض على قناصلة البندقية

(١) ابن اياس: بدائع الزهور، ج ٣، ص ١١٤.

(٢) ناجلا محمد: العلاقات السياسية والاقتصادية بين البندقية ومصر، ص ٢٣٩.

(٣) أحمد دراج: المماليك والفرنج، ص ١٤٣.

(٤) هو إسماعيل بن حيدر بن الجنيد حفيد صفي الدين الأربيلي (ت ٧٢٩هـ/١٣٢٨م)، والذي ينسب إليه الصفويون، وقد تمكن إسماعيل من الاستيلاء على عدد من المدن منها تبريز والتي جعلها قاعدة ملكه، واتخذ المذهب الشيعي منطلقا لفكرته، وقد توسع بدولته حتى وصل نهر جيحون وساحل الذليج العربي، وعمل مع البرتغاليين ضد العثمانيين رغم أن البرتغاليين كانوا يهددون الأماكن المقدسة وبلاد المسلمين، ولكنه هزم أمام العثمانيين بقيادة سليم الأول في معركة جالديران عام (٩٢٠هـ/١٥١٤م)، وفر هاربا حتى توفي سنة (٩٣٠هـ/١٥٢٤م)، انظر: محمود شاكر، التاريخ الإسلامي، ج ٨، ص ٣٨٦.

(٥) يعود سبب تحالف البنادقة مع الصفويين ضد المماليك إلى ما قام به الغوري من رفع أسعار التوابل لمواجهة نفقات الجيش وبناء الأسطول، وإجبار البنادقة على شرائها بالأسعار التي

بالإسكندرية ودمشق وطرابلس واحتد عليهم وهددهم بالشنق، ورسم بالتحقيق معهم والقبض على جميع تجارهم والتحفظ على أموالهم وبضائعهم<sup>(١)</sup>.

ولما كان الغوري قد ضاق ذرعا بالبندقية وبسياستها ذات الوجهين، وفقد الأمل في تقديم المساعدة له في استرجاع السفن التي استولى عليه الفرسان الاستبارية في خليج إياس، تحول إلى القنصل الفرنسي في الإسكندرية وطلب منه مساعدة ملك فرنسا للضغط على الاستبارية لإعادة سفنه والكف عن أعمال القرصنة ضد دولته، غير أن محاولاته باءت بالفشل، حيث رفض الاستبارية مساعي ملك فرنسا في هذا الصدد<sup>(٢)</sup>، فما كان من الغوري سوى أن بني أسطولا جديدا لمواجهة الحظر البرتغالي الذي بدأ يهدد نفوذ دولة المماليك في مياه المحيط الهندي والسواحل الجنوبية للجزيرة العربية، ومدخلي البحر الأحمر والخليج العربي.

---

حدها هو، ولكنهم رفضوا الشراء بتلك الأسعار، وأبحروا دون إذن سلطات ميناء الإسكندرية، فتعرضت سفنهم للهجوم في عرض البحر، ولكنها أفانتت ومن ثم ساءت العلاقة بين الطرفين، انظر في ذلك: نجلا محمد: العلاقات السياسية والتجارية بين البندقية ومصر، ص ٢٣٨.

(١) ابن إياس: بدائع الزهور، ج ٤، ص ١٩١، ١٩٩؛ أحمد دراج: المماليك والفرنج، ص ١٤٧-١٤٨.

(٢) أحمد دراج: المماليك والفرنج، ص ١٥١.

## الأوضاع الاقتصادية

شهدت الإسكندرية خلال عصر المماليك نشاطاً اقتصادياً ملحوظاً حتى صارت تضاهي كبريات العواصم الإسلامية، ويمكن أن نعزو هذا الازدهار الاقتصادي إلى عوامل عدة، يأتي في طليعتها :

تميز موقعها، فقد احتلت الإسكندرية موقعاً ممتازاً من الناحية الاقتصادية، إذ تشغل شريطاً ساحلياً ضيقاً يقع بين البحر المتوسط في الشمال وبحيرة مريوط في الجنوب، ويبرز من هذا الشريط الساحلي في البحر المتوسط بروز يابس يمثل جزيرة فاروس التي شكلت حاجزاً طبيعياً للحماية من هذه الأعاصير، ويربط بين الشريط الساحلي والجزيرة لسان أعطى الفرصة بإقامة ميناءين، الميناء الشرقي والميناء الغربي<sup>(١)</sup>.

كما أن موقعها هذا أهلها أن تكون حلقة الوصل بين الشرق والغرب، وقد عبر عن ذلك ابن بطوطة حين نزل بها بقوله: (.. وهي الثغر المحروس، والقطر المأنوس، العجيبة الشأن الأصيلة البنيان، بها ما شئت من التحسين والتحسين، ومآثر دنيا ودين... الجامعة لمقرن المحاسن، لتوسطها بين المشرق والمغرب، فكل بديعة بها اجتلاؤها وكل طرفة فإليها انتهاؤها)<sup>(٢)</sup>.

كما أن هجمات المغول المدمرة على دول المشرق الإسلامي منذ بداية القرن (٧هـ/١٣م) والإضطرابات السياسية التي نجمت عن ذلك، أدت إلى تدمير طرق التجارة الرئيسية المألوفة بين الشرق والغرب<sup>(٣)</sup>، وخاصة طريق الخليج الفارسي والطريق البري المار بسمرقند، والذي كان يعترف بطريق الحرير<sup>(٤)</sup> الأمر الذي تحول معه طريق التجارة إلى البحر الأحمر ومصر، فكانت تنقل البضائع القادمة من بلاد المشرق بحراً عبر البحر الأحمر ومنها إلى ميناء (عيزاب) الواقع على سواحل البلاد المصرية ومنه إلى الإسكندرية، ومنها

(١) محمد صبحي: مدينة الإسكندرية، ص ٣.

(٢) ابن بطوطة: الرحلة، ص ٢٠.

(٣) سعيد عاشور: مصر والشام في عهد الأيوبيين والمماليك، ص ٢٦٧.

(٤) شوقي شعث: طريق الحرير، بحث منشور في مجلة التاريخ العربي، الصادر عن جمعية

المؤرخين المغاربة، ص ٢٣٩ - ٢٤٩.

(عذاب) الواقع على سواحل البلاد المصرية ومنه إلى الإسكندرية ، ومنها تحمل إلى المغرب ودول أوربا، بأثمان باهظة، حيث كانت التوابل تباع في أوروبا الغربية بثمن يفوق أربعين مرة ثمنها في بلدان جنوب شرق آسيا، فكان مردود ذلك كبيراً على ازدهار التجارة بالإسكندرية وانتعاش الحركة الاقتصادية بها، بل وعلى جميع مناحي الحياة بها (١).

كما غدت الإسكندرية ميناء الأراضي المصرية الأول بعد أن فقدت دمياط أهميتها الحربية والاقتصادية، نتيجة غزو الصليبيين لها سنة (٦٤٧هـ — ١٢٤٩م) (٢)، فيذكر المقرئزي حين يؤرخ لحوادث سنة (٦٤٨هـ / ١٢٥٠م) أن المماليك البحرية قاموا بتخريب مدينة دمياط، بعد جلاء الفرنج عنها خوفاً من عودتهم إلى المدينة مرة أخرى، فقاموا بهدم أسوارها، ولم يبقوا فيها سوى مسجدها، وفي سنة (٦٤٩هـ / ١٢٥١م) قام الظاهر بيبرس بردم فم بحر دمياط لمنع دخول المراكب إليه (٣).

كما كانت الإسكندرية محلاً للإقامة الجبرية لبعض الخلفاء والسلاطين، وهؤلاء كانوا أثرياء وكانت معهم أموالهم بالثغر فأدى وجودهم فيه وعدم خروجهم منه إلى إنفاق قسم من هذه الثروات بالثغر، بل وساهم بعضهم في تنشيط الحركة التجارية بها من خلال اشتغاله بالتجارة، فعلى سبيل المثال سكنها السلطان فرج ابن الناصر فرج ومات مطعوناً بها سنة (٨٢٠هـ / ١٤١٧م) (٤).

(١) عبد الرحمن الرافعي، وسعيد عاشور: مصر في العصور الوسطى منذ الفتح العربي حتى الغزو العثماني، ص ٥٢٦ — ٥٢٨؛ ناجلا محمد: العلاقات السياسية والاقتصادية بين البندقية ومصر، ص ١٤٢.

(٢) النويري: نهاية الأرب، ج ٢٩، ص ٣٣٤، ولمعرفة المزيد عن هذه الحملة والتي عرفت في التاريخ باسم ( حملة لويس التاسع ) انظر: سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ج ٢، ص ١٠٠٨؛ رنسيان: تاريخ الحروب الصليبية، ج ٣، ص ٤٣٩ — ٤٧٤؛ جوزيف نسيم يوسف: حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته في المنصورة، ص.

(٣) المقرئزي: الخطط، ج ١، ص ٢٩٣.

(٤) ابن حجر: إنباء الغمر: ج ٣، ص ١٣٩.

وسكنها الخليفة العباسي المستعين بالله ومات مطعوناً بها سنة (٨٣٣هـ/١٤٢٩م)<sup>(١)</sup>، فتذكر المصادر التي بين أيدينا أنه استطاب السكنى بالإسكندرية واشتغل بالتجارة وحصل منها أموال كثيرة<sup>(٢)</sup>، ومما لا شك فيه أن ذلك عامل مساعد لازدهار النشاط الاقتصادي بها.

وكان سلاطين المماليك يهتمون بزيارة الثغر زيارات كثيرة متعددة للنظر في أحواله السياسية والاقتصادية، ولعل من ضمنها حرص السلطان الظاهر بيبرس على توسعة خليج الإسكندرية (ترعة المحمودية الآن) والذي كان يمد الثغر بالمياه العذبة من النيل كما كان له دور في الإبحار، فقد كان من العوض والاتساع الكافيين للإبحار فيه دون مخاطر<sup>(٣)</sup>.

وإلى جانب هذا تميزت الإسكندرية بتطور عمراني كبير تمثل في متانة بنائها وكثرت أعمدتها الرخامية الجميلة، وعلو مبانيها واتساع شوارعها وورصفها، مما جعل هذا التقدم العمراني جاذباً لرؤوس الأموال للاستثمار، وذلك لأن الصورة الجميلة التي كانت تبعثها هذه المباني تنعكس على إقدام الناس على الشراء<sup>(٤)</sup>، فحين نزل بها ابن جبير وأبصرها نالت إعجابه ولفت نظره (حسن وضع البلد، واتساع مبانيه..)<sup>(٥)</sup>، ووصفها صاحب كتاب الاستبصار بأنها كانت: (تعجب كل من رآها لبهجتها، وحسن منظرها، وارتفاع مبانيها، وإتقانها، وسعة شوارعها وطرقاتها..)<sup>(٦)</sup>، كما وصفها ابن دقماق بقوله: (وهذه المدينة بنيت على ضفة البحر الشامي، وبها آثار عجيبية ورسوم قديمة قائمة، تشهد لبانيها بالملك والقدرة، وهي.. كثير العمارة رابحة التجارة عالية البناء، رائقة المعنى،

(١) القرمانى: أخبار الدول، ج ٢، ص ٢١٧.

(٢) ابن حجر: إنباء الغمر، ج ٣، ص ٤٤٦؛ الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٧، ص ٢٥٣.

(٣) انظر ما سبق، ص ٤٨.

(٤) ويتضح ذلك الآن في تنافس المحلات التجارية في عمل الزخارف (الديكورات) لترغيب الناس في الشراء، فالعين مفتاح المال كما يقال.

(٥) ابن جبير: الرحلة، ص ١٤.

(٦) كاتب مراكشي: الاستبصار، ص ١٠٠.

والقدرة، وهي.. كثير العمارة رابحة التجارة عالية البناء، راقية المعنى، شوارعها فساح، وعضائد بنيانها صحاح..<sup>(١)</sup>.

وبما أن مدينة الإسكندرية كانت ثغرا يربط فيه المجاهدون في سبيل الله، فقد أدى ذلك إلى ازدهار الحياة الاقتصادية بها، فالثغر محل رباط دائم، يتقاطر عليه المجاهدون من كل مكان، قال تعالى {يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا} <sup>(٢)</sup>، وكذلك عامة الناس على اختلاف شرائحهم يسعون إلى الإنفاق على من يحضر الثغر امتثالاً لقول الحق تبارك وتعالى: {وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا..} <sup>(٣)</sup> وقوله صلى الله عليه وسلم: ((رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها)) <sup>(٤)</sup> وقوله صلى الله عليه وسلم: ((رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه، وإن مات جرى عليه عمله الذي كان يعمله وأجرى عليه رزقه وأمن الفتان)) <sup>(٥)</sup> وغير ذلك من النصوص الدالة على فضل الإنفاق في سبيل الله، فكان أصحاب الأموال يوقفون الأوقاف الكثيرة على المنشآت التعليمية والاجتماعية بالإسكندرية<sup>(٦)</sup>.

أيضا كان لنزول الأسر التجارية واستيطانهم الإسكندرية أثر بالغ في تنشيط الحركة التجارية بها<sup>(٧)</sup>.

وأيضا مما كان له الأثر في انتعاش الحياة الاقتصادية كون الإسكندرية ممرا لحجاج المغرب والأندلس، بل للرحالة إلى المشرق مطلقا<sup>(٨)</sup>.

(١) هذا وقد ذكر ابن دقماق الكثير من معالمها القديمة مثل المسلتين والملعب، انظر: ابن

دقماق: الانتصار، ص ١٢٥، ١٢٦.

(٢) آل عمران، آية: ٢٠٠.

(٣) البقرة، آية ١٩٥.

(٤) البخاري: الجامع الصحيح، في كتاب الجهاد، ص ٥٨٦، (ح ٢٨٩٢).

(٥) مسلم: الجامع الصحيح، في كتاب الإمارة، ج ٣، ص ١٥٢٠، (ح ١٩١٣).

(٦) انظر مبحث الأوقاف من الفصل الثاني، ص ٢٢٩.

(٧) انظر مبحث الأسر التجارية من الفصل الثاني، ص ٢٠٥.

(٨) انظر الفصل الرابع من هذه الرسالة الخاص بالحجاج والرحالة، ص ٣٦٨.

ومما زاد من تطور الحياة الاقتصادية في الإسكندرية ما اشتهرت به من كثرة المنشآت التجارية من الفنادق والوكالات والقيساريات والخانات<sup>(١)</sup>، إضافة إلى تعدد الأوامر السلطانية بحسن معاملة طائفة التجار وعدم إرهابهم بالجبايات، حتى إن السلطان قلاوون أمر نوابه بالثغور ألا يجبوا من التجار سوى الحقوق السلطانية<sup>(٢)</sup>، وكتب منشوراً إلى التجار الوافدين من الشرق والغرب إلى مصر يحثهم على القدوم ويعهد لهم بحسن المعاملة<sup>(٣)</sup>، كما أقام السلاطين محتسبي الأسواق لمنع التلاعب في الأسعار والأرزاق، وأصناف البضاعة، وقد أحكموا الرقابة عليها في الجملة<sup>(٤)</sup>، وكان المحتسبون بالإسكندرية من أولي الدين والصلاح كما سأذكره في الكلام عن الوظائف الدينية<sup>(٥)</sup>.

أما في العهد المملوكي الثاني، وإثر فتوحات العثمانيين في أوروبا، وسقوط القسطنطينية سنة (٨٥٧هـ / ١٤٥٣م) فقد انتقلت كثير من مراكز

(١) **الفندق**: هو المبنى الذي تقع في أسفله مخازن ومحلات لعرض السلعة، وفي أعلاه حجرات لسكنى الغرباء.

والوكالة: هي المكان الذي يقضي فيه التجار الغرباء ليلتهم مع بضائعهم وأمتعتهم. والقيسارية: شبيهة بالفندق والوكالة، تتكون من فناء مركزي محيط به أروقة بها حوانيت ومساكن لسكنى التجار.

والخانات: قريب من الفندق، وهو اللفظ المستعمل في المشرق مقابلاً للفظ الفندق في المغرب.

انظر في تعريفات هذه الألفاظ: نعيم زكي: طرق التجارة، ص ٢٨٧ - ٢٨٨.

(٢) ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، ج ٧، ١٩٨؛ سعيد عاشور: مصر والشام، ص ٢٦٧.

(٣) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ١٣، ص ١٩٨، انظر الفتنة التي حدثت بين المسلمين والصلبيين سنة (٧٢٧هـ / ١٣٢٦م) والتي جاء الحديث عنها بالتفصيل في مبحث الحياة الاجتماعية بالمدينة (ص ١١٨) وانتهى البحث إلى عدة نتائج؛ منها: حرص الناصر على حسن التعامل مع الفرنج من أجل تحقيق مكاسب تجارية.

(٤) ابن الأخوة: معالم القرية، ص ٨؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ج ١١، ص ٤١٤؛ المقرئزي: الخطط، ج ٢، ص ٩٢.

(٥) انظر الفصل الأول من هذا البحث ص ١٣٨.



التجارة الأوروبية إلى الإسكندرية، بحيث أصبحت الإسكندرية مركزاً تجارياً أكثر أمناً عن أوروبا بالنسبة للتجار<sup>(١)</sup>.

وعلاوة على ذلك فقد اتبع سلاطين المماليك طرقاً أخرى لدفع عجلة النشاط الاقتصادي بالإسكندرية، منها اهتمامهم بإصلاح المرافق الخاصة بخليج الإسكندرية، فاقد كان لخليج الإسكندرية أثر اقتصادي كبير فإنه إلى جانب أنه كان يمد الثغر بالمياه العذبة من النيل، فقد كان لعرضه وحجم مياهه ما يسمح بإبحار السفن فيه دون مخاطر تذكر فقد توالى أيدي سلاطين دولة المماليك على الاهتمام به طيلة العهد المملوكي، بدءاً بالظاهر بيبرس، الذي أمر بحفر الخليج سنة (٦٦٢هـ/١٢٦٣م)، بعد أن طمرته الرمال وسده الطين<sup>(٢)</sup>، وفي سنة (٦٦٤هـ/١٢٦٥م) باشر الظاهر بنفسه هو والأمراء حفر الخليج<sup>(٣)</sup>، وفي عهد الناصر محمد بن قلاوون سنة (٧١٠هـ/١٣١٠م)، حسن له متولى الثغر تعميقه، وذكر له جملة من المنافع منها حمل الغلال وأصناف السلع إلى الإسكندرية في المراكب توفيراً للكلف، فضلاً عن عمارة ما على حافتي الخليج وبناء الضيع والسواقي فينموا الخراج، وأخيراً انتفاع الناس بعمارة بساتينهم وشرب مائه<sup>(٤)</sup>، فقام بحفره، وعم نفعه واغتنبت به الرعية<sup>(٥)</sup>، وفي عهد الملك الأشرف برسباي ندب لحفره سنة (٨٢٦هـ/١٤٢٢م)، ومشى الماء فيه وسر الناس لذلك<sup>(٦)</sup>.

### أما بالنسبة لمظاهر التقدم الاقتصادي بالإسكندرية فتشمل ما يلي:

- (١) نجلا محمد: العلاقات السياسية والاقتصادية بين البندقية ومصر، ص ١٥٥.
- (٢) بيبرس الدوادار: مختار الأخيار، ص ٢٨؛ العيني: عقد الجمان، ج ١، ص ٣٧٥.
- (٣) المقرئزي: السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٥٤٣.
- (٤) المقرئزي: الخطط، ج ١، ص ٣٢٠.
- (٥) ابن تغري بردي: النجوم، ج ١٠، ص ١٧٨.
- (٦) ابن تغري بردي: النجوم، ج ٢، ص ٣٢٠ - ٣٢١، لم تشر المصادر التي بين أيدينا عن أعمال حفر خليج الإسكندرية بعد عهد برسباي، فقد إنعدمت صلاحيته في أخريات عهد المماليك الجراكسة، وبعد سنوات قليلة من آخر تطهير له في عهد برسباي.

**أولاً: الزراعة :** والتي تقوم على النيل وتزدهر بزيادته، وتضعف بنقصه، وشح مياهه، وتتمو بالاهتمام بوسائل الري، والترع والجسور لتنظيم الحصول على الماء وضمان وصوله إلى كل الأراضي الزراعية المتاحة، وكانت مياه النيل تصل إلى الإسكندرية عن طريق (خليج الإسكندرية) والذي اعتنى السلاطين المماليك بأمره وألوه الرعاية والاهتمام من حفره تارة وتوسيعه تارة أخرى وعدم ترك الرواسب الطينية تسد مجراه<sup>(١)</sup>، كذلك اعتمد أهالي الإسكندرية على الآبار والأمطار لسقي أراضيهم الزراعية<sup>(٢)</sup>، ولقد كثرت البساتين بالإسكندرية لدرجة أن الفواكه بها أرخص من غيرها من البلاد<sup>(٣)</sup> وكان يزرع بها أنواع عديدة من الزروع مثل السمسم والقصب السكر والقلقاس والعنب والنيلة والنخيل<sup>(٤)</sup>، وقد انتشرت غابات النخيل حول عمود السواري وبين ضفتي خليج الإسكندرية<sup>(٥)</sup>، وكان من ضمن الفواكه التي تزرع بالثغر النفاح، الذي نال استحسان عبد اللطيف البغدادي، فقال عنه: (..إنه يوجد بالإسكندرية صنف من النفاح في بستان واحد يسمى بستان القطعة، وهو صغار جداً، قاني الحمرة، وأما رائحته فتفوق الوصف، وتعلو المسك..)<sup>(٦)</sup> أما بالنسبة للحنطة فنظروا لأن أرض الإسكندرية سبخة فقد كانت تجلب إليها من أقاليم مصر<sup>(٧)</sup>.

**ثانياً: التجارة :** اكتسبت الإسكندرية من خلال موقعها علاقات تجارية بينها وبين مدن مصر من جهة وبلاد الشام وسائر دول المشرق والبحر المتوسط

(١) انظر ما سبق ، ص ٤٨-٥٤.

(٢) فقد كان الشيخ أبو منصور القباري يعتمد على الآبار في ري مزرعته دون مياه الخليج، محمد زيتون: القباري زاهد الإسكندرية، ص ١٥٠؛ نقولا يوسف: أعلام من الإسكندرية، ص ١٨٦.

(٣) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٣، ص ٣٨٦.

(٤) المقرئزي: الخطط، ج ١، ص ٣٠١؛ ابن تغري بردي: النجوم، ج ١٠، ص ١٧٨.

(٥) ابن بطوطة: الرحلة، ص ٢١.

(٦) البغدادي: الاعتبار، ص ٣١.

(٧) أبي الفداء: تقويم البلدان، ص ١١٣.

وأوروبا والهند والفرس والتتار والفرنجة من جهة أخرى، وعاشت بعض الجاليات الفرنجية المشتغلة بالتجارة في ثغر الإسكندرية مثل الجنويين والبنادقة<sup>(١)</sup>.

وقد أدى هذا النشاط إلى وجود أجهزة إدارية تنظم حركة التجارة بها فسمح سلاطين المماليك بإقامة القنصليات والمنشآت التجارية كالفنادق والوكالات، والقيساريات، والخانات داخل المدينة لخدمة التجار الأجانب، وإيواءهم وتسهيل الحركة التجارية لهم وعمليات البيع والشراء، وخزن بضائعهم وسلعهم<sup>(٢)</sup>، وقد تمتعوا بقسط وافر من الحرية داخل فنادقهم، فقد كان يعيشون فيه على النمط الذي تحيا عليه شعوبهم في بلدانهم، وقد توفرت في هذه المنشآت الاقتصادية الحمامات والمخابز وغير ذلك من الخدمات<sup>(٣)</sup>.

ويمكن أن نلاحظ من خلال المصادر أن الفنادق تنقسم إلى قسمين : قسم للتجار المحليين ، وآخر للأجانب، وهي قريبة من البحر المطل على الميناء الشرقي، حيث كان رسو السفن التجارية القادمة من خارج المدينة<sup>(٤)</sup>.

كما حرص المماليك على توفير الأمن اللازم في هذه الفنادق، فكانت أبوابها تقفل مع غروب الشمس بواسطة وكيل خاص يوصد أبوابه من الخارج، كما يمنع النزلاء الأجانب من مغادرة فنادقهم وقت صلاة الجمعة، وذلك خشية أن يداهم الصليبيون المدينة وأهلها في المساجد، وقد استحدث هذا الإجراء بعد حملة القبارصة على المدينة سنة (٧٦٧هـ/١٣٦٥م)<sup>(٥)</sup>.

(١) المقرئزي: السلوك، ج ٢، ق ١، ص ١٠٢، ناجلا محمد: العلاقات السياسية والاقتصادية بين مصر والبنادقية، ص ١٤٥.

(٢) المقرئزي: الخطط، ج ٢، ص ٨٦ — ٩٢؛ نعيم زكي، طرق التجارة ص ٢٨٧.

(٣) عاشور: مركز مصر في التجارة العالمية أواخر العصور الوسطى، ضمن بحوث في تلريخ العصور الوسطى، ص ١٣٨.

(٤) السيد عبد العزيز السالم: تاريخ الإسكندرية، ص ٥٠٦.

(٥) نعيم زكي: طرق التجارة، ص ٢٩٠ — ٢٩١.

وقد تعددت فنادق الجاليات، وكان أكثرها للإيطاليين ولا سيما جمهورية  
البندقية وجنوة<sup>(١)</sup>، أما الفنادق المحلية، فقد خصصت بعضها لأنواع معينة من  
التجارة كفندق الموز في شارع المرجانيين بحي العطارين<sup>(٢)</sup>، وفندق البيض  
والقصب، وفندق الحرير بشارع المحجة العظمى<sup>(٣)</sup>.

وخصصت بعض أنواع الفنادق المحلية لإيواء الغرباء وتخزين أمتعتهم  
كفندق الدماميني بسوق الجوار<sup>(٤)</sup>، وفندق الجمالي بشارع المحجة العظمى<sup>(٥)</sup>،  
وذكر النويري أن القبارصة حرقوا فنادق الكنيلان والجنوبيين والمرسيلين مما  
يدل على كثرة فنادق الإسكندرية لأبناء الجاليات<sup>(٦)</sup>.

وعرف من الوكالات : وكالة الكتان أمام جامع الجبوشي بالقرب من  
سوق العطارين<sup>(٧)</sup>، وقد تكون هذه الوكالة (وكالة الكتان) أهم سوق لبيع الأقمشة  
بالمدينة<sup>(٨)</sup>.

وأما القيساريات: فقد تركز معظمها في قلب المدينة، في حي العطارين  
وبعضها في باب البحر في محل الفنادق التجارية الأجنبية<sup>(٩)</sup>، ومن أشهرها  
قيسارية البزازين والتي كان بها العسل والسمن والزيت<sup>(١٠)</sup>، والقيسارية  
الجوكندارية، المختصة بتجارة الصوف، وقيسارية النشا المختصة بتجارة النشا

(١) عفاف صيره: العلاقات بين الشرق الغرب، ص ٢٢٢.

(٢) النويري السكندري: الإمام، ج ٢، ص ١٧١، ج ٤، ص ٤٢.

(٣) ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج ٢، ص ٤٢٨، ٤٣٣.

(٤) النويري السكندري: الإمام، ج ٢، ص ١٦٦.

(٥) ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج ٢، ص ٤٣٢.

(٦) النويري السكندري: الإمام، ج ٢، ص ١٧١.

(٧) النويري السكندري: الإمام، ج ٢، ص ١٦٦.

(٨) محمد صبحي: مدينة الإسكندرية، ص ١٢٢، ١٢٣.

(٩) السيد عبد العزيز السالم: تاريخ الإسكندرية، ص ٥٠٩.

(١٠) النويري السكندري: الإمام، ج ٢، ص ١٧١.

على ما يبدو<sup>(١)</sup>، وأيضاً قيسارية الأعاجم التي ذكرها النويري مما أحرقه القبارصة<sup>(٢)</sup>.

وعرف من الخانات : خان قجماس نسبة للنائب الذي تولى نيابة الإسكندرية في زمن الأشرف قايتباي، وكان يقع خارج باب رشيد، بغرض إيواء التجار والمسافرين الذين يصلون للثغر ليلاً بعد غلق أبوابه حتى تفتح الأبواب صباحاً، أو يبيت فيه الراحلون قبل مواصلة السير<sup>(٣)</sup>.

أما بالنسبة للأسواق التجارية: فقد انتشرت بكثرة في مصر في العصر المملوكي، وهي عبارة عن شارع طويل يمتد على جانبيه صفان من الحوانيت، وهي على قسمين: داخلي لخزن البضائع، وخارجي لعرضها<sup>(٤)</sup>.

ولقد تنوعت هذه الأسواق وتخصصت، فمنها للأجناد لبيع الفراء والسلاح وأسواق لباعة التبن والقماحين، وفي محل آخر: الصباغون والخراطون والقصارون، والفحامون والمنخلون، والسراجون، والشماعون، وسوق الحرير وسوق الحلاويين والكعكيين والعطارين، وسوق الطيوريين والوزازين والدجاجيين، وسوق المرّحّلين، وكان صفين من حوانيت عامرة فيها جميع ما يحتاج إليه في ترحيل الجمال، وبها سوق الأواني النحاسية بمختلف النقوش المحفورة، والمطعمة، وكانت حالهم رائجة، وسوق الكتبيين، وكان به ريع تباع فيه الكتب، وبها سوق الرقيق ويسمى (دكة المماليك) وهو موضع لجلوس من يعرض من ممتلكات الترك والروم ونحوهم للبيع<sup>(٥)</sup>.

وفي الغالب أنه لم تكن الأسواق بالإسكندرية مختلفة عن سائر أسواق مصر المملوكية، فقد حفظت لنا المصادر أسماء بعض الأسواق بالإسكندرية فيذكر النويري في الإلمام أسماء عدد من الأسواق التي نهبها القبارصة منها:

(١) المصدر السابق: ج ٢، ص ١٧١، ابن حبيب: التذكرة، ج ٢، ٤٣٢، ٤٣٥.

(٢) النويري: الإلمام، ج ٢، ص ١٦٦.

(٣) السخاوي: الضوء اللامع، ج ٦، ق ٣، ص ١٣، نعيم زكي: طرق التجارة، ص ٢٩٤.

(٤) محمد صبحي: مدينة الإسكندرية، ص ١٢٢، ١٢٣.

(٥) المقرئزي: الخطط، ج ٩٣-١٠٦؛ قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك، ص ٥٧-٧٣.

سوق القشاشين بالمعاريج، وسوق الخشابين<sup>(١)</sup>، وكانت سوق العطارين من أهم الأسواق، وكانت به تجارة التوابل، التي تصدر إلى المغرب ودول أوروبا وتحمل إليها من المشرق<sup>(٢)</sup>.

كما كانت الشوارع الرئيسية بالإسكندرية مشهورة بحوانيتها وبائعياتها وأسواقها، فقد ذكر النويري مما نهبه القبارصة: حوانيت الصاغة وحوانيت الصرف وحوانيت الشماعين<sup>(٣)</sup>، وحوانيت شارع المرجانين الذي يختص بصناعة المرجان وتجارته، وحوانيت شارع المحجة<sup>(٤)</sup>.

وبالإضافة إلى كثرة أسواق الإسكندرية واتساعها<sup>(٥)</sup>، فقد تميزت عن غيرها من مدن مصر، بأنها كانت مقنطرة (أي مغطاة)، فيذكر المقرئزي: (أن أسواقها وشوارعها وأزقتها كانت مقنطرة كلها لا يصيب أهلها شيء من المطر)<sup>(٦)</sup>

وأما أهم البضائع التي كانت تعرض في أسواق الإسكندرية فيأتي في مقدمتها الحرير: فكان يمثل الهدية القيمة التي يتبادلها السلاطين مع الملوك، ويقدمه كبار الأمراء للسلاطين، وينعم به السلاطين كهدية قيمة على بعض الأمراء، فقد ذكر أبو المحاسن في أحداث سنة (٧٨٤هـ/١٣٨٠م) لمانزل السلطان لعيادة الطنبغا الجوباني، فرش له الجوباني شقائق الحرير السكندري<sup>(٧)</sup>، أيضاً لما اصطلح السلطان الظاهر برقوق مع الخليفة المتوكل على الله سنة

(١) النويري: الإمام، ج ٢، ص ١٦٦.

(٢) محمد صبحي: مدينة الإسكندرية، ص ١٢٢، ١٢٣.

(٣) النويري السكندري: الإمام، ج ٢، ص ١٧١؛ محمد صبحي: مدينة الإسكندرية، ص ١٢٢، ١٢٣.

(٤) النويري السكندري: الإمام، ج ٢، ص ١٦٦.

(٥) الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الأفاق، ج ١، ص ٣١٩.

(٦) المقرئزي: الخطط، ج ١، ص ١٤٩ - ١٥٠.

(٧) ابن تغري: النجوم، ج ١١، ص ٢٣٨.

(٧٨٤هـ / ١٣٨٠م) بعث السلطان إليه عشرة آلاف درهم وعدة بقج فيها أثواب صوف وقماش سكندري<sup>(١)</sup>.

وذكر ابن تغري بردي أن النشو<sup>(٢)</sup> وهو أحد الوزراء للناصر وقد تم توقيع عقوبة المصادرة على ممتلكاته في سنة (٧١٠هـ / ١٣١٠م) فوجدت في بيته صناديق كثيرة فيها قماش سكندري قد اختلسه، وهذا يدل على قيمته الكبيرة، للتصيص عليه دون غيره<sup>(٣)</sup>، ولما تسلطن الملك المنصور عثمان على مصر (٨٥٧هـ / ١٤٧٠م)، خلع في يوم مبايعته على الخليفة القائم بأمر الله حمزة، و على الأمير الكبير اينال، على كل منهما أطلسين متمرأ، والمتمر شاش حرير مموج بالذهب، من صنع الإسكندرية<sup>(٤)</sup>.

كما كانت الإسكندرية سوقا عالميا للحرير يأتي إليها تجار الحرير الأعاجم وتصدر الأقمشة منها لمصر والشام<sup>(٥)</sup>.

كذلك شهدت أسواق الإسكندرية أنواعا جيدة من الزجاج ، فقد ذكر ابن سعيد أنه يجلب الصافي منه من بلاد الجريد إلى الإسكندرية<sup>(٦)</sup>، كذلك كان

(١) ابن تغري: النجوم ، ج ١١ ، ص ٢٦٢.

(٢) هو شرف الدين عبد الوهاب بن التاج فضل الله المعروف بالنشو (ت ٧٤٠هـ / ١٣٣٩م) كان أبوه كاتباً عند الأمير بكتمر الحاجب، وهو ينوب عنه، ثم انتقل لمباشرة ديوان الأمير بكتمر الجمدار، ثم تدرج في الخدمة السلطانية حتى تولى نظر الخاص، فبلغ شأنا عظيما، غير أن مظالمه أدت إلى كساد حال الدولة في عهد الناصر محمد بن قلاوون، مما أدى إلى تغيير الناصر عليه وأمر بقتله، وقد فرح الناس بهلاكه، وقد قيل فيه:

النشو لا عدل ولا معرفة قد آن لأقدار أن تصرفه  
من أئلف الناس وأموالهم فحق للسلطان أن يتلفه

انظر: أبو الفداء: المختصر، ج ٣، ص ١٣١؛ سرور: دولة بني قلاوون ، ص ١١٢.

(٣) ابن تغري: النجوم ، ج ٩ ، ص ١٣٩.

(٤) ابن تغري: النجوم، ج ١٦ ، ص ٢٣.

(٥) النويري السكندري: الإلمام، ج ٢، ص ١٧١، ويذكر أنه قد نهبت مخازن الحرير الذي قدم به تجار الأعاجم وقماش التجار المصريين والشاميين المخزونة للسفر بها لمصر والشام من قبل القبارصة.

(٦) ابن سعيد: الجغرافيا، ص ١٢٧؛ كما ذكر ذلك القلقشندي في صبح الأعشى، ج ٥، ص ١٠٨.

يستخرج النطرون من البحيرة والفاقوسية، ويحمل إلى الإسكندرية، وقد بلغ من قيمته الاقتصادية أن احتكره السلطان مدة حتى بلغ القنطار منه مبلغ ٣٠٠ درهم وهو مبلغ ضخم بمقياس ذلك العصر، وما ذلك إلا لدخوله في عدة استخدامات فقد كان يحتاجه الأطباء والكحالون وغيرهم، ولقد كان يحمل من موطنه إلى أسواق الإسكندرية والقاهرة تحت نظر الاستادار، ثم يخزن ويبيع<sup>(١)</sup>، ووضعته تحت نظر الاستادار يدل على أهميته أيضاً، ثم التتصيص على كونه يجلب إلى أسواق الإسكندرية والقاهرة يدل على كون المدينتين مركزي توزيع له، أيضاً اعتبر الشب من السلع المرغوب فيها لاستخدامه في الصبغ الأحمر، ولكون الروم آنذاك يرغبون فيه رغبة شديدة لفوائده عندهم<sup>(٢)</sup>، وعلى الرغم من أن موطنه في بلاد الصعيد والواحات إلا أن الإسكندرية كانت سوقه الرئيسية، فكان أكثر ما يباع منه في المتجر بالإسكندرية خمسة آلاف قنطار، لأنه لا يشتريه سوى الديوان السلطاني<sup>(٣)</sup>، كذلك كانت الإسكندرية مركز التوزيع الرئيسي للمرجان، فقد كان يحمل إلى أسواقها فيبيع بضعفي ثمنه الأصلي أو ثلاثة أضعافه، ومنها يحمل إلى سائر البلاد، ويختلف سعره بحسب قرب البلاد وبعدها<sup>(٤)</sup>، وقد خصص بالإسكندرية شارع سمي باسم شارع المرجانيين<sup>(٥)</sup>، هذا بالإضافة إلى الأحجار الكريمة كالزمرد واللازورد والزبرجد وهو فستقي اللون شفاف، وكان يستخرج بالنبش من الآثار القديمة بالإسكندرية، ولأنه من أجود الأحجار الكريمة لا يكاد البصر يقلع عنه، لرقه مائه وحسن صفائه ولا سيما الأخضر المعتدل إلى الخضرة، لذا كان الأثرياء حريصون على اقتنائه<sup>(٦)</sup>.

(١) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٣، ص ٤٥٦ - ٤٥٧.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٣، ص ١٥٥، ٤٥٦.

(٣) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٣، ١٥٥.

(٤) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٢، ص ١١٦.

(٥) محمد صبحي: مدينة الإسكندرية، ص ١٢٢، ١٢٣.

(٦) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٢، ص ١١٠.



وبالإضافة إلى ذلك فقد كانت أسواق الإسكندرية مليئة بالفواكه التي كانت تزرع في بساتين مريوط، وحول ضفتي خليج الإسكندرية، ثم تحمل إليها لتباع هناك<sup>(١)</sup>، كذلك الرياحين والورود والبنفسج والنرجس، والياسمين واللبان والنيلوفر (دوار الشمس)، وأزهار الحمضيات، والريحان الفارسي والذي كان يكثر بالإسكندرية<sup>(٢)</sup>.

وهذا يدل على الحالة الاقتصادية العالية لأهل النغر لأن اقتناء وشراء مثل هذا يدل على حالة اقتصادية مستقرة لأنها تعد من الكماليات لا من الأساسيات الضرورية، ولكثرة أسواق الإسكندرية وتنوع سلعها ذكر ابن دقماق أنها لما زارها وجدها رابحة التجارة<sup>(٣)</sup>.

ومما كان يزد على الإسكندرية من تجارة المشرق: التوابل والأحجار الكريمة والبحار، والبنور، ومواد الصباغة والعقاقير الطبية، ومن الغرب الأوروبي كانت تأتيها سلع وبضائع مختلفة من أهمها الأخشاب وهي ضرورية لبناء الأساطيل التي طالما احتاج إليها المماليك في بناء أساطيلهم وسفنهم الحربية بالإضافة إلى معدن الحديد والنحاس، والفضة والذهب، والزيت والعسل والزبيب واللوز والفراء وبعض المنسوجات المذهبة<sup>(٤)</sup>.

(١) القلقشندي: صبيح الأعشى، ج ٣، ص ٣٨٦، لقد انتشرت آلاف الأفدنة والغيطان المزروعة حول ضفتي خليج الإسكندرية، لكن لم يلبث أن سدت الرمال الخليج وتلفت الحقول والبساتين وتلاشت القرى من حوله، ولما أعاد برسباي حفر الخليج، لم تعد البساتين كما كانت من ذي قبل إذ أخذت الإسكندرية تسير نحو الاضمحلال شيئاً فشيئاً، راجع: المقريزي: الخطط، ج ١، ص ٣٠١.

(٢) القلقشندي، صبيح الأعشى، ج ٣، ص ٣٠٨.

(٣) ابن دقماق: الانتصار، ص ١٢٥ - ١٢٦.

(٤) محمد صبحي: مدينة الإسكندرية، ص ١٢٢، ١٢٣؛ ناجلا محمد: العلاقات السياسية والاقتصادية بين مصر والبنديقية، ص ١٦٠؛ عفاف صبره: العلاقات بين الشرق والغرب، ص ١٦٦.

وساعد على ذلك وجود ثلاث موانئ بها، الميناء الشرقي لاستقبال السفن الأوروبية، والغربي لاستقبال سفن المغاربة وميناء أبي قير لاستقبال سفن قبرص والشام<sup>(١)</sup>.

وقد عمل سلاطين المماليك على توفير كافة السبل الكفيلة براحة التجار من توفير الأمن لهم ولبضائعهم و تسهيل الإجراءات التجارية الخاصة بهم فعلى سبيل المثال في عام (٨٩٤هـ/١٤٨٨م) جاءت جماعة من تجار الإسكندرية يشكون من نائبها بأنه جار عليهم في الظلم والمصادرات، فأرسل إليه السلطان يحذره من ذلك<sup>(٢)</sup> إلا أنه لا يمنع أن يستولي الأمراء على المتاجر، كما كان من شأن الأمير بيدرا ، حيث استولى نوابه على المتاجر بالإسكندرية، فلما اقترب السلطان الأشرف من الإسكندرية أرسل وزيره ابن سلعوس لتجهيز الأقمشة، فلم يجد بها شيئاً، فاستشاط السلطان غضبا عليه<sup>(٣)</sup>، وقد كان للتجار نقابة خاصة بهم عرفت بالكارميين<sup>(٤)</sup> لحمايتهم وحماية تجارتهم، وقد كثر ثراءهم وعظم نفوذهم وأقرضوا السلاطين في أوقات الأزمات<sup>(٥)</sup>، وأصبحت تلك الثروة التي جمعوها من تجارتهم مطمع السلاطين الجراكسة، فاحتكر سلاطين المماليك تجارة الكارم واصبح لهم تجار يعملون لحسابهم مثل علي الكيلاني تاجر السلطان المؤيد شيخ، وابن عليية السكندري (ت ٨٩٠هـ/١٤٨٥م) تاجر السلطان قايتباي<sup>(٦)</sup>، فوجود (تاجر السلطان) بالإسكندرية يؤكد أن كثيرا من أمراء

(١) نجلا محمد: العلاقات السياسية والاقتصادية بين البندقية ومصر ، ص ١٥٣.

(٢) ابن إياس: بدائع الزهور ، ج ٣، ص ٢٦٧.

(٣) العيني: عقد الجمان، ج ٢، ص ٢٠١.

(٤) أخذت إسمها من الكارمية هم فئة التجار الذين كانت بيدهم تجارة البهار الواردة إلى مصر من الهند عن طريق اليمن، وكان معظمهم في الأصل من أهل بلاد الكانم الإسلامية، الواقعة بين بحر الغزال وبحيرة تشاد بالسودان الغربي ، فنسبوا إلى موطنهم بعد تحريف اللفظ، ثم صار هذا الاسم يطلق على الذين يمارسون هذه التجارة بمصر، انظر: القلقشندي:

صبح الأعشى، ج ١، ص ٢٥٣، ج ٣، ص ٤٦١، ٤٦٨، ٤٦٩، ج ٤، ٣٢، ج ٥، ٢٨٠ — ٢٨١.

(٥) المقرئزي: السلوك، ج ١، ق ٣، ص ٩٥٥.

(٦) ابن إياس: بدائع الزهور، ج ٤، ص ٢٢١.

وسلاطين المماليك كانوا يستثمرون أموالهم في المجال التجاري إما بتوظيف تجار لحسابهم أو عقد مشاركات مع تجار ليتاجروا بالنيابة عنهم<sup>(١)</sup>.

ومما تميزت به الإسكندرية في بعض العهود أيضا اشتغال النساء بالتجارة، حتى صارت (ست التجار) بالإسكندرية، فقد ماتت ست التجار فاطمة بنت محمد بن أبي القاسم ابن عبد الله الصقلي بها في طاعون سنة ٧٤٩هـ/١٣٤٨م<sup>(١)</sup>.

**ثالثا الصناعة :** فلم يقتصر النشاط الاقتصادي في الاسكندرية على الأنشطة التجارية وحدها، فقد اشتهرت الإسكندرية بأنواع من الأنشطة الصناعية ميزتها عن باقي بلدان القطر المصري المملوكي، وشاركت بعض البلدان الأخرى في بعض الصناعات، كصناعة الأقمشة والمنسوجات حيث وجد بالإسكندرية مصنع النسيج المملوكي، والذي أطلق عليه في ذلك العصر بـ (دار الطراز)، وكانت هذه الدار قريبة من باب البحر كما ذكر النويري<sup>(٣)</sup> وكانت دار الطراز على نوعين، الخاصة وهي المصانع التي تقوم بإعداد نسيج الخفاء والسلاطين وكبار رجال الدولة، والعامية وهي المصانع التي تقوم بعمل نسيج عامة الشعب<sup>(٤)</sup>.

وقد تكلم المؤرخون عن هذه الصناعة الفريدة في الإسكندرية، مما جعل القماش السكندري تحفة الأقمشة في العالم وجعل الإسكندرية المصدر له لكل أقطار الأرض، ويذكر الصفيدي في ترجمته لأحد علماء الشام أنه كان يلبس

(١) إيرا لادوس: مدن إسلامية، ص ٢٠١، أيضا لما عزل الناصر محمد والي الثغر ركن الدين بييرس سنة (٧٤٠هـ/١٣٣٩م) اثر شكوى من بعض أهالي الثغر، ثبت أن حصيلة أرباحه في السنة من جراء متاجرته في أصناف الخمر، بلغت ٣٠ ألف دينار، غير ما كان عنده من عقارات وبساتين، بلغ ثمن أقل بستان ألف دينار، انظر: المقريزي: السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٣٠٩، ٥٠٥؛ ابن تغري بردي: النجوم، ج ٩، ص ٣٢٥.

(٢) ابن فهد: لحظ الألباظ، ص ١٢٠.

(٣) النويري: الإمام، ج ٦، ص ٤٠٣.

(٤) حسن الباشا: موسوعة العمارة والآثار والفنون، ج ٢، ص ١٣٧.

القماش المنسوج المخطط على هيئة القفص، والذي يعرف (بالمقصد)، وهو مما اشتهرت الإسكندرية بصناعته (١).

يقول القلقشندي: ( وفيها نسيج القماش الفائق، الذي ليس له نظير في الدنيا.. وتميز قماشها جميع أقطار الأرض) (٢)، ويقول المقرئزي: ( والثياب المنسوجة بالإسكندرية لا نظير لها وتحمل إلي أقطار الأرض) (٣).

والظاهر أن دار الطراز أو صناعة المنسوجات تميزت به الإسكندرية قبل العصر المملوكي فقد ذكروا أنها وجدت أيام الفتح الإسلامي في عهد الخليفة عمر بن الخطاب، واستمرت لما بعده من العصور الإسلامية (٤)، بل يمكننا القول بأنها كانت قبل ذلك، فقد أهدى المقوقس (جريج بن مينا) صاحب الإسكندرية إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم هدايا من ضمنها جاريتين (مارية وأختها سيرين) و حلة حرير من عمل الإسكندرية (٥)، ولقد ازدهرت (دار الطراز) في العصر المملوكي، واشتهرت اشتهاً كبيراً، ويرجع السبب في ذلك إلى عدة عوامل، لعل على رأسها أنها كانت محل نسيج كسوة الكعبة، و الملابس السلطانية، والخلع والتشريفات (٦)، ومنها تحمل هذه المنسوجات إلى خزنة كسوة الكعبة، أو الخزنة الظاهرية الكبرى التي تحفل بهذه المنسوجات من أنواع القماش الفاخر مما يدل على عظم المملكة (٧).

ومن الجدير بالذكر أن كسوة الكعبة كانت تصنع في دور الطراز بتتيسر وشطاً ودمياط، إلا أن الإسكندرية دور الطراز بها بدأت تشارك في هذا بعد

(١) الصفيدي: أعيان العصر، ج ١، ص ٢٣٦.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٣، ص ٤٠٨.

(٣) المقرئزي: الخطط، ج ٢، ص ٣٠١، ٣٠٣.

(٤) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٣، ص ٤٧٦، ج ٤، ص ٧؛ المقرئزي: الخطط، ج ١، ص ٤١٣.

(٥) ابن كثير: البداية والنهاية، م ٤، ج ٧ / ص ٧٦.

(٦) أبو الفدا: المختصر، ج ٤، ص ٩٨؛ النويري: الإمام، ج ٦، ص ٤؛ المقرئزي: السلوك، ج ٣،

ق ١، ص ٤١.

(٧) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٣، ص ٤٧٢.

ذلك، كما أشار إليه المقرئزي في حوادث سنة (٧١٩هـ/١٣١٩م)، فقد ذكر أن السلطان الناصر محمد حج في هذه السنة وأمر بتجهيز ثياب أطلس برسم كسوة الكعبة<sup>(١)</sup>.

ولقد كان نسج الثياب في دار الطراز من المكرمات والتشريفات السلطانية، فقد ذكر القلقشندي أن من أراد أن يشرفه السلطان عند ولاية وظيفة أو إنعام فإنه يخلع عليه من هذه المنسوجات التي كانت لها دارة مقيمة بعمله بالإسكندرية، تعرف بدار الطراز<sup>(٢)</sup>، ويذكر اليونيني أن الملك الظاهر لما أراد أن يكرم الملك المنصور صاحب حماه - وكان قد سأل التوجه للإسكندرية - أمر متولي الثغر أن يحمل إليه في كل يوم من بيت المال مائة دينار، وأن ينسج له في دار الطراز<sup>(٣)</sup>.

وذكر القلقشندي أنه كان يحمل إلى خزانة الخاص: (الأقمشة المختلفة الصفات؛ من الحرير والمقترح المخوص بالذهب، والتفاصيل المنقوشة بضروب النقوش المختلفة، وغير ذلك من رقيق الكتان وغيره مما لا يوجد مثله في قطر من أقطار الأرض، ومنه تتخذ الأقمشة التي يلبسها السلطان وأهل دوره، ومنه تعمل الخلع والتشريف التي يلبسها أكابر الأمراء وأعيان الدولة وسائر أهل المملكة، ومنه تبعث الهدايا والتحف إلى ملوك الأقطار)<sup>(٤)</sup> ولم تقتصر دار الطراز على نسج الكسوة والملابس الخاصة فحسب، بل ربما كانت تختص بالكسوة التي تحتاج إليها بعض الاحتفالات العامة، فقد ذكر ابن المأمون في تاريخه في أحداث سنة (٥١٧هـ/١١١٢م) أنه كانت هناك

(١) المقرئزي: التبر المسبوك، ص ١٠٠، ١٠١، السلوك، ج ٢، ق ١، ص ١٩٥، ابن تغري بردي: النجوم، ج ٩، ص ٥٨. ولمعرفة المزيد عن كسوة الكعبة وتطور صناعتها، والمراحل التي تمر بها منذ تصنيعها وحتى إرسالها إلى مكة المكرمة، انظر: عبد المنعم ماجد: نظم دولة سلاطين المماليك، ج ٢، ص ١٤٤.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ٧.

(٣) اليونيني: الذيل، ج ٢، ص ٣٦١.

(٤) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ١١، ص ٤٢٦.

كسوة مختصة بالنيروز من دار الطراز بالإسكندرية<sup>(١)</sup>، ويذكر لنا المؤرخون أنه اقترح بالإسكندرية قماشاً سموه (جر العامود)، لللبس النساء من الحرير<sup>(٢)</sup>.  
أيضاً من أنواع المنسوجات التي كانت تقوم بنسجها دار الطراز، المنسوجات الحريرية والكتانية والقطنية<sup>(٣)</sup>، أما المنسوجات الصوفية فكانت تحمل إلى الإسكندرية من بلاد الجريد<sup>(٤)</sup>.

واستمرت دار الطراز تؤدي عملها كمنشأة اقتصادية هامة في العهد المملوكي، وقد عرف السلاطين أهميتها فأولوها عناية كبيرة، فوكلوا إدارتها إلى أحد أعيان الثغر، والذي كان يسمى بـ (ناظر الطراز)، وكان يتبع في أدارته السلطان، واستمر هذا الوضع حتى العصر الجركسي للدولة، فصارت دار الطراز تتبع ناظر الإسكندرية، الذي تولى النظر في شؤونها<sup>(٥)</sup>، وقد اهتم السلاطين بدار الطراز فعلى سبيل المثال حين تعرضت للحريق الذي أشعله القبارصة في عام (٧٦٧هـ/١٣٦٥م) سرعان ما أعيد تعمير الدار وزارها الأشرف شعبان بنفسه، وجعل يطوف على الأنوال<sup>(٦)</sup> يبصرها، ويدخل رأسه تحتها لينظر أسفلها، وينظر على الصناعات كيف ينسجون وإلى مكائهم كيف

---

(١) ابن المأمون البطائحي: من أخبار مصر، ص ٦٥. ولم أعثر في المصادر المملوكية على توقف هذه العادة أو استمرارها، في العهد المملوكي، والله أعلم.

(٢) انظر تفاصيل وقعة العامود التي حدثت بالقاهرة في كلا من: المقرئزي: السلوك، ج ٣، ق ١، ص ٢٥١، ٢٥٢؛ ابن تغري بردي: النجوم، ج ١١، ص ٦٧، ٧٠.

(٣) وقد كانت هذه الأقمشة محل إعجاب الغرب الأوربي، حيث إن البابوية كانت تستورد القماش السكندري لكسوة جدران وأعمدة الكنائس كذلك كانت سيدات الطبقة الراقية يرتدين ملابس مصنوعة من القماش السكندري، انظر: ناجلا محمد: العلاقات السياسية والاقتصادية بين مصر والبنديقية، ص ١٦٢.

(٤) ابن سعيد: الجغرافيا، ص ١٢٧؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٥، ص ١٠٨.

(٥) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٣، ص ٤٩٤، ج ١١، ص ٤٢٥ - ٤٢٦.

(٦) النول: أو (المنوال) وجمعه (أنوال)، وهو الخشب الذي يلف عليه الحائك الثوب، الرازي: مختار الصحاح، ص ٦٠٣.

يرمونها<sup>(١)</sup> وكان العاملون بدار الطراز من الفنيين المهرة، وربما كان يأتي إليها من خارج الثغر، فقد ذكر النويري أن الشيخ أبا عبد الله محمد بن يوسف البغدادي كان من هؤلاء الطرازين<sup>(٢)</sup>، والظاهر أنه من الفساجين البغاددة الذين استوطنوا الثغر.

واستمرت صناعة النسيج قائمة طيلة العهد المملوكي الأول (المماليك البحرية) ، ولم يذكر المؤرخون لها توقفا إلا مدة الفناء الكبير الذي ضرب مصو المملوكية عام (٧٤٩هـ / ١٣٤٨م)<sup>(٣)</sup> ، وكذا في وقعة القبارصة عام (٧٦٧هـ / ١٣٦٥م)<sup>(٤)</sup> ، أما في العهد الثاني للدولة (المماليك الجركسية) فقد تدهورت صناعة النسيج جدا، حتى تناقصت عدد الأنوال من ١٤٠٠٠ ألف نول إلى ٨٠٠ نول فقط في عام (٨٣٧هـ / ١٤٣٣م)<sup>(٥)</sup> ، واستمر هذا التدهور في عهد برسباي وما بعده وطال دار الطراز، واستقر الأمر على المصانع الأهلية، التي تدهورت هي الأخرى بسبب الضرائب التي كانت تفرض على أصحابها<sup>(٦)</sup>.

**صناعة السفن والشواني:** اشتهرت الإسكندرية قديما بصناعة السفن، فكان بها دار للصناعة في شرفها كانت قائمة إبان الفتح الإسلامي لمصر، وقام بتجديدها عبد الله ابن سعد بن أبي سرح رضى الله عنه<sup>(٧)</sup>.

وقد اهتم المماليك بهذه الصناعة، فانشأوا دارا أخرى والتي عرفت بدار الصناعة الغربية، تميزا لها عن الشرقية، وقد ذكر النويري السكندري هذه الدار في تاريخه لواقعة القبارصة، مما يمكننا أن نعرف أنها كانت تحمي بمجانيق ،

(١) النويري السكندري: الإمام، ج٤، ص٤ - ٥.

(٢) النويري السكندري: الإمام، ج١، ص٨٣، ٨٤، ج٤، ص٢٩٥ - ٢٩٦.

(٣) المقرئزي: السلوك، ج٢، ق٣، ص٧٧٧.

(٤) النويري السكندري: الإمام، ج٦، ص١٧٧.

(٥) ابن حجر: إنباء العمر، ج٣، ص٥١٦.

(٦) السيد عبد العزيز السالم: تاريخ الإسكندرية، ص٥٢٨ - ٥٢٩.

(٧) السيد عبد العزيز السالم: تاريخ الإسكندرية، ص٤٩٤.

وكانت السفن تصنع بداخلها<sup>(١)</sup>، حيث تعددت أنواعها وأصنافها، فمنها الشواني<sup>(٢)</sup>، والأغربة<sup>(٣)</sup> والطرائد<sup>(٤)</sup>.

وبانتهاء واقعة القبارصة، قام ابن عرام نائب الإسكندرية بتجديد أبواب دار الصناعة الشرقية بعدما أحرق القبارصة أبوابها، وقام بتحسين دار الصناعة الغربية بمشط حربي ضخم يرفع ويخفض على لوالب الأتراس<sup>(٥)</sup>. وقد اهتم السلاطين بهذه الدور، فزارها الظاهر بيبرس سنة (٦٥٩هـ/١٢٦٠م)، (ونزل بنفسه إلى دار الصناعة ورتب ما يجب ترتيبه)<sup>(٦)</sup> ثم قام الأشرف شعبان سنة (٧٧٠هـ/١٣٦٨م) بزيارة دار الصناعة الشرقية للاطمئنان على سير العمل بها ورأى ما فيها من الشواني الغزوانية، والمجانيق<sup>(٧)</sup> الشيطانية، والتي رموا بها أمامه فاستحسن رميها<sup>(٨)</sup>.

(١) النويري السكندري: الإمام، ج ٢، ص ١٧٧.

(٢) الشيني: هي سفن كبيرة لحمل المقاتلة للجهاد، وكان يقام بها أبراج وقلاع للدفاع والهجوم، وكان متوسط ما يحمله الشيني الواحد ١٥٠ رجلا، انظر: سعاد ماهر: البحرية في مصر الإسلامية، ص ٣٥٢.

(٣) غراب: والجمع أغربة وغربان، وهي نوع من المراكب الحربية التي تستخدم في عمليات الاستطلاع والتجسس، انظر: إبراهيم حسن: البحرية في عصر سلاطين المماليك، ص ٢٣٢.

(٤) هي سفن حربية مفتوحة المؤخرة بأبواب تفتح وتغلق، معدة لحمل الخيل، المرجع السابق، ص ٢٣٠. فقد ذكر النويري أن الأمير يلبغا الخاشكي، حين دخل الإسكندرية عقيب وقعة القبارصة أمر بعسارة المراكب الغربان والطرائد للنار من الفرنج، انظر: الإمام، ج ٢، ص ٢٠٨.

(٥) السابق، ج ٦، ص ١٠ - ١١.

(٦) المقرئزي: السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٤٤٦ - ٤٤٧.

(٧) المنجنيق: أداة ترمى بها الحجارة أو كتل الحديد أو القذور الفخارية أو الزجاجية التي تملأ بالنفط على الأعداء، إبراهيم حسن: البحرية في عصر سلاطين المماليك، ص ٢٤٢.

(٨) النويري السكندري: الإمام، ج ٦، ص ١٠ - ١١.



واشتهر من رؤساء دار الصناعة (إبراهيم التازي) لما له من بلاء حسن في الجهاد وبطولات حربية مشهورة أرخها النويري في غير ما موضع من كتابه<sup>(١)</sup>.

كذلك صاحب صناعة السفن صناعة حربية أخرى هي صناعة السلاح، فقد وجد بالإسكندرية (قصر السلاح)، وهو مخصوص للأسلحة وأدوات الحرب، ويشمل سبع قاعات، في كل قاعة عدة بيوت وفي كل بيت آلاف مؤلفة من السهام والسيوف والرماح وغيرها من آلات الحرب<sup>(٢)</sup>، وعلى الرغم من ذلك إلا أنه في واقعة الإسكندرية لم يحرق القبارصة هذه الدار خوفا من أن يكون كميناً للمسلمين أو يكون مسجداً، فإذا هدموه هدمت بمصر كنائسهم وذلك أن الملك المنصور قلاوون رسم في أيام دولته بهدم كنائس النصارى<sup>(٣)</sup>، وكان قصر السلاح وقت الواقعة ممتلئاً حتى قال ابن شاهين الظاهري عنه: (لو جاء إليه أهل الديار المصرية لكفاهم في اللبوس)<sup>(٤)</sup>.

ومعلوم أن مثل هذا العدد الكبير يجعل (قصر السلاح) ليس مجرد مخزن للأسلحة، بل نتوقع أن يكون قسم منه لتصنيع الأسلحة وصيانتها، ويدل على ذلك أيضاً أن الأشرف شعبان إبان زيارته للمدينة عام (٧٧٠هـ/١٣٦٨م) تفقد قصر السلاح وذلك بعد واقعة القبارصة بثلاث سنوات، وشاهد ما فيه من الأسلحة الكبيرة من عهد الملوك السابقين، فأمر ببناء قاعة سلاح جديدة ملأها بأسلحة جديدة تسمى باسمه ليذكر بذلك كما ذكروا<sup>(٥)</sup>، ومن اهتمامات سلاطين المماليك

(١) النويري السكندري: الإمام، ج ٥، ص ١٩١، ١٩٦، ٢٧٧، ٢٨٠، ٢٨٩، ٢٩١؛ السيد عبد العزيز السالم: تاريخ الإسكندرية، ص ٤٩٥.

(٢) النويري السكندري: الإمام، ج ٢، ص ١٧٥، السيد عبد العزيز السالم: تاريخ الإسكندرية، ص ٤٨٦.

(٣) النويري السكندري: الإمام، ج ٦، ص ١١ - ١٢؛ السيد عبد العزيز السالم: تاريخ الإسكندرية، ص ٤٨٧.

(٤) ابن شاهين: زبدة كشف الممالك، ص ٤.

(٥) النويري السكندري: الإمام، ج ٤، ص ١٧٠، ج ٦، ص ١١، السيد عبد العزيز السالم: تاريخ الإسكندرية، ص ٤٨٧.

بدار السلاح تجديدها كلما دعت الحاجة لذلك، فتذكر لنا المصادر أنه في عهد الظاهر برقوق عام (٧٩١هـ/١٣٨٨م) قام بتجديد خزائن السلاح<sup>(١)</sup>.

وقد تنوعت الأسلحة والآلات الحربية التي كانت تصنع في الإسكندرية، فيذكر النويري عدداً منها والتي كانت موجودة في قاعة القرافة، فيقول: (... إن فيها آلاف مؤلفة من السهام والرماح والمزاريق والأتراس والخوذ والعنابر والزررد والزرديات والأطوق والقراقلات والسواعد والركب والساقات والأقدام الحديد والقسي السلوية الجرخ والركاب والأعلام .. والحجارة والمدافع والنفط والبارود وحيل الحروب ومكايدها كثير)<sup>(٢)</sup>.

وقد كانت هذه الأسلحة يقام لها عرضاً في الميدان عندما يراد تجربتها يشهده الناس جميعاً، فمن ذلك ما ذكره القلقشندي عندما رأى عرض لأحد هذه المدافع في عهد الدولة الأشرفية، حيث قال: ( وقد رأيت في الدولة الأشرفية شعبان بن حسين في نيابة الأمير صلاح الدين بن عرام رحمه الله، بها مدفعا صنع من نحاس ورصاص، وقيد بإطراف الحديد، رمى عنه من الميدان ببندقية من حديد مُحماه، ف وقعت في بحر السلسلة خارج باب البحر، وهي مسافة بعيدة)<sup>(٣)</sup>.

ضرب السكة : اشتهرت الإسكندرية بأنها صنو القاهرة في سك العملات بالعصر المملوكي، وقد أقيمت هناك داراً سميت بـ (دار الضرب)، ويذكر المقرئ أن دور الضرب في مصر ثلاثة، القاهرة والإسكندرية وقوص<sup>(٤)</sup>، والظاهر أنها كانت منذ عهد الأيوبيين بل والفاطميين، حيث ذكر ابن المماتي أن بالإسكندرية دار تقوم بصهر الذهب والفضة وضرب الدنانير<sup>(٥)</sup>، وذكر القلقشندي

(١) ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج٣، ص ٣٤١.

(٢) النويري السكندري: الإمام، ج٢، ص ١٧٥، ولمعرفة معاني هذه المصطلحات من الأسلحة الحربية انظر: إبراهيم حسن: البحرية في عصر سلاطين المماليك، ص ٢٣٩ وما بعدها.

(٣) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٢، ص ١٤٤ - ١٤٥.

(٤) المقرئ: الخطط، ج١، ص ١٩٥.

(٥) ابن مماتي: قوانين الدواوين، ص ٣٣١.

أيضاً أنه في عهد النائب صلاح الدين خليل بن عرام سكت دنانير عام (٧٧٠هـ/١٣٦٨م)، وكانت تحمل في أحد وجهيها عبارة (محمد رسول الله)، وعلى الوجه الآخر (ضرب بالإسكندرية في الدولة الأشرفية: شعبان ابن حسن عز نصره)، ثم أمسك ابن عرام عن ذلك فلم تكثر هذه الدنانير ولم تشتهر<sup>(١)</sup>.

وتم العثور على بعض الدنانير والدرهم المملوكية مما ضرب بالإسكندرية مما يؤكد استمرار دار الضرب بالإسكندرية في أداء عملها طيلة عهد المماليك الجراكسة أيضاً<sup>(٢)</sup>.

وأنشئت في عهد الجراكسة داراً لضرب النقود النحاسية والتي عرفت بالفلوس، واستورد الظاهر برقوق كميات من النحاس الأحمر من بلاد الفرنج لذلك، إلا أن الغش والتدليس في أوزانها أدى بالأمير يشبك الدوادار إلى إبطال ضرب هذه الفلوس بالإسكندرية فيما بعد<sup>(٣)</sup>.

ولقد وجد في الإسكندرية في العصر المملوكي كل الحرف التي انتشرت في البلاد، لأنها العاصمة الثانية، إلا أننا يمكن أن نجد الإسكندرية قد تميزت في هذا العصر ببعض الحرف دون غيرها من البلاد ومن ذلك حرفة صيد السمك، فلقد كان أهالي الإسكندرية يخرجون بمراكبهم في عرض البحر المتوسط لصيد أسماكه والتي اشتهر منها (الرعاد) و(السرب)<sup>(٤)</sup>، أيضاً كانت هناك بحيرة إتكوا، المعروفة ببخيرة (أبوقير)، وهي بحيرة ماء مالح يخرج من البحر بين الإسكندرية ورشيد ولها خليج صغير مشتق من خليج الإسكندرية، وكان يصطاد منها سمك البوري، الذي يميل منها إلى سائر الأقاليم<sup>(٥)</sup>، وكانت هذه الحرفة تدر مالاً

(١) انقلشندي: صبح الأعشى، ج ٣، ص ٤٣٦ - ٤٣٧.

(٢) سامح عبد الرحمن فهمي: الوحدات النقدية المملوكية في عصر المماليك البحرية، ص ٢٢٧ - ٢٢٨، ٢٣١، ٢٣٤، حيث نشر صور مسكوكات دار الضرب بالإسكندرية في عهد برقوق والمنصور حاجي بن شعبان التي في حدود (٧٩٢هـ/١٣٨٩م)، في عهد الجراكسة.

(٣) المقرئزي: السلوك، ج ٣، ق ٣، ص ١٣٢ - ١٣٣.

(٤) البغدادي: الإفادة والاعتبار، ص ٤٢ - ٤٣.

(٥) شيخ الربوة: نخبة الدهر، ص ١٢١.

وفيراً، ولا سيما وقد تربي على البحيرة أنواع من الطير، وبجوانبها أنشئت الملاحات التي يحمل منها الملح إلى بلاد الفرنج وغيرها<sup>(١)</sup>.

وقد ترتب على حرفة صيد السمك حرفة أخرى وهي تجفيفه وتمليحه<sup>(٢)</sup> واستخراج البطارخ منه<sup>(٣)</sup> لتصديرها، أو بيعها بالثغر، كذلك اشتهرت حرفة التطريز والحياسة فكثر عدد الحياكين المهرة والقزازين والطرزيين بالثغر، وكان القزازون على فئتين، فئة تأخذ الغزل من الناس لكي تنسجه لهم لقاء أجر معلوم، وهي العملية التي عرفت آنذاك باسم (القبالة)، وفئة تشتري الغزل وتنسجه وتبعه أنواع جاهزة، وهم (الحاكة)<sup>(٤)</sup>، وقد كانت الإسكندرية مليئة بهؤلاء الحاكة، فقد بلغ عدتهم كما يقول صاحب النجوم الزاهرة في سنة: (سبع وتسعين وسبعمائة أربعة عشر ألف نول ونيفا)<sup>(٥)</sup>، ثم قل ذلك العدد فيما بعد، وأما صناع الحرير فقد عرفوا باسم (الحريريين) وهم الذين يصنعون الحرير ويصبغونه، وكان بعضهم يبيع الحرير غزلاً لمن يطرز به، وبعضهم ينسجه ويبيعه ملابس، أو يصنعه مع الغزل وثوب الطرح لاستخدامها غطاء للرأس والكتفين<sup>(٦)</sup>، وقد مهر صناع القماش في حياكته وتطريزه، لدرجة أنهم حاكوا في صنعتهم البلدان المتقدمة فيه، فقد ذكر السيوطي أنه يعمل بالإسكندرية (الوشى)<sup>(٧)</sup> الذي يقوم مقام وشي الكوفة<sup>(٨)</sup>، وكان ثمن الثوب يرتفع بارتفاع نوع وطريقة حياكته وأيضاً ما يكون فيه من المشغولات والمطرزات.

(١) اتقلشندي: صبح الأعشى، ج ٣، ص ٣٢٣.

(٢) امقريزي: الخطط، ج ١، ص ١٩١.

(٣) ابن شاهين: زبدة كشف الممالك، ص ١٠٩.

(٤) ابن الحاج: المدخل، ج ٢، ص ٢٤٣.

(٥) ابن تغري بردي: النجوم، ج ١٥، ص ٣٨.

(٦) ابن الحاج: المدخل، ج ٤، ص ٢٣٩ - ٢٤٠.

(٧) الوشى: انواع من أنواع الثياب المصنوعة من الحرير والمحلة بخيوط الذهب، انظر:

الرازي: مختار الصحاح، ص ٦٣٨.

(٨) السيوطي: حسن المحاضرة، ج ٢، ص ٣٢٦.

يقول المقرئزي: (..وفي ثياب الإسكندرية ما يباع الكتان منه إذا عمل ثياباً يقال لها الشرب، كل زنة درهم بدرهم فضة، وما يدخل في الطرز يباع بنظير وزنه مرات عديدة)<sup>(١)</sup>.

إلا أن حال الحاكة والطرزين لم يدم بسبب تغلب الدولة عليها، فقد ذكر غير واحد من المؤرخين أنه في حوادث سنة (٨٣٧هـ/١٤٣٣م) أحضى في الإسكندرية (٨٠٠) نول فيما كان عددهم في سنة (٧٩٧هـ/١٣٩٤م) (١٤٠٠٠) نول<sup>(٢)</sup>، كذلك اشتهرت الإسكندرية بصناعة الأواني الزجاجية و الخزفية، لقدم هذه الصناعة بها، فقد كانت مركزاً من مراكزها قبل الفتح الإسلامي لمصر، فقد عرفت الإسكندرية بصناعة التحف الفخارية الصغيرة كالكووس ذات الألوان الخضراء، المتخذة اللون الأصفر من الداخل، أما الزجاج فكان يصنع منه الأواني والقارورات والأختام، وقد ذكر سفير غرناطة حين أقلم بالإسكندرية في ضيافة نائبها أنهم قدموا له شراب السكر المذاب في أواني زجاج رائعة نالت استحسانه<sup>(٣)</sup>.

#### \* العوامل التي أدت إلى تدهور النشاط الاقتصادي آخر العهد المملوكي:

ورغم اهتمام سلاطين المماليك بالنشاط الاقتصادي في الإسكندرية، فقد شهدت تدهوراً اقتصادياً في بعض الأوقات، وخاصة في العهد المملوكي الثاني، ويرجع هذا التدهور بالدرجة الأولى إلى عوامل طبيعية تعرضت لها المدينة خاصة، ومصر المملوكية عامة، من نكسات اقتصادية بسبب الجفاف الناجم عن نقصان ماء النيل، أو الأوبئة ولا سيما الطاعون، أو الزلازل، وكانت هذه الكوارث تسبب المجاعات والتدهور الاقتصادي ولقد كان للتغر نصيب كبير في ذلك، لأنه جزء من مصر، ثم إن المجاعات إذا اجتاحت الريف المصري نزع الفلاحون والعربان إلى كبريات المدن المصرية بحثاً عن الطعام، يذكر صاحب زبدة الفكرة في حوادث سنة (٦٩٤هـ/١٢٩٤م) أنه: ( قصر النيل بالديار

(١) المقرئزي: الخطط، ج ٢، ص ٣٠٣.

(٢) ابن حجر: إنباء الغمر، ج ٣، ص ٥١٦.

(٣) السيد عبد العزيز السالم: تاريخ الإسكندرية، ص ٥٢٩، ٥٣١، ٥٩٤.

المصرية تقصيراً قلق له الناس وحصل منه البأس .. وابتدأ الغلاء في الغلال  
والفناء في النساء والرجال .. وأجذب الوجه الغربي من برقة وأعمالها.. فهلك  
أهلها جوعاً وعطشاً، فساقهم القحط والحر إلى اتجاه ديار مصر فورد منهم إلى  
الإسكندرية والبحيرة أمم تتجاوز الإحصار..<sup>(١)</sup> ثم ذكر كثرة الموتى والفناء  
الذي حل بالناس حتى تواترت الغلال إلى الإسكندرية من جزيرة صقلية  
والقسطنطينية وبلد الفرنجة<sup>(٢)</sup>، كما كان للزلزال الكبير الذي ضرب الإسكندرية  
سنة (٧٠٢هـ/١٣٠٢م)، والأوبئة التي اجتاحتها على مدى العصر المملوكي  
كله<sup>(٣)</sup>؛ أثره البالغ على تدهور النشاط الاقتصادي بها<sup>(٤)</sup>.

ومما ساعد أيضاً على تدهور الحالة الاقتصادية، حدوث بعض  
الاضطرابات السياسية بين طوائف المماليك واندلاع نار الفتن بينهم، حيث تولد  
عن ذلك حالة من عدم الاستقرار الداخلي أدت إلى هزات اقتصادية كبيرة  
انعكست آثارها على البلاد<sup>(٥)</sup>، بما فيها ثغر الإسكندرية، ففي سنة  
(٦٩٣هـ/١٢٩٣م) جاءت الأنباء بمقتل السلطان الأشرف خليل: وخلت  
الطرق والأسواق من روادها، واختفى الخبز من الأسواق، وقاسى الناس شدة  
عظيمة<sup>(٦)</sup>، وكان وزير الأشرف، ابن السلوس<sup>(٧)</sup> في الإسكندرية في ذلك الوقت  
قد طلب سائر التيارات وأرباب الأموال والمكارم وشرع في مصادرتهم وإهانتهم،  
فكثر الظلم والعسف عليهم، (وطلب والي الإسكندرية بدر الدين الجاكي، و كان

(١) ببيرس الدوادر: زبدة الفكرة، ص ٢٨٧.

(٢) ببيرس الدوادر: زبدة الفكرة، ص ٢٨٧.

(٣) انظر الأوضاع الاجتماعية من الفصل الأول ص ١١٠ من هذا البحث.

(٤) انظر ص ١٠٨ من هذا البحث.

(٥) انظر: المقرئزي: السلوك، ج ٣، ق ١، ص ١٦٤؛ ابن تغري بردي: النجوم، ج ٥، ص ٤٠١.

(٦) أيبك الدوادر: الدرّة الزكية في أخبار الدولة التركية، ج ٨، ص ٢٧٣، عن قاسم عبده قاسم

ص ١٦٢.

(٧) ابن السلوس هو: شمس الدين محمد بن عثمان بن أبي الرجاء التتوخي الدمشقي، مات

بعد مقتل الأشرف خليل سنة ٦٩٣هـ، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٨، ص ٥٤.

رجلا ذا دين ومروءة فرسم عليه وأخذ منه مبلغ ألفي دينار وبقيت الإسكندرية في بكاء وعزاء<sup>(١)</sup>.

ويصور ابن إياس أثر الاضطرابات السياسية على الناحية الاقتصادية في حوادث سنة (٨٩٣هـ/٤٨٧م) بقوله: (خرجت هذه السنة عن الناس وهم في أمر مريب، وكانت الأسعار مرتفعة في سائر البضائع، والإشاعات قائمة برجوع عسكر (ابن عثمان) وزحفهم على البلاد الحلبية، وإشاعات قائمة بثوران فتنة كبيرة بمصر بين الجلبان، والأحوال واقفة، والسلطان ناظر إلى الظلم، وأخذ أموال الناس، والأمر إلى الله)<sup>(٢)</sup>.

ومما زاد في سوء الأحوال الاقتصادية في الإسكندرية خاصة، ومصر عامة، تعاقب عدد من سلاطين المماليك على حكم دولة المماليك الجراكسة خلال مدة وجيزة، فقد ذكر ابن إياس أنه تعاقب على عرش السلطنة عام (٨٧٢هـ/٤٦٧م) حكم فيها أربعة سلاطين منهم (خاير بك) الذي يقال له: (سلطان ليلة)، لأنه لم يحكم إلا ليلة واحدة، وأنه وقع بمصر من الفتن والشورور ما يصعب حصره<sup>(٣)</sup>، كما يذكر أيضاً في حوادث سنة (٩٢٢هـ/٥١٦م) ونتيجة لاضطراب البلاد بسبب اعتراض المماليك على السلطان قانصوة الغوري الذي تسرع في إعداد العسكر المملوكي في أربعة أيام بدون تجهيز كامل لمقاتلة الجيش العثماني أن: (اضطرب أحوال العسكر وارتجت القاهرة، وعز وجود الخيل والبغال وصارت المماليك يهجمون الطواحين ويأخذون منها الخيول والبغال والأكاديش، فغلقت الطواحين قاطبة، وامتنع الخبز من الأسواق، وكذلك الدقيق، ووقع القحط وقع بين الناس وضج العوام، وكثر الدعاء على السلطان،

(١) العيني: عقد الجمان، ج ٣، ص ٢٢٨، والترسيم: الإقامة الجبرية، وهو تعويق الشخص ومنعه من التصرف بنفسه، انظر الماجد: نظم دولة المماليك، ص ١٣٦.

(٢) ابن إياس: بدائع الزهور، ج ٣، ص ٢٤٦.

(٣) ابن إياس: بدائع الزهور، ج ٣، ص ١٨.

وغلقت الأسواق والطواحين،...واختفى الصنایعية والخياطون،....وصارت  
أحوال مصر مثل يوم القيامة كل واحد يقول: روى روى<sup>(١)</sup>.

ويضاف إلى الاضطرابات السياسية مشكلة أخرى قريبة منها، وهي  
انعدام الأمن بسبب هجمات العربان، فقد قام عرب هوارة وغيرها من قبائل  
العرب<sup>(٢)</sup> بنهب الإسكندرية أثناء موقعة القبارصة عليها، ووصف النويري ذلك  
بقوله: (.. فتدخل العرب في الليل الدور، وتأخذ ما فضل عن الإفرنج، فلو  
سأمت البلد من العرب والمشاركة، كان قد بقي لغالب أهلها متاعهم وأثاثهم،  
فاستغني من العرب من كان فقيراً، وافترق من أهل البلد من كان غنياً)<sup>(٣)</sup>، كما  
أدت غارات العربان المتكررة على الإسكندرية وغيرها من مدن مصر إلى  
إفساد الزروع ونزل بالفلاحين البلاء والظلم مما يمنع توافر الميرة لأهل المدن<sup>(٤)</sup>  
هذا بالإضافة إلى ما ترتب على غارات القبارصة على المدينة، وخاصة على  
الجانب الاقتصادي كما سبق الإشارة إليه<sup>(٥)</sup>.

كذلك كانت المصادرات أو الاحتكارات التي انتهجها بعض أمراء  
وسلاطين المماليك أحد أسباب كساد أحوال التجارة بالإسكندرية، فعلى سبيل  
الدثال ما قام به النتنو ناظر الخاص عام (٧٣٨هـ/١٣٣٧م) من مصادرة أهلها،  
وطلب عشرة آلاف دينار من الصيارفة قرضاً في نمته، وطلب من ثلاث تجار  
عشرة آلاف دينار، وغرم ابن الربيعي المحتسب بها خمسة آلاف دينار، علاوة  
على إيقاع الحوطة على بعض ممتلكاته وسجنه، حتى توفي في سجنه من أثر

(١) ابن إياس: بدائع الزهور، ج ٥، ص ٢٨.

(٢) لقد سكن الكثير من العرب المنطقة الواقعة ما بين الإسكندرية والعقبة الكبيرة ببرقة، فكان  
منهم عرب زنادة، وهوارة، وغيرهم، انظر للمعرفة المزيد عن ذلك: القلقشندي: قلند  
الجمان في التعريف بقبائل عرب زمان، ص ١٧٥.

(٣) النويري: الإمام، ج ٢، ص ٢٧٠.

(٤) الصيرفي: إنباء الهصر، ص ١٧، ١٤٤-١٤٥؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج ٢، ص ١٢،

١٣، ٤٣، وغيرهما، والميرة: هي الطعام، انظر: الرازي: مختار الصحاح: ص ٥٦٣.

(٥) انظر ما سبق في (الأوضاع السياسية)، ص ٦٢.



التعذيب<sup>(١)</sup>، كما أدى احتكار بعض السلاطين والأمراء الغلال أو بعض الصناعات إلى حدوث هزات اقتصادية عنيفة، يدلنا على ذلك ما ذكره بعض المؤرخين أن بعض السلاطين وكبار الأمراء كانوا يشترون الغلال حين يكون سعرها منخفضاً ويخزنونها إلى حين حدوث الأزمات فيبيعونها بسعر يحقق لهم المكاسب الكبيرة<sup>(٢)</sup>، غير أن بعض السلاطين قاموا بالتدخل لفرض تسعيرة محددة على كبار الأمراء لئلا يتضرر الناس، فقد أمر السلطان الناصر محمد بن قلاوون الأمراء أن يبيعوا القمح والغلال التي لديهم بأسعار حددها بنفسه<sup>(٣)</sup>.

ومن أبرز ما ذكره المؤرخون عن الاحتكارات في الأطعمة في الإسكندرية، ما كان من مرسوم في أعوام (٨٣٢هـ/١٤٢٨م)، (٨٣٣هـ/١٤٢٩م)، (٨٣٥هـ/١٤٣١م) على تجار الفلفل بالقاهرة والإسكندرية يقضي بأن لا يباع الفلفل والتوابل إلا للسلطان الذي كان يشتريه بحساب دون ما يباع على التجار حتى وقع التجار المسلمون والفرنج في بلاء شديد بسبب ذلك<sup>(٤)</sup>.

ومن أبرز نتائج الظلم ما ذكره المؤرخون من أنه صار عدة القزازين<sup>(٥)</sup> في عام (٨٣٧هـ/١٤٣٣م) في الإسكندرية بلغ ٨٠٠ بعد أن كان أحصى عدتهم في (٧٩٧هـ/١٣٩٤م) فكان ١٤٠٠٠، ويعلق ابن الصيرفي في سبب ذلك الظلم بقوله: (ففسا الظلم فيهم من الحكام وكثرة الجور وشؤم السيرة، فتشتتوا في البلاد شذر مذر)<sup>(٦)</sup>، ويؤيده في رأيه أبو المحاسن الذي علق على ذلك بقوله: ( فلنظر

(١) المقرئزي: السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٤٥٢.

(٢) ابن الصيرفي: انبئاء البصر، ص ١٦٢؛ نزهة النفوس، ج ٣، ص ١٤٨، ١٨١، ٢٣٩؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج ٣، ص ٤١-٤٣.

(٣) المقرئزي: إغاثة الأمة، ص ٣٣.

(٤) الصيرفي: نزهة النفوس، ج ٣، ص ١٨٥، ٢٣٥؛ ابن حجر: انبئاء الغمر، ج ٣، ص ٤٢٣.

(٥) أي من يبيع الحرير، نسبة إلى القز وهو الإبريسم (الحرير)، انظر مختار الصحاح: ص ٤٦٨.

(٦) الصيرفي: نزهة النفوس، ج ٣، ص ٢٧٩.

إلى هذا التفاوت في هذه السنين القليلة، وذلك لظلم كثير من ولاة الأمور وسوء سيرتهم، وعدم معرفتهم، لكونهم يطمعون في النزر اليسير بالظلم، فيفوتهم أحوال كثيرة من العدل، والفرق بين العامر والخراب ظاهر<sup>(١)</sup>.

فجميع هذه العوامل وعوامل أخرى أدت إلى تدهور اقتصاد المدينة وجعلها شبه خربه، فيذكر ابن إياس تعليقاً عن خراب الإسكندرية حين دخلها السلطان الغوري سنة (٩٢٠هـ/١٥١٤م) بقوله: ( فلما شق من المدينة زينت له زينة فشروية، وكان ثغر الإسكندرية يومئذ في غاية الترحل والخراب، .. ولم يكن بثغر الإسكندرية يومئذ أحد من أعيان التجار لا من المسلمين ولا من الفرنج، وكانت المدينة في غاية الخراب بسبب ظلم النائب وجور القباض، فإنهم صاروا يأخذون من التجار العشر عشرة أمثال، فامتنع تجار الفرنج والمغاربة من الدخول إلى الثغر، فتلاشى أمر المدينة وآل أمرها إلى الخراب، حتى قيل طأب الخبز بها فلم يوجد ولا الأكل، ووجد بها بعض دكاكين مفتحة والبقية خراب لم تفتح)<sup>(٢)</sup>.

وفي أواخر القرن (٩هـ/١٥م) وبالتحديد في سنة (٨٩٢هـ/١٤٨٧م)، وقع حدث خطير كان له صدى عميق في زلزلة اقتصاد مصر عامة والإسكندرية خاصة، فقد سار برتلينو دياز بحذاء الساحل الغربي لإفريقيا واستمر بإبحاره حتى وصل إلى الطرف الجنوبي للقيارة وأطلق عليه راس الرجاء الصالح، وبدأ منذ تلك اللحظة عصر جديد في تاريخ تجارة الشرق فتحولت جميع دول العالم التي كانت تتعامل مع مصر إلى الأسواق الجديدة التي تميزت عن السوق المصرية برخص منتجاتها، فأصاب ذلك الاقتصاد المصري بخسائر فادحة، فقد قام الأسطول البرتغالي بقيادة البوكيرك بالمرابطة أما البحر الأحمر ليحول دون خروج السفن المصرية نحو المحيط الهندي، وبذلك تحكّم بالطريق التجاري الذي كان يربط مصر بالهند، وضمن لنفسه السيادة على

(١) ابن تغري بردي: النجوم، ج١٥، ص٣٨.

(٢) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٤، ص٤٢٤.

أسواق التوابل<sup>(١)</sup>، وغيرها من حاصلات الشرق الأقصى، وفي المقابل تكدست التوابل وكافة البضائع بالثغر السكندري وغيره من الثغور المصرية حتى لا تجد من يشتريها من التجار الأوروبيين، وذبلت تجارة الإسكندرية وقضى على اقتصادها تماماً<sup>(٢)</sup>، والظاهر أن هذا الخراب والدمار استمر حتى بعد استيلاء الدولة العثمانية عليها، يصور ذلك ما كتبه صاحب رحلة الشتاء والصيف إذ يقول مؤرخاً لزيارته للإسكندرية في القرن العاشر: (ومازلت في الإسكندرية بلا نديم، ولا صديق حميم، مقيماً على الوحشة والأسى، متفكراً في حكم الباري صباحاً ومساءً، فلا أجد بها من ذوي الكمال جليساً، ولا ألتقي ممن تحكي من محاسن الجمال أنيساً، فلا صديق إليه مشتكى حزني، ولا أنيس إليه منتهى جزعي ... .. وكان فيه الرؤساء والتجار والعدد الذي لا يحصى ولكنه بلا مدد، على أنها كانت دار الكرم، ومدار بلوغ المرام .

فتغيرت تلك البلاد وأهلها وغدت حديثاً مثل أمس قد مضى<sup>(٣)</sup>

(١) أحمد السيد دراج: المماليك والفرنج، ص ١٣٢ - ١٣٥، على إبراهيم طرخان: مصر في عهد المماليك الجراكسة، ص ٢٩٣ - ٣٠٢.

(٢) وقد حاول الغوري جاهداً من خلال الأسطول المصري القضاء على البرتغاليين واستطاع هزيمتهم قرب الشواطئ الغربية للهند سنة (٩١٤هـ/١٥٠٨)، لكنهم حطموا الأسطول المصري في العام التالي (٩١٥هـ/١٥٠٩)، في موقعة ديو البحرية، والتي كانت من أهم نتائجها القضاء على الاقتصاد المصري نهائياً، انظر في ذلك: عبد الرحمن الراجحي، وسعيد عاشور: مصر في العصور الوسطى، ص ٥٠٢، آ.أشتور: التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق الأوسط في العصور الوسطى، ص ٤٢٤.

(٣) كبريت: رحلة الشتاء والصيف، ص ١١٣، ١٢٠.

## الأوضاع الاجتماعية

دراسة الأوضاع الاجتماعية تعني تفاعلات البشر مع البشر ومع البيئة فكل منهما يتأثر ويؤثر بالأخر<sup>(١)</sup>، وبمعنى آخر دراسة السلوك الإنساني لأي عصر من العصور.

ولقد تميزت الحياة الاجتماعية في مدينة الإسكندرية خلا العصر المملوكي بعدة ظواهر لعل من أهمها النمو السكاني والهجرات، فلقد كانت الحقبة التي سبقت العصر المملوكي والتي تعرض خلالها المشرق الإسلامي لحملات المغول المدمرة والتي ذهب ضحيتها أعداد كبيرة من المسلمين في كل من إيران والعراق وبلاد الشام<sup>(٢)</sup> فظهرت حركة طرد سكانية من إيران والعراق والشام باتجاه الأراضي المصرية التي كانت تتعم آنذاك برخاء نسبي قياساً بغيرها، وذلك نظراً لظهور دولة المماليك الفتية بها، بالإضافة إلى أن الوجود الصليبي كان ما يزال ماثلاً في سواحل بلاد الشام والذي دفع بالكثير من سكانه في الانتقال إلى الأراضي المصرية<sup>(٣)</sup>.

ولما تولى السلطنة في مصر السلطان سيف الدين قطز<sup>(٤)</sup>، وتوالت الأحداث، وكسر التتار في موقعة عين جالوت، ونجست مصر من الاجتياح

(١) فؤاد الصقار: دراسات في الجغرافيا البشرية، ص ٤٦.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٧، ق ١٣، ص ٢١٣؛ فؤاد الصياد: المغول في التاريخ، ص ٢٤٩-٢٨٢.

(٣) سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ج ٢، ص ١٠٠٨.

(٤) هو الملك المظفر قطز المعزي، تولى السلطنة سنة (٦٥٧هـ/١٢٥٨)، كسر التتار في موقعة عين جالوت، مات مقتولاً بمؤامرة دبرها له الظاهر بيبرس البندقداري، وكان ذلك سنة (٦٥٨هـ/١٢٥٩)، انظر في ترجمته: ابن دقماق: الجوهر الثمين، ص ٢٦٤؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ٨٧؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج ٢، ص ٣٦.

المغولي الذي كان يخلف وراءه الدمار والمذابح الجماعية<sup>(١)</sup>، احتفظت مصر بمعدل ثابت للنمو السكاني<sup>(٢)</sup>.

كما أدت الانتصارات المتتالية على المغول إلى بداية عصر جديد للمماليك له قوته، وشدة بأسه، صار عامل جذب لكثير من المسلمين في العالم الذين يبحثون عن الأمن في فترة ساد فيها الرعب والفرع والهلع للجميع، فهاجر إلى مصر عدد من مسلمي الأندلس هرباً من حروب النصارى للمسلمين في الأندلس، إضافة إلى مسلمي المشرق بعد استيلاء المغول على بغداد، وكذا الكثير من سكان القبيلة الذهبية (القفجاق) بعد أن أسلم أهلها وارتبط حكامها بعلاقات طيبة مع سلاطين دولة المماليك في مصر والشام<sup>(٣)</sup>.

وقد أدى هذا كله إلى وجود (تركيبية سكانية) متميزة اختلفت فيها الأجناس، ونعم الناس فيها بالرخاء في ظل الأمن والأمان الذي توفر في مصر المملوكية، ولم تكن الإسكندرية بمنأى عن ذلك، فقد اجتمع فيها الكثير من المهاجرين من المغرب الإسلامي ولاسيما بعد سقوط الأندلس ممن هاجر خوفاً على نفسه من القتل، وكان الأمر شديداً فقد ذكر صاحب بدائع الزهور في حوادث سنة (٩٠٦هـ/١٥٠٠م) أنه وصلت الأخبار من جهة المغرب بأن الفرنج قد استولوا على غرناطة التي هي دار ملك الأندلس ووضعوا في المسلمين السيف، وقالوا :

(١) عبد الله الغامدي: جهاد المماليك ضد المغول والصليبيين، ص ١٣٥.

(٢) قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك، ص ٥٧.

(٣) يذكر النويري في حوادث سنة (٧٠٠هـ/١٣٠٠م) أنه كثرت الأراجيف بحركة التتار نحو الشام فخاف الناس وجفلوا والتجأوا إلى الحصون، وأكثرهم وصلوا إلى الديار المصرية، فامتألت بهم القاهرة ومصر، انظر: نهاية الأرب ج ٣١، ص ٤١٢، ٤١٣، ٤١٤؛ وانظر أيضاً: جمال الدين الشيال: تاريخ مصر الإسلامية، ج ٢، ص ١٩٤-١٩٩، حيث أورد فيه تفصيلاً لهجرات المسلمين المغول إلى مصر؛ أنظر كذلك قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك، ص ٥٨، حيث ذكر أن السلطان العادل كتبها استقدم عدداً كبيراً من أبناء القبيلة الذهبية وأسكنهم بمصر.

(من دخل في ديننا تركناه، ومن لم يدخل في ديننا قتلناه، فدخل في دينهم جماعة كثيرة من المغاربة خوفا على أنفسهم من القتل)<sup>(١)</sup>.

ونتيجة لهذه الهجرات التي جاءت إلى مصر المملوكية اجتمع في مدن مصر أجناس مختلفة من العرب والأتراك والمغاربة ومن المسلمين ومن غير المسلمين، ولا سيما مع وجود الحركة التجارية النشطة مع جنوة والبندقية وغيرهما، كذلك ما كان من سبي الحروب من الفرنج وغيرهم، وقد أدى ذلك إلى تطور كبير في الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية<sup>(٢)</sup>.

وقد قسم المقرئزي المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك إلى سبع طبقات، إذ يقول: (اعلم حرسك الله بعينيه التي لا تنام، أن الناس بإقليم مصر في الجملة على سبعة أقسام، القسم الأول: أهل الدولة، والقسم الثاني: أهل اليسار من التجار وأولي النعمة من نوي الرفاهية، والقسم الثالث: الباعة، وهم متوسطو الحال من التجار، ويقال لهم أصحاب البر، ، ويلحق بهم أصحاب المعاش، وهم السوق، والقسم الرابع: أهل الفلح، وهم أهل الزراعات والحريث، وسكان القرى والريف، والقسم الخامس: الفقراء، وهم جل الفقهاء وطلاب العلم والكثير من أجناد الحلقة ونحوهم، والقسم السادس: أرباب الصنائع والأجراء وأصحاب المهن، والقسم السابع: ذوو الحاجة والمسكنة، وهم السوأل، الذين يتكفون الناس ويعيشون منهم)<sup>(٣)</sup>.

ولم تشر المصادر — كما يبدو لي — عن اختلاف في هذه الطبقات في الإسكندرية عن سائر مدن مصر المملوكية، بل هناك من الآثار ما يدل على أن هذه الطبقة كانت سائدة في الإسكندرية أيضا، فقد وجد بها أصحاب الطبقة الأولى من الأمراء المماليك الذين تولوا نيابة الثغر، كذلك ولاية الثغر ونظاره، بالإضافة لقضااته، وقد نعموا جميعا بخيرات الإسكندرية وكونوا ثروات طائلة لا حضر لها، وتمتعوا بعيش رغد ورفاهية لا حد لها، فمن مظاهر ثراء ساكني الثغر ما ذكره البعض من أن أحد ولاة الإسكندرية وهو الأمير ركن الدين بيبيرس الجمدار، حين

(١) ابن إياس: بدائع الزهور، ج ٣، ص ٤٤٨.

(٢) ناجلا محمد: العلاقات السياسية بين البندقية ومصر، ص ٢٢١.

(٣) المقرئزي: إغاثة الأمة، ص ٧٢ — ٧٣.

صادره الناصر محمد أخذ منه جملة مستكثرة منها ٢٠ ألف دينار، عدا ما وجد له من دور وحوانيت وپساتين بلغت قيمتها عند بيعها حوالي ٥٦٠ ألف درهم<sup>(١)</sup>، وأیضا حين صادر الناصر ناظر الخاص القاضي كريم الدين وجد له أشياء كثيرة من بينها ٥٠ ألف دينار، ومن أصناف المتجر شيء كثير جدا<sup>(٢)</sup>

أما أصحاب الطبقة الثانية وهم أهل اليسار من التجار وأولى النعمة من ذوي الرفاهية، وقد تشبهوا بأرباب الدولة والحكام في سكنى القصور الفارهة، والتمتع بالعيش الرغد، وجرت بأيديهم الأموال، وكانت تخدمهم الجوارى والغلمان، وعرف كبار التجار منهم باسم (بياض الناس)، وكان أكثرهم من الكارمية، وقد بلغ ثراء هذه الطبقة أن طلب السلطان الاقتراض منهم لضيق ذات اليد، فعلى سبيل المثال رغب الناصر محمد حينما خرج متصيذا عام (٧٠٣هـ/١٣٠٣م) ووصل قرب الإسكندرية إلى شراء هدايا لزوجاته، فلما لم يجد ما يكفي لذلك أرسل وكيل جباية أمواله للاقتراض من تجار الإسكندرية<sup>(٣)</sup>، كما امتلك بعض مياسير التجار وأثرياء البلد خزانات للسلاح، تفتح وقت الحاجة ويزود بها الرجال، فقد ذكر ابن بطوطة أنه كانت لأحد أثرياء الإسكندرية ويدعى ابن رواحة قاعة مملوءة بالسلاح، وهذا الرجل عرض على السلطان الناصر محمد ابن قلاوون استعداده للتكفل بمرتبات عساكره<sup>(٤)</sup>، وأیضا ما ذكر عن تاج الدين أبي بكر الدماميني رئيس التجار الكارمية بالثغر، أنه وجد له حين توفي ١٠٠ ألف دينار عينيا<sup>(٥)</sup>.

(١) المقرئزي: السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٤٨٧-٤٨٨؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٩، ص ٣٢٥.

(٢) المقرئزي: السلوك، ج ٢، ق ١، ص ٢٤٨-٢٤٩.

(٣) المقرئزي: السلوك، ج ١، ق ٣، ص ٩٥٥.

(٤) ابن بطوطة: الرحلة، ص ٢٨.

(٥) المقرئزي: السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٣٤٠. هذا وتعتبر أسرة الدماميني من الأسر التجارية الغنية والتي كانت لها اهتمامات كبيرة بالحياة العلمية بالثغر والنشاطات المتعددة في ذلك المجال، والتي سوف نبحثها في الفصل الثالث من هذه الرسالة إن شاء الله.

وقد سكنت هاتان الطبقتان القصور الفارهة، والدور الفخمة، فقد ذكر القلقشندي أن ثغر الإسكندرية كان يعج بعدد من القصور (الدقيقة البناء المحكمة الجدران والأبواب)<sup>(١)</sup>، فمن هذه القصور دار السلطان: التي يسكنها السلاطين عند نزولهم بالإسكندرية، ولم يسكنها من النواب إلا الأمير غرس الدين خليل بن شاهين إذ كان زوجاً لشقيقة زوجة السلطان الأشرف برسبائي، وقد وصفها غرس الدين وصفاً دقيقاً بما فيها من الرخام الملون والأماكن المزخرفة، والبساتين الحسنة وأنها على البحر لا يسكنها إلا السلاطين خاصة، وجعلها عجيبية من عجائب الدنيا<sup>(٢)</sup>، وأما دور النيابة فقد كانت من الفخامة والأبهة ما يجعلها تكاد توازي دور السلطان، حتى جعلها بعض المؤرخين داراً واحدة<sup>(٣)</sup> ويصف النويري داراً لأحد الأثرياء بالإسكندرية بأن (مجالسها منقوشة، وأصحنها بأنواع الرخام مفروشة)<sup>(٤)</sup>، ويحسن القلقشندي العرض بقول: (وهي مع ذلك مدينة رائقة المنظر، حسنة الترصيف، مبنية بالحجر والكلس، مبيضة البيوت ظاهرها وباطنها كأنها حمامة بيضاء)<sup>(٥)</sup>، كما تميزت مباني الإسكندرية بوجود المشربيات الخشبية على النوافذ حجبا للنساء، وكانت تتميز بالجمال ودقة الصنع، فقد ذكر النويري الطباقات التي على الأبواب حتى لا يتمكن أحد من الخارج من رؤية ما يجري بداخل المنزل تستراً وحشمة<sup>(٦)</sup>، وكانت بعض هذه الدور من المتانة بحيث سلمت من الاعتداءات إبان الغارات الخارجية على الإسكندرية، كدار عبد الله بن نخالة، الذي قام يقذف القبارصة مع غلمانهم من أعلى دور المحجة، فسلمت هذه الدور من النهب، ولم يجرؤ القبارصة على الاقتراب منها<sup>(٧)</sup>.

(١) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٣، ص ٤٠٨.

(٢) غرس الدين خليل: زبدة كشف المملك، ص ٤٠.

(٣) جمال الدين الشيال، تاريخ مدينة الإسكندرية، ص ١٤٠.

(٤) النويري السكندري: الإمام، ج ٤، ص ٣٠٣.

(٥) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٣، ص ٤٠٧.

(٦) النويري السكندري: الإمام، ج ٤، ص ٢٨٧، ٣٠٣.

(٧) النويري السكندري: الإمام، ج ٢، ص ١٦٢.



أيضا وجد في المجتمع السكندري خلال العهد المملوكي طبقة متوسطة من التجار وأصحاب المهن والحرف، والتي صنفتها المقريري في القسم الثالث من طبقات مجتمعه، فقال: (والقسم الثالث: الباعة، وهم متوسطو الحال من التجار، ويقال لهم أصحاب البز، فإنهم في هذه المهن يعيشون مما يتحصل لهم من الربح، فإن أحدهم لا يقنع من الفوائد إلا بالكثير جدا، وهو يعد ساعات من يومه ينفق ما اكتسبه فيما لا بد له منه من الكلف، وحسبه ألا يستدين لبقية حاجته)<sup>(١)</sup>، ويندرج ضمن هؤلاء أصحاب المهن والحرف والقطارين والوراقين والحاكة والجزارين.

كما شهدت الإسكندرية خلال هذا العصر الطبقة الرابعة وهم الفلاحون وأصحاب الزراعة والحرف، بدليل كثرة المنتزهات والبساتين التي بالإسكندرية والتي كانت في حاجة لمثل هؤلاء، ليقوموا برعايتها من زراعة وفلاحة وغرس وسقيا، إضافة إلى خليج الإسكندرية المخضر الجانبين من البساتين والغيطان المزروعة بمختلف أنواع الخضر والفاكهة، والتي كانت بحاجة لهؤلاء الفلاحين الذين أقاموا قراهم وبيوتهم على ضفتي الخليج<sup>(٢)</sup>.

ومن طبقات المجتمع في الإسكندرية أرباب المهن الصغيرة والأجراء من عمال الصناعة والخدم، وأصحاب المسكنة ممن لا يملكون شيئا من المال ولا يشغلون وظيفة، ولا يحسنون عملا أو يمتهنون مهنة، أمثال العتالين والعمال<sup>(٣)</sup> والصعاليك والفقراء، وقد أشار صاحب زبدة الفكرة إلى وجود عدد من الصعاليك والفقراء بالإسكندرية، حيث ذكر في حوادث سنة (٦٩٤هـ/١٢٩٤م) المجاعة والوباء الذي حل بالبلاد في هذه السنة ثم تكلم عن الإسكندرية فقال: (وأما ثغر الإسكندرية فإن الصعاليك الذين فيه والواردين إليه وزعوا على الأولياء، والفقراء على الأغنياء)<sup>(٤)</sup>.

(١) المقريري: إغائة الأمة، ص ٧٢.

(٢) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ١٠، ص ٢١٨.

(٣) ابن جبير: الرحلة، ص ١٣؛ ابن حجر: إنباء الغمر، ج ٣، ص ٩٣.

(٤) بيبرس الدودار: زبدة الفكرة، ص ٢٨٧.

أما بالنسبة للطوائف غير المسلمة في الإسكندرية، فمن الملاحظ أن المقريري لم يشر لتقسيم خاص بهم، مما يؤكد أن التقسيم كان يعم جميع الناس بما فيهم طائفة اليهود وطائفة النصارى، اللهم إلا فيما ألزموا به من الشروط العمرية التي أخذها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب عليهم في الملابس والمسكن وإخفاء شعائرهم، وكان السلاطين من آن لآخر يجددون أخذ ذلك عليهم<sup>(١)</sup>، وقد أثرت هاتان الطائفتان في المجتمع المصري وتأثروا به، فيذكر ابن تغري بردي في حوادث سنة (٨٥٤هـ/١٤٥٠م)، وكذلك ابن إياس في حوادث سنة (٧٧٥هـ/١٣٧٣م)، أن مع نقصان مياه الفيضان والخوف من المجاعة، خرج المسلمون للاستسقاء وخرج اليهود والمسيحيون معهم<sup>(٢)</sup>.

ومن تأثير اليهود على تقاليد وعادات المجتمع المصري ما أشارت إليه بعض المصادر من أن بعض نساء المسلمين اعتدن عدم شراء السمك أو أكله أو إدخاله البيوت يوم السبت، كذلك بالنسبة لدخول الحمام أو شراء الصابون وغسل الثياب، فإن بعض النسوة حرمن فعل ذلك يوم السبت<sup>(٣)</sup>، وكل هذا من المحرمات. أما بالنسبة للنصارى فقد كان لهم تأثير كبير على كثير من عادات وتقاليد المجتمع المصري فعلي سبيل المثال اعتادت بعض النسوة على عمل عصيدة موافقة للنصارى في مولد عيسى عليه السلام، واعتقادهم أن من لا يفعلها أو يأكل منها في ذلك اليوم يشدد عليه البرد طيلة السنة<sup>(٤)</sup>.

(١) كما ذكر ذلك والقلقشندي في صبح الأعشى، ج ١٣، ص ٢٦٣، والمقريري في السلوك، ج ٢، ص ٢٢٢، ٢٢٨، ٩٢٤، ٩٢٥؛ السيوطي في حسن المحاضرة، ج ٢، ص ٢١١، ٢١٢؛ وانظر قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك، ص ١٠٤، ١٠٥.

(٢) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ٢٠٦، ٢٠٧؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج ١، ص ٢٢٩.

(٣) ابن الحاج: المدخل، ج ١، ص ٢٠١.

(٤) ابن الحاج: المدخل، ج ٢، ص ٢٧٠.

وقد عمل اليهود في المهن التي تدر عليهم أموالا طائلة كصياغة الذهب والتجارة والطب<sup>(١)</sup>، وأما النصارى : فلم يختلفوا كثيرا عنهم بل كانت تأتيهم المساعدات المالية والعينية من الدول الصليبية والمسيحية من جميع أرجاء العالم!<sup>(٢)</sup>

وقد مارس اليهود والنصارى شعائرهم الدينية في حرية تامة داخل كنائسهم ومعابدهم في كافة أقاليم مصر، فيذكر المقريري أنه في حين كثرت كنائس النصارى في الصعيد، حيث أحصى منها ٨٢ كنيسة، إلا أنه لم يكن لهم بالإسكندرية إلا أربع كنائس فقط<sup>(٣)</sup>.

وأما اليهود فكانوا أقل من النصارى بكثير، حيث لم يشر المقريري سوى إلى أحد عشر معبدا يهوديا في القاهرة والفسطاط والأقاليم كلها<sup>(٤)</sup>.

وبرغم ذلك فقد كان أهالي الإسكندرية يتأثرون بما يقع في القاهرة وغيرها من مدن مصر المملوكية من أحداث طائفية، ففي وقتي أهل الذمة<sup>(٥)</sup>

(١) قاسم عبده قاسم: اليهود في مصر، ص ٣٣.

(٢) فايز نجيب إسكندر: مصر في كتابات الحجاج الروس، ص ٥٦ - ٥٧.

(٣) المقريري: الخطط، ج ٢، ص ٥١٠ - ٥١٨.

(٤) المقريري: الخطط، ج ٢، ص ٤٦٣. أما بالنسبة للوجود اليهودي في الإسكندرية فقد أشار إليه الرحالة اليهودي بنيامين التطيلي، والذي زار الإسكندرية في بداية عهد صلاح الدين الأيوبي سنة (٥٦٧هـ / ١١٧١م)، فقد تحدث هذا الرحالة عن أبناء دينه اليهود المقيمين في الإسكندرية وقدر عددهم بنحو ثلاثة آلاف - إن صحت الرواية - فهذا يدل على أمرين الأول على الازدهار المالي والاقتصادي الذي نعمت به الإسكندرية، والثاني العدد الكبير لليهود في هذه المدينة والذي نتوقع أن يكون قد زاد أضعافه في عهد الدولة المملوكية، والله أعلم. انظر: العبادي: تاريخ الإسكندرية عبر العصور، ص ١٢٢.

(٥) لقد تفاوتت معاملة سلاطين المماليك لأهل الذمة في مصر بين الشدة والتسامح، وتعود أسباب القسوة إلى عدة عوامل لعل من أهمها الحروب الصليبية التي دارت رحاها في الشرق الأدنى الإسلامي في القرنين (٧، ٦هـ) الموافق (١٢، ١٣م)، فتولد لدى المسلمين نوع من عدم الثقة والارتياح تجاه أهل الذمة، خاصة وأنه ثبت طبقا لأقوال بعض المؤرخين أمثال النويري وغيره تورط بعض الذميين في الاتصال بالقوى الصليبية والقيام بالتجسس لحسابهم

الأولى عام (٧٠٠هـ/١٣٠١م)، والتي بدأت إرهاباتها حينما حضر أحد وزراء سلطان المغرب أبي عنان في طريقه للحجاز لأداء فريضة الحج، فاسترعى انتباهه ما يتمتع به أهل الذمة في الديار المصرية، من حرية وتسامح وجاه ونفوذ، فأنكر ذلك على السلطان الناصر، وكيف أنهم يعاملون في المغرب بذلة وهوان<sup>(١)</sup>، فتأثر الناصر بذلك، وأصدر مرسوما سلطانيا نص على أن لا يستخدم أحد منهم بديوان السلطان ولا الأمراء إلا من أسلم منهم، وألا يركبوا خيلا ولا بغالا،.... وغير ذلك من الشروط التي أوجبوا عليهم التزامها، وهدد من خالف المرسوم بسفك دمه<sup>(٢)</sup> وتأثر أهل الإسكندرية بهذا القرار، فهدموا كنيسةين للنصارى واتجهوا إلى دور أهل الذمة وهدموا كافة الدور التي تعلو على دور جيرانهم من مسلمي الثغر وغير ذلك من أشياء كثيرة تنفيذا للمرسوم السلطاني<sup>(٣)</sup>.

وفي أواخر عام (٧٢١هـ/١٣٢١م) قام النصارى بإشعال الحرائق في بعض مساجد ودور المسلمين بالقاهرة، فكان نتاج ذلك ثورة عارمة ضدهم من قبل المسلمين الذين أعمالوا الهدم والنهب في كنائسهم وكنوزهم، وامتدت الفتنة إلى الإسكندرية، حيث قام العامة بعد الفراغ من صلاة الجمعة وهاجموا كنائس النصارى في المدينة وتاموا بهدمها<sup>(٤)</sup>.

أما بالنسبة للأقليات أو الجماعات الأجنبية، فقد وجد في العصر المملوكي بمصر مجموعة كبيرة من هذه الأقليات التي جاءت إليها، واختارت الإقامة بصفة خاصة في المدن والثغور التجارية كالإسكندرية، وكان لكل جالية منهم قنصل يشرف على شئون أفراد الجالية ومصالحها الاقتصادية، واتخذت كل جالية فندقا

---

ومساعدتهم في حركاتهم، مثل وقعة القبارصة، انظر في ذلك: النويري السكندري: الإمام، ج ٢، ص ١٠٧؛ العبادي: البحرية المصرية زمن الأيوبيين والمماليك، ص ٥٩٣.

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٨، ص ١٣٢ - ١٣٣.

(٢) المقرئزي: السلوك، ج ١، ق ٣، ص ٩١١ - ٩١٥.

(٣) المقرئزي: السلوك، ج ١، ق ٣، ص ٩١٢؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ج ٨، ص ١٣٤؛

الحريري: منتخب الزمان، ص ٣٧٧ - ٣٧٨.

(٤) المقرئزي: السلوك، ج ٢، ق ١، ص ٢١٩ - ٢٢٠.

خاصا بها، ومن هذه الجاليات الجنوبيين والكتلان والبنادقة والنابليين والفرنسيين والقبارصة والبرسليين والكرواتييين والروس والألمان والهنود والأقباش وغيرهم كثير<sup>(١)</sup>.

وقد كانت هذه الجماعات تتأثر بالمجتمع السكندري وتؤثر فيه، بحكم الاحتكاك اليومي فيما بينها، وقد يبلغ الأمر إلى قيام فتن فيما بينها وبين أهالي المدينة، والتي عادة ما يذهب ضحيتها أرواح كثيرة، كما حدث عام (٧٢٧هـ/١٣٢٦م)، حيث اختصم مسلم وفرنجي فضربه بالمداس، فعظمت الفتنة، وركب النائب وأغلق أبواب البلد، فتزاحم الناس وأحرقوا باب السلطان ويسمى باب اليهود، وأخرجوا المسجونين، ووقع النهب في بعض الدور، ووصل الخبر للسلطان محمد الناصر الذي اعتقد أن الحبس الذي فتح هو حبس الأمراء، فأمر بالسيف في الإسكندرية وهداها إلى البحر، ووسط<sup>(٢)</sup> نحو ثلاثين رجلاً وقت صلاة الجمعة، وجعل كل رجل قطعتين وصلبوه، وعزل النائب، وقبض على أعيان التجار، وأخذ منهم أموالاً عظيمة، وقتل ناساً من الفقهاء والمدرسين الصالحين لأن بعضهم خرج وقت الفتنة يستغيثون في الشوارع ويستكرون<sup>(٣)</sup>.

ولعل هذه الواقعة لها أثر بالغ على الحياة العلمية، فكما سبق أن الفتن السياسية في المشرق والمغرب كانت سبباً في نزوح العلماء إلى مصر المملوكية حيث الأمان، فإن مثل هذه الواقعة تؤثر بالتالي على بقاء العلماء، فالعالم إذا لم يجد الاحترام والتقدير من الدولة بمصر، فإنه يرحل إلى بلد آخر حيث يجد الهدوء والاستقرار.

(١) السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الإسكندرية، ص ٢٥٨.

(٢) التوسيط هو ضرب المحكوم عليه بواسطة السياف، على أن تكون الضربة قوية تحت السرة، فتقسم الجسم نصفين. انظر: سعيد عاشور: العصر المماليكي، ص ٤٢٤.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٧، ق ١٤، ص ١٣٣، السخاوي: الذيل على دول الإسلام، ج ٢، ص ١٨٣.

وقد عم الحزن معظم أصقاع العالم الإسلامي آنذاك جراء هذه الواقعة، فقد كتب أبو يحيى الطرابلسي<sup>(١)</sup> كتابا من الإسكندرية يقول فيه: (إنا لله وإنا إليه راجعون فيما أصاب المسلمين بثغر الإسكندرية من الإحراق والضرب وأخذ الأموال، و سفك الدماء، فالله بعظم لنا ولكم الأجر)، وعقب على قوله ابن الوردي بشعر قال فيه:

تبارك الله ذو الجلال لقد أدهش عقلي زماننا الفاسد

مصادرات جرت وسفك دما وأصلها ضرب كافر واخذ<sup>(٢)</sup>

وحزن ابن بطوطة على ما حدث للمسلمين في الإسكندرية، وقام ودون الحادثة في "رحلته" وكان وقت حدوثها بمكة المكرمة<sup>(٣)</sup>.

كما حدثت فتنة عام (٨١٤هـ/١٤١١م)، وأخرى عام (٨٢٢هـ/١٤١٩م)

وكان سبب الأولى قتال بين طائفتي الكتلان والجنويين، وأما الثانية فكان سببها سرقة الفرنج رأس مرقص (مرقس)<sup>(٤)</sup>، وقد ذهب ضحية هاتين الفتنتين أرواح الكثير من أهالي الثغر<sup>(٥)</sup>، ونتيجة لهذه الحوادث فقد اهتم سلاطين المماليك بأمن الثغر وتوفير الطمأنينة لسكانه، فكانوا يرسلون بالأمرء والولاه والنظار كلما

(١) هو القائم بأمر الله أبو يحيى بن عبد الواحد الحفصي اللحياني (ت ٧٢٧هـ/١٣٢٦م)، صاحب تونس، فر من بلاده بسبب الفتن وتوجه إلى الإسكندرية وسكنها حتى وافته المنية بها، انظر في ترجمته: ابن تغري بردي: النهل، ج ٥، ص ٣٦٤، وقد أجهدنا البحث في معرفة لمن أرسل أبو يحيى الكتاب ولكن لم نعثر على شيء.

(٢) ابن الوردي: تنمة المختصر، ج ٢، ص ٤٠٢.

(٣) ابن بطوطة: الرحلة، ص ٢٨.

(٤) مرقص (مرقس): هو أحد من كتب الأنجيل، وإنجيله من أقدم الأنجيل المعتمدة عند النصارى، ولم يكن من تلامذة المسيح، إلا أنه صحب بطرس كبير الحواريين، وقد قتله قيصر روما سنة (٦٧م)، وقد نزل الإسكندرية وأسس بها أول كنيسة أرثوذكسية، وقد قتله المصريون الوثنيون سنة (٦٨م) ثم حمل جثمانه بعد ذلك إلى البندقية، ودفن بكنديتها سان ماركو، أحمد عبد الغفور عطار: الديانات، ص ٣٤٠.

(٥) الصيرفي: نزهة النفوس، ج ٢، ص ٤٥٧؛ ابن حجر: إنباء الغمر، ج ٢، ص ٤٩١.

تجددت الفتن لتهدئة الأوضاع وتسكين العامة<sup>(١)</sup>، مثال ذلك ما فعله الناصر محمد حين أرسل كريم الدين ناظر الخاص إلى الإسكندرية لاستتباب الأمن فيها، عقب الفتنة التي حدثت بين المسلمين وأهل الذمة في الثغر عام (٧٢١هـ/١٣٢١م)، بلى تعدى الأمر إلى الاهتمام بالنواحي والسلوكيات الاجتماعية، فقد اهتم السلاطين بالطبقات الفقيرة في المجتمع السكندري فزاهم في وقت الأزمات الاقتصادية كالقحط والغلاء يأمرهم بأمرهم بحل المشكلات الاجتماعية التي تنشأ عن هذه الكوارث كتوزيع الفقراء على الأغنياء، كما حدث في وباء ومجاعة عام (٦٩٤هـ/١٢٩٤م) حيث قام الأمير ركن الدين بيبرس بتوجيه من السلطان الناصر محمد بتوزيع الفقراء والصعاليك على الولاية والأغنياء، وقد استمر هذا الحال حتى انقضت المجاعة وتواصلت الغلال إلى الإسكندرية<sup>(٢)</sup>، ومن مظاهر اهتمام السلاطين بالنواحي الاجتماعية بالثغر وقت الأزمات : توزيع المعونات الغذائية والأموال على المتضررين من القحط والمجاعة، كما حدث في الغلاء المفرط الذي حدث عام (٨١٩هـ/١٤١٦م)، حيث أمر السلطان المؤيد بإرسال الأموال والخبز المصنوع من الدقيق الأبيض وتوزيعها على المدرسين في المدارس، والمشايخ في الخوانق والزوايا، وغيرهم من الفقراء والمساكين والغرباء القادمين والقاطنين في الجوامع والمدارس والخوانق والزوايا<sup>(٣)</sup>.

أما بالنسبة لسلوكيات المجتمع السكندري، فقد حرص السلاطين على إصدار العديد من المراسيم الإصلاحية، للتأكيد على تطبيق الشرع وتهذيب أخلاق الرعايا، ومحاولة الحد من المساوئ الاجتماعية، ومن ذلك ما فعله الظاهر بيبرس

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٩، ص ٧٢-٧٣؛ المقريزي: السلوك، ج ٢، ق ١، ص ٢٢٨.

(٢) بيبرس الدودار: زينة الفكرة، ص ٢٨٧.

(٣) العيني: السيف المهند، ص ٢٢٦ - ٢٢٧.

حين زار الثغر عام (٦٦١هـ/١٢٦٢م) حيث أمر بتطهير الثغر من الخواطي الفرنجيات<sup>(١)</sup>، ومن ذلك أيضا المرسوم الذي أصدره عام (٦٦٣هـ/١٢٦٤م) بإبطال الخمر، وإغلاق حوانيتها وكسر أوانيتها، وإبطال ما يؤخذ عليها من ضرائب<sup>(٢)</sup>، فاستبشر به أهالي الثغر، وانشد ابن المنير شعرا فقال:

ليس لإبليس عندنا أرب غير بلاد الأمير مأواه  
حرمة الخمر والحشيش معا حرمة ماءه ومرعاه<sup>(٣)</sup>

وكان لفسو الترف في المتنزعات وظهور الخمر مدعاة لقيام العلماء بالشكوى إلى السلاطين والنواب لمنع ذلك، ففي عام (٨٣١هـ/١٤٢٧م) كتب السلطان الأشرف برسباي إلى والي الإسكندرية بإلزام الفرنج بإعادة ما جلبوه من الخمر إلى بلادهم<sup>(٤)</sup>.

ولم يقتصر الأمر على ما كان يقوم به السلاطين والولاة بل شارك أهل الإسكندرية في محاربة هذه المنكرات وكل ما يؤدي إلى مساوئ اجتماعية ففي عام (٨٢٢هـ/١٤١٩م) اقتحم أهالي الإسكندرية أماكن تواجد الصليبيين بها وكسروا لهم ثلاثمائة بنية<sup>(٥)</sup> خمر، ثمنها عندهم أربعة آلاف دينار، وأراقوا ما

(١) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص ١٧٦؛ المقرئزي: السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٤٩٨-٥٠٠، ونعتن بالفرنجيات يجعلنا نرجح أنهم من الأوروبيات اللاتي وفدن إلى الثغر عبر السنن التجارية، وأقمن في المدينة واحترفن هذه المهنة للترفيه عن التجار الأجانب، ولحماية أهل الإسكندرية من الوقوع في هذه الفواحش قام ببيرس بإصدار مرسوم يقضي عليها.

(٢) عن جهود الظاهر ببيرس في سبيل القضاء على المساوئ الاجتماعية المنتشرة بالديار المصرية والشامية انظر: ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص ٢٢٨، ٢٢٩، ٣٥٠؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج ٢، ص ٢٩٦؛ سعيد عاشور: المجتمع المصري، ص ٢٩٦.

(٣) المقرئزي: السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٥٣.

(٤) ابن حجر: إنباء الخمر، ج ٣، ص ٤٠٥-٤٠٦.

(٥) البنية: مأخوذة من (بنتى) داراء، والبنيان هو الحائط، والبنى بالضم، مقصور البناء، والبنية، على وزن نيرة، يقال: لا ورب هذه البنية، أي الكعبة، الرازي: مختار الصحاح، ص ٥٦، و البنية المراد بها هنا: هي أماكن مبنية تخزن فيها الحمولة من الخمر.



وجدوا فيها من الخمر (١).

المتنزهات: اشتهرت مصر عبر العصور بمناظرها الخلابة وبساتينها  
التقاء، حيث كثرت بها القناطر والجسور المشيدة على الجنات والرياض في أماكن  
متفرقة، وقد قام المؤرخون بتدوين أماكن النزهة من برك وخلجان وبساتين في  
كتبهم ومؤلفاتهم فعلى سبيل المثال ما كتبه المقرئزي عن الروضة قائلاً:  
(وسأورد من أخبار الروضة هنا ما لا تجده مجتمعاً في غير هذا الكتاب) (٢)، وقام  
السيوطي بكتابة مقالة خاصة عن الروضة سماها "بلبل الروضة" ضمنها كتابه  
"كوكب الروض" (٣) وقد بدأ مقالته بقوله: (بسم الله الرحمن الرحيم، قال الله تعالى:  
{وَأَوَيْنَاهُمَا إِلَى رِبْوَةٍ ذاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ} (٤) (٥)، ويستطرد في وصفها بأنها: (روضة  
ذات محاسن، فيها أنهار من ماء غير آسن، وأشجار تنبت أفانين الأحاسن، وأزهار  
ما بين مفتوح العين ووسن، وأطياف ترنم بلغات يعجب منها كل فصيح ولسن..) (٦).

ولم تكن الإسكندرية أقل شأنًا منها، فلقد اشتهرت أيضاً بكثرة متنزهاتها،  
وبساتينها، وأماكن اللهو بها والصيد، وكذلك بآثارها القديمة التي كانت محل  
إعجاب الوافدين عليها وأهلها الذين كانوا يقضون عندها أوقاتاً ممتعة، فقد  
اشتهرت بالرياض العطرة التي وصفها القلقشندي بقوله: (وأما رياضها ففيها  
الأس، والورد والبنفسج، والنرجس والياسمين، والنسرين، والبان، واللينوفر،  
وأزهار الحمضيات، وقد عجت بساتينها بمختلف أنواع الورود والرياحين خاصة

(١) المقرئزي: السلوك، ج ٤، ق ١، ص ٥٣.

(٢) المقرئزي: الخطط، ج ٢، ص ١٧٦.

(٣) يعتبر كتاب "كوكب الروض" من الكتب المفقودة للسيوطي، وقد تضمنه الكثير من المقالات  
التي لم يصلنا منها سوى المقالة الخاصة عن الروضة فقط. انظر في ذلك مقدمة المحقق  
لكتاب "بلبل الروضة".

(٤) المؤمنون، آية ٥٠.

(٥) السيوطي: بلبل الروضة، ص ٢٣.

(٦) السيوطي: بلبل الروضة، ص ٢٤.

الريحان الفارسي)<sup>(١)</sup>، أما السيوطي فقد ذكر عن بعضهم أنه قال: (رأيت بثغر الإسكندرية الورد الأصفر كثيرا وعددت ورقة ورده فكانت ألف ورقة)<sup>(٢)</sup>.  
وقد تغنى الشعراء بكثرة رياضها وبساتينها ، من ذلك ما أنشده الشاعر مجير الدين بن تميم<sup>(٣)</sup> حيث قال فيها:

لما قصدت الإسكندرية زائرا ملأت فؤادي بهجة وسرورا  
ما زرت فيها جانبا إلا رأيت عيناى فيها جنة وحريرا<sup>(٤)</sup>.  
وقد اهتم بعض سلاطين المماليك بهذه المتنزهات وخاصة تلك التي كانت تطل على خليجها حيث يعتبر من احسن المتنزهات لأنه مخضر الجانبين بالبساتين، وقد امتدح الشعراء بساتينه الغناء من ذلك قول أحدهم:

وعشية أهدت لعينك منظرا جاء السرور به لقلبك وافدا  
روض كمنصر العذار وجدول نقشت عليه يد الشمال مباردا  
والنخل كالغيد الحسان تزينت ولبسن من أثمارهن قلائدا<sup>(٥)</sup>

ومن متنزهاتهم ما هو بظاهر المدينة، حيث اعتاد أهل الثغر على الخروج إلى ظاهر باب البحر لقضاء اليوم بأكمله في الفرجة على المراكب ومراقبة حركة التجار والصيد، وربما كانوا يتناولون طعام الغداء من الباعة المتجولين، ثم يعودون إلى المدينة بعد صلاة المغرب، وكان ظاهر المدينة عامرا بالقصور الفخمة، والدور الحسنة والتي اعتاد أثرياء الثغر وأغنياءه الإقامة بها، وذلك لحسن جمال بساتينها ومياه أبارها، يؤكد ذلك الشاعر ، الجمال أبو الحسين الجزار (ت ٦٧٩هـ / ١٢٨٠م) بقوله:

حلت بظاهر منها كأني حلت هناك جنات الخلود

(١) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٣، ص ٣٠٨.

(٢) السيوطي: حسن البحار، ج ٢، ص ٤٠٢.

(٣) لم أعثر له على ترجمة.

(٤) ابن دقماق: الانتصار، ج ٢، ص ١٢٥-١٢٦.

(٥) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٣، ص ٣٠٠-٣٠١.

فلا بُدَّ معطلة وكم قد رأيت هناك من قصر مشيد<sup>(١)</sup>

ومن متزهات الإسكندرية : جزيرة رأس التين التي تميزت بلطف بهوائها في أيام القيظ، وكذلك بكثرة متزهاتها وبساتينها، التي حوت جميع الفواكه، خاصة التين والذي اشتق اسمها منه، وكان يهاجر إليها في فصل الخريف من كل سنة طير السمان، فيصطاد الناس منه الكثير إما لأكله أو إشباعاً لهواية الصيد عندهم<sup>(٢)</sup>

وإلى جانب ذلك فقد كانت آثارها القديمة عامل جذب مثل منار الإسكندرية وعمود السواري، والمسلتان<sup>(٣)</sup>، والمقابر الرومانية، وغيرها من الآثار والمباني والأطلال القديمة<sup>(٤)</sup>، التي بهرت الكثير من الرحالة المغاربة والأوروبيين الذين وفدوا إلى الثغر، فقاموا بتدوين مشاهداتهم في رحلاتهم أمثال ابن بطوطة الذي دخل المنار ووصفه وصفاً دقيقاً، ومن قبله ابن جبير، والعبدي<sup>(٥)</sup>، وغيرهم، كما

(١) انظر: النويري السكندري: الإمام ج ٢، ص ١٣٢ - ١٣٣؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٦، ص ٧٧؛ أحمد النجار: الانتاج الأدبي في مدينة الإسكندرية في العصريين الفاطمي والأيوبي، ص ١٣٨، والجزار هو: أبو الحسين يحيى بن عبد العظيم (ت ٦٧٩هـ / ١٢٨٠م)، كان والده وجميع أقاربه كانوا يعملون بالجزارة أكثر الذهاب إلى الإسكندرية للقاء بعض ممدوحيه، انظر ترجمته، الذهبي: تاريخ الإسلام، حوادث سنة (٦٧٩هـ -)، ص ٣٣٢، ابن حبيب: التذكرة، ج ١، ص ٦٠.

(٢) علي مبارك: الخطط التوفيقية، ج ٧، ص ١٠٠.

(٣) لقد ذكر علي مبارك هاتين المسلتين وأنها كانتا موجودتين في عهده بالإسكندرية وهما لكيلوباترة ملكة مصر، وكانت إحدى هاتين المسلتين قائمة، والأخرى مطروحة بجوارها، انظر: الخطط، ج ٧، ص ٨٦، وقد ظلت هاتان المسلتان قائمتان في الثغر السكندري في الميدان المعروف بميدان محطة الرمل حتى أواخر (ق ١٣هـ / ١٩م) ثم نقلت الأولى إلى لندن عام (١٨٧٧م) حيث أقيمت على ضفاف نهر التايمز، ولحقتها المسلة الأخرى عام (١٨٧٩م) إلى الولايات المتحدة حيث استقرت في ولاية نيويورك، في ميدان سنترال بارك، انظر: هنري رياض: دليل آثار الإسكندرية، ص ٥٧.

(٤) لمعرفة المزيد عن هذه الآثار انظر: عزت زكي حامد قادوس: آثار الإسكندرية القديمة.

(٥) ابن جبير: الرحلة، ص ١٤؛ العبدي: الرحلة، ص ٨٤؛ ابن بطوطة: الرحلة، ص ٢١.

وصف ابن بطوطة عمود السواري بقوله: (وقد رأيت عمود السواري (الرخام) الهائل،.. وهو مترسط غابة النخل، وقد امتاز عن شجراتها سموا وارتفاعا، وهو قذعة واحدة محكمة النحت..)<sup>(١)</sup>، وكان بظاهر باب البحر "ظاهر المدينة" قصر قديم يعود للعصر الروماني، اعتاد أهالي الإسكندرية على الخروج والاجتماع هناك للنزهة في أيام الصيف<sup>(٢)</sup>.

وبشرق المدينة أطلال قصرين في منطقة الرمل كان الناس يخرجون في ليالي الصيف إلى هذا الموضع للسمر والتزّه<sup>(٣)</sup>، ومن ذلك أيضا ضاحية (نيكروبوليس): أي مدينة الأموات، وتقع في الجهة الجنوبية الغربية من المدينة، وبها محل لدفن الأموات، بينه وبين سور المدينة بساتين ومنازل تنتهي إلى خليج يوصل ماء النيل إلى البحر، وكان الكثير من الناس يجتمعون في هذا المكان حيث تكثر محلات البيع والشراء، والمنازل العامرة والبساتين الجميلة<sup>(٤)</sup>.

ومن ضواحيها أيضا (بوكليس) حيث كانت بعض منازلها تطل على البحر والبعض الآخر على الخليج الحلو، وكانت محل تزّه، ومن ذلك أيضا ضاحية (شيديا) الواقعة على خليج الإسكندرية، والتي كانت تمتلئ ليلا ونهارا بأهالي الإسكندرية، وكان يقام فيها العديد من الأسواق ويقصدها خلق كثير من جميع الجهات<sup>(٥)</sup>.

(١) ابن بطوطة: الرحلة، ص ٢١.

(٢) النويري السكندري: الإمام، ج ٦، ٣٧٦.

(٣) النويري السكندري: الإمام، ج ٦، ص ٣٧٦، هذا وقد قال شاعر الإسكندرية ظافر الحداد في هذا الموضع شعرا:

وكم نرم لنا بالرمل فيه      حديث مثل ما نثر السحاب  
به القصران كالرجلين لاحا      على بعد يقلهما السراب  
أقاما صاحبين مع الليالي      ولم ينعي بينهما الغراب  
ولكن سوف يفترقان قسرا      وهل يبقى مع الدهر أصحاب؟

انظر: حسين نصار: ديوان ظافر الحداد، ص ٢٩.

(٤) علي مبارك: الخطط، ج ٧، ص ١١٩.

(٥) علي مبارك: الخطط، ج ٧، ص ١٢٠.

ومن الأماكن التي اتخذها أهالي الإسكندرية للسمر فيها وتبادل الأراء وقضاء الحاجات دار الملعب<sup>(١)</sup>، والذي يقول عنه الحميري: (وكان بالإسكندرية أيضا دار الملعب وهي التي كانوا يجلسون فيها لقضاء حوائجهم وأخذ آرائهم، فكان كل جالس فيها إنما جلوسه تلقاء وجه صاحبه لا يخفى على أحد منهم شيء من حال غيره)<sup>(٢)</sup>.

كما حوت الإسكندرية أماكن كثيرة للصيد، كظاهر المدينة، ومنطقة تروجه ومريوط والحمامات، وكلها مناطق تابعة لمدينة الإسكندرية، وقد نالت أماكن الصيد هذه إعجاب السلاطين الذين حرصوا على الخروج إليها والاصطياد، أمثال الظاهر بيبرس، والأشرف شعبان والأشرف قايتباي، وغيرهم كثير<sup>(٣)</sup>.

أيضا وجد بالإسكندرية ميدان فسيح يقع بظاهر المدينة، يقال له الملعب ويقع ما بين باب البحر والمنار اعتاد الناس على ممارسة ألعابهم المفضلة فيه، بلى إن سلاطين المماليك وأمراءهم كانوا حرصين على ممارسة رياضاتهم المفضلة ركوب الخيل ولعب الكرة<sup>(٤)</sup> في هذا الميدان كلما سنحت لهم الفرصة بزيارة ثغر الإسكندرية<sup>(٥)</sup>.

(١) لعله يقصد به المدرج الروماني، حيث تشابه وصف الحميري له وصف المدرج الروماني، والله أعلم، انظر: آثار الإسكندرية القديمة: زكي حامد قادوس، ص ١٧٩.

(٢) الحميري: الروض المعطار، ص ٦٠.

(٣) انظر على التوالي كلام ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص ١٧٦، ٢٤٥، ٣٦٠؛ اليونيني: مرآة الزمان، ج ٢، ص ١٩٦؛ المقرئ: السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٥٠٠؛ ابن إياس: بدائع الزهور: ج ٣، ص ١٣٦.

(٤) وتعرف الآن بلعبة البولو، وكان يمارسها السلاطين والأمراء من فوق ظهور الخيل، وكان يخرج ضمن معية السلطان أثناء ممارسة هذه اللعبة أمير يعرف بالجوكندار، أي حامل الجوكان أو الصلجان، وهو المحجن الذي تضرب به الكرة ويتمثل في عصا طويلة مدهونة، برأسها خشبة مخروطية، انظر: القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٥، ص ٤٥٨؛ علي إبراهيم حسن: تاريخ المماليك البحرية، ص ٢٣٧.

(٥) لقد شهد هذا الميدان لعب أمثال الظاهر بيبرس، والأشرف قايتباي وغيرهما كثير، انظر ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص ١٧٥؛ شافع بن علي: حسن المناقب، ص ٤٩.

وقد كانت الإسكندرية ميدانا لإقامة الاحتفالات ببعض المناسبات السعيدة

كالاحتفال بتدشين سفن وقطع من الأسطول البحري، أو عرض بعض الأسلحة وآلات الحرب<sup>(١)</sup>، كذلك الاحتفال بدخول السلاطين المدينة، من ذلك ما حدث في عهد السلطان الظاهر بيبرس، فقد زينت له المدينة حين قام بزيارتها عام (٦٦١هـ/١٢٦٣م)، وخرج أعيان الثغر على اختلاف حرفهم للقاء السلطان فأكرمهم وأحسن إليهم، واستقبله الأهالي بالفرح والدعاء بدوام دولته، وأخرج الأهالي ما عندهم من عدة الجهاد من القسي والزررد والخوذ والطوارق، وغيرها وزينوا بها الشوارع<sup>(٢)</sup>، ومما يدل على ضخامة هذا الاحتفال وما قدمه الأهالي من حفاوة وتكريم للسلطان، أنه حين زارها في العام التالي (٦٢٢هـ/١٢٦٤م)، أمر أن لا تتكلف الرعية في الزينة<sup>(٣)</sup>، وكان يشارك في حفلات الاستقبال هذه طبقات مجتمع الإسكندرية بما في ذلك الجاليات الأجنبية، فقد وصف النويري السكندري واصفا موكب السلطان الأشرف شعبان حين دخل الإسكندرية بقوله: (.دخل الأشرف من باب رشيد<sup>(٤)</sup>، فسار بالمحجة العظمى<sup>(٥)</sup>، وقد اجتمعت الرجال والنساء والعبيد والإماء لرؤيته، فصاروا يدعون له، والنساء صرن يزغرتن فرحاً به لشبابه وحسنه وجماله<sup>(٦)</sup>)، ويذكر ابن إياس أن السلطان الأشرف قايتباي حين زار الإسكندرية عام (٨٨٢هـ/١٤٧٧م)، اصطف الناس في شارع المدينة الرئيسي وهو شارع المحجة، لرؤية السلطان والاحتفال بقدومه، وأنه في أثناء سير الموكب

(١) انظر: القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٢ ص ١٤٤-١٤٥.

(٢) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص ١٧٥؛ شافع بن علي: حسن المناقب، ص ٦٤.

(٣) شافع بن علي: حسن المناقب، ص ٨٦.

(٤) باب رشيد: يقع في السور الشرقي للمدينة، وهو الباب الرئيسي الذي يدخل منه القادم من القاهرة والفسطاط، وكان يعبر منه السلاطين المماليك عند زيارتهم للمدينة، وقد ظل هذا الباب قائماً حتى القرن (١٤هـ/١٩م)، انظر: الشيال: الإسكندرية طبغرافية المدينة، ص ٢٣٧؛ السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الإسكندرية، ص ٤٤٥.

(٥) المحجة العظمى: هو أشهر وأعظم شوارع مدينة الإسكندرية بالعصر المملوكي، وكان يشقها طولياً من الشرق إلى الغرب. السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الإسكندرية، ص ٤٢٥.

(٦) النويري السكندري: الإمام، ج ٦، ص ١-٢.

السلطاني نثر بعض تجار الفرنج ألف بندقي ذهب على رأسه<sup>(١)</sup>، ومن ذلك أيضا الاحتفال برؤية الهلال، حيث يخرج الفقهاء ووجهاء البلد من بعد العصر من يوم ٢٩ شعبان لرؤية الهلال في احتفال مشهور وصفه ابن بطوطة في رحلته في مدينة أبيار (بالقرب من الإسكندرية)<sup>(٢)</sup>، وفي ليالي شهر رمضان تزدهر سوق الحلاويين وسوق الشماعين، أما سوق الحلاويين فهو السوق الذي تباع فيه السكريات على هيئة القطط والسباع التي يحرص الناس على شرائها لأطفالهم. وأما سوق الشماعين فكانت تستمر الحركة فيه إلى ما بعد منتصف الليل، تباع فيها الشموع والفوانيس، و ينطلق بها الصبيان يغنون حتى موعد صلاة العشاء والتراويح، وكانوا يدقون على الأبواب وقت السحور وينادون على أهل البيوت (قوموا كلوا)<sup>(٣)</sup>.

وفي العيد يتبادلون التهئة وأطباق الكعك، وفشت فيهم بدعة تخصيص العيد لزيارة القبور مع الاختلاط وقراءة القرآن<sup>(٤)</sup>.

كما كانت لهم أعياد آخر، كالاحتفال بأول السنة الهجرية في أول شهر محرم، وارتبطت به بدعة أخرى وهي شراء النساء اللبن حتى تكون السنة بيضاء لا شر فيها<sup>(٥)</sup>، ومن البدع التي فشت في مدينة الإسكندرية خلال هذا العصر الاحتفال بالليلة الأولى من شهر رجب وليلة الإسراء، والنصف من شعبان، وغير ذلك من الأعياد البدعية كمولد المرسي أبو العباس، حيث اعتاد الناس في كل سنة عمل مولد له يستمر لمدة ثمانية أيام، وذلك بعد الاحتفال بمولد النبي صلى الله عليه وسلم، وأيضا كان يعمل له مولدا آخر في ليلة منتصف شهر رمضان<sup>(٦)</sup>، كما

(١) راجع تفاصيل هذه الزيارة في: ابن إياس: بدائع الزهور، ج ٣، ص ١٣٠-١٣٢.

(٢) ابن بطوطة: الرحلة، ص ٢٦-٢٧.

(٣) ابن الحاج: المدخل، ج ٢، ص ٢٥٥.

(٤) ابن الحاج: المدخل، ج ٢، ص ٢٦٨، ٢٩٠.

(٥) ابن الحاج: المدخل، ج ١، ص ٢٧٧، ٢٨٨.

(٦) علي باشا: الخطط التوفيقية، ج ٧، ص ١٨٩.

اعتاد أهالي الإسكندرية بعد امتلاء الصحاريج بمياه النيل القيام بفتحها ويعملون لذلك موسما مشهوراً<sup>(١)</sup>.

وقد شارك المسلمون النصارى واليهود في الاحتفال بأعيادهم، فمن ذلك (عيد العدس) حيث تخرج فيه النساء والرجال إلى الأسواق لشراء البخور والخواتم وما إلى ذلك، وكان أهالي الإسكندرية يخرجون في هذا العيد ويجتمعون حول منار الإسكندرية، ولا يتخلف عن الخروج في ذلك اليوم أحد، وقد عملوا لذلك الأطعمة والأشربة، والتي لا بد فيها من العدس<sup>(٢)</sup>، ويفتح في هذا اليوم باب المنار ويدخل الناس فيه، فمنهم من يصلي ويذكر الله، ومنهم من يلهو ويلعب فيقيمون إلى منتصف النهار ثم ينصرفون إلى بيوتهم<sup>(٣)</sup>.

وقد حرص أهل الإسكندرية عند خروجهم في هذه الاحتفالات على الظهور بأفخر الثياب وأجودها، فقد كانت الأعياد والمنتزهات بمثابة السوق الاجتماعية لمختلف أنواع المنسوجات، وقد كان لكل فئة في المجتمع ملابس خاصة بها إما من حيث الشكل أو النوع أو اللون، فقد كانت هناك ملابس خاصة للأمرء والولادة، وملابس خاصة للجند، فعلى سبيل المثال كان الجند يلبسون الكلوتات<sup>(٤)</sup>، ذات اللون الأصفر دون عمامة، وفي عهد السلطان قلاوون أضيف لبس الشاش على الكلوتة، وفي عهد ابنه السلطان خليل تغير لون الكلوتة من الأصفر إلى الأحمر، وفي عهد الناصر محمد استخدمت العمام الناصرية والتي تميزت بصغر حجمها

(١) علي باشا: الخطط التوفيقية، ج٧، ص ٩٨.

(٢) أيضا من ضمن الأطعمة التي كانوا يأكلونها في ذلك اليوم (البيض المسلوق) حيث يقومون بصبغه بألوان مختلفة لإدخال البهجة في النفوس خاصة في الصغار، وقد أنكر ابن الحاج عليهم ذلك العيد وما فيه من عادات بعيدة كل البعد عن نهج الشرع الحكيم أمثال شراءهم للبخور لصرف العين كما يزعمون، وكذلك شرائهم للسلاحف لطرد الشياطين، وغير ذلك من الأمور البدعية المنكرة، انظر في ذلك: ابن الحاج، المدخل ج٢، ص ٢٦٨.

(٣) الحميري: الروض المعطار، ص ٥٥، علي مبارك: الخطط، ج٧، ص ١٠٣.

(٤) الكلوتات: جمع كلوتة، بتشديد اللام، وهي كلمة فارسية بمعنى الطاقية الصغيرة من الصوف المضربة بالفضة، انظر: ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٧، ص ٣٣.



الناصر محمد استخدمت العمائم الناصرية والتي تميزت بصغر حجمها حتى لا تعوق الجندي أثناء تأدية عمله<sup>(١)</sup>.

وأما القضاة والعلماء وطلاب العلم فكانت لهم لباس مميز، فكان العمامة والشاشة للقاضي من اللون الأسود، وتختلف في حجمها بقدر منزلته، وقد وصف القلقشندي أزياء أرباب الوظائف الدينية من القضاة والعلماء في ذلك العصر وصفا دقيقا، حيث قال: ( ويختلف ذلك باختلاف مراتبهم : فالقضاة والعلماء منهم يلبسون العمائم من الشاشات الكبار للغاية، ثم منهم من يرسل بين كتفيه ذؤابة تلحق قربوس سرجه إذا ركب، ومنهم من يجعل عوض الذؤابة الطيلسان الفائق، ويلبس فوقه دلقا متسع الأكمام طويئها، مفتوحا فوق كتفيه بغير تفريج، سابلا على ظهره، وكان قبل ذلك مختصا بالشافعي، ومن دون هذه منهم تكون عمامته ألطف، ويلبس بدل الدلق فرجية مفرجة من قدامه، ومن أعلاها إلى أسفلها مزررة بالأزرار، وليس فيهم من يلبس الحرير، ولا ما غلب فيه الحرير، وإن كان شتاء كان الفوقاني من ملبوسهم من الصوف الأبيض المطلي، ولا يلبسون الملون إلا في بيوتهم، وربما لبسه بعضهم من الصوف في الطرقات..)<sup>(٢)</sup>.

كما اعتاد البعض على لبس ثياب واسعة طويلة الأكمام، وكانوا يضعون على عمائمهم الطيلسانات المصنوعة من أجود أنواع القماش كالحرير، وقام بعضهم بتثبيت العمامة مع الطيلسان بالإبر ليبقى الجميع ثابتا محافظة على مظهرهم، وكانوا يلبسون الثياب المطرزة على الأكتاف ومناطق أخرى، بخيوط من الذهب والفضة والحرير بل بالغ بعضهم في تحسين الخياطة والتفنن في إظهار شعورهم، وأما من تحت الثياب كانوا يلبسون سراويل طويلة تستخدم من قماش رقيق<sup>(٣)</sup>، واقد أنكر ابن الحاج عليهم تكلفهم في كثير من هذه الملابس المخالفة للسلف<sup>(٤)</sup>، وكان بعضهم يلبس في الصيف ثيابا بيضا مصنوعة من قماش خفيف،

(١) علي إبراهيم حسن: تاريخ المماليك البحرية، ص ٤٧١.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ٤١، ٥٢.

(٣) لمعرفة المزيد عن ملابس العصر المملوكي انظر: ماير: الملابس المملوكية.

(٤) انظر تفاصيل ذلك في: ابن الحاج: المدخل، ج ١، ص ٩٦ - ١٠٨.

يسمى (الشامي)، وفي الشتاء يلبسون ثيابا من الصوف وعادة ما تكون بيضاء اللون وتسمى (الملطي)<sup>(١)</sup>.

كما اهتمت النساء بزخرفة ملابسهن، وتطريزها، وقصرها وطولها وسعتها وضيقها حتى خرجن عن الشيء المسموح به شرعا مما حدا بالعلماء في عهد الناصر حسن بن قلاوون برفع الشكاية إليه فأصدر مرسوما سنة (٧٥١هـ/١٣٥٠م) بإبطال ارتداء الملابس ذات الأكمام الواسعة، التي كن يتبرجن بها، وكذلك منع لبس العصابة القصيرة التي تبرز مفاتهن، وأبطل لبس البرد الحرير والملابس القصيرة، وما أخرجوه من الأزر<sup>(٢)</sup> الحرير، وأرسل المحتسب لمتابعة تطبيق المرسوم<sup>(٣)</sup>، ولعل من أسباب تفنن النساء لهذه الملابس والحلي هو الرخاء الذي عم البلاد، خاصة في عهد الناصر محمد، وقد أكد ابن تغري بردي هذا بقوله: (واستجد النساء في زمانه الطرحة، كل طرحة بعشرة آلاف دينار، وما دون ذلك إلى خمسة آلاف دينار، والفرجيات بمثل ذلك، واستجد النساء في زمانه الخلاخيل الذهب والأطواق المرصعة بالجواهر الثمينة، والقباقيب الذهب المرصعة، والأزر الحرير، وغير ذلك)<sup>(٤)</sup>.

ولم تكن الثياب وحدها هي مظهر الترف الاجتماعي في العصر المملوكي بل وجدت الحمامات، وهي من المنشآت الاجتماعية التي كثرت في العهد

(١) الشوكاني: البدر الطالع، ج ١، ص ٩٥.

(٢) الإزر أو الإزار هي ملاءة متسعة فضفاضة تلتف بها المرأة جميعا، ماير: الملابس المملوكية، ص ١٢٥.

(٣) ابن إياس: بدائع الزهور، ج ١، ص ١٩٣، والظاهر إن هذا الاهتمام بالملابس من قبل النساء المتبرجات كان في خارج بيوتهن فقط، فقد نعى ابن الحاج عليهن في ذلك إذ يقول في المدخل، ج ١، ص ١٧٦: (.. فتقعد المرأة في بيتها على ما هو معلوم من عاداتهن بغفش ثيابها وترك زينتها وبحملها وبعض شعرها نازل على جبهتها إلى غير ذلك .. حتى لو رآها رجل أجنبي لنفر بطبعه منها غالبا، فكيف بالزوج الملاصق لها، فإذا أرادت إحداهن الخروج تنظفت وتزينت ونظرت إلى أحسن ما عندها من الثياب والحلي فلبسته، وتخرج إلى الطريق كأنها عروس تجلى). أ.هـ، وهذا شأن النساء المتبرجات في كل زمان ومكان!!، والله أعلم.

(٤) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٩، ص ١٧٦.

المملوكي، فقد كانت بيوت المصريين في ذلك العصر تفتقر إلى الحمامات التي كانت قاصرة على بيوت السلاطين والأمراء، فكثرت الحمامات العامة، وغدت مظهر ترف اجتماعي في مدينة الإسكندرية، وقد اشتهرت حماماتها باتساعها ونظافتها، وكانت أرضيتها مكسوة بالرخام، وبها متخصصون في إزالة الوسخ والشعر ونحو ذلك<sup>(١)</sup>، ولم تقتصر وظيفتها على النظافة العامة بل كانت أيضا منتديات لتبادل الأخبار والآراء كما كانت منتدى لإظهار الملابس الأنيقة ولا سيما في الحمامات الخاصة بالنساء<sup>(٢)</sup>.

وقد اشتهرت الإسكندرية بمطاعمها ومشاربها والتي دلت على ما بلغه أهلها من الترف، فقد كانوا يرسلون بالطعام المراد طبخه إلى طبّاخين أقاموا لهم في الأسواق دكاكين خاصة لهذا الغرض<sup>(٣)</sup> وقد تفنن المصريون ومنهم أهل الإسكندرية في أطعمتهم فمنها المشوي ومنها المقلي والمحمر ومنها المسلوق، فقد عرفوا مرقّة الحمص، والأرز، والقلقاس، والبازنجان، ومرقّة اللّفت والجزر والكرنب، والعدس البسلة والسلق<sup>(٤)</sup>، وقد أطلقوا على كل طبخة اسما خاصا بها تعرف به مثل الدميس والصير والصحناه والبطراخ، ومن مآكلهم في الحلوى القطايف بشراب التفاح، ومن أشربتهم شراب الليمون وشراب السكر<sup>(٥)</sup>، وكانوا يتناولون الطعام وهم جلوس على الأرض، وكانوا يراعون الآداب الإسلامية في تناول طعامهم، فيبدأون بالتسمية وينتهون بالحمد، ومنها الإتكاء عند الجلوس للأكل على الفخذ الأيسر، وأكل الطعام بثلاثة أصابع مع مراعاة تصغير اللقمة وتطويل المضغّة وعدم الكلام حين الأكل، وكانوا حريصين على غسل الأيدي قبل وبعد

(١) ابن الأخوة: معالم الغربة: ص ٢٤٤؛ المقرئزي: الخطط، ج ١، ص ١٦٦؛ السيد عيد العزيز سالم: التخطيط ومظاهر العمران، ص ٦١.

(٢) قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك، ص ١٤٦.

(٣) ابن الحاج: المدخل، ج ٤، ص ٣٨٠.

(٤) المقرئزي: الخطط، ج ١، ص ٣٦٧؛ ابن حجر: الدرر الكامنة، ج ٣، ص ٢٧٤؛ محمد زغول: الأدب في العصر المملوكي، ج ١، ص ٨٥.

(٥) ابن الحاج: المدخل، ج ٤، ص ٣٨٢ - ٣٨٣.

تناول الطعام، وعادة ما يكون بالماء، وأحيانا بماء الورد، ثم يقومون بتتشيف أيديهم بالمناديل والقوط الحرير<sup>(١)</sup>.

وفي المناسبات السعيدة كالزواج والولادة والختان وبناء دار جديدة أو الاحتفال بعودة مسافر أو حاج، يقوم أهل الفرح بصنع وليمة يدعى إليها أهل والأصدقاء<sup>(٢)</sup>.

وعلى الرغم من حياة الترف التي عاشها أهل الإسكندرية في ظل دولة المماليك، إلا أن الكوارث الطبيعية، كالزلازل، والجفاف والقحط، وما يصاحب ذلك من أمراض كالطواعين، والأوبئة، وما ينتج عنها من مجاعات وفناء، أثرت على مختلف مناحي الحياة بها ولا سيما الاجتماعية، فمن أشهر تلك الكوارث، الزلزال الذي ضرب الديار المصرية عام (٧٠٢هـ/ ١٣٠٢م)، وكانت أضراره على الثغر أعظم من غيره من البلدان، حيث خربت الكثير من أعلامها ومبانيها الشهيرة، فانهدم أكثر منارها، وأجزاء عدة من سورها، وعدد كبير من الأبراج التي تكتنفه وتساقط عدد كبير من المآذن، وتحطم الكثير من المراكب، وتلفت المتاجر وما بها من البضائع، ومات على أثرها خلق كثير لا يعد ولا يحصى<sup>(٣)</sup>، وبالتالي أثرت هذه الزلزلة على التعداد السكاني بالثغر، وقد عبر الذهبي عن ذلك بقوله: (كانت زلزلة عظمى بمصر والشام، وكان تأثيرها بالإسكندرية أعظم من غيرها، وذهب

(١) النويري السكندري: الإمام، ج ٢، ص ٢١٧؛ ابن الحاج: المدخل، ج ١، ص ١٦٨؛ سعيد عاشور: المجتمع المصري، ص ١١٧.

(٢) النويري السكندري: الإمام، ج ٥، ص ٢٦٠؛ ابن حجر: الدرر الكامنة، ج ٢، ص ٤٤.

(٣) انظر عن آثار هذا الزلزال المدمر وما خلفه من دمار في شتى المجالات بالثغر السكندري كلا من بييرس الدوادر: التحفة المملوكية، ص ١٧٣؛ ابن ابيك: كنز الدرر، ج ٨، ص ١٠٠؛ ابن التجيبي: الرحلة، ص ١١؛ شافع بن علي: حسن المناقب، ص ١٥٨؛ حبيب: تذكرة النبيه، ج ١، ص ٢٥٣؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٨، ص ٢٠١؛ العامري: غربال الزمان، ص ٥٧٦؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج ٢، ص ٢٩٨.

تحت الردم بها خلق كثير وطلع البحر إلى نصف البلد، وأخذ الجمال والرجال وغرقت المراكب، وسقطت بمصر دور لا تحصى<sup>(١)</sup>.

ويشير ابن إياس إلى أنه في العام التالي وهو سنة (٧٠٣هـ/١٢٠٣م): (توجه الأمير بيبرس الدوادر لعمارة ما تهدم من الأبراج والصور بثغر الإسكندرية بسبب الزلزلة، فكان عدة ما سقط من الأبراج سبعة عشر برجاً ونحو ست وأربعين بدنة)<sup>(٢)</sup>.

كما أدى وباء الطاعون الذي أصاب مصر المملوكية عام (٧٤٩هـ/١٣٤٨م) واستمر لسنوات عدة، والذي انتقل إلى الإسكندرية مع الوافدين عليها من تجار وغيرهم إلى حدوث تأثيرات اجتماعية سيئة بسبب ما ينتج عنه من فناء وغلاء و مجاعة<sup>(٣)</sup> وتكاثر أعداد الموتى حتى صلى في يوم واحد على سبع مائة جنازة، وتعطلت بسببه دار الوكالة ودار الطراز وانعدم الصناعات وأغلقت الأسواق<sup>(٤)</sup>، وقد عبر ابن الوردي عن ذلك بقوله

(١) الذهبي: دول الإسلام، ج ٢، ص ١٦٣؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج ١، ص ٤١٦.

(٢) ابن إياس: بدائع الزهور، ج ١، ص ٤١٧.

(٣) لقد اجتاح هذا الوباء سائر أقاليم الأرض وشملت آثاره المدمرة الإنسان والحيوان والنبات— وسبب خسائر فادحة في الأرواح والممتلكات، وكان بداية ظهوره في شرق آسيا، ثم أخذ ينتقل حتى وصل إلى القسطنطينية، وغيرها من أقطار أوروبا، وبلاد الأندلس وجزر البحر المتوسط، ثم انتقل إلى بلاد الشام، ثم إلى مصرفي سلطنة الناصر حسن بن محمد، وقد عرف هذا الوباء باسم الموت الأسود أو الفناء العظيم، ونعت أحياناً باسم طاعون الأنساب، لأن ما من شخص مات، إلا وتبعه أحد من أولاده وأقربائه وذوى رحمه، انظر: أبو الفداء: المختصر ج ٤، ص ١٥٢؛ ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج ٣، ص ١١١؛ المقرئزي: إغاثة الأمة، ص ٤٠، السلوك، ج ٢، ص ٣٠٣؛ السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الإسكندرية، ص ٣٠١ — ٣٠٢.

لقد انتقل الوباء إلى الإسكندرية عن طريق السفن التجارية القادمة من غرب البحر المتوسط إلى سواحل الثغر، ويؤكد ذلك ما أكده المؤرخون الذين دونوا لذلك الحدث في ذلك الوقت أمثال ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ١٠، ص ٢٠٠.

(٤) المقرئزي: السلوك، ج ٢، ق ٣، ص ٧٧٧ — ٧٧٨؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ١٠، ص ٢٠٠؛ حامد زيان غانم: الأزمان الاقتصادية والأوبئة في مصر، ص ٤٦ — ٤٧.

إسكندرية ذا الوباء سبع يمد إليك ضيعه

صيرا لقسمته التي تركت من السبعين سبعة (١)

ثم تكرر حدوث هذا الوباء بالإسكندرية عامي (٧٥٤هـ/١٣٥٣م) (٧٧٥هـ/١٣٧٣م) ومات على إثره أعداد كبيرة من سكان الإسكندرية وصاحبه غلاء فاحش حيث راد ثمن القمح والدقيق والخبز حتى افتقر غالب الناس وانكشفت احوالهم، وضائق أسبابهم، ورخصت أقمشتهم، وأمتعتهم، فباعوها بأبخس الأثمان ليشتروا به الخبز الذي ارتفع ثمنه وصغر حجمه (٢).

وتعرضت الإسكندرية في القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي

لمرات عديدة لهذا الوباء الخطير ففي عام (٨٢٣هـ/١٤٢٠م) انتشر وباء الطاعون بمصر وكثر بالإسكندرية (٢) وفي طاعون عام (٨٣٣هـ/١٤٢٩م) كان يموت بالإسكندرية في كل يوم (١٥٠)، وقيل بل أكثر من ذلك (٣) وفي عام (٨٤١هـ/١٤٣٧م) انتشر الطاعون مرة أخرى بثغر الإسكندرية مخلفا وراءه الموتى (٤)، وقد ذكر الصيرفي أنه في عام (٨٧٣هـ/١٤٦٨م) قد وصلت الأخبار من الثغر السكندري أن معظم أهلها ذهبوا بموت الطاعون (٥)، وفي طاعون عام (٨٩٧هـ/١٤٩١م)، مات فيه خلق كثير بالإسكندرية وقد وصف بأنه (مهول) (٦)، كما تكرر إصابة الإسكندرية بهذا المرض خلال القرن العاشر الهجري، السادس عشر الميلادي، حيث انتشر مرض الطاعون في أخريات الدولة

(١) قد أورد ابن حبيب هذه الأبيات وغيرها مما قاله ابن الوردي عن هذا الوباء المدمر، انظر

تذكرة النبيه، ج ٣، ص ١١٢ - ١١٣.

(٢) لمعرفة المزيد عن أضرار هذا الوباء انظر: النويري السكندري: الإمام، ج ٦، ٤٢٣ - ٤٢٤؛

المقريزي: السلوك، ج ٢، ق ٣، ص ٩٠٣.

(٣) الصيرفي: نزهة النفوس والأبدان، ج ٢، ص ٤٧٤؛ ابن حجر: إنباء الغمر، ج ٣، ص ٤٣٧؛ ابن

تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ١٤، ص ٣٣٨.

(٤) الصيرفي: نزهة النفوس، ج ٣، ص ٤٢٥.

(٥) الصيرفي: إنباء الهصر، ص ٣١.

(٦) ابن إياس: بدائع الزهور، ج ٣، ص ٢٨٦ - ٢٨٧.

المملوكية عامي (٩١٨ هـ - ٩١٩ هـ) // (١٥١٣ م - ١٥١٤ م)<sup>(١)</sup>، وقد خلف ورائه الدمار والكثير من الموتى في كل مكان بل نستطيع القول بأن هذا الطاعون كان أحد الأسباب التي عجلت بخراب الإسكندرية، واضمحلالها، وما صاحب هذا الطاعون وغيره من مجاعات وغلاء، فيذكر ابن حجر في حوادث سنة (٨٠٧ هـ / ١٤٠٤ م) أنه وقع الغلاء في كل شيء، وخرج من الإسكندرية خمسة سفن مملأ بالناس هاربين من الغلاء فغرقوا أجمعين<sup>(٢)</sup>، وصفوة القول فإنه كان لهذه الكوارث أثرها السلبي على الحركة العلمية بالإسكندرية، فقد أفنى الطاعون الكثير من العلماء ممن مات بسببه، فعلى سبيل المثال مات فقط في طاعون (٧٤٩ هـ / ١٣٤٨ م) الشاعر شهاب الدين أبو العباس أحمد بن مسعود الضرير ومسد الثغر شهاب الدين أحمد بن محمد التيجيبي<sup>(٣)</sup>، وقاضي القضاة عز الدين بن كمال الريغي المالكي<sup>(٤)</sup>، كذلك مات من طلاب العلم الكثير فإذا علمنا أن أكثر طلاب العلم كانوا من الفقراء، وأن الطاعون أكثر ما يصيب الفقراء ندرك أنهم كانوا أقرب للنفاء من غيرهم<sup>(٥)</sup>، إلا أنه له جانب إيجابي من جهة حث العلماء وطلاب العلم الناس على الصبر وترك المنكرات والتقرب إلى الله بالطاعات<sup>(٦)</sup>، كما أن ذلك انعكس على سهولة اقتناء الكتب والتي أضحت تباع رخيصة لحاجة الناس إلى الطعام، فقد ذكر أنه في طاعون (٧٤٩ هـ / ١٣٤٨ م) صارت كتب العلم ينلدى عليها بالأحبال، فيباع الحمل منها بأرخص الأثمان<sup>(٧)</sup>.

(١) ابن إياس: بدائع الزهور، ج ٤، ص ٢٩٦.

(٢) ابن حجر: إنباء الغمر، ج ٢، ص ٢٨٩.

(٣) ابن فهد: لحظ الألاحظ، ص ١٨٨.

(٤) النويري: الإلمام، ج ٦، ص ٤٢٤. وسيأتي ذكر كثير ممن مات بالطاعون في ثنايا هذا البحث  
إن شاء الله تعالى

(٥) ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج ٣، ص ١١١.

(٦) يذكر ابن تغري بردي أنه في طاعون ٧٤٩ هـ أريق الخمر في الأسواق، انظر: النجوم الزاهرة، ج ١٠، ص ٢١٠.

(٧) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ١٠، ص ٢١٠.

## الأوضاع الدينية

من الضرورة بمكان قبل أن نشرع في دراسة الحياة العلمية في الإسكندرية في العصر المملوكي أن نتعرف على الحالة الدينية بها، والحديث عن هذا الموضوع يتناول جرائب عدة نبدها بالحديث عن الوظائف الدينية (القضاء، المظالم، الحسبة، الخطابة، التدريس...) (1)، والاتجاهات العقدية والتصوف، وأود بداية أن أبين أن الحياة الدينية لها اتصال وثيق بالحياة العلمية في الإسكندرية أكثر من غيرها، ولهذا فإن الحياة العلمية والأوضاع الدينية اشتركتا في كثير من الأمور، فمثلاً عند النظر إلى العوامل التي أدت إلى تنشيط الحياة الدينية في الإسكندرية في العهد المملوكي نجد أنها لا تختلف في مجملها عن العوامل التي أدت إلى تنشيط الحياة العلمية، ومن ذلك مثلاً إحياء الخلافة العباسية في القاهرة، ورعاية السلاطين للعلم، ونزول الأسر العلمية بالثغر، وكثرة موارد الإنفاق على التعليم والاتجاه السني بالثغر، ويضاف إلى ذلك أيضاً كثرة دور العلم، من المساجد والكتاتيب، والمدارس النظامية، ودور العلماء والأربطة والخانقاوات، والرحلات العلمية والمناظرات ورحلات الحج حيث إن الإسكندرية طريق للحاج المغربي، وممر للرحالة المغاربة والأندلسيين، وسيأتي بحث ذلك في موضعه من هذه الرسالة إن شاء الله تعالى.

ونظراً لهذا الارتباط فسأبدأ حديثي عن الوظائف الدينية

### الوظائف الدينية:

اهتم المماليك بتنظيم الوظائف الدينية بالإسكندرية، والتي تشمل القضاء والمظالم والحسبة، وكذلك تشمل الخطابة والوعظ والتدريس، ووظائف المدارس وخزائن الكتب وغير ذلك، وسأكتفي هنا بعرض الوظائف الأولى (القضاء - المظالم - الحسبة).

(1) أقوم ببحث القضاء والمظالم والحسبة في الإسكندرية في العهد المملوكي هنا، وأما الخطابة والتدريس ونحوهما فيكون محل بحثه في الفصلين الثاني والثالث من هذه الرسالة إن شاء الله لتعلقه بالحالة العلمية.



## القضاء والنظر في المظالم:

القضاء هو: الفصل في المنازعات، وهو أمر دل على مشروعيته الكتاب والسنة والإجماع، قال تعالى: ﴿وَأَن احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾<sup>(١)</sup>، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (( إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ، فله أجر ))<sup>(٢)</sup>، وأجمع المسلمون على مشروعية نصب القضاء والحكم بين الناس وأنه من فروض الكفايات، لأن أمر الناس لا يستقيم بدونه، فكان واجباً عليهم كالإمامة، وفضله عظيم لمن قوى على القيام به، لأن فيه أداء الحق والأمر بالمعروف ونصرة المظلوم، وهذه كلها من أبواب القربات، ولذلك تولاه النبي صلى الله عليه وسلم والأنبياء قبله، فكانوا يحكمون لأمرهم<sup>(٣)</sup>، قال تعالى: ﴿يَا دَاوُدَ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾<sup>(٤)</sup>.

والقضاء له تأثير كبير على الحركة العلمية، وذلك لأن العلماء ذكروا أنه يشترط في القاضي الكمال أي كمال الأحكام وكمال الخلق<sup>(٥)</sup>، والعدالة، وأن يكون من أهل الاجتهاد في الدين وهذا يلزم أن يكون عالماً بالكتاب والسنة والإجماع والاختلاف والقياس ولسان العرب<sup>(٦)</sup>، وبذلك يكون تأثيره كبيراً على الحركة العلمية.

وقد تم تنظيم القضاء في العصر المملوكي على القضاء السني تبعاً لما كان عليه في العصر الأيوبي إلا أن السلطان بيبرس أدخل نظاماً جديداً، فلم يشأ أن

(١) سورة المائدة، آية: ٤٦.

(٢) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، ص ١٥٣٩ (ح ٧٣٥٢)، ومسلم:

الجامع الصحيح، في كتاب الأقضية، ج ٣، ص ١٣٤٣ (ح ١٧١٦).

(٣) انظر في ذلك كله: ابن قدامة: المغني ج ١٤، ص ٦٠٥.

(٤) سورة ص، آية: ٢٦.

(٥) كمال الأحكام: أن يكون بالغاً عاقلاً حراً ذكراً، وكمال الخلق: بأن يكون متكلماً سميعاً

بصيراً، وفي بعض ذلك خلاف وقيود، انظر: ابن قدامة: المغني، ج ١٤، ص ١٢، ١٣.

(٦) ابن قدامة: المغني، ج ١٤، ص ١٥.

ينفرد قاضي القضاة الشافعية، وكان هو تاج الدين أبو محمد بن عبد الوهاب ابن بنت الأعز<sup>(١)</sup> بقضاء مصر كلها، بل أشرك معه آخر، ثم رأى أن يولي من كل مذهب قاضيا، وبذلك صار لكل مذهب قاضي قضاة، وعهد لكل واحد منهم أمورا، كما عهد إلى قاضي الشافعية بالنظر في أموال اليتامى والأوقاف والقضايا الخاصة ببيت المال، وسمح لكل قاضي من هؤلاء أن ينيب عنه في سائر الأقاليم، ولم يكن عمل قاضي القضاة في ذلك الوقت مقصورا على النظر في الخصومات فحسب، بل كان له أيضا النظر في جميع قضايا الوقف والإمامة في الصلاة والإشراف على دار الضرب والإشراف على نوابه في الأقاليم، ثم زيد في ذلك النظر في دعاوى إثبات الحقوق والأموال التي ليس لها وارث، والنظر في أوصياء اليتامى وأموال المحجور عليهم، وتزويج الأيتام عند فقد أوليائهم، والنظر في الأوقاف وغير ذلك<sup>(٢)</sup>.

ولم يكن قضاء ثغر الإسكندرية يختلف عن غيره في مصر، وقد حفظ لنا القلقشندي بعض المراسيم التي صدرت لتتصيب القضاة يمكن أن نستخلص منها صورة واضحة عن القضاء في الثغر، فقد ذكر أن القضاء في الإسكندرية مختص بالمالكية، وقاضيا يتحدث في نفس المدينة وظاهرها ليس له ولاية فيما هو خارج عنها<sup>(٣)</sup>، وذكر أنه قد وليها أيضا قاض شافعي<sup>(٤)</sup>، وأنه أستحدث بها قاض حنفي في عهد الأشرف برسباي يولي من الأبواب السلطانية رفيفا للقاضي المالكي بها يتحدث في الأحكام والقضايا المتعلقة بمذهبه خاصة، وأمر مودع الأيتام، ثم

(١) اشتهر باسم (ابن بنت الأعز) نسبة إلى جده لأمه، وهو الصاحب الأعز فخر الدين أبو الفوارس مقدم ابن القاضي كمال الدين أبي السعادات، انظر: النويري: نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ٦٢.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٩، ص ٣٤، ٣٥؛ المقرئ: الخطط، ج ٢، ص ٩٢؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج ١، ص ١٠١؛ عرنوس: تاريخ القضاء في الإسلام، ص ١١٢، ١١٣، ١١٨.

(٣) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ١١، ص ٤٠٨.

(٤) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ١١، ص ٤١١.

صارت بعد ذلك تارة يولى بها حنفي، وتارة تشغر منه، وأنه ليس بها شافعي إلا نائباً عن المالكي، وليس بها حنبلي أصلاً<sup>(١)</sup>.

وفي مرسوم تولية أحد قضاة الإسكندرية المالكيين القضاء بها نجد مدى اهتمام السلاطين بالثغر في قوله في ذلك المرسوم: (وكان ثغر الإسكندرية المحروس من المعازل التي يفتر عن شنب النصر ثغرها، ومن أركان الدين التي يغص بأبطالها بحرها، وهي مأوى صلحاء الجهاد الذين سهام ليلهم أسبق إلى العدا من سهامهم، وموطن العلماء من أهل الاجتهاد الذين يعدل دم الشهداء مداد أعلامهم، وهي داره التي تزهى به نواصيها، وموطن رباطه الذي يوم وليلة منه في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها..)<sup>(٢)</sup>.

وفي مرسوم آخر لتولية علم الدين الإخنائي الشافعي القضاء في سنة (٧٣٠هـ/١٣٢٩م) جاء فيه أن الثغر: (لا يزال به علم مرفوع، وعلم مصون حجاب الممنوع، عمل يمشى به أئمة الأمة على طريقة المشروع، ثغر الإسكندرية - حماها الله تعالى - فإنها من دار الملك في أعز مقام، ومن مجاورة البحر في موطن جهاد تخفق به الأعلام، وغالب من فيها إما فقيه يتمسك بالشرعية الشريفة في علو علومه، أو رب مال له وقوف بمجلس الحكم العزيز ينتصف من خصام)<sup>(٣)</sup>.

ويتضح من المراسيم وظائف القاضي وآداب القضاء، ومما جاء فيه النظر أو الشهود والاحتراز من الوكلاء وتدليسهم والتفويض بالنظر في أموال الأيتام وإقامة الحدود على مقتضى المذاهب، مع الأمر بتقوى الله تعالى<sup>(٤)</sup>.  
ونلاحظ فيما سبق من المراسيم أن كلاً منهما ينبه على حالة الثغر الجهادية والعلمية وصلاح أهله ونحو ذلك، كما يحدد آداب القاضي، وأن القاضي المالكي

(١) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ١١، ص ٤١٤.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ١١، ص ٤١٠.

(٣) ابن حبيب: التذكرة، ج ٢، ص ٢٢٠؛ السخاوي: الضوء اللامع، ج ١، ص ٨١-٨٢؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ج ١١، ص ٤١٢.

(٤) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ١١، ص ٤١٣.

هو المقدم دائما بالثغر ولا يكاد يخلو منه، وأن الدولة آنذاك حرصت على عدم مخالفة المذهب السائد في المدينة، فمن المعلوم أن القاضي الشافعي هو المقدم في عموم الدولة المملوكية، وهو الذي يولي القضاة على سائر البلاد، وهو الذي يفصل في المسائل المتعلقة بالميراث والأوقاف<sup>(١)</sup>، فتخصيص الإسكندرية بقاض مالكي وآخر شافعي يكون نائباً عنه يدل على مكانة الثغر المتميزة بين أقاليم مصر واهتمام السلاطين به وبما يصلحه.

وكان يعاون القاضي عدد من الموظفين منهم: الجواز<sup>(٢)</sup>، وهو الذي يحفظ النظام وترتيب الخصوم بحسب حضورهم ومنعهم من التقدم إلى القاضي في غير دورهم، ويلزمهم مراعاة الآداب في مجلس القضاء، وكان يحمل بين يديه سوطاً، يقرع به كل من يحاول الخروج على النظام، ويشترط فيه الأمانة والقُدوة<sup>(٣)</sup>، وحاجب القاضي: وهو الحارس الذي يحرس باب القاضي ويطلب الإذن للدخول عليه من الزائرين سواء كانوا من أصحاب القضايا أو غيرهم<sup>(٤)</sup> والعدول: وهم الذين يقومون بالشهادة ويراجعون السجلات والعقود للوقوف على مبلغ دقتها ومطابقتها للشرع وتزكية الشهود الذين يشهدون عند القاضي، ويشترط فيهم أن يكونوا ملمين بأحكام الفقه نزهاء<sup>(٥)</sup>، وكاتب المجلس: وهو الذي يكتب الدعاوى وأقوال الخصوم، ويجب أن يكون عالماً بالفقه متصفاً بالعفة والأمانة والصلاح، حتى لا يحذف أو يختصر في كلام الخصوم، كما لا بد أن يكون عالماً بمدلولات الألفاظ العرفية واللغوية، وتشتترط هذه الشروط أيضاً على المترجمان الذي يستعين به القاضي إذا كانت ثمة خصومة فيها غير ناطق بالعربية<sup>(٦)</sup>، ونقيب القاضي،

(١) القلقشندي: صبيح الأعشى، ج ٤، ص ١٩٢.

(٢) الجلوزة: الشدة في السعي، وأطلق عليهم هكذا لشدة سعيهم بين الأمير، والجواز بمعنى

الشرطي، انظر علي إبراهيم حسن: تاريخ المماليك البحرية، ص ٣٧٧، هامش، ٤.

(٣) عرنوس: تاريخ القضاة، ص ١٢٨ - ١٢٩.

(٤) السبكي: معيد النعم، ص ٦١.

(٥) السبكي: معيد النعم، ص ٦٢.

(٦) السبكي: معيد النعم، ص ٦٠؛ عرنوس: تاريخ القضاة، ص ١٣٩.

والذي يقوم بتثبيته القاضي على الشهود<sup>(١)</sup>، والذين كانت لهم حوائيت يعرفون بها،

وكانوا يتعرفون أحوال الناس ويشهدون في القضايا بما لهم وما عليهم، وكان منهم من يشهد بالزور من أجل المال، وقيل فيهم:

قوم إذا غضبوا كانت رماحهم بث الشهادة بين الناس بالزور  
هم السلاطين إلا أن حكمهم على السجلات والأملاك والدور<sup>(٢)</sup>

وقد حوت كتب التراجم بعض ممن تولى هذه الوظائف الدينية بالإسكندرية منهم على سبيل المثال: محمد بن الحسين السفاقي (ت ٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م)، تولى قضاء الإسكندرية مدة طويلة، بالإضافة إلى الخطابة بأحد مساجدها<sup>(٣)</sup>، ومنهم تاج الدين يحيى بن عبد الوهاب بن عطية بن محمود بن عطية الإسكندراني (ت ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م)، كان فقيهاً أصولياً، وصف في ترجمته بأنه (المعدل)<sup>(٤)</sup> وهو الذي يعدل الشهود أو يجرحهم كما سبق، ومن ترجمته يتضح أنه كان فقيهاً سمع الحديث، وهذا له دلالة على أن المعدل كانت له منزلة في ذلك العصر لا يبلغها إلا من له شأن في العلم والفقه، ومنهم مظفر بن عبد الملك بن عتيق بن مكي الفهري الإسكندراني، المالكي (ت ٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م) (الشاهد)، سمع وحدث<sup>(٥)</sup>، ومنهم عتيق بن عبد الجبار بن عتيق العدل الشاهد روى الكثير من الأحاديث، توفي سنة ٦٧٦هـ<sup>(٦)</sup>، وهذا يعطينا دلالة على أن الشاهد كان من أهل العلم، وبهذا نستطيع القول أن ثغر الإسكندرية لم يكن يختلف في الجملة عن بقية مصر المملوكية في القضاء وما يلتحق به والله أعلم.

(١) السبكي: معيد النعم، ص ٦٢.

(٢) السبكي: معيد النعم، ص ٦٣.

(٣) الذهبي: تاريخ الإسلام، حوادث الفترة، ص ٤٠١.

(٤) الذهبي: تاريخ الإسلام، حوادث الفترة، ص ٣٢٨.

(٥) الذهبي: تاريخ الإسلام، حوادث الفترة، ص ٤٠٤ - ٤٠٥.

(٦) الذهبي، تاريخ الإسلام، حوادث الفترة، ص ٢٣٤.

## وأما النظر في المظالم :

فقد كانت عادة أحدثها السلاطين المماليك، فكان الظاهر بيبرس أول من تولى ذلك وأنشأ لذلك دار العدل سنة (٦٦١هـ/١٢٦٢م)، وكان يجلس بها للفصل في القضايا في يومي الاثنين والخميس من كل أسبوع، يحيط به قضاة المذاهب الأربعة، وكبار موظفي الدولة الماليين والإداريين، وكاتب السر، وكان السلطان بيبرس لا ينقطع عن الجلوس في دار العدل إلا في شهر رمضان فقط<sup>(١)</sup>، وكانت القضايا التي تعرض على نظر المظالم تنتظر في شكاوى الأفراد والشعب عامة والمشكلات والنوازل ونحو ذلك، واستمر الأمر على ذلك في طوال عهد المماليك، وأقام كذلك السلطان الظاهر بيبرس بالإسكندرية دارا للعدل أيضا، يقوم فيها نواب الثغر بما يقوم به السلطان في القاهرة، ويجلس فيها النائب يومي الاثنين والخميس في موكب جليل يفصل القضايا بين الناس<sup>(٢)</sup>.

ولم ينفذ سلاطين المماليك النزول بدار العدل بالإسكندرية وقت زيارتهم لها، فقد نزل فيها السلطان بيبرس ونظر في شكاوى المظلومين، وكان من نتيجة ذلك أنه أمر بتطهير الثغر من الخواطي الإفرنجيات<sup>(٣)</sup> مما يدل على أهمية هذه الدار في رفع المظالم عن الثغر.

وكانت القضايا التي تعرض بهذه الدار غالبا تكون إما من القضايا العامة كما سبق، أو من القضايا التي يعجز القضاء العادي عن حلها، كأن يكون المتعدي من أصحاب النفوذ والجاه بالمدينة فلا يستطيع القضاء العادي تنفيذ الأحكام عليهم فتعرض القضية بمجلس دار العدل برئاسة النائب ليفصل فيها، وقد يكون النائب هو المعتدي الظالم للرعية، فتعرض القضية على السلطان بدار العدل تحقيقا للحق وإنصافا للمظلومين<sup>(٤)</sup>.

(١) المقرئزي: الخطط، ج٢، ص٢٠٨ - ٢٠٩؛ علي حسن: تاريخ المماليك البحرية، ص٣٩٣.

(٢) النويري السكندري: الإمام، ج٥، ص١٩٥.

(٣) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص١٧٦؛ المقرئزي: السلوك، ج١، ق٢، ص٥٠٠.

(٤) النويري السكندري: الإمام، ج٤، ص١٩٤ - ١٩٦.

## أما الحسبة:

فهي الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وهي وظيفة دينية تتعلق بالنظام العام والآداب وفي الجنايات أحيانا إذا احتاج الأمر إلى سرعة الفصل وأساسها قوله تعالى: {ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر} (١).

وقد حدد ابن خلدون اختصاصات المحتسب بقوله: (إنه يبحث عن المنكرات ويعزر ويؤدب على قدرها، ويحمل الناس على المصالح العامة في المدينة مثل المنع من المضايقات في الطرقات ومنع الحمالين وأهل السفن من الإكثار في الحمل، والحكم على أهل المباني المتداعية للسقوط لهدمها وإزالة ما يتوقع من ضررها على المارة وغير ذلك) (٢)، وتشترك الحسبة مع القضاء ونظر المظالم في مهمة القضاء بالمعنى العام، لكن النظر في المظالم أعلاها ثم رتبة القضاء العادي ثم ولاية الحسبة (٣).

وكانت الحسبة نظاما دينيا عاما في كل البلدان المملوكية، ولم تكن الإسكندرية خالية من هذا النظام، بل كان ثغر الإسكندرية أحوج ما يكون إليه لكثرة أسواقه، وحركته التجارية الكبيرة التي يشترك فيها الكثير من المسلمين وغير المسلمين، من جنسيات مختلفة ومشارب متفرقة.

وقد حفظ لنا القلقشندي مرسوما للحسبة بالثغر يوضح اختصاصات المحتسب والوصية إليه فمن ذلك: (وليزد في التحذير والتحقيق ما استطاع ويناقش حتى يستقر على الصحة فيما يباع أو يبتاع، ويقابل على الغش بما يروع متعاطيه ويزجر صانع الأعمال الفاسدة عن استدامتها، ومن يوافقه يمنع ذلك ويواطيه، ويثمر أموال الأحياس بملاحظة أصولها، والمحافظة على ريعها ومحصولها، وإيضاء مصاريفها على شروط واقفيها، إن علمت، ومزية ما قدم من

(١) الماوردي: الأحكام السلطانية، ص ٢٤٠ - ٢٤٩؛ الشيزري: نهاية الرتبة، ص ٦؛ ابن الأخوة: معالم القرية، ص ٧.

(٢) ابن خلدون: المقدمة، ص ٥٧٦.

(٣) وهبة الزحيلي: الفقه الإسلامي وأدلته، ج ٦، ص ٧٦٩.

أوصافه، والرفق بالرعايا وأنه من أحسن حلى معرفته وإنصافه والخير يكون إن شاء الله تعالى<sup>(١)</sup>.

وممن تولى الحسبة بالإسكندرية على سبيل المثال: عماد الدين يوسف بن عرفة السكندري المحتسب كان من رواة الحديث (ت ٦٥٢هـ/ ١٢٥٤م)<sup>(٢)</sup>، ومنهم الشيخ أبو علي الحسن بن أبي عمرو عثمان بن علي القابسي المالكي، المحتسب بالإسكندرية، وكان معروفاً بالخير والصلاح، توفي عن سن قريب من مائة سنة عام ٦٧٠هـ/ ١٢٧١م<sup>(٣)</sup>، ومنهم ناصر الدين محمد بن أحمد السكندري المحتسب (ت ٧٩٩هـ/ ١٣٩٦م)، كان من رواة الحديث بالثغر سمع منه عدد كبير من الفضلاء أمثال ابن حجر العسقلاني وغيره<sup>(٤)</sup>.

وبهذا تكون الوظائف الدينية الثلاث (القضاء - المظالم - الحسبة) قد ضمنّت تطبيق الشرع في الثغر السكندري وأصلحت أحوال الناس، وبهذا العدل يسود الأمن و تعلقو الأمم.

#### الاتجاهات العقديّة والتصوف:

كان الاتجاه العقدي في الإسكندرية يحمل سمة المذهب الأشعري<sup>(٥)</sup> عامة فقد كانت الإسكندرية حافلة بهذا المذهب العقدي في فترة الأيوبيين، ولما جاء

(١) القلقشندي: صبح الأعشي، ج ١١، ص ٤١٦.

(٢) الذهبي: تاريخ الإسلام، حوادث الفترة، ص ١٤٠.

(٣) اليافعي، حسن بن إبراهيم: جامع التواريخ المصرية في ذكر الخلفاء والسلطين الإسلامية، لوحة ٢٠٨، في حوادث سنة ٦٧٠هـ، مخطوط تحت رقم ١١٤٢ - تاريخ، بمركز البحث العلمي بجامعة أم القرى بمكة المكرمة.

(٤) ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر، ج ١، ص ٥٣٩.

(٥) المذهب الأشعري نسبة إلى مؤسسه أبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري، المتوفى سنة (٣٢٤هـ/ ٩٣٥م)، وكان معتزلياً، ثم تاب من الاعتزال وخرج منه، والمذهب الأشعري بعد تطوره خالف مذهب السلف في العديد من المسائل كالتأويل في الإلهيات لصفات الأفعال، وتفويض الصفات الخبرية، أو تأويلها أيضاً، واقترب من القول بالجبر في مسألة أفعال العباد، بما يسمى عندهم بالكسب، وورث من المعتزلة ما يسمى بدليل الجواهر والأعراض، وهي طريقة مبتدعة في إثبات حدوث العالم، كما التزم كثير من كبار الأشاعرة مسألة القول بتقديم



المماليك، لم يتغير الأمر كثيراً على ما كان عليه، فقد حمل الأيوبيون في أيام دولتهم كافة الناس على التزامه، فتمادى الحال على ذلك جميع أيام دولتهم، ثم في أيام مواليهم من الأتراك المماليك<sup>(١)</sup>، وهذا لا يعني أن مذهب السلف كان مندثراً في عهد الدولة المملوكية أو الأيوبية من قبلها، لكن كان يدعوا إليه أفراد معدودون غالبهم من الحنابلة، ولم يكن له الاتساع كالمذهب الذي تدعمه الدولة<sup>(٢)</sup>.

ومع مجيء الحركة السلفية<sup>(٣)</sup> التي رفع رايتها شيخ الإسلام ابن تيمية في مصر بدأ مذهب السلف ينتشر بين الناس، وبدأ النقاش والمناظرات حوله، ولما سجن شيخ الإسلام بالإسكندرية بدأ ينشره بين أهالي الثغر وينظر عليه<sup>(٤)</sup>، وأما التشيع فقد كان قليلاً في الإسكندرية في أواخر العهد الفاطمي، ولم يكن له إلا الوظائف الرسمية فقط، بل حتى القضاة صاروا مالكية في أواخر العهد الفاطمي وأضف إلى ذلك أن الدولة الأيوبية ومن بعدها دولة المماليك حرصت على أن لا يتولى وظيفة القضاء إلا سني، فها هو الظاهر بيبرس يأمر في سنة (٦٦٥هـ/١٢٦٦م) باتباع المذاهب السنية، وتحريم ما عداها، وأن لا يولي قاضي ولا تقبل شهادة أحد ولا يرشح لإحدى الوظائف من خطابة أو إمامة أو تدريس إلا

---

العقل على النقل، وبأن خبر الواحد لا يفيد العلم ولو احتف بالقرائن، وغير ذلك مما بينه العلماء وردوا عليهم فيه، وللدكتور عبد الرحمن المحمود رسالة قيمة في ذلك، يبحث فيها عن موقف ابن تيمية من الأشاعرة، وانظر أيضاً: ابن تيمية: منهاج السنة، ج ٢، ص ٢٢٧-٢٢٩.

- (١) المقرئزي: الخطط: ج ٢، ص ٣٥٨؛ ابن تغري بردي: النجوم، ج ٦، ص ٩٤.
- (٢) ولا سيما مع مجيء الحافظ عبد الغني بن عبد الواحد المقدسي (ت ٦٠٠هـ) إلى مصر سنة ٥٦٠هـ ومناظرته على مذهب السلف، وانظر في ذلك: ابن رجب: ذيل الطبقات، ج ٢، ص ٦.
- (٣) السلف لغة: بمعنى مضى، والقوم السلاف: المتقدمون، ابن فارس: معجم مقاييس اللغة، مادة: سلف، ج ٣، ص ٩٥، أما اصطلاحاً، فله مدلولان: مدلول خاص: وهو الذي ينطبق على مذهب الصحابة والتابعين، والتابعين لهم بإحسان، ممن لم يبتدعوا، ومدلول أعم: ويشمل ما بعد هذه القرون المفضلة، وهذا شامل لكل من سار على طريقة ومنهج خير القرون، والترم النصوص والفهم الذي فهموه. انظر: مصطفى حلمي: قواعد المنهج السلفي، ص ٢٣.
- (٤) سيأتي تفصيل ذلك في الفصل الثالث من هذه الرسالة إن شاء الله تعالى.

من كان مقلدا لأحد المذاهب الأربعة<sup>(١)</sup>، ومع ذلك فإننا نجد في ثنايا تراجم بعض السكندريين ، وصفهم بالتشيع، فمن ذلك ما ترجم به ابن حجر لبعض معاصريه من أهل الإسكندرية، منهم علي بن المظفر الإسكندراني، حيث وصفه بأنه شديد في مذهب التشيع من غير سب ولا رفض<sup>(٢)</sup> ومعنى قوله من غير سب ولا رفض، أي بغير سب الشيخين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، ولا رفض لولايتهما، أي كان تشيعه من باب المفاضلة والتقديم، أي تقديم علي رضي الله عنه عن علي الشيخين، ولم يكن كتشيع الرافضة الذين يبالغون في سب بل ربما تكفير بعض الصحابة أو الشيخين رضي الله عنهم أجمعين، وهذا إن دل فإنما يدل على قوة مذهب أهل السنة بالإسكندرية لدرجة أن من ابتلي بالتشيع فإن تشيعه يكون دون الرفض الذي كانت تعج به مصر في الدولة الفاطمية<sup>(٣)</sup>.

كما أصبح التشيع ممقوتا بمصر المملوكية، لدرجة أنه أصبح مكيدة تدس على بعض الأشخاص لكي تحل عليه العقوبات (حتى يظهر التوبة من الرفض)<sup>(٤)</sup>، وفي الجملة يمكن القول بأن الإسكندرية خلت من التشيع والرفض، وأن ما يقال عن بعض أفراد بها أنهم من الشيعة فهو تشيع لا يصل إلى الغلو، بل قد لا يتجاوز التفضيل والتقديم كما أسلفنا.

أما التصوف : فهو طريقة مبتدعة انتسب إليها كثير من الزهاد واختلف في أصل اشتقاقها فقليل نسبة إلى الصفة، وهي الموضع الذي بني لإيواء فقراء المسلمين بالمسجد النبوي، وقليل نسبة إلى الصف الأول في الصلاة، وقليل نسبة

(١) المتريزي: الخدلط، ج ٤، ص ١٦١.

(٢) ابن حجر: الدرر الكامنة، ج ٣، ص ١٣٠.

(٣) ويمكن أن نقول بأنه عم كل بلاد مصر، فقد ذكر السيوطي: ( أن مصر منذ أصبحت دارا للخلافة علت فيها السنة، وعفت منها البدعة)، انظر: حسن المحاضرة، ج ٢، ص ٨٦، وذكر الإدفوي أن (إسنا) — بلده من بلاد صعيد مصر — كان بها التشيع (فأشيا والرفيض ما شيا فجف حتى خف)، وقال عن (أصفون) — بلدة أخرى من بلاد الصعيد — أنها كانت مغرقة (بالتشيع البشع، لكنه خف بها وقل)، انظر: الطالع السعيد، ص ١٧.

(٤) مثل ما كان لجلال الدين حسن بن منصور، انظر ترجمته في ابن حجر: الدرر الكامنة، ج ٢، ص ٤٦؛ سعيد عاشور: المجتمع المصري، ص ١٥٥.

إلى الصفاء، أو إلى قبيلة عربية جاهلية يقال لها صوفة، والصحيح أنها نسبة إلى لباس الصوف فيقال: تصوف إذا لبس الصوف، كما يقال تقمص إذا لبس القميص، وتبرقعته، المرأة إذا لبست البرقع، وإنما نسبت الصوفية إلى لباس الصوف لكثرة لبسها للصوف زهدا وتورعا من لبس فاخر الثياب<sup>(١)</sup>.

وقد نبه ابن الجوزي على الفرق بين الزهد والتصوف بقوله: (فالتصوف مذهب معروف يزيد على الزهد ويدل على الفرق بينهما أن الزهد لم يذمه أحد، وقد ذموا التصوف)<sup>(٢)</sup>.

والتصوف بكونه طريقة عبادية تميز بها الزهاد ظهر في بداية القرن الثاني الهجري، حيث كثر لبس الصوف من زهاد هذا العصر، ويلاحظ بعض الباحثين أن ثمة ارتباطا قديما بين نشأة الصوفية والتشيع ولاسيما وأن أبا الهاشم الصوفي عثمان بن شريك (ت ١٥٠هـ/٧٦٦م) رمي بالتشيع، وتسميه الشيعة (مخترع الصوفية)<sup>(٣)</sup>.

وأيا كان صحة هذا الأمر في مبدأ ظهور الصوفية، إلا أنه من الثابت عند العلماء أن الصوفية فيما بعد نقلوا كثيرا من نظامهم عن التشيع، وبالتالي فإننا ندرك أسباب انتشار التصوف في مصر الفاطمية، وسماح العبيديين للصوفية بالانتشار في بلادهم، هذا بالإضافة إلى أن الصوفية مذهب أخلاقي يمكن استغلاله، فقد استغل العبيديون التصوف لمنع الثورات عليهم من جهة، ولنشر مذهبهم من جهة أخرى، إذ يلتقي التصوف والتشيع في كثير من الأصول والمبادئ والتصورات المخالفة للواقع، كما أن التصوف شابهه نزعات فلسفية قوية<sup>(٤)</sup>.

(١) انظر في اشتقاق كلمة التصوف: القشيري: الرسالة، ص ٢١٧، ابن تيمية: مجموع الفتاوى، ج ١٠، ص ٣٦٩؛ ابن خلدون: المقدمة، ص ٣٣٤؛ أحمد بناني: موقف ابن تيمية من التصوف والصوفية، ص ٦٧ - ٧٠؛ فتحية النبراوي: تاريخ النظم والحضارة الإسلامية، ص ٢٢١.

(٢) ابن الجوزي: تليس إبليس، ص ١٦٥.

(٣) الشيبني: الصلة بين التصوف والتشيع، ج ٢، ص ٢٩١.

(٤) سعيد عاشور: المجتمع المصري، ١٦٤.

وكان للصوفية طقوس كثيرة أشبه بطقوس النصارى مع قساوستهم فاشتروا في العهد الذي يأخذونه على مرديهم أن المرید لا يبقى له تصرف في ماله ولا زوجته ولا نفسه، يقول الشيخ أبو العباس المرسي الإسكندراني: ( ينبغي للمشايخ تفقد حال المریدین، ويجوز للمریدین إخبار الأستاذ بما في بواطنهم، إن الأستاذ كالطبيب، وحال المرید كالعورة، والعورة قد تبدو للطبيب لضرورة التداوي)<sup>(١)</sup>.

وظاهر حياة الصوفية كانت قائمة على الزهد والتقشف حتى إنهم يجعلون (الخانقاه) وهو البيت الذي يسكنه الصوفية من (الخنق) لتضييقهم على أنفسهم<sup>(٢)</sup>. وحيث إن مخالفة الشريعة أول طريق الانحلال، والصوفية قد انتشرت عقائدهم وعباداتهم لذا تحولت الصوفية من مطلب اجتماعي للزهد في الدنيا إلى فلسفات خطيرة، وبدعة ضالة وفسق ظاهر، فقد انتشر بين الصوفية معاشره المردان وتعاطي المخدرات التي هي الحشيشة، ويزعمون أنها (تحرك العزم الساكن إلى أشرف الأماكن)<sup>(٣)</sup>، كما صار هم غلاة المتصوفة الوصول إلى الغاية في الفناء في توحيد الربوبية، وهو درب الاتحاد بحيث يرى أنه لا يوجد خالق ومخلوق، وأن جميع الموجودات لا حقيقة لوجودها غير وجود الله، فكل شيء في زعمهم هو الله محلي فيه، وما إلى ذلك من الترهات الكفرية، حتى إن أحدهم لبتفوه بالعظائم بسبب هذه العقائد كأن يقول: (ما في الجبة إلا الله)، وما أشبه ذلك تعالى الله عما يقول الملحدون علوا كبيرا<sup>(٤)</sup>.

(١) الشعراني: لوائح الأنوار، ج ٢، ص ٢١، ٦٨، ٦٩، ٧٤، ٨٠.

(٢) الشعراني: لوائح الأنوار، ج ٢، ص ٤٢،

(٣) ابن تيمية: مجموع الفتاوى، ج ٣٤، ص ٢١٠.

(٤) انظر في الرد على هذه العقيدة الباطلة: ابن تيمية: مجموع الفتاوى، ج ٢، ص ٢٨٦ - ٢٩٣،

٣٧٧؛ غالب عواجي: فرق معاصرة، ج ٢، ص ٨٣٩ - ٨٤٨، وعلى سبيل المثال على إلحادهم

وقولهم بوحدة الوجود والحلول والاتحاد قول ابن عربي:

العبد رب والرب عبد يا ليت شعري من المكلف

إن قلت عبد فذاك رب أو قلت رب فأني يكلف

انظر العواجي: فرق معاصرة، ج ٢ ص ٨٤٩.

والمطلع على الفتاوى التي صدرت عن شيخ الإسلام ابن تيمية في شأن هؤلاء الصوفية في هذا العصر يمكن أن يحدد بعض ملامح التصوف آنذاك، ومنها:

العبادات البدعية، كالوقوف في الشمس أو على السطح دائماً، وحمل الحيات ولباس الفتوة والخرقا وإحداث أذكار وأدعية مبتدعة والسماع الملحن<sup>(١)</sup>.  
مخالفات عقديّة، ومن ذلك الخطأ في فهم الزهد بترك الواجبات أو المستحبات، كمن ترك اللحم والنساء والخبز.

الخروج عن الطريقة الشرعية اعتماداً على الحقيقة البدعية أو الحقيقة الكونية، ومن ذلك اتباع أوامر المشايخ وترك الأمر الشرعي.  
انحرافات عقديّة خطيرة، مثل ما تقدم من القول بوحدة الوجود وإسقاط التكليف ونحو ذلك<sup>(٢)</sup>.

وكانت الإسكندرية شأنها شأن بقية البلاد المملوكية تعج بهؤلاء الصوفية، فقد نزل بالإسكندرية رموز التصوف في هذا العصر.

فمنهم: أبو الحسن الشاذلي تقي الدين علي بن عبد الله ابن عبد الجبار بن يوسف الحسني (ت ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م)، وهو من (شاذلة) بتونس، استقر فيها قبل رحيله النهائي إلى الإسكندرية<sup>(٣)</sup>، نشأ الشاذلي بالمغرب وبه بدأ دراسته ثم رحل إلى الشرق للحج ونزل الإسكندرية، فصحبه المرسي واستقر بالإسكندرية، وبدأ يلقي دروسه في التفسير والوعظ والدعوة إلى طريقته التي سميت باسم الشاذلية، في مسجد العطارين<sup>(٤)</sup>، وصار يحج عاماً، ويقوم في الإسكندرية عاماً، حتى توفي في طريقه للحج عام (٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م)<sup>(٥)</sup>، ولم يكن الشاذلي مصنفاً، وإنما وصل

(١) ابن تيمية: مجموع الفتاوى، ج ٣٦، ص ١٩٤ - ٢٠١.

(٢) ابن تيمية: مجموع الفتاوى، ج ٣٦، ص ٢٠١ - ٢١٢.

(٣) ابن منقذ: الوفيات، ص ٣٢٣؛ ابن تغري بردي: الدليل الشافي، ج ١، ص ٤٥٨؛ يحيى

العامري: غربال الزمان، ٥٣٥.

(٤) الشيال: أعلام الإسكندرية، ص ١٧٩.

(٥) النويري السخندري: الإمام، ج ٥، ص ٢٢١.

إلينا من تعاليمه وأقواله (حزب البحر وحزب البر وحزب النصر)<sup>(١)</sup>، وكلها أوراد مبتدعة بكيفيات غير شرعية، وقد رد شيخ الإسلام ابن تيمية على الكثير مما قاله الشاذلي في حزبه<sup>(٢)</sup>.

قال الذهبي لما ترجم له في تاريخه وذكر نسبه: (هذا نسب مجهول لا يصح ولا يثبت، وكان الأولى به تركه، وترك كثير مما قاله في توأليفه في الحقيقة، وهو رجل كبير القدر، كثير الكلام على المقام، له شعر ونثر فيه متشابهات وعبارات يتكلف له في الاعتذار عنها، ورأيت شيخنا عماد الدين قد فتر عنه في الآخر، وبقي واقفا في هذه العبارات، حائرا في الرجل)<sup>(٣)</sup>، ونقله الصفي عن الذهبي ثم قال: (وللشيخ تقي الدين بن تيمية مصنف في الرد على ما قاله الشاذلي وحزبه)<sup>(٤)</sup>.

ومن رموز التصوف بمدينة الإسكندرية: أبو العباس أحمد بن عمر بن علي الخوارزمي الأنصاري المرسي (ت ٦٨٦هـ / ١٢٨٧م)، ولد بمرسية<sup>(٥)</sup> بالأندلس، وإليها ينسب وتلقى بها علومه الأولى واشتغل في شبابه بالتجارة، وفي سن الرابعة والعشرين خرج للحج، فغرقت السفينة، ونجا هو وأخوه من الغرق، و نزل بتونس حيث التقى بأبي الحسن الشاذلي، فلزمه وأظهر نجابة في ذلك، وتزوج بابنة الشاذلي<sup>(٦)</sup>، ولما عزم الشاذلي على الرحيل إلى الإسكندرية لازمه أبو العباس وأقبل على دروسه وفي عام (٦٤٧هـ / ١٢٤٨م) أعلن الشاذلي استخلافه

(١) انظر في مؤلفاته: حاجي خليفة: كشف الظنون، ج ١، ص ٥١٠.

(٢) ابن تيمية: الفتاوى، ج ١٤، ٣٥٨، ٣٥٩، ج ٨٢٣١، ٢٣٢.

(٣) الذهبي، تاريخ الإسلام، حوادث الفترة، ص ٢٧٣، ٢٧٤، الصفي: نكت العميان، ص ٢١٣.

(٤) الصفي: نكت العميان، ص ٢١٣.

(٥) مرسية: بضم أوله، مدينة بالأندلس من أعمال تدمير، اختطها عبد الرحمن بن الحكم الأموي، وينسب لها جماعة من العلماء، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٨، ص ٢٥، الحميري: الروض المعطار، ص ٥٣٩.

(٦) وقد أنجب منها ثلاثة أبناء وابنة، زوجها فيما بعد من تلميذه ياقوت العرشي. انظر في ترجمة المرسي، المقرئ: نفح الطيب، ج ٢، ص ٣٩٢؛ الدسباوي: الإمام أبو العباس المرسي، ص ١٥٦.

لأبي العباس في الطريقة، وجدد هذا الاستخلاف عند وفاته في طريق الحج عام (٦٥٦هـ/١٢٥٨م)، واستقر المرسي بالثغر السكندري يلقي دروسه في التصوف، ولم يخلف تراثا علميا، وليس له كتب شأن أستاذه، ولم نجد من تراثه إلا أقوالا نقلها تلاميذه وبعض أشعار تدور حول التصوف بما فيه من مخالفات عقدية وقد استمر أبو العباس بعد وفاة شيخه الشاذلي ثلاثين عاما يدعو إلى طريقته حتى توفي عام (٦٨٦هـ/١٢٨٧م)، ودفن بالإسكندرية<sup>(١)</sup> وبني على قبره ضريح مشهور، يزوره أهل الإسكندرية وغيرهم، من المترددين عليها، ولهم فيه اعتقاد زائد ولا سيما المغاربة<sup>(٢)</sup>.

ومن رموز التصوف بالإسكندرية: ابن عطاء الله تاج الدين أبو الفضل أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن السكندري، يعد أحد أركان الطريقة الشاذلية، فهو تلميذ أبي العباس المرسي، ولد ابن عطاء بالإسكندرية، وينتمي إلى قبيلة جذام<sup>(٣)</sup> التي شهدت فتح الإسكندرية أيام عمرو بن العاص، واستقر بعض أفرادها في الثغر وقد اشتغل ابن عطاء الله في صغره بمذهب مالك على علماء الإسكندرية، حتى التقى بأبي العباس المرسي عام (٦٧٢هـ/١٢٧٥م)، واستمع إليه فجذبه إليه وصار تلميذا له<sup>(٤)</sup>، ومن ثم خليفة له على زعامة الطريقة الشاذلية. وقد ترك ابن عطاء الله كتبا كثيرة بخلاف الشاذلي والمرسي، ومن كتبه "الحكم العطائية"، وهو أشهرها، و"لطائف المنن في مناقب العباس المرسي"،

(١) اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج ٤، ص ٣١٨؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج ١، ص ٣٥٦.  
(٢) علي باشا: الخطط التوفيقية، ج ٧، ص ١٨٩، ولا زال هذا الضريح يشكل فتنة للناس حتى زماننا هذا، حيث يقام له مولد لمدة ثمانية أيام، وليلة في نصف رمضان، ومن عادة الجهلة من العوام في أيامنا هذه الذهاب بالسيارات في ليلة الزفاف ويطوفون بالضريح من الخارج تبركا لحياة سعيدة.

(٣) بنو جذام قبيلة عربية تعود إلى عدي بن الحارث بن مرة، وهم من مضر من العرب العاربة، أحد أحياء قبيلة كهلان، لمعرفة المزيد عن هذه القبيلة انظر: القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤،

(٤) الياضي: مرآة الجنان، ج ٤، ص ٢٤٦، ٢٤٧.

وشيخه أبي الحسن" ، الذي ترجم فيه لقطبي الطريقة. و"القصد المجرد في معرفة الاسم المفرد" ، ضمنه مذهبه في التوحيد، و"تاج العروس الحادي لتهديب النفوس" ، في الوعظ ، وله "مفتاح الفلاح ومصباح الأرواح" ، في الرياضات الصوفية كالذكر والعزلة والخلوة، وله أيضا "التنوير في إسقاط التدبير" ، وهو كما يظهر من اسمه يقرر مذهب الجبرية<sup>(١)</sup> في إسقاط العبد تدبيره مع الرب، و"الحكم العطائية"<sup>(٢)</sup> وغير ذلك.

وتوفي ابن عطاء بالمدرسة المنصورية بالقاهرة سنة (٧٠٩هـ/١٣٠٩م) ودفن بترية الإمام الشافعي<sup>(٣)</sup>.

والظاهر أن ابن عطاء كان قد بلغ في التصوف غاية كبيرة، وله عبارات كثيرة تشير إلى اعتقاده مذهب (أهل وحدة الوجود)، وكان من كبار المناوئين لشيخ الإسلام ابن تيمية<sup>(٤)</sup>، لما علم عن الأخير من فضح حال الصوفية، وبيان خطرهم على الاعتقاد.

---

(١) الجبرية: هم القائلون بأن العبد لا فعل له ، وأن فعله بمنزلة طوله ولونه، فهو مجبور على أفعاله ، ورئيسهم الجهم بن صفوان السمرقندي ، قتله سالم بن أحوز أمير خراسان سنة ١٢٨هـ، انظر: خالد حمزة: تقريب الطحاوية، ج ٢، ص ٨٥٠.

(٢) لمعرفة المزيد عن مؤلفاته انظر: ابن فرحون: الديباج، ج ١٢، ص ٢٤٢؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج ١، ص ٥٤٢؛ الشعراني: لوائح الأنوار، ج ٢، ص ٢٧؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٦، ص ٢٠؛ علي مبارك: الخطط التوفيقية، ج ٧، ص ١٩٠؛ كحالة: معجم المؤلفين، ج ٢، ص ١٢١.

(٣) اليافعي: مرآة الجنان، ج ٤، ص ٢٤٧؛ ابن فرحون: الديباج، ج ١، ص ٢٤٣؛ ابن تغري بردي: النجوم، ج ٨، ص ٢٨٠؛ المنهل، ج ٢، ص ١٢٠، ١٢١؛ لدليل الشافعي، ج ١، ص ٧٨؛ العامري: غربال الزمان، ص ٨٥٠ - ٨٥١؛ ابن القاضي: درة الحجال، ج ١، ص ١٢؛ علي مبارك: مبارك: الخطط التوفيقية، ج ٧، ص ١٩٠. ولابن عطاء مسجد بالإسكندرية يعتقد الكثير من العامة أنه دفن به، فيقومون بزيارته للتبرك، وقضاء النذور عنده، وطلب الحاجات، وللأسف لم ينكر عليهم أحد من أهل الدين، بل تركوهم في غيهم وتيههم.

(٤) الصفدي: الوافي، ج ٨، ص ٥٧؛ أعيان العصر، ج ١، ص ٣٤٦؛ ابن حجر: الدرر الكامنة، ج ١، ص ٢٧٤؛ ابن تغري بردي: المنهل، ج ٢، ص ١٢٠ - ١٢١.



ومن رموز التصوف بالإسكندرية: أبو عبد الله محمد بن سليمان بن عبد الملك المعافري الشاطبي (ت ٦٧٢هـ/ ١٢٧٤م)، ولد بشاطبة<sup>(١)</sup> من مدن شرق الأندلس، وتفقّه بها وقرأ القرآن بالقراءات السبع، ثم سافر إلى دمشق حيث سمع بها الحديث، وحج ثم رجع إلى دمشق وانتهى به الأمر إلى الإسكندرية والانقطاع للعبادة والتعليم بها، وكان معاصراً لشيخ الشاذلية بالإسكندرية أبي العباس المرسي، ولزاهد الإسكندرية القباري، له عدة مؤلفات منها: "اللمعة الجامعة في العلوم النافعة"، وهو في تفسير القرآن وكتاب "المراتب والمنازل في معرفة العالي من القراءات والنازل"، و"الحرقة في إلباس الخرقه"، و"المنهج المفيد فيما يلزم الشيخ والمريد"، و"النبذ الجلية في ألفاظ اصطلاح عليها الصوفية"<sup>(٢)</sup>.

ومن رموز التصوف بمدينة الإسكندرية: ياقوت بن عبد الله الحبشي الملقب بالعرشي، شاذلي الطريقة، وقد حضر عند الشيخ المرسي فزوجه بابنته، ثم علا صيته وصار له مريدون، منهم شمس الدين بن اللبان الذي تزوج بابنة ياقوت، وتوفي بالإسكندرية ودفن بمسجده وقد جاوز الثمانين في سنة (٧٣٢هـ/ ١٣٣١م)<sup>(٣)</sup>، ولم يخلف رسائل أو كتباً، ومن أشهر أقواله: ( أنا أعلم الخلق بلا إله إلا الله)<sup>(٤)</sup>، وهذه مبالغة واضحة، فأعلم الخلق بلا إله إلا الله محمد

(١) شاذلية: ميناء يطل على البحر المتوسط على مقربة من مدينة دانية، بنى المسلمون بها قلعة حربية، وكانت مركزاً علمياً متألقاً، وإليها ينسب عدد من العلماء، انظر ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٥ ص ٢١٤.

(٢) انظر ترجمته في: بيبرس الدوادر: زبدة الفكرة، ج ٩، ص ١٣٤؛ الصفدي: الواقعي: ج ٣، ص ١٢٨؛ ابن شاعر كتبي: عيون التواريخ، ج ٢١، ص ٥٠؛ المقرئ: السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٦١٤؛ ابن تغري بردي: النجوم، ج ٧، ص ٢٤٣؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج ١، ص ٢١٥؛ المقرئ: نفع الطيب، ج ٢، ص ٣٤٠ - ٣٤١.

(٣) اليافعي: مرآة الجنان، ج ٤، ص ٢٨٤؛ المقرئ: السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٣٥٥؛ ابن تغري بردي: النجوم، ج ٩، ص ٢٩٥؛ السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص ٤٨٨.

(٤) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٦، ص ١٠٣.

صلى الله عليه وسلم، وإن أراد أهل عصره أو بلده، فهي تزكية للنفس عليهم وقد قال تعالى: {فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى} (١).

وقد وجد بالثغر في العهد المملوكي عدد آخر من الصوفية، منهم من ولد بالإسكندرية أو نزل بها أو مر بها، فمن هؤلاء: عمر بن أحمد بن عمر بن عبد الحميد السكندري، المعروف بابن المراوي، سبط أبي الحسن الشاذلي (ت ٦٧٠هـ/ ١٢٧١م) (٢)، ومنهم أبو محمد عبد الله المرجاني، شيخ المغرب، قدم الإسكندرية ووعظ بها، وله قدم في التصوف، توفي سنة (٦٩٩هـ/ ١٢٩٩م) (٣)، ومنهم أحمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن مسعود الواسطي، الخزامي، عماد الدين أبو العباس (ت ٧١١هـ/ ١٣١١م)، ابن شيخ الحزاميين، كان أبوه شيخ الطائفة الأحمدية، سافر إلى الإسكندرية واجتمع بالطوائف الشاذلية، فاقننى طريقهم وهدبهم، حتى التقى في دمشق بشيخ الإسلام ابن تيمية فلازمه، فأمره الشيخ بمطالعة السيرة النبوية، فأقبل عليها وأقننى آثار الرسول صلى الله عليه وسلم وهدبه وطرائقه، وأحواله وأذواقه وسلوكه واعتنى بأمر السنة أصولاً وفروعاً، وشرع في الرد على طوائف المبتدعة الذين خالطهم وعرفهم من الاتحادية وغيرهم، وبين عوراتهم وكشف أستارهم، وانتقل إلى مذهب الإمام أحمد وألف في الطريقة النبوية والسلوك الأثري والفقير المحمدي (٤) ومنهم محمد بن محمد بن محمد المعروف بمحمد وفا (ت ٧٦٥هـ/ ١٣٦٣م) والد بني وفا المشهورين بالإسكندرية، كان مالكيًا شاذليًا، نشأ بالثغر ورحل إلى أخميم وتزوج بها واشتهر هناك وصار له أتباع ومريدون، ثم قدم مصر وتوفي بها ودفن بالقرافة (٥).

(١) سورة النجم، آية: ٣٢.

(٢) ابن حجر: الدرر، ج ٣، ص ١٥٢ - ١٥٣.

(٣) العيني: عقد الجمان، ج ٤، ص ١٠٧.

(٤) ابن رجب: الذيل على طبقات الحنابلة، ج ٢، ص ٣٥٩؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٦، ص ٢٣ - ٢٥.

(٥) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٦، ص ٢٠٦.

وأما من أعلام الزهاد بالإسكندرية: أبي القاسم محمد بن منصور بن يحيى القباري<sup>(١)</sup>، وهو من المخضرمين الذين أدركوا الدولتين الأيوبية والمملوكية، فقد ولد سنة (٥٨٧هـ/١١٩٩م)، وأقام بالإسكندرية طيلة حياته، ولم يغادرها إلا للحج، وقد أقام في مطلع شبابه في بستان له ورثه عن أبيه، بمنطقة الرمل الغنية بالبساتين بشرق الإسكندرية، ويذكر أبو شامة أنه اجتمع به أواخر سنة (٦٢٨هـ/١٢٣٠م) مع جماعة، حيث يقول عنه: (صادفناه وهو يسقي في جرار ماء من الخليج على حمار له يسقي به غيطه، وكان الماء في الخليج حينئذ قليلاً فأجلسنا إلى أن أتم عمله، ثم قدم لنا من ثمر غيطه..)<sup>(٢)</sup>، وظل مقيماً بهذا البستان حتى عام (٦٤٦هـ/١٢٤٨م) حينما أمر الصالح نجم الدين بن أيوب بتطهير الخليج السكندري، رأى القباري ما ينال الناس من ظلم في كرى الخليج، فأعرض عن مائه، وحفر بئراً كان يسقي بها ويحمل على الدواب الماء في جرار ليسقى بستانه — وهذا يدل على مبلغ ورعه رحمه الله — وقد كان الكثير من الأمراء والوجهاء يحرصون عند زيارة الإسكندرية على الاجتماع به، رغم أنه كان لا ينبسط لهم بالقول، فقد رفض مقابلة الملك الكامل محمد الأيوبي عند زيارته للمدينة سنة (٦٢٨هـ/١٢٣٠م)، بعد أن وصل إلى باب بستانه، حتى لا يسمعه من النصح ما يغضبه<sup>(٣)</sup>، كما رفض عطية الملك العادل بن الكامل، ومقدارها ألف دينار، وقال للرسول الذي جاء بها: (لا يغرنكم هذا بمواعيده وأطماعه، رد الدنانير إلى صاحبك، وقال له: لو عرفت أصحابها لأشار عليك أن تعيدها إليهم، ولكن هذا

(١) القباري نسبة إلى القبار أو الكبار، وهو أحد الثمار التي كان يزرعها أبو القاسم في بستانه بقرب الإسكندرية، ويقوم ببيعها، وقيل نسبة إلى حفر القبور، وهذا مستبعد لأنه لا يعرف عنه الاشتغال بهذه المهنة. انظر: محمد زيتون: القباري، زاهد الإسكندرية، ص ٢٩ — ٣٠.

(٢) أبو شامة: الذيل على الروضتين، ص ٢٣١.

(٣) المقرئ: السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٦٦٢؛ محمد زيتون: القباري زاهد الإسكندرية، ص ١٤٩ — ١٥٠.

فات، وأنا لا أتقلد وسخا لا آخذا ولا معطيا<sup>(١)</sup>، ولما أراد السلطان بيبرس لقاءه عندما زار الإسكندرية سنة (٦٦١هـ/١٢٦٣م)، اشترط القباري أن يكلمه من علية<sup>(٢)</sup> بالبستان ويظل السلطان في أسفل البستان، وقد نزل السلطان بيبرس على شرطه وقال: (إذا رايح الله تعالى، فمن أي مكان شاء يكلمني)<sup>(٣)</sup>، وفي اللقاء نصح القباري السلطان بعمارة ثغر الإسكندرية وتحصينه، ويقال أنه أشار على السلطان بتولية ابن المنير قضاءها<sup>(٤)</sup>.

وقد ترجم ابن المنير للقباري ترجمة موسعة في كتاب سماه بالمقامات القبارية، مدحه في كتابه هذا وذكر مناقبه، ومما جاء فيه أنه كان: (لا يأذن لأحد من أهل الدنيا وأرباب الولايات في الدخول عليه متى شاء، فكان يري في إطالة الجلوس معهم مضيعة للوقت عن العبادة والعمل فيما يجدي، ويرى الخضوع لله وحده لا للإنسان)<sup>(٥)</sup>، واستمر القباري على زهده وورعه حتى وافته المنية سنة (٦٦٢هـ/١٢٦٤م)، عن خمس وسبعين سنة، ودفن في بستانه<sup>(٦)</sup>.

---

(١) محمد زيتون: القباري زاهد الإسكندرية، ص ١٥٠؛ نقولا يوسف: أعلام من الإسكندرية، ص ١٨٦.

(٢) العلية: غرفة عايا بارزة عن سمت جدار الدار تطل على الطريق بواسطة نافذة مشبكة، انظر السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الإسكندرية، ص ٢٧٩، حاشية ٢.

(٣) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص ١٧٥ - ١٧٦؛ الخزرجي: سير الأولياء، ص ١٠٧؛ ابن الوردي: تنمة المختصر، ج ٢، ص ٣١١؛ المقرئزي: السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٤٩٩.

(٤) عبد العزيز سالم: تاريخ مدينة الإسكندرية، ص ٢٨٠.

(٥) محمد زيتون: القباري زاهد الإسكندرية، ص ١٦٦ - ١٦٧.

(٦) الذهبي: تاريخ الإسلام، حوادث الفترة، ص ١٢٣؛ دول الإسلام، ج ٢، ص ١٢٩؛ المقرئزي: السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٦٦٢؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج ١، ص ٥٢٠؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٥، ص ٣١٢؛ الشيال: أعلام الإسكندرية، ص ٢٣٠، وانظر صورة للضريح بالملاحق ص ٦١٧.

وكثير من الباحثين يعد القباري من كبار الصوفية<sup>(١)</sup>، ولكن الذي يظهر لي بعد التأمل في سيرته، أنه لم يكن من المتصوفة، بل كان من الزهاد والمتورعين وهناك فرق بين الزهد والتصوف، كما سبق أن أشرت إليه في بداية الكلام عن التصوف<sup>(٢)</sup>، ولعل هذا الذي توصلت إليه يمكن أن يبني على أمور:

أولاً: لم يذكر في سيرة القباري شيوخه الذين أخذ عنهم، وعادة المتصوفة أن يذكروا شيوخهم الذين أخذوا منهم الطريقة، وانتهجوا منهجهم فيها.

ثانياً: جاء في ترجمته أن بعض أصحابه عرض عليه كثيراً من حكايات مشايخ الرسالة للقشيري، فقال له: ما أحب أسمع شيئاً خارجاً عن الكتاب والسنة وكلام الفقهاء<sup>(٣)</sup>، ومعلوم أن هذا ليس مذهب الصوفية.

ثالثاً: أكثر ما نقل عنه إنما كان في باب الورع، وكان شديداً فيه، حتى إنه كان لا يتناول ما يسقط من الثمار لاحتمال أن الطيور نقلته<sup>(٤)</sup>، ولما بنى بينه وبين جيرانه حائطا احتاط فأخرج من أرضه قطعة لهم، وقطع نخلة فوق سقفها على حائط الجار، فقال علم الله أنها لم تضرهم، إلا أنها نفضت الغبار على الجدار، فعده تصرفاً في ملك الغير، وأوجب على نفسه شيئاً وأعطاه أطفالهم، وكان يقول: (إن كان هذا واجباً فقد خلصنا منه، وإن كان غير واجب فهو صدقة مستورة باسم الحق)<sup>(٥)</sup>.

(١) الشيال: أعلام الإسكندرية، ص ٢٢٥؛ سامح كريم: أعلام في التاريخ الإسلام، ص ٢٥٨، بل جل من ترجم له من المعاصرين يعده صوفياً حتى الدكتور محمود في دراسته عن ابن تيمية وموقفه من الأشاعرة على الرغم من تحقيقاته المفيدة فيها.

(٢) راجع ما سبق ص ١٤٩.

(٣) الذهبي: تاريخ الإسلام، حوادث الفترة، ص ١٢٨.

(٤) اليونيني: مرآة الجنان، ج ٢، ص ٣١٦.

(٥) الذهبي: تاريخ الإسلام، حوادث الفترة، ص ١٢٨ - ١٢٩.

رابعا: أنه كان لا يرى الاقتنيات من الوقف المخصص على الصوفية، بل رأى أنه من المسألة، فقد قال: (من قعد في خانقاة فقد سأل، ومن لبس مرقعة فقد سأل، ومن لبس سبحة فقد سأل، ومن فتح مصحفا في مسجد فقد سأل)<sup>(١)</sup>.

خامسا: أنه كان يكره ترك الأسباب بخلاف المتصوفة الذين كان بعضهم يتعبد بترك الأسباب أو ما يسمونه (إسقاط التدبير)، ومما يؤثر عنه في ذلك قوله: (من زعم أنه ترك السبب اعتمادا على الفتوح إنما هو النقل من سبب لطيف إلى سبب وسخ، وذلك أن الاحتراف بسبب شرعي لا عيب فيه، لا في الدنيا ولا في الدين، وبسط اليد للكدية، أي (التسول) سبب مذموم، وليته أي المتسول يبسط به للكدية خاصة، ولكنه يقول لهم: أنا رجل صالح فأعطوني، ترى ماذا يبيعهم، إن باعهم عملا، فيبيع الدين بالدنيا، كبيع الثمرة قبل بدو صلاحها يخشى عليها جائحة الخاتمة، حيث يطالب بالثمن، فيوجد مفلسا، فالحبس أولى به، وما هنالك حبس إلا جهنم)، ويقول أيضا عن الدنيا: (هي دار أسباب ومن زعم أن التوكل ترك السبب بالكلية فهو غلط)<sup>(٢)</sup>.

وقال القنبري: (قال لي صوفي: نحن ما نرى الأسباب، فقلت له: ما صدقت في لو صفع الأبعد. إنسان، أكنت لا تراها ألبتة ولا يؤثر فعله فيك، فسكت، فقلت: أما أنا فأرى الأسباب لكن ما أقف عندها)<sup>(٣)</sup>.

وذكر الذهبي عنه أيضا أنه كان يتكلم في أبي الحسن الشاذلي<sup>(٤)</sup>.

سادسا: أنه كان مقبلا على علوم الشريعة، فقد نقل الذهبي عنه أنه إذا سأل عن مسألة قد ذكر فيها نص مالك، سأل عن دليله إلى أن يمعن في الكشف، فيقف على موضع حجته من الكتاب والسنة، فإن لم يقدر رجوع إلى الاحتياط بالترك أو

(١) الشيال، أعلام الإسكندرية، ص ٢٢٨؛ محمد زيتون: القباري، ص ١٩٣.

(٢) الذهبي: تاريخ الإسلام، حوادث الفترة، ص ١٣٥ - ١٣٦؛ محمد زيتون: القباري، ص ١٩٢، ١٩٣.

(٣) الذهبي: تاريخ الإسلام، حوادث الفترة، ص ١٣٥، وقوله: (قال لي صوفي) ولم يقل (من أصحابنا) مثلا يدل على أنه ليس منهم، والله أعلم.

(٤) الذهبي: تاريخ الإسلام، حوادث الفترة، ص ٢٧٤.

بالتشديد على النفس، وكان كثيرا ما يطلب مذهب أحمد ويقول: (كان صاحب حديث)، ويذكر أنه سمع مسنده بمكة، فيقال له: أفلا نسمعه منك؟ فيقول: هذا ما نقلته ولا سمعته إلا لنفسي خاصة، وكان إذا عجز عن الطواف والتعبّد فجعل عوض ذلك الجلوس للسمع، قال (القباري): فجعلت مجلسي إلى جنب القارئ لثقل سمعي فسمعت منه جملة، وكان يحفظ الجمع بين الصحيحين<sup>(١)</sup> منذ زمان الصبا<sup>(٢)</sup>.

وكان يقول: (قوله: {كل من عند الله}، هذه حقيقة، ثم ينتهي إلى قوله: {ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك}، هذه شريعة، ويقول: الحجة في الشريعة، ولا حجة لنا بالحقيقة، ويقول: أكثر ما تؤتى المتصوفة من ملاحظة الحقيقة مع الإعراض عن الشريعة، وهذه ضلالة)<sup>(٣)</sup>.

سابعاً: أن القباري تتلمذ عليه عالم الإسكندرية (ابن المنير) وهو من هو، هو الذي قال فيه ابن عبد السلام: (الديار المصرية تفتخر برجلين في طرفيها: ابن دقيق العيد بقوص وابن المنير بالإسكندرية)<sup>(٤)</sup>، ومعلوم انصراف العلماء الفقهاء عن طريقة الصوفية ورسومها، فتتلمذ ابن المنير عليه يدل على أنه لم يجد منه شطحات الصوفية التي ينكرها الشرع.

كما أن إماما فقيها محدثا كالذهبي يثني على القباري، ويدافع عنه، فقد قال في تاريخه: (وبعض العلماء أنكر غلوه في الورع وقال: هذا نوع من الوسواس.. قلت والجواب عنه أنه مأمور بما كان عليه من الوسوسة في الورع بقوله صلى الله عليه وسلم: (دع ما يريبك إلى ما لا يريبك)<sup>(٥)</sup>، ولولا ارتيابه لما بالغ في

(١) وهو الجمع بين صحيحي البخاري ومسلم تصنيف الحافظ محمد بن قنوح الحميدي (ت ٤٨٨هـ)، وكتابه هذا أثنى عليه العلماء كابن الأثير، وشرحه جماعة منهم الوزير ابن هبيرة، انظر: حاجي خليفة: كشف الظنون، ج ١، ص ٤٧٠-٤٧١.

(٢) الذهبي: تاريخ الإسلام، حوادث الفترة، ص ١٣٣.

(٣) الذهبي: تاريخ الإسلام، حوادث الفترة، ص ١٣٨، وأما تفسير الآية فالراجح فيها أن الحسنه والسيئة هي النعمة والبلية، لا ما قال القباري، وانظر ابن تيمية مجموع الفتاوى ج ١٤، ص ٢٣٤-٢٣٩.

(٤) ابن فرحون: ألسنيان، ج ١، ص ٢٤٥.

(٥) الطبراني: المعجم الكبير، ج ٢٢، ص ١٤٧.

شيء .. وهذا الرجل فكان كبير القدر، له أجران على موافقة السنة وأجر واحد على ما خالف ذلك، لأنه حريص على ابتغاء مرضاة الله..<sup>(١)</sup>.

بل حتى القباري نفسه ذكر هذا عن نفسه فيقول: (لا أحرم غير الحرام لكن لي أن أتترك ما شئت تركه من المباحات عندهم والمشتبهات عندي، فنحن على وفاق)<sup>(٢)</sup>.

فثبت من هذا أن القباري كان زاهدا ورعا ولم يكن متصوفا.

### وقفه مع التصوف السكندري

قد يعجب الباحث من انتشار التصوف بما هو عليه من بدع وخرافات ومخالفات عقدية بين أهل الإسكندرية رغم أنها مركز إشعاع العلم الشرعي الصحيح في العصر المملوكي، إذ تعتبر مدرستا السلفي وأبي عوف أولى المدارس السنية في مصر الفاطمية، والتي امتد تأثير كل منهما إلى الدولتين الأيوبيه والمملوكية، ومعلوم أن التصوف له اتجاه يخالف الخط العام لهاتين المدرستين، ولكن بالنظر إلى أهم المذاهب الصوفية، وإلى رموز التصوف بالثغر، فإننا يمكن أن نلمح أن الإسكندرية تأثرت في الجملة بالتصوف المغربي، والصوفية من المغاربة عندما نزلوا مصر تفرقوا في البلاد، فمن نزل منهم بالقري وبالصعيد راج مذهبهم عند الناس ببعض الخوارق، وما ادعوه من كرامات فحسب<sup>(٣)</sup>، أما الذين نزلوا الإسكندري فلم يكن ليروج مذهبهم بهذا الشكل الذي راج في قري

(١) الذهبي: تاريخ الإسلام، حوادث الفترة، ص ١٢٤، ١٢٥.

(٢) الذهبي: السابق، ١٣٢.

(٣) ومن هؤلاء على سبيل المثال: عبد الرحيم القناوي، وأصله مغربي من (سبته) نزل بقنا بالصعيد، وأظهر صلاحا وراج حاله على الناس، وصار الاعتقاد فيه وفي كراماته ظاهرا، وأنه بعد موته يرد السلام ويصافح من قبره، وتعم بركته على من زاره، وغير ذلك من الأساطير والأوهام، ويمكن مطالعة شيء من ذلك في ترجمته بكتاب الإدفوي: الطالع السعيد، ص ٢٩٨-٣٠٣، ومن هؤلاء أحمد البدوي، وأصله من المغرب من فاس، واستقر بطنطا، وزوقت له الكرامات والأساطير في حياته وبعد موته، وأنه أتى بالأسرى من بلاد الفرنج، وغير ذلك. وانظر في ترجمته: سامح كريم، أعلام في التاريخ الإسلامي في مصر، ص ٢٦٨.



مصر، وذلك لأن الثغر كان شعلة علم و لا يروج على أهل العلم مخاريق الصوفية، لذا كان التصوف بالإسكندرية له بعد فلسفي، واشتغال بالعلوم العقلية، وبذلك تجنب هؤلاء الصوفية مهاجمة العلماء لبدعهم وأورادهم، ويضاف إلى ذلك أن المذهب الأشعري الذي كان سائدا في مصر المملوكية لم يكن بالمذهب المضاد للتصوف دائما، بل كان إنكار الفقهاء لما يخالف ظاهر الشريعة فحسب، مع اعتقاد كثير منهم في ما يسمون بأقطاب التصوف، وظن من بعضهم جهلا أنه يمكن أن تكون علوم توصل إلى الله من غير طريق الأنبياء، ولذا فالمذهب الأشعري فتح الباب لولوج الصوفية، لكن بشرط عدم مخالفة ظاهر الشريعة، وقد التزمت صوفية الإسكندرية بهذا الشرط، ولا سيما وقد اشتهر عن سلاطين المماليك عقوبة من خالف ظاهر الشرع بأشد العقوبات، فقد ضرب قايتباي رقاب بعض النموسية<sup>(١)</sup> لما شطحوا ونطقوا بما يخالف الشريعة.<sup>(٢)</sup>

كما أن العلماء ما كانوا يسكتون قط على مخالفة ظاهر الشريعة، فها هو ابن حجر يترجم لأبي الحسن علي بن محمد بن وفا الشاذلي<sup>(٣)</sup>، من كبار صوفية عصره، فيقول: (اجتمعت به مرة في دعوة فأنكرت على أصحابه إيماءهم إلى

(١) النموسية، أتباع أبي علي حسين الصوفي نسبة إلى حيوان النمس لأخذهم إياه وتربيته!! وكان هذا الصوفي إذا سأله أحد شيئا قبض من الهواء وأعطاه إياه، وقد اتهم بأنه يعمل السحر أو ما يسمى بالسيمياء، وأنه يتشكل في صورة السباع والبهائم. انظر ترجمة في ابن العماد الحنبلي: الشذرات، ج٧، ص٣٥٠.

(٢) ابن العماد الحنبلي: الشذرات، ج٧، ص٣٥٠.

(٣) وأبوه محمد معدود من رجال الطريقة الشاذلية، من المشيخة الوفاية، وهو سكندري مات بالقاهرة سنة ٧٦٥هـ، وانظر ترجمته ومشيخته في محمود عبد الرؤوف قاسم: الكشف عن حقيقة الصوفية، ص٣٥٩.

وقد ذكر في هذا الكتاب عدة مشيخات منها: الششترية، والنعمانية، والمنافية، والركنية، والأحمدية، والبرهامية، والذقشبندية، والحروفية، والصفوية، والشطارية، والعيدروسية، والنعمتلاهيية، والكاهية، وغيرها كثير، ومنهم من كان يصرح بوحدة الوجود كالكنكوهية ويدعون إليها، وهذه كلها ليست طرقا، وإنما مشيخات أخذت أسماؤها من أسماء مشايخها.

جهته بالسجود، فتلا وهو في وسط السماع يدور (فأينما تولوا فثم وجه الله) (١)  
فنادى من كان حاضرا من الطلبة : كفرت كفرت) (٢) قال ابن العماد ، فترك (ابن  
حجر) المجلس وخرج هو وأصحابه (٣)

وأما شيخ الإسلام ابن تيمية ، فقد جرد لسانه وقلمه في فضح حال هؤلاء  
الصوفية، وبيان خروجهم عن الشريعة، وجاهد في ذلك بالشام ومصر، ففي الشلم  
ناظر كبير مشايخ ائرفاعية البطائحية عام (٧٠٥هـ/١٣٠٥م)، فناظره الشيخ أملم  
النائب بالشام، وبين أن ما يفعلونه إنما هو من باب الحيل والخداع، وفضح حيلهم،  
وألزمهم بظاهر الشريعة ورفع الأطواق من أعناقهم، والالتزام بالصلاة وغير ذلك  
من الشريعة، وكان مما قاله له الشيخ الرفاعي: (نحن ما ينفق حالنا إلا عند التتر ،  
وأما عند الشرع فلا) (٤)، فكان هذا إقرارا منهم بخداعهم وإعانة الشياطين لهم فيما  
يفعلونه.

والنقول من العلماء كثيرة في الإنكار على من خالف الشريعة، وكذلك  
الأمر بالنسبة للحكام والسلاطين، والمقصود هنا أن عصر المماليك لما كان معظما  
للعلماء، كان يأخذ على أيدي الغلاة فما كان يسمح بالمجاهرة بخلاف ظاهر  
الشرع، وقد فهم الصوفية في الإسكندرية درس جيدا، فدخلوا على الناس من باب  
آخر، وهو أنهم يجمعون بين علمي الظاهر والباطن، كما كان يؤثر عن أبي  
العباس المرسي أنه قال عن الفقهاء إنهم لم يشاركوا الصوفية فيما هم فيه بينما  
الصوفية شاركهم فيما هم فيه. (٥)

(١) سورة البقرة ، آية ١١٥ .

(٢) ابن حجر : إنباء الغمر، حوادث سنة ٨٠٧هـ ، ج٥، ص٢٥٦ .

(٣) ابن العماد : الشذرات ، ج١، حوادث سنة ٨٠٧هـ .

(٤) انظر هذه المناظرة في مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية : ج١١، ص ٤٤٦-٤٧٥ ،

وأما مناظراته مع رموز الصوفية بالإسكندرية فسوف يتم بحثه في مبحثي (أثر شيخ الإسلام  
ابن تيمية على الرواية العلمية بالإسكندرية والمناظرات) من هذه الرسالة إن شاء الله تعالى .

(٥) ونص عبارته : (شاركنا الفقهاء فيما هم فيه ، ولم يشاركونا فيما نحن فيه)، ابن تغري بودي:

النجوم ج٧، ص٣٧١ .

ونتيجة لهذا انزلق كثير من أهل الإسكندرية للطرق في بدع التصوف حتى ممن كان ينتسب للعلم، كما تقدم في ترجمة التاج ابن عطاء الله الذي كان متفكها على مذهب الإمام مالك، ثم تصوف وغانى في التصوف، وكسراج الدين أبي علي بن أبي كامل العفيفي السكندري المعروف بالبسلقوني، شيخ الفقراء الأحمدية، ولد بالإسكندرية وتلقى العلم بها فحفظ رسالة ابن أبي زيد في الفقه، والشاطبية في القراءات، وشارك في النحو، وغير ذلك من علوم الشريعة، ثم آل أمره إلى التصوف.<sup>(١)</sup>، وكذلك عتيق بن عبد الجبار بن عتيق الصوفي الشاهد، له رواية وأخذ عنه الذهبي وأرخ لوفاته في (٦٧٦هـ/١٢٧٧م)<sup>(٢)</sup> وغير هؤلاء كثير.

ويضاف إلى ما سبق من أسباب رواج التصوف بالإسكندرية، أن بعض السلاطين كانت تميل إلى رواجه بمصر عامة تغطية على بعض الأخطاء التي كانوا يرتكبوها، فالتصوف يمنع الإنكار والثورة على الظلم، ولا سيما وقد خالطته عقيدة الجبر، كما تقدم، فينظر العبد إلى مراد الله ولا يكون له مراد بين يدي مولاه، فينظر إلى سير الإرادة الربانية ولا يخالفها.<sup>(٣)</sup>

ويمكن أن يضاف أيضا أن الإسكندرية كانت ثغرا جهاديا، وكان الصوفية يخفون تقاعسهم عن الجهاد بالدعاء للمجاهدين بأن ينصرهم الله ويرد أعداءهم عنهم، ويصب غضبه على أعدائه<sup>(٤)</sup>

### الأوضاع الدينية وأثرها على الحالة العلمية

وبهذا ندرك أن الأوضاع الدينية في عهد دولة المماليك بالإسكندرية كانت حافلة بما كان له الأثر على الحركة العلمية بها، وقد دأب المصريون على احترام العلماء وتبجيلهم، ولما تسلطن المماليك على مصر عرفوا ذلك، فقدموا العلماء واحترموهم وأجلوهم، فهم بحاجة إلى دعامة يستندون عليها في حكمهم ويستعينون

(١) الداودي: طبقات المفسرين، ج ١ ص ٢٨٢، ٢٨٣، ٢٨٧.

(٢) الذهبي: تاريخ الإسلام، حوادث الفترة، حوادث ٦٧١-٣٨٠هـ.

(٣) انظر في عقيدة الجبر عند الصوفية: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، ج ١٠، ص ١٦١-١٦٤، ٤٨٢، ٤٩٧.

(٤) سعد زغلول عبد الحميد: الأثر المغربي، ص ٢٣٦، وما بعدها.

بها على إرضاء الشعب<sup>(١)</sup>، بحكم ما للدين وعلمائه من قوة وسطوة في النفوس، لأن العلماء ورثة الأنبياء وبهم عرفوا دين الإسلام وفي بركة علمهم يعيشون<sup>(٢)</sup>، ولما كان المماليك عصائب يغلبون على الأمر واحداً بعد واحد، على حد تعبير ابن خلدون<sup>(٣)</sup>، لذا كان على الأمير الذي يطمع في الحكم أن يتودد إلى العلماء ليكسبهم إلى جانبه، ليضمن بذلك تأييد الرأي العام في البلاد، ولذا نجد العيني يذكر الأسباب التي سوغت استحقات الملك المؤيد السلطنة، فيقدمها بقوله أنه كان له: (الفضل والكرم والإحسان إلى أهل العلم)<sup>(٤)</sup>.

ولقد كان للحركة الصوفية أثر سلبي على الحركة العلمية بالإسكندرية يمكن أن نجده من خلال عدة عناصر، لعل من أهمها أن التصوف كان يقوم على الأوراد والأذكار مما عطل حركة التأليف العلمي الصحيح، ولم يكن المتصوفة يشتغلون بتدريس العلوم الشرعية إلا على طريقة أهل الكشف، بمعنى أن تفسيراتهم للقرآن على منهج التفسير الإشاري<sup>(٥)</sup>، الذي يحمل الألفاظ ما لا تحتل من جهة اللغة، وأما إقراءهم الحديث أحياناً<sup>(٦)</sup>، فكانوا يمزجون بشروحهم على الطريقة الصوفية كما سبق من شرح أبي العباس المرسي لحديث جبريل في الإسلام والإيمان والإحسان<sup>(٧)</sup>، ويضاف إلى ذلك أن انجذاب بعض طلاب العلم للتصوف كابن عطاء كان نتيجته تعطيل العلم الشرعي، لأن نتاجه بعد ذلك إنما هي كتب التصوف بإشاراته التي هي أشبه بإشارات الفلاسفة كما سبق.

(١) سعيد عاشور: المجتمع المصري، ص ٢٩.

(٢) المقرئزي: السلوك، ج ٣، ق ١، ص ١٨٣.

(٣) ابن خلدون: المقدمة، ص ١٨٣.

(٤) العيني: السيف المهند، ص ١٦٧، سعيد عاشور: المجتمع المصري، ص ٢٩.

(٥) المراد بالتفسير الإشاري: هو الذي تؤول به الآيات على غير ظاهرها، والتي يرى المفسر أنها تستتبط على طريق الرمز والإشارة، مع محاولة الجمع بين الظاهر والخفي، انظر: صبحي الصالح: مباحث في علوم القرآن، ص ٢٩٦.

(٦) ذكر البلوي أنه قرأ على أبي العباس المرسي المجالس الثلاثة في الحديث وغيرها، انظر: البلوي: تاج المفرق، ص ٥٨، ٥٩.

(٧) انظر ما أورده عن ترجمة ابن عطاء السكندري، وحضوره مجلس المرسي ص ١٥٣.

كما أن الدسائس التي كان يدبرها الصوفية للعلماء الذين يقومون بواجبهم  
الديني بفضح معتقداتهم، كانت عاملا سلبيا بالنسبة للحركة العلمية، كالدسائس التي  
وضعها ابن عطاء وغيره على شيخ الإسلام ابن تيمية، ويضاف إلى أن التصوف  
كان سببا في انتشار الأضرحة والمزارات التي كانت منتشرة في الثغر السكندري  
بل في جميع مصر المملوكية، لأن تعلق الناس بها كان فتنة عظيمة أوقعت الكثير  
في الشرك، مما كان عاملا سلبيا على الحركة العلمية، والله تعالى أعلم.

# الفصل الثاني

## مظاهر الحياة العلمية في الإسكندرية خلال العصر المملوكي

- . إحياء الخلافة العباسية في القاهرة وأثره على الحياة العلمية بالإسكندرية .
- . اهتمام الخلفاء العباسيين وسلاطين المماليك وكبار رجال الدولة بالحياة العلمية بالإسكندرية .
- . حركة التأليف .
- . خزائن الكتب .
- . الأسر العلمية .
- . موارد الإنفاق على التعليم ( الأوقاف - الأعباس - الهبات - الصدقات - الإنفاق الحكومي )
- . العلاقات العلمية بين الإسكندرية وبعض البلدان المجاورة (مدن مصر الداخلية - الشام - الحجاز - المغرب - الأندلس).
- . الاتجاه السني للحركة العلمية في الإسكندرية وأثره في التمكين للمذهب السني بها.

## الفصل الثاني :

### مظاهر الحياة العلمية في الإسكندرية خلال العصر المملوكي

قبل الشروع في الحديث عن الحياة العلمية في الإسكندرية خلال عصر سلاطين المماليك، يجدر بنا أن نسلط الأضواء على أهم مظاهرها ومنها :

**إحياء الخلافة العباسية في القاهرة وأثره على الحياة العلمية بالإسكندرية:**

**ال خليفة والخلافة من قولنا:** خلف فلان فلاناً في هذا الأمر، إذا قام مقامه فيه بعده، ومن ذلك قيل للسلطان الأعظم خليفة<sup>(١)</sup>، قال تعالى: {ثم جعلناكم في خلائف في الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون}<sup>(٢)</sup>.

فحين توفي الرسول صلى الله عليه وسلم سنة (١٠هـ/٦٣٣م) بايع المسلمون أبا بكر الصديق بالخلافة، ثم جاء من بعده عمر بن الخطاب فعثمان بن عفان، ثم عتي بن أبي طالب الذي انتهت خلفته بمقتله سنة (٤٠هـ/٦٦١م) وبذلك انتهت فترة الخلافة الراشدة لتقوم بعد ذلك خلافة بني أمية بدمشق، والتي قدر لها البقاء حتى سنة (١٣٢هـ/٧٥٠م) لتحل محلها الخلافة العباسية، وتنتقل العاصمة إلى بغداد، والتي سقطت في سنة (٦٥٦هـ/١٢٥٨م)<sup>(٣)</sup>، ففي هذا العام اجتاحت جحافل المغول التي بدأت زحفها من الشرق كل الممالك الإسلامية التي وجدت في طريقها بدءاً بالدولة الخوارزمية<sup>(٤)</sup> وانتهاءً بالدولة العباسية والقضاء على

(١) الطبري: جامع البيان، ج ١، ص ٢٣٦؛ الرازي: مختار الصحاح، ص ١٦٣.

(٢) يونس، آية: ١٤.

(٣) انظر تفاصيل قيام تلك الخلافات في الطبري: تاريخ الأمم والملوك؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ؛ ابن كثير البداية والنهاية.

(٤) لقد ظهر من قبائل المغول والتي سكنت منغوليا جنوب شرق سيبيريا على حدود الصين، وقد اختلطوا بالقبائل التركية، وفي أواخر القرن السادس الهجري ظهر فيهم شاب اسمه (تموجين) كان عنده من الذكاء و الدهاء ما استطاع أن يلفت به الأنظار إليه لتتوالى الأحداث، وتجتمع عشيرة المنغول عليه وتتصبه ملكاً على قبائلهم التي وحد بينها وفي عام (٦٠٢هـ/١٢٠٥م) تسمى بـ (جنكيز خان) وصار إمبراطوراً للدولة المغولية، ومنذ ذلك

حاضرتها بغداد وتلبيتها المستعصم بالله<sup>(١)</sup>، وقد كان لسقوط الخلافة العباسية أسوأ الأثر على نفوس المسلمين، فهي رمز الوحدة الإسلامية واتباع للأمر الرباني بتتصيب خليفة للمسلمين، فما هو السيوطي يقول عنها: (هو حديث يأكل الأحاديث وخبر يطوي الأخبار، وتاريخ ينسي التواريخ ونازلة تصغر كل نازلة، وخارجة تطبق الأرض وتملؤها ما بين الطول والعرض)<sup>(٢)</sup>.

فنبرات الأسى والمرارة في تاريخ واقعة سقوط بغداد على أيدي التتار يتصدرها دائماً أن التتار قتلوا الخليفة، فمثلاً يقول ابن كثير: (ثم دخلت سنة ست وخمسين وستمائة فيها أخذت التتار بغداد وقتلوا أكثر أهلها حتى الخليفة)<sup>(٣)</sup>، وهذا يبين الفراغ الذي أحدثه موت الخليفة واحتياج المسلمين إلى إحياء الخلافة مرة ثانية، والشعور الديني المتزايد لضرورة تتصيب الخليفة في أقرب وقت ممكن<sup>(٤)</sup>.

التاريخ وهو يعمل على توسعة رقعة بلاده، فأخضع الصين، ودولة الخطا، وبدأ في مهاجمة الدولة الخوارزمية المسلمة، وقد قام علاء الدين خوارزم شاه وابنه جلال الدين منكبرتي بدور رائد في مقاومة المغول، وألحقوا بهم هزائم متتالية حتى إن الملك الأشرف صاحب دمشق شبه جلال الدين بن خوارزم شاه بالسد الذي بين الشام وبين يأجوج ومأجوج، انظر: ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص ٤٥٦ - ٤٦٢؛ رشيد الدين: جامع التواريخ، ج ٢، ق ١، ص ٢٣٢ - ٢٤٠؛ العريني: المغول، ص ١٨٨؛ الصياد: المغول في التاريخ، ج ١، ص ١٨٨.

(١) المستعصم بالله (ولايته ٦٤٠هـ - ٦٥٦هـ / ١٢٤٢م - ١٢٥٨م) هو أبو عبد الله محمد بن الإمام الظاهر، بويغ بالخلافة بعد أخيه المستعصر، ودخل المغول بغداد في عهده واستولوا عليها وقاموا بقتله، وقد اختلفت الروايات في الكيفية التي قتل بها، فقيل إن هولاء لما ملك بغداد أمر بخنقه، وقيل رفس إلى أن مات، وقيل مزق، وقيل لف في بساط وألقي في نهر دجلة فخنقا انظر في ترجمته: رشيد الدين: جامع التواريخ، ج ٢، ق ١، ص ٢٩٠؛ ابن شاعر كتبي: فوات الوفيات، ج ١، ص ٤٩٧؛ بن كثير: البداية والنهاية، ج ١٣، ص ٢١٤ - ٢١٥؛ ابن دقملق: الجوهر الثمين، ص ١٧٥ - ١٨٠.

(٢) السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص ٧٤١.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٣، ص ٢١٥.

(٤) لم يتوقف الزحف التتاري على العالم الإسلامي بسقوط بغداد، بل امتد حتى شمل الشام فقد أخضع هولاءكو ماردين ونصيبين والرها ثم حلب في سنة (٦٥٨هـ / ١٢٥٩م)، ومن ثم أخذوا دمشق والخليل وغازة، وأصبحوا على مشارف مصر، وفي هذه الأثناء انقرضت الدولة



وظلت الخلافة غائبة عن مسرح الأحداث لمدة ثلاث سنوات ففي سنة (٦٥٩هـ - ١٢٦٠م) قام السلطان الظاهر بيبرس بإحياء منصب الخلافة في القاهرة<sup>(١)</sup>، فما كاد يسمع بوصول أحد أبناء البيت العباسي إلى دمشق في عام (٦٥٩هـ / ١٢٦٠م)، حتى أرسل يستدعيه فورا مع اتخاذ كافة الاحتياطات لسلامته وراحته، وبالفعل وصل الابن العباسي إلى مصر وهو المستنصر أحمد بن الظاهر ابن الناصر العباسي فاستقبله بيبرس بالحفاوة والإكرام وبايعه في عام (٦٥٩هـ / ١٢٦٠م) بمحضر القضاة والأمراء، وأثبت قاضي القضاة تاج الدين ابن

---

الأيوبية بموت الملك الصالح نجم الدين وتسلطن نور الدين علي بن المعز أيبك وكان صبيًا صغيرًا فاتفق رأي المماليك على أن الصبي لا يستطيع تقويم المملكة، ومن ثم أعلن السلطان قطز سلطانا على مصر والشام سنة (٦٥٧هـ / ١٢٥٨م) وتلقب بالمظفر، وقد أرسل له هولاء رسالة ملؤها التهديد والوعيد قبل أن يعود إلى المشرق لما علم بوفاة أخيه عام (٦٥٨هـ / ١٢٥٨م)، وقد عقد السلطان المظفر مجلس الحرب استشار فيه الأمراء واتفقت الكلمة على الجهاد، وخرج السلطان بنفسه وألهب حماس الأمراء حين التقى الجيش الإسلامي والتتري في عين جالوت في رمضان سنة (٦٥٨هـ / ١٢٥٨م)، فانتصر المسلمون انتصارا ساحقا على التتر وقتل قائدهم كنبغا نوبين وتغير ميزان القوى، وانقلبت الموازين، غير أن قطز قتل لذي رجوعه من عين جالوت وتسلطن الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري وتلقب بالظاهر. انظر في أخبار ذلك بالتفصيل: عبد الله الغامدي: جهاد المماليك ضد المغول والصليبيين.

(١) لم يكن الظاهر بيبرس أول من فكر في نقل الخلافة العباسية إلى مصر، وإنما هو الذي نجح في تحقيق ذلك، فقد حاول أحمد بن طولون سنة (٦٦٩هـ / ١٢٨٢م)، ومن بعده محمد الأخشيد سنة (٣٣٣هـ / ٩٤٤م) في نقل الخلافة العباسية إلى مصر لتقوية دولتيهما اللتين أسسهما في مصر ولكنهما فشلا، كما حاول ذلك الملك الناصر يوسف الأيوبي (ت ٦٥٩هـ / ١٢٧٠م) صاحب حلب ودمشق، وحاول قطز ذلك أيضا لكنه قتل قبل تحقيق هدفه. انظر: الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٩، ص ٦٢٠؛ المسعودي: مروج الذهب، ج ٤، ص ٣٤١، عبد الله الغامدي: جهاد المماليك، ص ١٣٧، ١٣٨.

بنت الأعز نسب الخليفة بشهادة الشهود ومن ثم بايعة العلماء والأمراء ، ومن ثم  
قد الخليفة السلطان الأمر والحكم على البلاد والبلاد التي يفتحها (١).

ولما قتل الخليفة في محاولة استرداد بغداد بايع الظاهر أحمد الحاكم بأمر  
الله ربي في القاهرة ولم يسمح له بمغادرتها وكذلك استحضر بيبرس بعض أمراء  
آخرين من بني العباس (٢).

ولو تتبعنا آثار إحياء الخلافة بالقاهرة، نجد أنه قد تم تقسيم السلطة على  
أساس أن يكون الخليفة هو الرمز، وأن تكون إدارة شؤون البلاد بيد السلطان  
وحده، ووصف معظم المؤرخين سلطة الخليفة بأنها كانت شكلية، فيقول المقرئ  
عنها: (ليس فيها أمر ولا نهى وحسبه أن يقال له أمير المؤمنين) (٣)، ولكن أرى  
أن هذا لم يكن يمثل هذا السوء الذي يصوره بعضهم وذلك لأمر لعل أهمها أن  
الخلافة العباسية في بغداد في عهدها الثاني كانت سلطة الخليفة فيها صورية  
وشكلية بهذا المفهوم الذي ذكر، فإن تغلب الأتراك على الوزارة والحكم من خلال  
ذلك كان أمرا مشهورا، فبنو بوية، ثم السلاجقة كانوا الحكام الحقيقيين للدولة، بل  
الدويلات التي ظهرت كالأيوبية وغيرها كانت تدير بلادها بنفسها مع تقليد رسمي  
شكلي من الخلافة العباسية، فالأمر إذن لم يتغير كثيرا (٤).

كذلك لا ننسى أن المماليك كانوا في الأصل أرقاء، ولعل قصة بيعهم أيام  
نجم الدين أيوب على يد العزيز ابن عبد السلام (٥) توضح مدى الشعور تجاههم، وأن  
أحدا منهم لا يصلح للخلافة لكون أصله رقيقا، وشرط القرشية في تعيين الخليفة

(١) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص ١٠٨؛ بيبرس الدوادار: مختار الأخبار، ص ١٥ -  
١٦؛ المقرئ: الخطط، ج ٢، ص ٣٨١؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج ٢، ص ٥٣؛ ابن  
الطولوني: النزهة السنية في أخبار الخلفاء، ص ١٢١.

(٢) أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، ج ٣، ص ٢١٥؛ السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص ٤٧٨.

(٣) المقرئ: السلوك، ج ٢، ص ٢، وانظر عن الخلفاء العباسيين في القاهرة: الملحق، ص ٦٠٢.

(٤) انظر: حسن أحمد أمين: تاريخ العراق في العصر السلجوقي، محمود شاكر: التاريخ  
الإسلامي، ج ٦، ص ١٤٧، ١٥٠، وغيرهم ممن أرخ عن دولة بني بوية والسلاجقة والأيوبية  
والأغلبية وغير ذلك مما هو معروف مشهور

(٥) السبكي: طبقات الشافعية، ج ٨، ص ٢١٦-٢١٧.

كان سائدا في هذه الأوقات بين المسلمين<sup>(١)</sup>، فاحتاج المماليك إلى ما يثبت شرعية حكمهم، فكان لابد من وجود خليفة يقلد السلطان البلاد، فيكونون تابعين للخليفة فيتوطد حكمهم وهكذا كان<sup>(٢)</sup>.

وعلى الرغم من أن الحوادث المتكررة تدل على أن السلطة الفعلية كانت بيد السلطان لا الخليفة والتي منها على سبيل المثال أن الظاهر برقوق سجن الخليفة المتوكل على الله<sup>(٣)</sup> في البرج ليلة واحدة عندما خالفه، ثم أعيد إلى مكانه<sup>(٤)</sup>، كما قام الخليفة العباسي المستعين بالله بتولي السلطة بمصر إلى جانب الخلافة وذلك في سنة (٨١٥هـ/١٤٢١م)، مما دفع السلطان المملوكي المؤيد إلى أن قبض عليه وسجنه بدمياط<sup>(٥)</sup>، فهذه الحادثة تبين على أنه لم تكن السلطة الشكلية للخليفة دائما كما هو مقتضى الحال في الخلافة ببغداد.

ولعل من أكبر النتائج التي ترتبت على إحياء الخلافة في القاهرة هو الوقوف في وجه تيار التشيع في مصر والشام ودعم الاتجاه السني داخل الدولة المملوكية، ولقد أحس بيبرس بذلك وربما يكون هذا من الدوافع القوية التي جعلته يحرص على إحياء الخلافة بالقاهرة<sup>(٦)</sup>، ويؤكد ذلك حادثتان أولاهما: أن الوزير ابن العلقمي<sup>(٧)</sup> بعد ممالاته للنتار كان في نيته أن يقيم دولة رافضية في بغداد ويقوم

(١) انظر: ابن حجر: فتح الباري، ج ١٣، ص ١١٣.

(٢) ولمعرفة المزيد عن احياء الخلافة العباسية بالقاهرة وأسبابها وموقف الحكام منها انظر: محمد عبد العال أحمد: أضواء جديدة على إحياء الخلافة العباسية.

(٣) هو الخليفة المتوكل على الله أبو عبد الله محمد بن المعتضد ابن أبي بكر المستكفي بالله (ت ٨٠٨هـ/١٤٠٥م)، كان خيرا فاضلا: انظر عنه: ابن دقماق: الجواهر الثمين، ص ١٩٣؛

ابن تغري بردي: النجوم، ج ١٣، ص ١٥٤.

(٤) ابن تغري بردي: المنهل، ج ٣، ص ٢٩٨.

(٥) ابن حجر: أنباء الغمر، ج ٣، ص ٢٧٣، ج ٧، ص ٥٣؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج ٢،

ص ٨٥.

(٦) عبد الله الغامدي: جهاد المماليك، ص ١٣٦.

(٧) ابن العلقمي هو: محمد بن محمد بن علي بن أبي طالب مؤيد الدين البغدادي الرافضي، ولى

الوزارة أربع عشرة سنة، فأظهر الرفض، وكان له دور في مساعدة هولاء في دخول بغداد،

حاكما علويا بدل الخليفة العباسي فلم يحقق له ذلك، ولقي أشد الإهانة من التتار، فمات في نفس العام (٦٥٦هـ / ١٢٥٨م) <sup>(١)</sup>، أما الثانية: أن رجلا شيعيا يعرف بالكوراني، نسبة إلى كوران من قرى اسفرائين، أظهر الزهد والورع وأخذ يجمع بعض خدم السلطان ويحرضهم على الخروج ضد المماليك ليتولى بدلهم حاكم شيعي، ثم ثاروا وشقوا القاهرة وهم ينادون: يا آل علي وفتحوا دكاكين السيوفيين وأخذوا ما فيها من سلاح ولكن عسكر السلطان الظاهر بيبرس أحاطوا بهم وأوتقوهم فأصبحوا مصلوبين، وكان ذلك في أواخر سنة (٦٥٨هـ / ١٢٥٩م) <sup>(٢)</sup>.

ومما لا شك فيه أن الإسكندرية تأثرت بإحياء الخلافة العباسية في القاهرة ولاسيما في مجال الحركة العلمية، وما ذاك إلا لأن الثغر الإسكندري كان يعج وقتها بالعلماء والقضاة والمفتيين، ويمكن أن نلاحظ هذا الأثر من خلال التأثير العام بتحول أنظار العالم الإسلامي من العراق إلى مصر وما يتبعها من بلاد الشام، فقد صارت مصر حاضرة المسلمين وموئل العلماء وطالبي العلم، وصارت مدارسها ومساجدها وشيوخها ذوي أثر بالغ مما لم يبلغه مكان آخر، ويؤكد هذا قول السيوطي: (وأعلم أن مصر حين صارت دار الخلافة عظم أمرها، وكثرت شعائر الإسلام فيها، وعلت فيها السنة، وعفت منها البدعة، وصارت محل مسكن العلماء، ومحط رحال الفضلاء) <sup>(٣)</sup>.

ولا شك أن تردد العلماء والفضلاء وطلاب العلم على مصر كان للإسكندرية منه أوفر النصيب لكونها ثغرا ومحطة الوصول الأولى للقادمين من

---

وقد كان جزاءه القتل على يد هولاء لخيانتته لولي نعمته الخليفة العباسي فقد قال له: (لو أعطيناك كل ما نملكه ما نرجو منك خيرا)، ولمعرفة المزيد عن ترجمته انظر: ابن شاکر كتبي: فوات الوفيات، ص ٣١٢؛ ابن الوردي: تنمة المختصر، ج ٢، ص ٢٨٠؛ ابن دقماق: الجوهر الثمين، ص ١٧٦.

(١) الصفدي: الوافي، ج ١، ص ١٨٤؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٣، ص ٢١٥؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٥، ص ٢٧٤.

(٢) أبو شامة: الذيل على الروضتين، ص ٢١١؛ المقرئزي: السلوك، ١، ق ٢، ص ٤٤٠؛ ابن تغري بردي: النجوم، ج ٧، ص ٢٠١.

(٣) السيوطي: حسن المحاضرة، ج ٢، ص ٩٤.

المغرب الإسلامي إلى مصر، أو العابرين إلى الحج بالإضافة إلى وجود كبار العلماء بها على مر العصور ابتداء من تلاميذ الحافظ السلفي وابن عوف ومرورا بابن المنير والدماميني وغير هؤلاء كما سيأتي مفصلا إن شاء الله تعالى في موضعه من هذا البحث<sup>(١)</sup>.

أيضا طبيعة الإسكندرية ذاتها جعلت الحياة العلمية تزداد فيها مقارنة بغيرها من المراكز العلمية فلئن كانت القاهرة عاصمة الخلافة، ومن البديهي أن تقوم حركة علمية رائدة فيها، إلا أن كثرة الاضطرابات السياسية بين المماليك كانت تؤثر سلبيا على الحركة العلمية، في حين أن الإسكندرية كانت أكثر هدوءا من غيرها، ومن الأدلة على ذلك أن المؤيد سجن الخليفة العباسي بالإسكندرية ثم نقل إلى دمياط لكونها أبسط له فلم يوافق واستأذن أن يقيم بالإسكندرية بغير سجن فأجيب إلى ذلك<sup>(٢)</sup>، فهذه الحادثة تدل على الاستقرار السياسي بالإسكندرية مما أتاح للناس الاشتغال بالعلم والتجارة في حين أن من يستقرئ حوادث هذه الفترة يجد أن مدنا كثيرة بمصر والشام كانت تقوم فيها ثورات أو حركات معارضة سياسية لكثرة المناوئين بها ممن كانوا يشتغلون بالسياسة، أما الثغر فلم يكن هناك فيه من يدعم هؤلاء المعارضين<sup>(٣)</sup>، ولذلك كان دائما محل تحديد الإقامة أو الإقامة الجبرية لأي معارض سياسي، فانشغل أهل الثغر بالعلم والتعلم والتجارة، فكثرت المدارس ونبغ الطلاب، وصار الثغر يعج بالعلماء وطلبة العلم ورحل إليه الفضلاء من كل حذب وصوب.

(١) انظر ما يلي في الفصل الرابع، ص ٣٧٠ وما بعدها.

(٢) ابن حجر: أنباء الغمر، ج ٣، ص ٢٧٣.

(٣) كثيرا ما كان يحدث بالقاهرة فتن من المماليك لعدة أسباب إما لتطاحنهم على السلطة، أو نتيجة لقطع رواتبهم أو قلة أرزاقهم وغيرها من الأسباب، وبالرغم من أن الإسكندرية كانت المعتقل السياسي للمناوئين للدولة من الأمراء وغيرهم، إلا أن كتب التاريخ لم تطالعنا بما يدل على وجود دعم لهؤلاء المعارضين، أو محاولة مساعدتهم في معتقلهم، وكل ما كان أنهم تركوا لمصيرهم، أو لأمر السلطان فيهم. انظر في أمثلة ما جرى من الفتن بين المماليك: الصيرفي: نزهة النفوس، ج ٣، ص ١٥٨؛ ابن إياس: البدائع، ج ٤، ص ٧.

## اهتمام الخلفاء العباسيين وسلطين المماليك وكبار رجال الدولة بالحركة العلمية في الإسكندرية

إن الحركة العلمية لها اتصال وثيق بمدى اهتمام القادة بالعلوم، وذلك لأن الإسلام حث على العلم، وجعله أساساً لاختيار القائد كما قال تعالى: {وزاده بسطة في العلم والجسم} (١)، فقد ذكر المفسرون أن القائد لا بد أن يجمع بين هاتين الخصلتين، قال ابن كثير: (ومن هنا ينبغي أن يكون الملك ذا علم وشكل حسن وقوة شديدة في بدنه ونفسه) (٢)، ويقول النسفي في تفسيره: (والملك لا بد أن يكون من أهل العلم فإن الجاهل ذليل مزدري غير منفع به، وأن يكون جسيماً لأنه أعظم في النفوس وأهيب في القلوب) (٣)، ويذكر العيني أن من ضمن الأسباب التي بررت استحقاق المؤيد شيخ للسلطنة فضله وكرمه وإحسانه إلى أهل العلم (٤) كما يؤكد على رعاية القادة للعلوم بقوله: (ينبغي للسلطان أن لا يخلي مجلسه من كبار العلماء، وأن يجعل للعلماء منه مجلساً خاصاً يذكرونه فيه بالعلم ويذكرونه آلاء الله عليه وإحسانه إليه، والمراد من العلماء الفقهاء الذين فقهوا عن الله أمره ونهيه وهم أهل الفقه والحديث وما يتعلق بهما من العلوم الشرعية) (٥).

ومن الملاحظ أنه كلما كان التشجيع للعلماء بارزاً من أصحاب القرار السياسي، كلما كانت النهضة أكثر وضوحاً وجلاءً، ولقد تمتعت مدينة الإسكندرية بنهضة علمية رائدة قبل عصر المماليك، إلا أنها زادت في عصر المماليك بصورة أكبر وأشمل، ولعل من أحد أكبر العوامل التي أدت إلى ذلك هو الاهتمام بالحركة العلمية من قبل كبار السياسيين وأصحاب الرأي بها، وقد وضح ذلك

(١) البقرة، آية: ٢٤٧.

(٢) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج ١، ص ٣٠١.

(٣) النسفي: تفسير النسفي، ج ١، ص ١٢٥. ويقول أبو بكر الجزائري في تفسيره: أيسر التفاسير،

ج ١، ص ١٩٥: (والقيادات القتالية تعتمد على غزارة العلم وقوة البدن بسلامة الحواس

وشجاعة العقل والقلب).

(٤) العيني: السيف المهند، ص ١٩٧.

(٥) العيني: الروض الزاهر، ص ٣٢.

بجلاء من خلال احتضان الدولة لعلماء المشرق والمغرب وحب الدولة للعلم والعلماء، فقد واكب قيام دولة المماليك سقوط بغداد وهروب كثير من أهلها منها ممن بقي على قيد الحياة، فاجتياح المغول المشرق الإسلامي أدى إلى لجوء كثير من العلماء إلى الأراضي المصرية<sup>(١)</sup>، ولا شك أن مجيء عدد من علماء المشرق ونزولهم بمصر كان له الأثر الإيجابي في نشاط الحركة العلمية بكل مدن مصر والشام التي كانت تحت سلطة المماليك، ومن هذه المدن مدينة الإسكندرية، فتذكر لنا المصادر أن من هؤلاء العلماء الذين سكنوا الإسكندرية الشيخ أحمد بن عبد المحسن بن أحمد الواسطي الخرافي التاجر السفار (ت ٦٦٦هـ / ١٢٦٧م) نسمع الحديث في أسفاره وروى بها، حط رحاله بالإسكندرية وتوفي بها، وهو عميد أسرة آل الخرافي المشهورة بالعلم<sup>(٢)</sup>، كذلك الشيخ نجم الدين سعيد بن عبد الله الذهلي الحنبلي، الذي رحل من بغداد إلى الشام فالإسكندرية وله مؤلف سماه "تفتيت الأكباد في واقعة بغداد"<sup>(٣)</sup>.

ولا شك أن تفاعل الثقافة العلمي بين المشرق والمغرب في الإسكندرية كان له الدور الإيجابي في تنشيط الحركة العلمية بها، وهذا يرجع بطريق غير مباشر إلى احتضان الدولة المملوكية لهؤلاء العلماء الوافدين عليها، فقد وفد على مصر عدد كبير من العلماء المغاربة والأندلسيين من خلال الرحلات إليها إما لأداء فريضة الحج، أو التجارة أو طلب العلم، وبعد سقوط الأندلس هاجر كثير من الأندلسيين والمغاربة من بلادهم واستقروا بمصر وتفرقوا في مدن ما فيها الإسكندرية<sup>(٤)</sup>. وقد بلغ بعضهم مواقع مرموقة في الدولة أمثال ابن خلدون الذي تولى قضاء القاهرة، وكان قد جلس مدة بالإسكندرية قبل أن يستقر به المقام

(١) يذكر المقرئ أن مصر استقبلت إبان الغزو المغولي عددا كبيرا من المشاركة الذين بنوا لأنفسهم بيوتا على ضفاف الخليج وحول بركة الفيل، انظر: الخطط، ج ١، ص ٣٦٤ - ٣٦٥.

(٢) الصفي: الوافي، ج ٧، ص ١٤٢؛ العيني: عقد الجمان، ج ٢، ص ٣٦، ٣٧.

(٣) ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج ٣، ص ١١٨. وسيأتي ذكر جملة من هؤلاء وغيرهم في المبحث الخاص بالعلاقات من هذا الفصل إن شاء الله.

(٤) سيأتي تفصيل ذلك في الفصل الرابع من هذه الرسالة إن شاء الله.

بالقاهرة<sup>(١)</sup>.

وقد حفظت لنا المصادر التاريخية جملة كبيرة من الإشارات الواضحة لحب الخلفاء والمماليك السلاطين وكبار رجال الدولة للعلم والعلماء عامة، فإنهم لم يرضوا لأنفسهم أن يكونوا أقل من دولة بني أيوب والتي رفعت العلم وشأنه، فعلى سبيل المثال طالعنا بعض المصادر التاريخية على أسماء عدد من الخلفاء العباسيين ممن كان له باع في العلوم الشرعية ومشاركة فيها وحباً وتعظيماً لأهلها<sup>(٢)</sup>، أمثال الخليفة المعتضد بالله<sup>(٣)</sup> فقد كان جيد الفهم ذكياً يميل إلى الأدب وأهله، وله مشاركة فيه، ومعرفة تامة به<sup>(٤)</sup>، كذلك وصف الخليفة المستعين بالله بأنه كان ديناً فيه خير وإحسان ولين، توفي بالإسكندرية سنة (٨٣٣هـ/١٤٢٩م)<sup>(٥)</sup>.

وأما السلاطين، فقد كان معروفاً عن كثير منهم حب العلم والعلماء وتقريبهم، وبذل الهبات والعطايا لهم، والمشاركة في العلوم، فكان السلطان الظاهر بيبرس محباً للتاريخ مولعاً به، وكان يقول: (سماح التاريخ أعظم من التجارب)<sup>(٦)</sup>، وكان الناصر قلاوون، محباً للأدب واللغة، خبيراً بالأساليب العربية، ملماً بالقواعد النحوية واللغوية، وتذكر المصادر التاريخية أنه كان ينقد ما كان يعرض عليه من المراسيم، ويصلحها، ولا يعلم على مكتوب حتى يقرأه، ويستدرك على الكتاب ما يبين لهم فيه الصواب، وكان يطرح الأدباء بذهن رائق

(١) ابن حجر: إنباء الغمر، ج ٢، ٣٣٩؛ السخاوي: الضوء اللامع، ج ٤، ص ٣٨٧.

(٢) اعتبر بعض المؤرخين أن من شروط قبول الخليفة لإمرة المسلمين أن يكون ملماً بالعلم وعنده خزائن كتب، انظر: غرس الدين: زبدة كشف الممالك، ص ٩٢.

(٣) هو الخليفة المعتضد بالله أبو بكر بن المستعين بالله أبو الربيع سليمان (ت ٧٦٣هـ/١٣٦١م) بويع بالخلافة بعد وفاة أخيه الحاكم بأمر الله سنة (٧٥٤هـ/١٣٥٣م)، كان ذا حرمة وافرّة وشهامة ومعرفة تامة، السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص ٤٩١.

(٤) ابن قماق: الجوهر الثمين ص ١٩١؛ ابن تغري بردي: المنهل، ج ٥، ص ٣٠٤ - ٣٠٥؛ حوادث الدهور، ج ٣، ٦١ - ٦٢.

(٥) الصيرفي: نزهة النفوس، ج ٣، ص ٨٠٢، ٨٠٣؛ السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص ٤٦٧ - ٤٦٨.

(٦) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ١٨٢.



وذكاء مفرط، ويعظم أهل العلم والمناصب الشرعية، ولا يقرر فيها إلا من يكون أهلاً لها، ويتحرى في ذلك ويبالغ في البحث عنه<sup>(١)</sup>، وصار ابنه الملك الصالح إسماعيل (ت ٧٤٦هـ/١٣٤٥م) على منواله، فقد ذكرت المصادر أنه كان ديناً محباً للعلم متمسكاً بالأحكام الشرعية<sup>(٢)</sup>، كما كان الأشرف شعبان بن حسين بن محمد بن قلاوون، محباً للعلماء والفقهاء وأهل الخير<sup>(٣)</sup>، وكذلك السلطان ططر كان ملماً بالمسائل الفقهية في المذهب الحنفي، وقد وجه البدر العيني لترجمة متن القدوري<sup>(٤)</sup> إلى اللغة التركية، وكان يتقرب إلى العلماء ويحضر مجالسهم العلمية<sup>(٥)</sup>، أما السلطان برسبائي، فقد كان البدر العيني يعلمه أمور الدين مما جعل السلطان يقول: (لولا البدر العيني لكان في إسلامنا شيء)<sup>(٦)</sup>، وقد ترجم العيني كتابه التاريخ الكبير المسمى بـ(عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان) إلى اللغة

(١) المقرئزي: السلوك، ج ١، ق ٣، ص ٧٩١؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٩، ص ١٧٣-١٧٤. ويذكر البدر العيني في كتابه السيف المهند في سيرة الملك المؤيد شيخ المحمودي، ص ٢٧٤-٢٧٥ أن المؤيد: (كان يوم الأحد والأربعاء يجتمع عنده جماعة من العلماء وطائفة من الصلحاء يقعدون عنده وهو فيما بينهم كأدهم من قبل العصر بساعة إلى قرب المغرب في القصر يتحدثون بالعلوم الشريفة ويتذكرون من المسائل العويصة، وهو يسمعهم وربما يشاركهم بلطف وأدب، ثم إذا فرغوا أمر أن يسقوا من السكر المتكرر.. في سلطانيات كبار في كل سلطانية قطعة كبيرة من الثلج في أيام الصيف والهجر).

(٢) ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج ٣، ص ٧٩؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ١٠، ص ٧٨.

(٣) النويري: نهاية الأرب، ج ٣١، ص ١٩٧؛ ابن تغري بردي: المنهل، ج ٦، ص ٢٤٦، ٢٤٧.

(٤) من أشهر المتون الفقهية عند الحنفية لأبي الحسين أحمد بن محمد القدوري البغدادي، المتوفي

سنة (٤٢٨هـ/١٠٣٧م)، ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ١، ص ٧٩؛ ابن العماد الحنبلي:

شذرات الذهب، ج ٣، ص ٢٣٣؛ سرسكس: معجم المطبوعات العربية والمعربة، ج ٢،

ص ١٤٩٧؛ بروكلمان: تاريخ الأدب العربي، ج ٣، ص ٢٦٩.

(٥) ابن حجر: إنباء الغمر، ج ٣، ص ٢٥٧.

(٦) العيني: السيف المهند، ص (و).

التركية، وقدمه للسلطان هدية<sup>(١)</sup>، وكان يثني عليه ويصفه بأنه كان محباً للعلم محسناً للطببة والقراء والفقهاء<sup>(٢)</sup>، ويذكر صاحب المنهل أنه كان: (يميل إلى فعل الخير،.. مغرماً بإنشاء العماثر، من ذلك: مدرسته الأشرفية<sup>(٣)</sup> بالقاهرة.. وجامعه بالقلوبية.. وأوقف على ذلك عدة أوقاف)<sup>(٤)</sup>.

وكان الملك الظاهر جقمق (ت ٨٥٧هـ/ ١٤٥١م) ممن اشتغل بطلب للعلم وكان يستحضر مسائل جيدة يباحث بها العلماء والفقهاء، ويلزم مشايخ القراءات ويقرأ عليهم دوماً، وكان مرلعا باقتناء الكتب لا سيما الكتب النفيسة، ويعطي فيها الأثمان الزائدة عن ثمنها الأصلي من أجل شرائها<sup>(٥)</sup>، وبنى الأشرف قايتباي (ت ٩٠١هـ/ ١٤٩٥م) المدارس بمكة والمدينة والقاهرة ودمشق والإسكندرية وغزة، وكان له اشتغال بالعلم، كثير المطالعات في الكتب، وكان يعظم العلماء، ووضع ديواناً لطيفاً من نظمه وانتشائية في مناقبه ومآثره سماه (الدرة المضيئة في المآثر الأشرفية)<sup>(٦)</sup>، وأما السلطان قانصوة الغوري (ت ٩٢٢هـ/ ٢٥١٦م) فكان يحرص على عقد المجالس العلمية والدينية مرة أو مرتين كل أسبوع<sup>(٧)</sup>، ومن سلاطين المماليك من تصدر للتدريس، فقد تصدر السلطان المؤيد شيخ

(١) يقع الكتاب في تسعة عشر مجلداً لا زالت بعض أجزاءه المخطوطة محفوظة في دار الكتب المصرية، ومكتبة بايزيد بالقسطنطينية، انظر: سرقيس: معجم المطبوعات العربية والمغربية، ج ٢، ص ١٤٠٣؛ وقد صدر منه أربعة أجزاء بتحقيق محمد أمين، وجزء خامس بتحقيق د. القرموط.

(٢) السنائوي: الضوء اللامع، ج ٣، ص ٩.

(٣) تقع بخط العنبر بين القصرين، راجع عنها: المقرئزي: الخطط، ج ٢، ص ٢٧، ٢٨.

(٤) ابن تغري بردي: المنهل، ج ٣، ص ٢٧٦.

(٥) ابن تغري بردي: المنهل، ج ٤، ص ٢٩٦ - ٢٩٩؛ النجوم الزاهرة، ج ١٥، ص ٤٥٩؛ ابن

العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٧، ص ٢٩١؛ الشوكاني: البدر الطالع، ج ١، ص ١٨٢ -

١٨٦.

(٦) ابن اياس: بدائع الزهور، ج ٣، ص ٣٢٦؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٨، ص ٧.

(٧) الغزي: الكواكب السائرة، ج ١، ص ٢٩٤؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٨،

ص ١١٦؛ الشوكاني: البدر الطالع، ج ٢، ص ٥٥.

المحمودي (ت ٨٢٤هـ/٤٢١م) للإقراء والتدريس، وكان يروي صحيح البخاري إجازة من حافظ زمانه سراج الدين البلقيني (ت ٨٠٥هـ/٤٠٢م)<sup>(١)</sup> وكان يتكلم في مسائل فقهية في مذهب أبي حنيفة<sup>(٢)</sup>، وقد عده الحافظ ابن حجر العسقلاني في عداد مشايخه في كتابه المجمع المؤسس، وكان المؤيد كثير التعظيم لأهل العلم مكرما لهم، وكان لا يميل إلى شيء من البدع<sup>(٣)</sup>. ولم يكن الاهتمام بالعلم وأهله مقتصرًا على الخلفاء والسلطين فحسب، بل تعداه إلى كبار أمراء الدولة، فقد كانوا محبين للعلم والعلماء مشاركين في العلوم فمنهم على سبيل المثال: الأمير فخر الدين الصالحي المعروف بالمقري (ت ٦٨٧هـ/١٢٨٨م)، أحد الأمراء الأعيان، كان فاضلا يكتب خطا حسنا، ويعظم أهل العلم والحديث<sup>(٤)</sup>، ومنهم الأمير زين الدين كتبغا الحاجب الناصري (ت ٧٢٥هـ/١٣٢٤م)، كان من أكابر أمراء الدولة ويحب العلماء والصلحاء ويحضر مجالس الحديث<sup>(٥)</sup>، ومنهم الأمير مسعود بن أوحى بن مسعود (ت ٧٥٤هـ/١٣٥٣م) أحد أعيان أمراء الدولة وأكابرها، وصف بأنه كان محبا لأهل العلم والخير<sup>(٦)</sup>، ومنهم سيف الدين شيخو الناصري (ت ٧٥٨هـ/١٣٥٦م) كبير الدولة ومشيرها، والمنكلم فيها بالجملة، كان يحب العلماء والفقراء ويجتمع

(١) هو عمر بن عبد الحق الكنانى القاهري، البلقيني، ولد ببلقينة من بلاد الغربية بمصر، ويعد من أشهر العلماء في الحديث والفقه والأصول، وله كثير من المصنفات، السخاوي: الضوء اللامع، ج ٦، ص ٨٥؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٧، ص ٥١.

(٢) الشوكاني: البدر الطالع، ج ١، ص ٣٠٢.

(٣) المقرئزي: السلوك، ج ١، ص ٥٥٠؛ ابن حجر: إنباء الغمر، ج ٣، ص ٢٣٧.

(٤) النويري: نهاية الأرب، ج ٣١، ص ١٦٠؛ ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج ١، ص ١٢١؛ الصقاعي: تالي وفيات الأعيان، ص ١٥.

(٥) ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج ٢، ص ١١٧؛ ابن حجر: الدرر الكامنة، ج ٣، ص ٣٥٠.

(٦) ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج ٣، ص ١٧٤؛ ابن حجر: الدرر الكامنة، ج ٥، ص ١١٧؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ١٠، ص ٢٩٢.

بهم و يحسن إليهم، بنى مسجدا ومدرسة وخانقاة وأوقف عليها<sup>(١)</sup>، ومنهم الأمير سيف الدين صرغتمش الناصري (ت ٧٥٩هـ/١٣٥٧م)، مدبر الدولة وكبيرها، كان محبا للعلماء والفقهاء ويجتمع بهم ويخالطهم ويتكلم معهم، وكان يقرأ تجويدا ويتعصب للمذهب الحنفي كثيرا، وله أوقاف وجهات بر<sup>(٢)</sup>، ومنهم الأمير بكلمش العلّائي (ت ٨٠١هـ/١٣٩٨م)، أحد الأمراء الكبار بالديار المصرية وصف بأنه كان محبا للعلماء، يجلس معهم ويذاكر بمسائل ويتعصب للحنفية<sup>(٣)</sup>، ومنهم الأمير أحمد بن طوغان بن عبد الله الشبخوني دويدار النائب، كان محبا لأهل الخير والصلاح، ثم ترامى على أهل الحديث واختص بهم، وتوفي بالإسكندرية سنة (٨٠٨هـ/١٤٠٥م)<sup>(٤)</sup>، ومنهم الأمير بيدرا المنصوري (ت ٦٩٣هـ/١٢٩٣م)، فقد جمع بين حب أهل العلم وتقديهم وبين حب جمع الكتب في أنواع العلوم، واقتنى منها جملة واستنسخ جملة أيضا<sup>(٥)</sup>، ومنهم الأمير بكتمر الساقى (ت ٧٣٣هـ/١٣٣٢م)، وجد في تركته لما مات الكثير من الكتب والمصاحف وصحيح البخاري نسخ مختلفة<sup>(٦)</sup>.

ولقد كان لاحترام السلاطين والأمراء الكبار للعلم وأهله أن حظي العلماء في عصر المماليك بمنزلة كبيرة، ويمكن أن يعود ذلك لأسباب أهمها ما تمتع به العلماء من مكانة عالية عند عوام الناس، فلقد كان الناس محبين للعلم والعلماء

- (١) ابن حبيب: التذكرة، ج ٣، ص ٢٠٤ - ٢٠٥؛ المقرئزي: الخطط، ج ٢، ص ٣١٣؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ١٠، ص ٣٢٤؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٦، ص ١٨٣.
- (٢) ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج ٣، ص ٢١٣؛ ابن حجر: الدرر الكامنة، ج ٢، ص ٣٠٥؛ ابن تغوي بردي: الدليل الشافي، ج ١، ص ٣٥٣.
- (٣) ابن حجر: إنباء الغمر، ج ٢، ص ٦٩.
- (٤) ابن حجر: إنباء الغمر، ج ٢، ص ٣٣١.
- (٥) ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور، ص ٢٨٠؛ الصفيدي: الوافي بالوفيات، ج ١٠، ص ٣٦٠؛ المقرئزي: السلوك، ج ١، ق ٣، ص ٧٨٨، ٧٩٣؛ ابن تغوي بردي: المنهل، ج ٣، ص ٤٩٤.
- (٦) الصفيدي: الوافي بالوفيات، ج ١٠، ص ١٩٣؛ ابن حجر: الدرر الكامنة، ج ٢، ص ١٨؛ ابن تغوي بردي: المنهل، ج ٣، ص ٣٩٣.

معظمين لشأن الفقهاء، محترمين لهم ولأقوالهم، فقد افتتح عهد المماليك ولا يزال في مخيلتهم حادثتان حدثتا في آخر عهد الأيوبيين دللتا على أن مكانة العلماء عند الناس تفوق ما كان للسلطين، ألا وهما حادثتا بيع الأمراء، وإبطال عدالة الوزير.

فبالنسبة للحادثة الأولى وهي مسألة بيع الأمراء، فنتلخص في أنه عندما وصل العز عبد العزيز بن عبد السلام إلى مصر سنة (٦٣٩ هـ / ١٢٤١م) إبان حكم الملك الصالح نجم الدين أيوب، كان للملك عدة ممالك أترك اشتراهم من مال الدولة ودرّبهم على الفروسية ثم جعلهم أمراء وقادة الجيش، ورأى العز أن هؤلاء الأمراء لا يزالون في حكم الرق ولم يثبت عتقهم، لذلك لم يصحح لهم بيعا ولا شراء، وتعطلت مصالحهم وكان من جملتهم نائب السلطان<sup>(١)</sup>، فشكوه إلى السلطان فاستدعاه وأغلظ القول له، فحمل العز متاعه ليخرج من القاهرة فلحقه الناس مما دفع بالناصح ليقول للسلطان: (أدرك ملكك وإلا ذهب بذهاب الشيخ)<sup>(٢)</sup>، وهنا ركب السلطان بنفسه وطلب من العز العودة، فوافق على شرط بيع الأمراء، وأعلن المزاد العام وبيعت الأمراء ودفع السلطان نجم الدين الثمن من ماله الخاص ليتملكهم ثم اعتقهم واحتفظ بهم قادة وقبض العز الثمن ووضعهم في بيت المال ومن هنا عرف الشيخ العز بأنه بائع الملوك<sup>(٣)</sup>.

أما الحادثة الأخرى فهي إسقاط عدالة الوزير، فقد بلغ العز بن عبد السلام أن الاستادار<sup>(٤)</sup> معين الدين بن شيخ الشيوخ بنى طبلخانة فوق أحد مساجد القاهرة فأمر الشيخ بهدمه واسقط عدالة الاستادار، ثم عزل نفسه عند القضاء لئلا يتسلط

(١) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ج ٨، ص ٢١٦.

(٢) الزحيلي: العز بن عبد السلام، ص ١٨١.

(٣) الزحيلي: العز بن عبد السلام، ص ١٨٢.

(٤) الاستادار (أستاذ دار) هو: الشخص الذي يتحدث في أمر الدور أو البيوت السلطانية، من المطابخ والشراب خاناه، والغلمان، وله مطلق التصرف في استدعاء ما يحتاجه كل من في بيت السلطان من النفقات والكساوي، انظر: القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ٢٠، ج ٥، ص ٤٥٧.

عليه من خلال السلطة<sup>(١)</sup>، ثم أن الملك الصالح جهز رسولا من عنده إلى الخليفة المستعصم ببغداد فلما وصل الرسول إلى الديوان، ووقف بين يدي الخليفة، ليؤدي الرسالة، خرج إليه الخليفة وسأله: هل سمعت هذه الرسالة من السلطان؟ فقال: لا، ولكن حملنيها عن السلطان معين الدين شيخ الشيوخ استاداره فقال الخليفة: إن المذكور أسقطه ابن عبد السلام فنحن لا نقبل روايته، فرجع الرسول إلى السلطان بمصر حتى شافهه بالرسالة ثم عاد إلى بغداد وأداها<sup>(٢)</sup>، وهذا يدل على مكانة العز لدى سلاطين المماليك، حتى إن بيبرس عبر عن ذلك بقوله عشية وفاة العز: (ما استقر ملكي إلا الآن)<sup>(٣)</sup>.

ومما يذكر في هذا المجال ويبين مدى احترام سلاطين المماليك للعلم وأهله زيارة بيبرس للقباري زاهد الإسكندرية ونزوله عند شروطه التي اشترطها للمقابلة<sup>(٤)</sup>، وأنه كان يأخذ بفتواهم في كل ما يقدم عليه من عمل من ذلك ما نكر سنة (٦٦٣هـ/١٢٦٤م) من أن رجلاً نصرانياً يدعى بولص الراهب ظفر بمال مدفون في مغارة بالجبل، فراسى به الفقراء من كل ملة، واستمر أمره حتى سنة (٦٦٦هـ/١٢٦٧م)، فأحضره السلطان الظاهر بيبرس وطلب منه المال وأن يعرفه من أين يحصل له فلم يفصح له بشيء، وفي أثناء ذلك جاءت الفتاوى من فقهاء الإسكندرية إلى الملك الظاهر بقتله وعللوا ذلك بخوف الفتنة على ضعفاء النفوس من المسلمين، فأمر الظاهر على الفور بقتله<sup>(٥)</sup>.

(١) النويري: نهاية الأرب، ج ٢٩، ص ٢٩٩؛ الزحيلي: العز بن عبد السلام، ص ١٨٣.

(٢) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ج ٨، ص ٢١١؛ الزحيلي: العز بن عبد السلام، ص ١٨٤.

(٣) ابن إياس: بدائع الزهور، ج ١، ق ١، ص ٣١٧، ٣١٨. وقد ذكر ابن إياس أن العز كان ينهي الظاهر عن المظالم ويحذره منها، فقد أورد قصة مفادها أن شخصا ادعى على الظاهر أنه أخذ منه بثراً، فما كان من العز سوى أن أرسل رسولا إلى الظاهر ليمثل أمام القضاء، فحضر الظاهر مجلس القاضي ووقف بجانب الخصم، ولما كانت البيعة للظاهر حكم له بالبئر، انظر: بدائع الزهور، ج ١، ق ١، ص ٣١٢؛ عبد الله الوهبي: العز بن عبد السلام، ص ٣٢.

(٤) شافعي بن علي: حسن المناقب السرية، ص ٦٥، كذلك راجع الأوضاع الدينية، ص ١٥٩.

(٥) اليونيني: مرآة الزمان، ج ٢، ص ٣٨٩.

كذلك كان من اهتمام السلاطين والأمراء بعلماء الإسكندرية أن تبوعوا مكانة مرموقة في الدولة المملوكية، فهاهو السلطان الملك الأشرف برسباي يختص الشيخ فاضل السكندري ليكون المؤذن الخاص له في سفره وترحاله<sup>(١)</sup>، كما عمل الفقيه تاج الدين محمد بن أحمد الفطوسي السكندري المالكي (ت ٨٦٨هـ/١٤٦٣م) إماماً للسلطان خشقدم (ت ٨٧٢هـ/١٤٦٧م)<sup>(٢)</sup>. كما حرص سلاطين المماليك على إسناد منصب القضاء في الديار المصرية إلى قضاة من الإسكندرية منهم محيي الدين أبو الصلاح عبد الله بن قاضي القضاء شرف الدين أبو المكارم محمد ابن معين الدولة الإسكندري الشافعي (ت ٦٧٨هـ/١٢٧٩م)، تولى منصب قاضي القضاء<sup>(٣)</sup> بالديار المصرية لمدة سنتين سنة<sup>(٤)</sup>، ومنهم جمال الدين ابن خير المالكي الإسكندري (ت ٧٩١هـ/١٣٨٨م) منصب قاضي قضاء المالكية بالقاهرة<sup>(٥)</sup>، ومنهم شرف الدين بن محمد الدماميني

(١) ابن الجيعان: القول المستطرف، ص ٤٨. ولم أجد لفاضل السكندري ترجمة فيما بين يدي من مصادر.

(٢) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ١٦، ص ٣٣٦.

(٣) يقول غرس الدين خليل عن منصب قاضي القضاء أنه: أعظم الأركان وقعاً وأعمها نفعاً، وعلبهم مدار مصالح الأمة عقلاً وشرعاً... وأجلهم قاضي القضاء الشافعي ثم الحنفي ثم المالكي ثم الجنبلي ولكل مهم نواب يحكمون بالديار المصرية)، انظر زبدة كشف الممالك، ص ٩٢.

(٤) ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج ١، ص ٥٥.

(٥) ابن تغري بردي: المنهل، ج ٧، ص ٢٢٥ - ٢٢٧؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج ٢، ص ١٨٨.

المالكي الإسكندري (ت ٨٠٣هـ/ ٤٠٠م) نظر الجيش<sup>(١)</sup> وبيت المال وديوان المفرد<sup>(٢)</sup> بالديار المصرية ونظر الأسواق<sup>(٣)</sup> والحسبة بالقاهرة<sup>(٤)</sup>.

ومما يؤكد مكانة العلماء في الدولة المملوكية حضور كل من السلطان المؤيد أحمد والظاهر ترميغا<sup>(٥)</sup> جنازة الشيخ محمد بن محمد المالقي السكندري، وكانا ممن حمل نعشه، وترحما عليه<sup>(٦)</sup>.

ومن الأمور التي ساهمت مباشرة في إنكفاء نشاط الحياة العلمية بالثغر تكرار زيارات أنسلطين للإسكندرية وتفقد أحوالها وقد مر الحديث على هذا<sup>(٧)</sup>، وكذلك حرص السلاطين على أن يتولى الثغر أمراء<sup>(٨)</sup> محبوبون للعلم وأهله، فمن هؤلاء على سبيل المثال : كوجبا سعد الدين الناصري (ت ٦٩٧هـ/ ٢٩٧م)، الذي اشتغل بالرواية، فروى للشيخ شمس الدين الذهبي أحاديثه عن النجيب عبد

(١) نظر الجيش: وظيفة موضوعها التحدث في أمر الاقطاعات بمصر والشام والكتابة بالكشف عنها ومشاورة السلطان في شأنها وأخذ توقيعه على ما يقرره، القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ٣٠.

(٢) وظيفة موضوعها شئون الديوان المختص بما أفرد من البلاد يصرف غلتها على ممالك السلطان من رواتب وكسوة، القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ٤٥٧.

(٣) نظر الأسواق: وظيفة موضوعها شئون الأسواق وتنظيمها وترتيب أمورها ورقابة ما يجري فيها من بيع وشراء، القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤ - ص .

(٤) ابن حجر: ذيل الدرر، ص ١١٣؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ١٣، ص ٢٣ - ٢٤.

(٥) لقد تولى المؤيد أحمد سلطنة البلاد لأقل من سنة ليقيم بعد ذلك إقامة جبرية بالثغر السكندري، كذلك الحال بالنسبة لظاهر ترميغا الذي ما استقر في السلطنة سوى شهرين فقط ليلحق بالمؤيد أحمد، انظر: العلاني الظاهري: وثيقة عهد السلطان المؤيد، ص ١٠؛ محمود شاكر: التاريخ الإسلامي، ج ٧، ص ٧٠.

(٦) هو الشيخ محمد بن محمد بن أحمد أبو عبد الله بن الناصري أبي عبد الله المالقي السكندري الشافعي، سمع البخاري، تفنن في القراءات وتلا بالسبع، وبرع في الفقه وأصوله والعريية والصرف والمعاني والبيان والميقات، مات سنة (٨٧٨هـ/ ٤٧٣م)، بالإسكندرية، السخاوي: الضوء اللامع، ج ٩، ص ١٩٩.

(٧) مر الحديث عن ذلك عند دراسة الأوضاع السياسية بالفصل الأول، انظر ص ٤٦ - ٥٥.

(٨) عن أمراء الإسكندرية وفترات ولايتهم، انظر الملحق، ص ٦٠٣.



اللطف<sup>(١)</sup>، ومنهم بيبرس الدوادار (ت ٧٢٥هـ / ١٣٢٤م)، صاحب المصنفات التاريخية المشهورة<sup>(٢)</sup>، أرسله الناصر محمد إلى الإسكندرية لحفظه وتدبير شؤنه وذلك سنة (٦٩٤هـ / ١٢٩٤م)<sup>(٣)</sup>، ومنهم الأمير صلاح الدين الدوادار (ت ٧٤٥هـ / ١٣٤٤م)، اعتنى بالكتابة وكانت له مشاركة واستحضر للتواريخ<sup>(٤)</sup> ومنهم يلغا بن عبد الله الخاصكي الناصري، الأمير الكبير المشهور (ت ٧٦٨هـ / ١٣٦٦م)، تسلم ثغر الإسكندرية لإصلاح ما كان من غارات الإفرنج سنة (٧٦٧هـ / ١٣٦٥م)، كان له صدقات كثيرة على طلاب العلم، وكان يتعصب للحنفية، حتى أنه كان يعطي من يتمذهب لمذهب أبي حنيفة العطاء الجزيل، ورتب لهم الرواتب الزائدة<sup>(٥)</sup>، ومنهم خليل بن عرام الإسكندراني ابن صلاح الدين ابن عرام (ت ٧٨٢هـ / ١٣٧٨م)، يعد من أشهر من تولى نيابة الإسكندرية، كان من المهتمين للعلم والمشتغلين به، جمع تاريخا للإسكندرية في عشر مجلدات<sup>(٦)</sup>، له اهتمام بالأدب، عرف بحبه للعلماء وأهل الصلاح، ومشاركته للعلوم واشتهر بالفصاحة والمعرفة، وكان يكثر في مجلسه من المذاكرة مع الفضلاء، وأهل الأدب مع زيادة في الإكرام<sup>(٧)</sup>، ولما قتل رثاه أحد الشعراء بقصيدة جاء فيها:

أيا ابن عرام قد سمرت مشتهدا وصار ذلك مكتوبا ومحسوبا  
ما زلت تجهد في التاريخ تكتبه حتى رأيناك في التاريخ مكتوبا<sup>(٨)</sup>

(١) الصفدي: أعيان مصر، ج ٤، ص ١٢٦.

(٢) ابن حجر: الدرر، ج ٢، ص ٤٣؛ السخاوي: التبر المسبوك، ١٥٠ - ١٥١.

(٣) بيبرس الدوادار: التحفة المملوكية، ص؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ١٠، ص ٢٦٣.

(٤) ابن حجر: الدرر الكامنة، ج ٥، ص ٢٢٦.

(٥) ابن حجر: الدرر الكامنة، ج ٥، ص ٢١٣ - ٢١٥.

(٦) وهو من الكتب المفقودة، انظر: البغدادي: هدية العارفين، ج ٥، ص ٢٨٩.

(٧) المقرئزي: الخطط، ج ٢، ص ٣٩٣ - ٣٩٤؛ ابن تغري بردي: المنهل، ج ٥، ص ٢٦٣ - ٢٦٨.

(٨) المقرئزي: السلوك، ج ٣، ق ١، ص ٤٠٨؛ ابن حجر: إنباء الغمر، ج ١، ص ٢٢٣ - ٢٢٤؛ ابن

تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ١٨٧.

ومنهم: محمد بن باقل الأمير شمس الدين الهكاري، متولي الإسكندرية (ت ٧٨٣هـ/١٣٧٩م)، فقد كان له اشتغال بالأدب والنظم<sup>(١)</sup>، ومنهم الأمير سيف الدين العمري (٧٩١هـ/١٣٨٨م) نائب الإسكندرية، كان مشاركا في العلوم الطبيعية والنجوم<sup>(٢)</sup>، ومنهم الأمير صرغتمش الخاصكي (ت ٨٠١هـ/١٣٩٨م) نائب الإسكندرية والذي كان محبا للعلم والعلماء وله بعض مشاركة في بعض المسائل<sup>(٣)</sup>، ومنهم الأمير ناصر الدين بن عبد الله الناصري (ت ٨٢٨هـ/١٤٢٤م)، والذي برع في التاريخ وكان يذاكر به وبالشعر<sup>(٤)</sup>، ومنهم الأمير جانيبك بن عبد الله الناصري (ت ٨٤١هـ/١٤٣٧م)<sup>(٥)</sup>، وهو الذي هدم المسطبة المشهورة بجدة، كانت له معرفة بالشعر واشتغال به<sup>(٦)</sup>، والأمير أقبغا التمرآزي (ت ٨٤٣هـ/١٤٣٩م)، وكان مشتهرا بالدين المتين وقيام الليل محبا للعلماء<sup>(٧)</sup> ومنهم يلبيغا البهائي الظاهري، نائب الثغر المشهور باهتماماته العلمية، ومشاركاته في الفقه والعربية والتاريخ<sup>(٨)</sup>، ومنهم أحمد بن علي بن اينال اليوسفي الشهابي (ت ٨٥٥هـ/١٤٥١م)، باشر نيابة الإسكندرية، وكان دينا عاقلا متواضعا محبا للفقراء والصالحين<sup>(٩)</sup>، ومنهم الأمير عمر بن قديد بن عبد الله ركن الدين القلمطاوي (ت ٨٥٦هـ/١٤٥٢م)، تولى أبوه نيابة الإسكندرية، ولم يكن هذا مانعا

(١) ابن تغري بردي: الدليل الشافي، ج ٢، ص ٦٠٧.

(٢) المقرئزي: السلوك، ج ٣، ق ٢، ص ٦٨٥.

(٣) الصيرفي: نزهة النفوس، ج ٢، ص ٢٥؛ السخاوي: الضوء اللامع، ج ٣، ص ٣٢٢.

(٤) ابن حجر: إنباء الغمر، ج ٣، ص ٣٦٠؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ١، ص ١٣١؛ السخاوي: الضوء اللامع، ج ٢، ص ٢٤٣.

(٥) ابن تغري بردي: الدليل الشافي، ج ١، ص ٢٣٧.

(٦) كانت من الخرافات التي اعتقد الناس أن من طلع عليها واستجار بها لم يؤخذ منها مهما كان ذنبه حتى لو كان قتل نفسا، ولما خربها جانيبك، قام عليه عرب تلك البلاد فانتصر عليهم، انظر: الدليل الشافي، ج ١، ص ٢٣٧.

(٧) الصيرفي: نزهة النفوس، ج ٤، ص ١٨٢.

(٨) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ١٥، ص ٤٧٧.

(٩) السخاوي: التبر المسبوك، ص ٣٥٥.

له من الاشتغال بالعلم، فحفظ القرآن وأخذ الفقه وقرأ ولازم العز بن جماعة<sup>(١)</sup> أكثر من ٢٠ سنة، وقد فاق في النحو والصرف وعدد من الفنون<sup>(٢)</sup>، ومنهم أسنبغا الطياري (ت ٨٥٧هـ/٤٥٣م)، كانت له مشاركة في الفقه والتاريخ وأيام الناس<sup>(٣)</sup>، ومن أكثرهم شهرة الغرس خليل بن شاهين (ت ٨٧٣هـ/٤٦٨م)، وزير الديار المصرية ونائب الإسكندرية، صاحب كتاب "زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك"، كان محبا للعلم والعلماء، اشتغل على جماعة منهم وأجازه ابن حجر في الحديث<sup>(٤)</sup>، ومنهم جكم قرار العلامي الظاهري جقمق (ت ٨٨٧هـ/٤٨٢م)، تولى نيابة الإسكندرية، وكان محبا للعلم والعلماء والصالحين ويجمع الكتب العلمية ويقتنيها، ويظهر التفقه والتدين<sup>(٥)</sup>.

- 
- (١) هو محمد بن أبي بكر بن عبد العزيز بن محمد بن إبراهيم ابن جماعة (ت ٨١٩هـ/٤١٦م)، كان من مشاهير علماء عصره برع في علوم شتى وصنف مصنفات مفيدة، قصده الطلبة من كل مكان، و كان يحسن إليهم ويساويهم في الجلوس ويبالغ في إكرامهم، تخرج به في الأصول والمعاني والبيان خلائق كثيرة. الشوكاني: البدر الطالع، ج ٢، ص ١٤٧.
- (٢) السخاوي: التبر المسبوك، ص ٤٠٨.
- (٣) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ١٦، ص ١٦٢؛ المنهل الصافي: ج ٢، ص ٤٣٧؛ الدليل الشامي، ج ١، ص ١٣٢؛ السخاوي: الضوء اللامع، ج ٢، ص ٣١١.
- (٤) ابن تغري بردي: الدليل الشافي، ج ١، ص ٢٩١؛ الصيرفي: نزهة النفوس، ج ٢، ص ٣١٣؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج ٣، ص ٢٥.
- (٥) السخاوي: الضوء اللامع، ج ٣، ص ٧٥ - ٧٦.

## حركة التأليف في الإسكندرية في العهد المملوكي

لقد تضافرت عدة عوامل شجعت على حركة التأليف في مدينة الإسكندرية ولعل من أهمها: اهتمام الدولة بالمؤلفات العلمية بالثغر وذلك من خلال الاهتمام بتشجيع العلم والعلماء<sup>(١)</sup>، ومنها الحوادث التي انتابت ثغر الإسكندرية، ويمكن أن يمثل لذلك بحادثة القبرصي التي دفعت أحد الأذكياة وهو النويري السكندري أن وضع سبعة مجلدات في هذه الحادثة، سماه "الإمام فيما جرت به الأحكام والأمور المتأضية في الواقعة الإسكندرية في سنة ٧٦٧هـ — وعودها إلى حالتها المرضية"، فنراه يذكر ضمن صفحات الكتاب الأسباب التي دفعته لتأليفه والتي منها واقعة الإسكندرية، فيقول بعد سرد المذابح التي أحدثها القبارصة بأهل الإسكندرية: (فجذبتني الغيرة بأسبابها، ودعتني الحمية لأربابها، إلى تأليف هذا الكتاب بها، ليقف عليه من يأتي من المسلمين بعد عصرنا هذا ليعلموا به ما اتفق بها فيما مضى من الزمان، وليجتهد ملوك مصر الآتية بعد ملوك عصرنا في حفولها من الفرنج بتكثير القيادة بها والتركيز فيها لحراستها)<sup>(٢)</sup>، وقد ضمن هذا المؤلف العديد من العلوم والفنون والتواريخ ووصف الآثار والحركة العلمية والاجتماعية بمدينة الإسكندرية آنذاك حتى كان خبر الواقعة في جانب ما ذكره (كاشامة) كما يعلق ابن حجر على ذلك<sup>(٣)</sup>، ومنها كذلك حب العلماء لمدينة الإسكندرية تندي دفعهم إلى تصنيف تاريخها ومنهم الولاة وغيرهم، فقد وضع والي الإسكندرية ابن عرام تاريخاً للإسكندرية في عشر مجلدات<sup>(٤)</sup>، وكذلك وضع قاضيها وعالمها منصور بن سليم ابن العمادية تاريخاً لها<sup>(٥)</sup>، كذلك كتاب النويري

(١) للوقوف على تفصيله انظر ص ١٧٦.

(٢) النويري الإسكندري: الإمام، ج ٢، ص ٢٢٢.

(٣) ابن حجر: الدرر الكامنة، ج ٤، ص ٢٥٩.

(٤) المقرئزي: السلوك، ج ٣، ق ١، ص ٤٠٨؛ ابن تغري بردي: المنهل الصلبي، ج ٥، ص ٢٦٣.

(٥) ٢٦٨؛ النجوم، ج ١١، ص ١٨٣.

(٥) لسان الدين الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، ج ١، ص ٨٢؛ العيني: عقد الجمان، ج ٢،

ص ١٣٦، ١٣٧.

السكندري ، فقد ذكر من أسباب وضعه له قوله: (وكان السبب في تألفي هذا الكتاب طول إقامتي بالإسكندرية ومحبتني لها ولأهلها، فإني دخلتها في ذي الحجة سنة سبع وثلاثين وسبعمائة بسبب زيارة الصالحين ورؤيتها، فلما حللت بها رأيت مدينة حسنة البناء جميلة المعنى طيبة السكنى، كما قال الشاعر فيها:

فما مثلها في الأرض يلقي مدينة فإن كنت في شك فأين نظيرها  
فأضحت بحسن اليمن أحسن روضة وفاض بماء السعد فيها غديرها  
إلى أن قال : (فأحببتها حينئذ وسكنتها وتأهلت بها، والفت هذا الكتاب بها، وابتدأته في جمادى الآخرة سنة سبع وستين وسبعمائة إلى أن فرغت منه سنة خمس وسبعين وسبعمائة... ثم ازددت في سكونها حباً لقول الشاعر<sup>(١)</sup>:

أرى الإسكندرية ذات حسن بديع ما عليه من مزيد  
هي الثغر الذي يبدي ابتساما لتقبيل العفاة من الوفود  
إذا وافيتها لم يبق مما بقلبك مذ تراها من بعيد  
حللت بظاهر منها كأني حللت إذا بجنات الخلود  
فلا بئر معطلة وكم قد رأيت هناك من قصر مشيد  
بياض يملأ الآفاق نوراً يبشر برقه بسحاب جود  
فأقسم لو رأتها مصر يوماً لكادت أن تغيب عن الوجود<sup>(٢)</sup>

ومنها نزول المحدثين بالثغر وكثرة تواجدهم به، وهذا أثر في زيادة كتابة الإجازات العلمية والمنبئيات والبرامج والمعاجم والأجزاء الحديثية، فيذكر البلوي أنه قرأ وسمع على شرف الدين أبي عبد الله محمد الكنانى الشافعي الإسكندري نيفاً على الثلاثين تأليفاً في فنون شتى، قيد أسماءها وأسانيدها في برنامج رواياته<sup>(٣)</sup>.

ومنها المناخ المتميز للثغر، فلقد حبا الله سبحانه وتعالى الإسكندرية بمناخ لطيف<sup>(٤)</sup>، جعلها طيبة الهواء على مدار السنة، يصف المقدسي الإسكندرية وطبيعة

(١) وهو الشاعر أبو الحسين الجزر ، وسبق الإشارة إليه في ص ١٢٥.

(٢) النويري السكندري: الإمام، ج ٢، ص ٢١٩ - ٢٢١.

(٣) البلوي: تاج المفرق، ج ٢، ص ٧٠. وانظر فيما يلي الفصل الخامس، علم التاريخ، ص ٥٥٨.

(٤) يتميز مناخ الإسكندرية نتيجة لموقعها على حوض البحر المتوسط بمناخ حار جاف صيفاً

معتدل مطير شتاءً انظر: محمد محمود الصياد: مدخل للجغرافيا الإقليمية، ص ١٣٨.

هوائها بقوله: (الإسكندرية قسبة نفيسة على بحر الروم، عليها حصن منيع ، ... ، وهي شامية الهواء ، كثيرة الأمطار ،...،...، طيبة نظيفة..)(<sup>١</sup>)، ويقول عنها ياقوت الحموي: (وهي شامية الهواء ، كثيرة الأمطار..)(<sup>٢</sup>)، ويضيف الحميري: (وهي بريية بحرية، وفيها من النعم والأرزاق ما ليس ببلد ، مع طيب هوائها)(<sup>٣</sup>) فكان لهذا المناخ أكبر الأثر في تشجيع العلماء على التأليف، فها هو القاضي ابن خلكان(<sup>٤</sup>) (ت ٦٨١هـ/ ١٢٨٢م)، يكتب فصولاً من كتابه "وفيات الأعيان" بالشعر مغتتما فرصة وجوده به، فقد ذكر أن له كراساً كتبه بالإسكندرية (<sup>٥</sup>).

ومن العوامل أيضاً ما اشتهرت به الإسكندرية من معالم حضارية كعمود السواري، والمنارة، والقصور الفخمة، والأسوار الحصينة، والأبراج المنيعة، وغير ذلك مما كان مصدر إلهام للكتاب، فجرت فيهم الطاقات الكامنة من الفن والإبداع، سواء في مجال الشعر أو الأدب، ومما يؤكد كلامنا ما ذكره ابن العمري (ت ٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م) صاحب كتاب "مسالك الأبصار" عن عمود السواري فقال: (هو عمود مرتفع في الهواء تحته قاعدة وفوقه قاعدة، يقال إنه لا نظير له من العمد في علوه ولا في استداراته، ويحكى عنه حكايات منها ما هو مسطر في الصحف ومنها ما هو مستفيض على الألسنة)(<sup>٦</sup>)، كما تحدث عن منارة الإسكندرية والتي شاهدها وقد اندثر بعض معالمها فيقول: (لم يبقى منها إلا ما هو في حكم الأطلال الدوارس والرسوم الطوامس، وقد كانت المنارة مسرح ناظر ومطمح أمل حاضر طالما جمعت أحداً وكانت لحياد الخواطر ديدناً)(<sup>٧</sup>). أما بالنسبة لقصورها الفخمة وسورها وأبراجها، فكانت هي الأخرى مصدر الهام لقريحة الشعراء، دفعتهم لتأليف القصائد ، ومن ذلك ما نقله النويري :

(١) المندسي: أحسن التقاسيم، ص ١٩٧.

(٢) ياقوت الحموي: تقويم البلدان، ص ١٠٦.

(٣) الحميري: الروض المعطار، دس ٦٦.

(٤) أحمد بن محمد بن أبي بكر الشافعي المعروف بابن خلكان (ت ٦٨١هـ/ ١٢٨٢م)، تولى قضاء مصر والشام، كان إماماً عالماً محققاً متفرداً في علم الأدب والتاريخ. ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج ١، ص ٧٤؛ ابن تغري بردي: النجوم، ج ٧، ص ٣٥٣.

(٥) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ١، ص ١٤١، ١٤٢.

(٦) ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج ١، ق ١، ص ٢٤٠.

(٧) ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج ١، ق ٢، ص ٢٤١.

وكم قصرٍ بها أضحي كحصنٍ منيع لا كزربٍ من جريد  
يرص فصوصه بانیه رصاً يفضله على نظم العقود  
لها سورٌ إذا لاقى الأعادي يقابلهم بوجه من حديد  
هر الفلك استدار بها وكم قد رأينا فيه من برج سعيد  
أحاط بسورها بحرٌ أجاج ومنهل أهلها عذب الورود<sup>(١)</sup>.

ومنها وفرة المدارس وتنوعها بها، وقد انعكس ذلك على المدرسين الذين  
تفننوا في تأليف المناهج المختلفة التي تدرس في هذه المدارس فمما تذكره لنا  
المصادر في هذا الباب أن أبا الحرم نفيس الدين العوفي ولد أبي الطاهر بن عوف  
كان يدرس في المدرسة العوفية بالإسكندرية، وكان يحضر دروسه فضلاء  
ويتحرر بينهم بحوث فيكتبها في الحواشي فكمل كتابة شرح التهذيب في ستة  
وثلاثين مجلداً<sup>(٢)</sup>.

ولم تقتصر حركة التأليف على منهج واحد، فقد تنوعت واختلفت وذلك تبعاً  
لاختلاف الاحتياج للكتبات وطبيعة مؤلفه وميله لأحد العلوم دون الآخر ومن هذه  
الطرق: الاهتمام بوضع الحواشي، فمن ذلك على سبيل المثال: وضع محمد بن  
أبي بكر الدماميني حاشية على كتاب "مغني اللبيب من كتب الأعراب"، لابن  
هشام الأنصاري في النحو، كانت عمدة من جاء بعده، فقد جاء أبو العباس الداري  
فلخصها<sup>(٣)</sup>، كما قام تقي الدين أبو العباس أحمد الداري الشمني بوضع حاشية على  
المغني، وقد اشتهرت هذه الحاشية بين الطلبة واعتمدوا عليها في دراستهم للغة<sup>(٤)</sup>  
وأيضاً وضع الشمني حاشية على كتاب الشفا<sup>(٥)</sup>، ومنها الاهتمام بوضع

(١) النوبري السكندري: الإمام، ج ٢، ص ٢٢٠ - ٢٢١، والأبيات متممة لأبيات الشاعر الجمال أبو الحسين الجزار.

(٢) ابن فرحون: الديباج، ج ١، ص ٢٩٣.

(٣) الشوكاني: البدر الطالع، ج ٢، ص ١٥٠.

(٤) الموسوي: روضات الجنات، ج ١، ص ٣٣٧، ٣٣٨.

(٥) السيوطي: حسن المحاضرة، ج ١، ص ٤٧٥.

المختصرات والشروح ، فمن أشهر المختصرات "مختصر ابن الحاجب" في أصول الفقه والذي قال فيه الزملكاني: (ليس للشافعية مثل مختصر ابن الحاجب للمالكية)<sup>(١)</sup> ومختصر التهذيب، لناصر الدين ابن المنير، وهو من أحسن مختصراته<sup>(٢)</sup>، كذلك اختصر محمد بن أبي بكر الدماميني "حياة الحيوان الكبرى" للدميري في كتاب سماه "عين الحياه"<sup>(٣)</sup>، أما الشروح فمن أشهرها "شرح الأربعين النووية"، وقد شرحها أبو حفص عمر بن أبي اليمن الإسكندري، كذلك شرح كتاب "العمدة في الحديث"، ووضع كتابا في اللغة العربية وشرحه<sup>(٤)</sup>، أيضا لمحمد بن أبي بكر الدماميني كتاب "شرح لامية العجمي"<sup>(٥)</sup>، كما وضع ناصر الدين أحمد ابن التتسي عدة شروح على عدد من المؤلفات منها "شرح الفوائد وتكميل المقاصد لابن مالك" في النحو لم يكمله، وشرح "الكافية لابن الحاجب" في النحو، وشرح "منتهى السؤل والأدل في علمي الأصول والجدل"<sup>(٦)</sup>.

ومنها الاهتمام بالردود والتعليقات، فمن الردود، ردود ناصر الدين ابن المنير، والتي من أطفها ما يروى أنه أراد أن يصنف في الرد على الإحياء للغزالي فخاصته أمه وقالت له : فرغت من مضاربة الأحياء وشرعت في مضاربة الأموات، فتركه<sup>(٧)</sup>، كذلك من الردود كتاب "التحفة المختارة في الرد على من أنكر الزيارة" تنفكها<sup>(٨)</sup>، أيضا انتقاد محمد بن أبي بكر الدماميني على الصلاح

(١) ابن فرحون: الديباج، ج٢، ص٨٨؛ ابن تغري بردي: الدليل الشافي، ج١، ص٤٤٠.

(٢) ابن فرحون: الديباج، ج١، ص٢٤٥.

(٣) السيوطي: بغية الوعاة، ص٢٧-٢٨؛ السخاوي: الضوء اللامع، ج٧، ص١٨٥؛ حاجي خليفة: كشف الظنون، ج١، ص٥٣٥؛ الزركلي: الاعلام، ج٦، ص٢٨٢، ٢٨٣.

(٤) ابن فرحون: الديباج، ج٢، ص٨٠.

(٥) السيوطي: حسن المحاضرة، ج١، ص١١٣؛ الشوكاني: البدر الطالع، ج٢، ص١٥٠، ١٠١؛ كحالة: معجم المؤلفين، ج٩، ص١١٥.

(٦) السخاوي: الضوء اللامع، ج٢، ص١٩٢؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج١، ص٢٦٢؛ التتبيكتي: نيل الابتهاج، ص٧٤، ٧٥؛ كحالة: معجم المؤلفين، ج٢، ص١٥٣.

(٧) الموسوي: روضات الجنات، ج١، ص٣٠٦؛ الداودي: طبقات المفسرين، ج١، ص٧٨-٧٩.

(٨) ابن القاضي: درة الحجال، ج٣، ص١٩٨؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٦، ص٩٦، ٩٧.



الصفدي في مواقع من كتابه "الغيث" سماه "نزول الغيث" (١) أما التعليقات، فمنها كتاب "التأليق علم مختصر ابن الحاجب" لناصر الدين أحمد التتسي (٢).

ولقد تنوعت المؤلفات وتناولت ألوانا وفنونا مختلفة، ما بين الدين وعلومه، واللغة وآدابها، وغير ذلك من الموضوعات المتنوعة (٣).

- 
- (١) السخاوي: الضوء اللامع، ج٧، ص١٨٥؛ الشوكاني: البدر الطالع، ج٢، ص١٥٠.
  - (٢) ابن حجر: إنباء الغمر، ج٢، ص٦٤.
  - (٣) سيرد الكثير منها بالتفصيل في الفصل الخامس من هذه الرسالة إن شاء الله تعالى.

## خزائن الكتب

اقترن النشاط العلمي في الإسكندرية بحركة أخرى نشطة في ميدان دور العلم وأدواته، ومن ذلك خزائن الكتب أو ما يعرف في وقتنا الحاضر بالمكتبات فقد شهد العصر المملوكي الكثير من هذه الخزائن والتي مثلت جزءاً هاماً في تنشيط الحركة العلمية بالمدارس ودور العلم المختلفة، لذا نجد العلماء يهتمون في تراجعهم ببيان حال الورقية، وما ينبغي على الوراق أو المجلد، وأوضاع خزائن الكتب، وطرق حفظ الكتاب، وحال القائمين على الخزانات، وشرط استعارة الكتاب ونحو ذلك.

والواقع أن الإسكندرية لم تختلف عن باقي مدن العهد المملوكي في خصوص وجود الخزائن بها وكيفية العمل فيها، وإن كانت المصادر لم تتحفظنا بالكثير عن ذلك، إلا أننا من خلال قراءة متأنية في هذا العصر يمكن أن نحصل على تصور كاف لذلك، فقد كان البناء المعماري للخزانة يعتمد على حجم وعدد الكتب التي بهاء، وعدد المستخدمين لها وما إلى ذلك، إلا أنها في مجملها كانت تحوي خلوة لخزن الكتب<sup>(١)</sup>، وتقسم إلى رفوف مقطعة بحواجز، وربما كان على كل حاجز باب بمفصلات وقفل، وفي كل خزانة مجموعة من الكتب يلصق عليها ورقة تعريف بالمحتوى أو نوعية الكتب ملصقة على باب كل خزانة، وكانت المصاحف الكبرى توضع في خزانة خاصة إلى جانب المحراب بالمدرسة<sup>(٢)</sup> وكانت الكتب تصنف وتوضع ذات المواضيع الواحدة في مكان واحد<sup>(٣)</sup>، ويراعي في عملية الرص مدى أهمية الكتاب من حيث ما يحتويه من علوم، ومكانة مصنفه فترص كتب الحديث الصرف كصحيح مسلم، ثم تفسير القرآن، ثم تفسير الحديث، ثم أصول الدين، ثم أصول الفقه، ثم النحو والصرف، ثم أشعار العرب ثم العروض<sup>(٤)</sup> وهكذا.

(١) المقرئزي: الخطط، ج ٢، ص ١٧٢؛ ابن إياس: البدائع، ج ١، ص ١٠٦.

(٢) السخاوي: الضوء اللامع، ج ١٠، ص ١٧٢.

(٣) محدد ماهر: المكتبات، ص ١٥٦؛ النشار، ١٨٢.

(٤) ابن جماعة: تذكرة السامع، ص ١٧١.

وكانت الكتب وخاصة المصاحف تحفظ فيما يعرف بالبيوت، لحمايتها من التمزق والتلف، وكانت تصنع من الجلود أو القماش، والغالي منها يصنع من المعدن، وعندما يريد طالب الكتاب مطالعته فهو يضعه بين كتابين أو على (كرسي الكتب) حتى لا يتلف الكتاب ويتقطع حبله<sup>(١)</sup>، وكان الكرسي يصنع من الخشب أو المواد المعدنية كالنحاس والفضة، وهذا بالطبع أغلى ثمنًا وأكثر جمالا، فيصف النويري السكندري أحد كراسي الربعات وبيتها والذي أخذه الفرنج من المدرسة الخلاصية حين هاجموا الإسكندرية سنة (٧٦٧هـ/١٣٦٥م) بقوله: (وأخذوا منها كرسي الربعة وبيتها، وكانا من النحاس الأندلسي المخرم المنزل فيهما اليقات الفضة بدائرهما، لم يُر مثلهما حسن صنعة وتدقيق وتخريم، وتركوا أجزاء الربعة المذكورة الثلاثين جزءاً مطروحة بالمدرسة المذكورة)<sup>(٢)</sup>.

وكانت المكتبات تحتوي على فهرس يضم قائمة بأسماء الكتب والمؤلفات وأماكن وجودها على الأرفف، ليسهل تناولها واستخدامها للباحثين والدارسين، وكان المصنفون من إعداد هذه الفهارس في الغالب خازن المكتبة<sup>(٣)</sup>.

أما موارد الكتب الوافدة إلى الخزائن فكانت تأتي بعدة طرق منها الشراء فيشتري ناظر الوقف الكتب ويضعها في الخزانة، أو يشتري الواهب كتباً ويهبها للخزانة<sup>(٤)</sup>، ومنها ما كان يتم عن طريق النسخ، فيكون ثمة نساخ للخزانة لنسخ الكتب التي تحتاجها ويصعب الحصول عليها بالهبة أو الشراء<sup>(٥)</sup>.

(١) ابن جماعة: تذكرة السامع، ص ١٧٠.

(٢) النويري السكندري: الإمام، ج ٢، ص ١٧٣.

(٣) شعبان خليفة: الكتب والمكتبات في العصور الوسطى، ص ٣٩٩-٤٠١؛ النشار: تاريخ المكتبات في مصر في العصر المملوكي، ص ١٧٧-١٧٨، وتعتبر فهرسة الكتب في المكتبات من أقدم العمليات الفنية للمكتبات حيث صاحبت بداية نشأة المكتبات، وكان لمكتبة الإسكندرية سبق في ذلك، فقد وجدت فهارس لمكتبة الإسكندرية في عصر البطالمة، النشار: تاريخ المكتبات، ص ١٧٨.

(٤) زبيدة عطا: مكتبات المدارس في العصر الأيوبي والمملوكي، ضمن أبحاث ندوة المدارس، ص ٢١٨.

(٥) محمد ماهر حماد: المكتبات في الإسلام، ص ١٧٥.

بالإضافة إلى الهدايا والوقف، حيث اعتاد عدد من العلماء والأدباء والسلطين إهداء الخزائن مجموعات من الكتب والمصنفات، كما فعل المؤيد شيخ حيث أهدى إلى خزانة الكتب الملحقة بالجامع المؤيدي كتباً كثيرة في علوم شتى، وقد يوقف العالم كتبه على بعض الخزائن، كما فعل الدمنهوري (ت ٧٢١هـ/ ١٣٢١م) عندما أوقف كتبه على مكتبة جامع الظاهر<sup>(١)</sup>.

أما بالنسبة لهيكل الإداري لموظفي الخزانة، فكان يتم تعيين عدد من الموظفين بالخزانة على رأسهم الخازن، وهو المشرف على المكتبة والمسئول عن كتبها، وتنظيم العمل بها وفقاً لشروط الواقف<sup>(٢)</sup>، وكان يشترط فيه أن يكون عالماً فقيهاً، من أهل الدين والخير والأمانة ليكون عوناً للطلبة والباحثين ومرشداً لهم<sup>(٣)</sup>، وأن يعير الكتب لمن هو أهل لها، وأن يتفقد أحوالها باستمرار فيرمم شعثها، ويصلح أحوالها، ويتأكد من أنها موضوعة بمكانها المخصص بالخزانة المرصدة لها<sup>(٤)</sup> كما يكون بالمكتبة النساخون والمجلدون، وعدد من المناولين والفراشين<sup>(٥)</sup>.

وكان الناظر يسلم الكتب إلى الخازن ويقوم بمراجعتها وترميمها وكان يتسلم المكتبة بحضور الشهود ويعتبر مسؤولاً عنها، وله نظام في العمل بحيث حددت له مدد الإجازة والعطلة فكان يسمح له بثلاثة أشهر<sup>(٦)</sup>.

ويولي وظيفة الخازن النساخون أو (الوراقون)، ويحدد عددهم بمكانة المكتبة ومدى حاجتها، ويشترط فيهم الدقة في النقل وجودة الخط والإتقان في العمل، بمعنى أن لا يحذف شيئاً من الكتاب أثناء نسخه<sup>(٧)</sup>، وقد حذر السبكي من

(١) السخاوي: الضوء اللامع، ج ١، ص ١٧٢.

(٢) النشار: تاريخ المكتبات في مصر في العصر المملوكي، ص ١٣٧ - ١٣٨؛ محمد ماهر حمادة: المكتبات في الإسلام، ص ١٥٠ - ١٥١.

(٣) المقرئزي: الخطط، ج ٣، ص ٣٧٩؛ النبراوي: أسعار السلع، ص ٥١٩.

(٤) ابن جماعة: معيد النعم، ص ١١١، النبراوي: أسعار السلع، ص ٥١٩.

(٥) المقرئزي: الخطط، ج ٣، ص ٣٤٦.

(٦) القلاشندي: صبح الأعشى، ج ١١، ص ٢٢٩.

(٧) أحمد شلبي: تاريخ التربية الإسلامية، ص ١٣٩، ١٤٦.

ذلك بقوله: (.. ومن النساخ من لا يتقى الله تعالى ويكتب على عجلة ، ويحذف من أثناء الكتاب شيئاً رغبة في نجاهه، إذا كان قد استوَجِر على نسخه جملة، وهذا خائن لله تعالى في تضيع العلم، وجعل الكلام بعضه غير مرتبط ببعض)<sup>(١)</sup>.

و أُلْحِقَ بِأغْلِبِ الْمَكْتَبَاتِ غُرْفَةٌ أُعِدَّتْ لِجُلُوسِ النَّسَاحِ لِيَمَارِسُوا عَمَلَهُمْ فِيهَا وَقَدْ زُوِدَتْ هَذِهِ الْغُرُفُ بِمُسْتَلْزِمَاتِ النَّسْخِ مِنْ أَثَاثٍ وَتَجْهِيزَاتٍ وَأَدْوَاتٍ<sup>(٢)</sup>، مِمَّا لَا غِنَى لِلنَّاسِخِ عَنْهَا سِوَاءِ كَانِ يَعْمَلُ نَاسِخًا فِي إِحْدَى الْمَكْتَبَاتِ أَوْ لِحَسَابِهِ الْخَاصِّ وَتَتَدَثَّلُ هَذِهِ الْأَدْوَاتُ فِي الْمَحْبِرَةِ، الَّتِي يَحْفَظُ بِهَا الْحَبْرَ أَوْ الْمَدَادَ<sup>(٣)</sup>، وَكَانُوا يُفْضِلُونَ الْكِتَابَةَ بِالْحَبْرِ عَنِ الْمَدَادِ<sup>(٤)</sup>، (لِبَقَائِهِ عَلَى مَرِّ الدَّهْوَرِ وَالْأَزْمَانِ وَهُوَ آلَةٌ ذَوِي الْعِلْمِ وَعَدَّةُ أَهْلِ الْمَعْرِفَةِ وَالْفَهْمِ)<sup>(٥)</sup>، وَكَانَ الْقَلَمُ هُوَ آلَةُ النَّسْخِ، وَأَجُودُهُ الْأَمْلَسُ الْعُودُ الْمَزَالُ الْعَقُودُ، ذُو الْفَتْحَةِ الْوَاسِعَةِ، لَيْسَ بِالصَّلْبِ الْقَاصِي مِمَّا يَمْنَعُ جَرِيَانَ الْحَبْرِ أَوْ الرَّخُو فَيَتَسَبَّبُ فِي سُرْعَةِ جَرِيَانِهِ<sup>(٦)</sup>، أَمَّا الْأَقْلَامُ الْغَلِيظَةُ أَوْ ذَاتُ الْخَطِّ الْعَرِيضِ السَّمِيكِ فَكَانَتْ تُسْتَعْمَلُ فِي كِتَابَةِ الْفُصُولِ أَوْ الْأَبْوَابِ أَوْ التَّرَاجِمِ لِتَتَمَيَّزُ عَنِ بَقِيَّةِ أَجْزَاءِ الْكِتَابِ، وَإِنْ فَضِلَ الْبَعْضُ اسْتِخْدَامَ الْحَبْرِ الْأَحْمَرِ لِنَفْسِ الْغَرَضِ<sup>(٧)</sup>.

(١) السبكي: معيد النعم، ص ١٠١، ١٠٢.

(٢) محمّد ماهر حمادة: المكتبات في الإسلام، ص ١٧٥.

(٣) القلّاشندي: صبح الأعشى، ج ٢، ص ٤٤٣.

(٤) الحبر: صنفان، الأول ما يناسب الكاغد (الورق)، وهو حبر الدخان، ويتكوّن من العفص والآس بعد نفعهما ثمّ غليهما على النار، ثمّ يصفى ويضع عليه صمغ عربي ودخان كالح بعد سحقه بسكر النبات والزعفران، أما الصنف الثاني فهو ما يناسب الرق (هو جلد رقيق يكتب عليه)، لا دخان فيه، ولذلك يجيء براقاً، وهو أضرّ للبصر بسبب بريقه، القلّاشندي: صبح الأعشى، ج ٢، ص ٤٧٦، أما المداد: به كانت كتابة الأولين من أهل الصناعة، ويتألف من سخام النفط، المعربوب عليه الماء والعسل والملح والصمغ والعفص، ويوضع على نار لينّة حتى يصبح كالطين، ثمّ يترك في إناء ويرفع إلى وقت الحاجة، القلّاشندي: نفسه، ج ٢، ص ٤٧٥.

(٥) السمعاني: آداب الإملاء، ج ٢، ص ٥٤٥.

(٦) السمعاني: آداب الإملاء، ج ٢، ص ٥٦٤؛ القلّاشندي: صبح الأعشى، ج ٢، ص ٤٤٤.

(٧) ابن جماعة: تذكرة السامع، ص ١٩١.

وكان يصاحب القلم المقلمة<sup>(١)</sup>، والسكين والمقط<sup>(٢)</sup> والورق، ذو اللون النقي الصافي<sup>(٣)</sup>، وكانت كتب العلم والأدب والرسائل تكتب بخط النسخ أو الرقاع<sup>(٤)</sup>، وقد روعي في عملية النسخ عدة أمور من أهمها: أن ينسخ الناسخ كتاب الله وكتب الشرع والكتب المفيدة عموماً، ويحذر من نسخ القصص الكاذبة كالأباطيل وكتب المجون والبدع والأهواء، وأن يكتب بخط واضح يقرأ<sup>(٥)</sup>.

وتعتبر (الوراقة) أو نسخ الكتب من مصادر التكسب، بل اعتبرها السبكي من أجود الصنائع لما فيها من الإعانة على كتابة المصاحف وكتب العلم ووثائق الناس وعهدهم<sup>(٦)</sup>.

ونتيجة للحركة العلمية النشطة التي شهدتها الإسكندرية في عهد المماليك وما صاحب ذلك من كثرة المؤلفات في مختلف العلوم، فقد راجت صناعة الوراقة والنسخ في الثغر وامتنتها ثلثة من العلماء، منهم على سبيل المثال: عبد الرحمن بن أبي العز بن شاواش بن عامر الإسكندراني (ت ٦٥٣هـ/ ١٢٥٥م)<sup>(٧)</sup> وعبد العزيز بن منجا الإسكندراني الراوية المحدث (ت ٦٦٣هـ/ ١٢٦٤م)<sup>(٨)</sup>، وتاج الدين الجرافي، كان يرتزق بالوراقة، فإذا حصل قوته لا يتجاوز<sup>(٩)</sup>، ويذكر العبدري في رحلته أنه التقى به وأنشده بيتين في القلم قال فيهما:

- (١) المقلمة: وعاء توضع به أقلام الكتابة، انظر: الفيروزآبادي: القاموس المحيط، ج ٤، ص ١٦٨؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٢، ص ٤٦٥.
- (٢) المقط: بكسر الميم، هو ما يقطع به رأس القلم، الفيروزآبادي: القاموس المحيط، ج ٢، ص ٣٩٤؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٢، ص ٤٦٨.
- (٣) السعاني: آداب الإملاء، ج ٢، ص ٥٧٤.
- (٤) أحمد الاسكندراني، مصطفى عناني: الوسيط في الأدب العربي وتاريخه، ص ٢٩٢.
- (٥) ابن الحاج: المدخل، ج ٤، ص ٢٩٩؛ ابن جماعة: تذكرة السامع، ص ١٧٩.
- (٦) السبكي: معيد النعم، ص ١٣٢.
- (٧) الذهبي: تاريخ الإسلام، حوادث الفترة، ص ١٥٠.
- (٨) الذهبي: تاريخ الإسلام، حوادث الفترة، ص ١٥١ - ١٥٢.
- (٩) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٦، ص ١٠ - ١١.

وفارس بالظلام سار ودمعه في سراه جار  
تراه في السير مشمعا يسير بالليل في النهار<sup>(١)</sup>

كما امتهن أخوه عز الدين الغرافي النسخ وارتزق به<sup>(٢)</sup>.

وممن امتهن النسخ أيضاً من علماء الإسكندرية مؤرخها النويري  
السكندري والذي عمل في نسخ المخطوطات لأغنياء الثغر، ويقول في ذلك:  
(ونسخت لأكابرها بساحتها المنيرة كتباً كثيرة)<sup>(٣)</sup>، ولعل هذا النص يدل على  
حقائق عدة من أهمها، وجود ساحات بعينها للوراقة والنساخين، ناهيك عن اقتناء  
أكابر الثغر للكتب والمكتبات، وإن مهنة النسخ والوراقة مهنة محترمة يمتنها  
الكثير من العلماء، وإن اختيار الأغنياء للنويري لينسخ لهم الكتب فيه دلالة على  
دقته في النسخ وأمانته، مع حسن وجمال خطه.

وممن عمل بمهنة الوراقة والنسخ عبد الله ابن أحمد ابن عبد العزيز بن  
موسى بن أبي بكر العذري جمال الدين الشيبشي الإسكندراني  
(ت ٨٢٠هـ/٤١٧م)، ذكر ابن حجر في ترجمته أنه: (تكسب بالوراقة، وكتابة  
الوثائق، وأنه نسخ بخطه كثيراً، وكتب الخط الجيد)<sup>(٤)</sup>، وانتقده بقوله: (وربما  
جازف في نقله)<sup>(٥)</sup>. ولما كانت الكتب المنسوخة تحتاج إلى تجليد فقد ألحقت بعض  
المكتبات بقسم خاص للتجليد، يعمل به مجلدون تقع على كاهلهم مسؤولية تجليد  
الكتب وحفظ أوراقها من التلف والعناية بمظهرها الخارجي<sup>(٦)</sup>.

وقد تنوعت المكتبات والخزائن بتنوع أماكن وجودها، فهناك الخزائن  
الملاحقة بالمساجد والجوامع، وتكون عادة مملوءة بالمصاحف، واحتوى البعض

(١) العبدري: الرحلة، ص ١١٣.

(٢) ابن تغري بردي: المنهل الصافي: ج ١، ص ٢٤ - ٢٥.

(٣) النويري السكندري: الإمام، ج ٢، ص ٢٢١.

(٤) ابن حجر: الذيل على الدرر، ص ٢٥٨.

(٥) ابن حجر: إنباء الغمر، ج ٣، ص ١٤٩.

(٦) عبد اللطيف إبراهيم: دراسات في تاريخ الكتب والمكتبات الإسلامية، ص ٦٠؛ عبد الغني عبد

العادلي: التعليم في زمن الأيوبيين والمماليك، ١٥١.

منها بالإضافة للمصاحف على الكتب الدينية المختلفة، فيذكر السيوطي أنه كانت هناك مكتبة عامرة بجامع الإسكندرية<sup>(١)</sup>.

أما بالنسبة للخزائن الملحقة بالمدارس فإن المصادر التي بين أيدينا لم تمدنا بما يمكن أن ندرك به وجود مكتبات بمدارس الثغر، وإن لم تخل من المصاحف فقد أشار النويري السكندري في كتابه عن وجود مصاحف بها، كما ذكر في المدرسة الخلاصية، وكيف قام الفرنج بطرح أجزاء المصحف الثلاثين في أرضية المدرسة، بعد أن أخذوا الكرسي الذي كانت عليه والبيت الذي كانت فيه<sup>(٢)</sup>، هذا من شأن وجود المصاحف بالمدارس أما الكتب الأخرى، فكل ما وقفنا عليه إنما وجد في خزائن خاصة لمدرسين أو قيمين على المدارس، أو محبين للعلم وقد يكون السبب في ذلك راجعاً إلى إندثار بعض تواريخ الثغر كتاريخ ابن عزام، وقد يكون السبب في ذلك كون الثغر رباطاً جهادياً بحيث يخشى على الكتب من تسلط الأعداء عليها، كما حدث في واقعة القبرصي عندما خرب مدرسة ابن حباسة والمدرسة الخلاصية وغيرهما، فلعل طلاب العلم اكتفوا بالمطالعة في المكتبات الخاصة بالمدرسين ولا سيما أنهم كانوا لا يمنعون أحداً من الدخول إليها والمطالعة فيها كما كان من شأن مدرس المدرسة السراجية شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي العلاء الكناني الشافعي الإسكندري، الذي سخر مكتبته لطلبة العلم، فيذكر البلوي أنه اطلع على مكتبته العامرة ووجد فيها: (أمهات المجلدات وألوف التأليف للمؤلفات وصنوف التصانيف المجموعات المصنفات)<sup>(٣)</sup>، ولقد سمح أصحاب المكتبات الخاصة لطلبة العلم بنسخ ما شاعوا من المصنفات، رغبة في مساعدتهم ونشر العلم والمعرفة، مثال ذلك ما قام به البلوي من نسخ الكثير من مصنفات مكتبة الكناني<sup>(٤)</sup>، بل سمح بعض علماءها بإعارة كتبهم لطلبة العلم، فقد

(١) السيوطي: بغية الوعاة، ص ٣٣؛ عبد المنعم هريدي: مظاهر النهضة العلمية بمصر، ص ٤٤٤.

(٢) النويري السكندري: الإمام، ج ٢، ص ١٧٣.

(٣) البلوي: تاج المفرق، ج ٢، ص ٧٠.

(٤) البلوي: تاج المفرق، ج ٢، ص ٧٠.



استعار البدر الدماميني كتاب الصحاح للجوهري من أحد علمائها ويدعى نجم الدين، حيث كتب له البدر أبياتا شعرية جاء فيها:

مولاي إن وافيت بابك طالبا منك الصحاح فليس ذاك بمنكر

البحر أنت وهل يلام فتى سعى للنجم كي يلقي صحاح الجوهري<sup>(١)</sup>

ومن خزائن الكتب الخاصة، خزانة كتب الأمير ركن الدين بيبرس المظفري الجمدار، والي الإسكندرية (ت ٧٩٩هـ/١٣٦٦م)، الذي ذكر البعض أنه بعد وفاته بيعت تركته بالقاهرة، فوجد بها نسخة من كتاب "شرح التهذيب"، لأحد أبناء ابن عوف، فاشتراها قاضي القضاة الإخنائي المالكي<sup>(٢)</sup>، وممن كانت له أيضا خزانة خاصة كمال الدين محمد بن محمد بن خلف الشمسي الإسكندراني، فقد كان يمتلك كثيرا من الكتب أصيب في بعضها<sup>(٣)</sup>.

ولقد شغف كثير من العلماء بنسخ الكتب والأجزاء<sup>(٤)</sup> وضمها إلى مكتباتهم، مثل مسند الإسكندرية أبي محمد عبد الوهاب بن رواج، ذكر الذهبي أنه سمع من أبي الطاهر بن عوف ونسخ الأجزاء<sup>(٥)</sup> والشيخ محمد بن عبد الله بن إبراهيم بن عيسى الإسكندراني المالكي (ت ٦٥٩هـ/١٢٦٠م)، الذي كتب بخطه الكثير<sup>(٦)</sup>، ومذهب الشيخ عز الدين أبو إسحاق إبراهيم بن نور الدين ابن حباسة، الذي قال عنه البلوي: (واظفته وقد ناهز التسعين، وجف ماء عمره المعين، إلا أنه قد متع بلسانه وجنانه، وأقطع ما شاء من إحسانه وبيانه، ووضع له البركة في سماعه

(١) حاجي خليفة: كشف الظنون، ج ٢، ص ٩٦.

(٢) ابن فرحون: الديباج، ج ١، ص ٢٩٣؛ ابن حجر: الدرر، ج ١، ص ٥٠٩؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٩، ص ٥٠٩.

(٣) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٧، ص ١٥١. ربما احترقت أو أصابها دودة الأرض.

(٤) لقد درج المحدثون على استخدام لفظة (نسخ الأجزاء)، أو (كتب بخطه) للدلالة على أن العلم المترجم له كان ينسخ كتب الحديث لنفسه هو سواء نسخ الكتب الكبيرة أو الأجزاء الحديثية المشهورة، وهي طريقة العلماء، انظر: السيوطي: تدريب الراوي، ج ٢، ص ١٤٩.

(٥) للذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ٢٣، ص ٢٣٧-٢٣٨.

(٦) الذهبي: العبر، ج ٥، ص ٢٥٥؛ تاريخ الإسلام، حوادث الفترة، ص ٣٩٥؛ الصفيدي: الوافي

بالوفيات، ج ٣، ص ٣٥٨

وبصره وبنانه، فما دخلت عليه قط إلا وهو مطالع في الدواوين والتأليف، أو ناسخ  
لكن بالخط الرقيق والقلم النحيف على نحافة جسمه وقيامه، في ليله وصيامه في  
نهاره، ..، لا زجته كثيراً ..، فكانت صدى صوته وسلمان بيته، وكنت كثيراً لا  
أستأن في الدخول عليه<sup>(١)</sup>.

والذي يجدر ذكره هنا أنه لما كان الثغر السكندري له وضع خاص مختلف  
عن بقية مدن مصر وهو الوضع الجهادي، فقد حوت بعض المكتبات أو خزائن  
الكتب على مجموعة كبيرة من الأسلحة والذخيرة، لتكون في متناول أيدي الطلبة  
تحسباً لأي مداهمة من قبل الأعداء للثغر، فيذكر البلوي أنه حين أطلع على مكتبة  
الكناني شاهد فيها أنواعاً من الأسلحة والعدد والذخيرة وآلات الحرب الشيء  
الكثير، بل وتعلم من صاحبها أحكام الرماية بالقوس العربية<sup>(٢)</sup>.

---

(١) البلوي: تاج المفرق، ج ٢، ص ٨٣.

(٢) البلوي: تاج المفرق، ج ٢، ص ٧٠.

## الأسر والبيوتات العلمية

الجام ميراث النبوة، قال صلى الله عليه وسلم: ((إن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهما وإنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر))<sup>(١)</sup> وشاهده في القرآن قوله تعالى: ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا<sup>(٢)</sup>.

فالعلم خير ميراث يورثه السابق للاحق، وقد ذكر المفسرون في قوله تعالى: {وورث سليمان داود}<sup>(٣)</sup>، أنه ورثه في الملك والنبوة فإن الأنبياء لا تورث أموالهم، كما تقدم في الحديث.

وميراث العلم في بلد يدل على خيرية أهل هذا البلد، فإن من علامة إرادة الخير بالعبد التفقه في الدين كما قال صلى الله عليه وسلم: ((من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين))<sup>(٤)</sup>.

ولقد حفلت الإسكندرية بنشاط علمي كبير وموروث ذاخر في هيئة بيوتات وأسر علمية عديدة، وأعني بذلك وجود أكثر من عالم في الأسرة، وبدراسة هذه الأسر تبين لي أن أصل كثير منها من خارج الإسكندرية، وإنما استوطنت هذه الأسر في الثغر لما وجدته من إعانة على العلم وسهولة تلقيه به، فمنها ما كان يرجع إلى أصول مغربية كأسرة التنسي وبني وفاء، ومنها ما كان يرجع لأصول عراقية كأسرة بني كويك، ومنها ما كان من محافظات مصر الداخلية كأسرة الدماميني، إذ أصولهم من دمامين بصعيد مصر، كما أن من هذه الأسر ما كانت

(١) أبو داود: السنن، في أول كتاب العلم، ج ٣، ص ٣١٧ (ح ٣٦٤١)؛ الترمذي: السنن، كتاب العلم، ج ٥، ص ٤٧ (ح ٢٦٨٢)؛ ابن ماجه: السنن، المقدمة، ج ١، ص ٨١ (ح ٢٢٣)، وصححه ابن حبان والحاكم، وانظر ابن حجر: فتح الباري، ج ١، ص ١٩٣.

(٢) سورة فاطر، الآية ٣٢، وانظر: ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج ٣، ص ٣٥٨.

(٣) النمل، الآية: ١٦.

(٤) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب العلم، ص ٢٠ (ح ٧١)، كتاب فرض الخمس، ص ٦٣٣ (ح ٣١١٦)، كتاب الاعتصام، ١٥٣٣ (ح ٧٣١٢)؛ وأخرجه مسلم: الجامع الصحيح، كتاب الزكاة، ج ٢، ص ٧١٢ (ح ١٠٣٧)، من حديث معاوية رضي الله عنه.

أصوله ترجع لقبائل عربية جاءت في ركاب حركة الفتوحات الإسلامية ثم استوطنت الثغر إبان الفتح الإسلامي لمصر كأسرة بني المنير التي تعود إلى قبيلة جذام العربية كما أن اهتمامات الأسر العلمية بالإسكندرية اختلفت وتباينت، وغلب على بعضها التميز في بعض فنون العلم دون غيره، فمنها ما تميز بالحديث كأسرة السلفي ومنها ما تميز بالفقه المالكي كأسرة التنسي، ومنها ما تميز بالفقه الحنفي كبنو كويك، وسيأتي تفصيل ذلك إن شاء الله تعالى (١).

وقبل الشروع في سرد بعض الأسر العلمية بالإسكندرية يجدر بنا أن نقلني الضوء على العوامل التي أدت إلى ظهور وتمركز الكثير من الأسر العلمية بها منها:

أولاً: موقع الثغر المتميز (٢).

ثانياً: تأصل المذهب السني بالثغر (٣)

ثالثاً: الاستقرار السياسي والانتعاش الاقتصادي الذي شهدته الإسكندرية

في العهد المملوكي، والذي يقول عنه النويري السكندري

فَلذتُ بَمَنْ يَبغِي بها مَطْلَبَ الغِنَى فَأَوْفَرَ ذُو مالٍ وَسُرَّ فقيرُها

فَقُلْ للذي قَدْ طالَ عنها انْتِزاعُها هَلُمَّ فَقَدْ طابَتْ وطابَ عبورُها (٤)

فدفع ذلك الرخاء المادي الذي تمتعت به الإسكندرية بكثير من أبناء البيت

الواحد إلى التترغ لطلب العلم ومن ثم نشره بين الآخرين.

رابعاً: توارث أبناء هذه البيوتات للعلم الشرعي عن طريق الرواية

والإجازة، كعلم الحديث الذي توارثه أبناء أسرة الغرافي، وقاموا يدرسونه في

مدارس الثغر (٥).

(١) انظر ما يلي ، ص ٢٠٧ وما بعدها.

(٢) انظر ما سبق ، ص ٨ وما بعدها.

(٣) وسيأتي دراسة ذلك في آخر مباحث هذا الفصل.

(٤) النويري السكندري: الإمام، ج ٢، ٢٢٠.

(٥) انظر ما يلي ، ص ٢٣٤.

وأما تأثير الأسر العلمية في الإسكندرية فقد كان إيجابياً وواضحاً في المدينة ولعلنا نستنبط من ذلك ما يلي:

أولاً: استمرار نشاط الحركة العلمية، فإن الأجيال تتوارث العلم وتذكي أواره ويحصل كذلك التنافس المحمود بين أفرادها في ذلك.

ثانياً: احتدام التنافس لبناء المدارس، إذ كثير من هذه الأسر تبني المدارس وتوقف عليها الأوقاف ويلي تدريسها جماعة من هذه الأسرة وما إلى ذلك، فقد بنت أسر بني كويك والدماميني وغيرها المدارس وأوقفت عليها الأوقاف الخيرية.

ثالثاً: التأثير في الحياة السياسية، إذ الولاة والأمراء قد لا ينفقون لرأي عالم إذا كان منفرداً، أما إن كان من أسرة علمية معروفة فإن القزار السياسي يتأثر بذلك، ولا أدل على ذلك من أن الولاة والأمراء استقضوا أفراداً من هذه الأسر، فتولى قضاء الثغر جماعة ينسبون إلى البيوتات العلمية مثل أسرة التنسي، حيث تولى جماعة منهم القضاء في الإسكندرية واستقروا في منصب القضاء زمناً طويلاً، منهم شمس الدين بن بنت التنسي ومنهم كمال الدين محمد بن محمد التنسي (ت ٧٧٧هـ/ ١٣٧٥م) والذي تولى منصب قاضي القضاة في عهد الناصر حسن بن محمد بن قلاوون وفي زمن الأشرف شعبان بن حسين<sup>(١)</sup>، ومنهم حفيد الشمس ناصر الدين أحمد التنسي وهو القاضي بن القاضي أحمد ابن قاضي القضاة محمد جمال الدين ابن قاضي القضاة شمس الدين المتقدم ذكره، كذلك كان الحال بالنسبة لأسرة ابن المنير وأسرة الدماميني.

### الأسر العلمية بالثغر:

تنوعت الأسر العلمية بالثغر، فمنها الأسر التي امتد عطاؤها ربحاً من الزمان قد يبلغ القرون ويظهر فيها العشرات من طلبة العلم، ويبرز منها العديد من

(١) تولى الناصر حسن ابن الناصر محمد بن قلاوون السلطة مرتين الأولى وكانت مدتها أربع سنوات، من الفترة ما بين (٧٤٧ - ٧٥٢هـ) / (١٣٤٦ - ١٣٥١م)، والثانية ومدتها سبع سنوات وانتهت بمقتله وهي الفترة من (٧٥٥هـ - ٧٦٢هـ) / (١٣٥٤ - ١٣٦٠م)، وأما الأشرف شعبان بن حسين فقد حكم البلاد في الفترة من (٧٦٤هـ - ٧٧٨هـ) / (١٣٦٢ - ١٣٨٦م).

العلماء ، وقد تكون الأسرة العلمية ممتدة لبضعة عقود، يكون فيها العالم وواحد أو اثنان من أفراد أسرته فحسب، فمن هذه الأسر.

### أسرة التنسي:

ترجع أصول أسرة التنسي إلى المغرب العربي، حيث مدينة تنس<sup>(١)</sup>، التي تنسب إليها هذه الأسرة، ويرجع نسب هذه الأسرة إلى الزبير بن العوام<sup>(٢)</sup> رضي الله عنه حواري رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان هذا مشتهرا بين أهل النجر حتى مدح البدر الدماميني أحد أفراد هذه الأسرة بقوله:

وأجاد فكرك في بحار علومه سبحا لأنك من بني العوام<sup>(٣)</sup>.

وقد ذكر السيوطي أن من تابعي التابعين ثلاثة علماء من هذه الأسرة<sup>(٤)</sup>،

مما يدل على تقدم نزول هذه الأسرة بمصر.

وقد اشتهرت أسرة التنسي بالإسكندرية بالتجارة والعلم الشرعي، وتولى بعض أفرادها المناصب الدينية كالقضاء والتدريس، ويأتي في طليعتهم قاضي القضاة شمس الدين محمد بن علي بن العز أبو عبد الله المالكي ابن بنت التنسي — نسبة إلى جده لأمه، (ت ٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م)، اشتهر بالصلاح والفضل، كان

(١) تنس: مدينة في بلاد المغرب العربي ذكرها ياقوت في معجمه وأنها مدينة مسورة حصينة، يخترقها نهر يصب في البحر ، وبها مسجد جامع وأسواق حافلة، وينسب بناؤها إلى البحرانيين من أهل الأندلس، عام (٢٦٢هـ/ ٨٧٥م) وقد حاق الدمار بالمدينة بسبب الفيضان في النصف الأول من القرن السابع الهجري، الثالث عشر الميلادي، انظر: مجهول: الاستبصار، ص ١٣٣؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٤٨ — ٤٩.

(٢) هو الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد الغزي بن قصي بن كلاب القرشي الأسدي، أبو عبد الله حواري رسول الله صلى الله عليه وسلم، وابن عمته صفية بنت عبد المطلب، وأحد العشرة المبشرين بالجنة، وأحد الستة أصحاب الشورى، أسلم وسنه ١٢ سنة، وقيل ٨ سنوات، مات شهيداً سنة (٣٦هـ/ ٦٥٨م) في منصرفه من موقعة الجمل، وعمره ٦٦ أو ٦٧ سنة، ابن حجر: الإصابة في تميز الصحابة، ج ١، ص ٥٤٥ — ٥٤٦.

(٣) ابن تغري بردي: المنهل، ج ٢، ص ١٥٢؛ القرافي: توشيح الديباج، ص ٥٥ — ٥٦.

(٤) السيوطي: حسن المحاضرة، ج ١، ص ٢٨٢ — ٢٨٧.

عالماً بالفقه والأصول وانتفع به جماعة<sup>(١)</sup>، ساق حفيده بدر الدين النسب بأنه ابن عطاء الله بن عوض بن نجا بن أبي التثاء حمود بن شهار بن حاتم بن ابن جابر بن هشام بن عروة بن الزبير بن العوام<sup>(٢)</sup>، ثم ابنه القاضي جمال الدين محمد بن محمد، وقد كان شمس الدين قاضي القضاة في زمانه<sup>(٣)</sup>، توفي وخلفه ابنه كمال الدين محمد بن محمد بن التنسي (ت ٧٧٧هـ/١٣٧٥م)، والذي تولى منصب قاضي قضاة المالكية بالإسكندرية زمن الناصر حسن والأشرف شعبان، وقد وصف الكمال بأنه كان إماماً بارعاً في الفقه والأصول والحديث، كثير الاستحضر له ذهن وقاد، وقريحة حادة<sup>(٤)</sup>، وأما ابنه ناصر الدين أحمد بن كمال الدين محمد (ت ٨٠١هـ/١٣٩٩م) فيعد أحد أشهر من تولى منصب قاضي قضاة المائكية بمصر المملوكية، وقد تقلد المنصب مراراً<sup>(٥)</sup>، أما بالنسبة لقضاء ثغر الإسكندرية بدأت ولايته عليه سنة (٧٨١هـ/١٣٧٧م)، وقد تردد ناصر الدين إلى القاهرة براراً طالباً وشيخاً، إلى أن ولاه الملك الظاهر برقوق قضاء القضاة المائكية بعد القاضي شهاب الدين أحمد النحريري<sup>(٦)</sup> سنة (٧٩٤هـ/١٣٩١م)، وقد باشره بعفة ونزاهة مع عقل وتودد وقد حمدت سيرته، فقد كان غنياً دينياً، له

- (١) ابن بطوطة: الرحلة، ج ١، ص ٣٦؛ المقرئ: المقفى الكبير، ج ٧، ص ٥٣.
- (٢) قال البقاعي: هكذا كتب لي نسبه بخطه، انظر: السيوطي: نظم العقيان، ص ١٣٧، ١٣٨.
- وفي توشيح الديباج أن البدر التنسي أثبت في نسبه عواض بدل عطاء الله، نظر بدر الدين القرافي، ص ٥٥ - ٥٦.
- (٣) ابن ابن العراقي: الذيل على العبر، ج ٢، ص ٤٢.
- (٤) ابن ابن العراقي: الذيل على العبر، ج ٢، ص ٤٢؛ المقرئ: السلوك، ج ٣، ق ١، ص ٤٤، ١٨١، ٢١٦، ٢٦١؛ ابن حجر: الدرر الكامنة، ج ٤، ص ٢٣٠؛ إنباء الغمر، ج ١، ص ١٢٤.
- (٥) تكرر عزله واستبدل بالقاضي ابن الريغي، ثم أعيد توليته وعزل ابن الريغي مراراً، وقد تولى القضاء في سنوات ٧٨٣هـ، ٧٨٠هـ، ٧٩٤هـ، انظر: المقرئ: السلوك، ج ٣، ق ٢، ص ٥٤٩؛ ابن حجر: إنباء الغمر، ج ١، ص ٢٣١.
- (٦) هو شهاب الدين أحمد بن عبد الله النحريري المالكي (ت ٨٠٣هـ/١٤٠٠م)، كان بارعاً في الفقه على المذهب المالكي، تولى منصب قاضي قضاة الديار المصرية، ابن حجر: رفع الإصر، ج ١، ص ٧٦؛ ابن تغري بردي: المنهل، ج ١، ص ٣٥٢.

متاجر عدة ومال جزيل و ثراء واسع، وظل في منصبه بعيدا عما يرمى به قضاة  
السوء حتى توفي سنة (٨٠١هـ/١٣٩٨م)، وقد كان مشغلا بعلوم شتى، فأجاد في  
الفقه والأصول والأدب والنحو والجدل والمنطق<sup>(١)</sup>، له مصنفات عدة في علوم  
مختلفة منها، "شرح على تسهيل ابن مالك"<sup>(٢)</sup> لم يكمله، و "شرح مختصر ابن  
الحاجب" في الأصول و "شرح كافية ابن الحاجب"، وغير ذلك<sup>(٣)</sup>، ذكر المؤرخون  
أنه كان فاضلا، سليم الصدر، لم يسمع عنه ذم أحد بقول ولا فعل، وكانت أيامه  
في عافية، والرعية في أمان على أنفسهم وأموالهم، ولم يدخل عليه في طول  
ولايته خال<sup>(٤)</sup>، وقد خلف أبناء تولوا القضاء، منهم جمال الدين عبد الله، فقد تولى  
القضاء عام (٨٠٨هـ/١٤٠٥م)، حتى سنة (٨١٤هـ/١٤١١م) حيث توفي غريقا  
في مياه النيل<sup>(٥)</sup>، ومن أولاده أيضا شمس الدين محمد (ت ٨٤٤هـ/١٤٤٠م)،  
وهو والد الشهاب أحمد والنور علي كما يأتي، وقد أشغل شمس الدين بالعلم  
وتقدم وبرع في الشروط وتخرج به فضلاء، وناب في الحكم مدة، ورشح لقضاء  
الشام ولكنه لم يتولاه، ثم تولى قضاء المالكية لفترة، وذهب إلى مكة لأداء فريضة  
الحج وأقام بها فترة، وحين عاد إلى الإسكندرية أصابه مرض لزمه حتى مات به،  
وكانت جنازته حافلة بالمشيعين<sup>(٦)</sup>.

(١) المقرئزي: السلوك، ج٣، ق١، ص٣٤٤؛ العقود اللؤلؤية، ج١، ص٢٠٧ - ٢٠٨؛  
الصيرفي: نزهة النفوس، ج١، ص١٣٨، ٣٤٩، ٤٨١، ج٢، ص٢٩؛ ابن القاضي: درة  
الحجال، ج٣، ص٥٨، ١٨٧.

(٢) هو كتاب تسهيل الفوائد وتكميل القاصد لمحمد بن عبد الله الطائي المعروف بابن مالك  
(ت ٦٧٢هـ/١٢٧٣م)، انظر: السخاوي: ذيل الدرر الكامنة، ص٦٧.

(٣) ابن تغري بردي: المنهل، ج٢، ص١٥٢ - ١٥٣، وللوقوف على مصنفاته انظر: حاجي  
خليفة: كشف الظنون، ج١، ص٤٠٥.

(٤) القرافي: توشيح الديباج، ج٢، ص٥٥ - ٥٦؛ ابن تغري بردي: الدليل الشافي، ج١، ص٨٢؛  
النجوم الزاهرة، ص١٣، ٦٠؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج٢، ص١٨٩.

(٥) ابن حجر: رفع الاصر، ج٢، ص٢٨١؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج٢، ص١٨٩.

(٦) السخاوي: الضوء اللامع، ج٧، ص٩٠.



ومن أشهر أبنائه أيضاً بدر الدين محمد المكنى بأبي الخلاص (ت ٨٥٣هـ/١٤٤٩م)، ولد بالإسكندرية وبها قرأ على بعض القراء، ثم انتقل إلى القاهرة فآتم حفظ القرآن، واشتغل بالعلم، فأخذ الفقه وأصول الدين والمعاني والبيان، وباشر التوقيع<sup>(١)</sup> في الدولة المؤيدية<sup>(٢)</sup>، وحج وناب في القضاء، وكان ينوب عن أخيه شمس الدين المتقدم ذكره، درس وأفتى، وكان إماماً بارعاً في الفقه، له ذكاء مفرط، محباً في إسداء المعونة للطلبة، كثير المداراة، تام العقل<sup>(٣)</sup>، بقي في القضاء حتى وافته المنية بمرض الطاعون.

وله شعر جاء فيه:

إله الحق قد عظمت ذنوبي فسامح ما لعفوك من مشارك  
أغث يا سيدي عبداً فقيراً أناخ ببابك العالي ودارك<sup>(٤)</sup>.

وقد قال عنه ابن تغري بردي بأنه: (أعظم من رأينا من القضاة في العفة وجودة سيرة حواشيه الذين هم على بابه بلا مدافعة..)<sup>(٥)</sup>، ومن أبناء الشمس جمال الدين محمد بن ناصر الدين: الشهاب أحمد، وقد جمع بين العلم والتجارة وعمل شاهداً<sup>(٦)</sup> بأحد مساجد القاهرة، ثم أولع بالتجارة فانصرف إليها، فأصاب ثروة طائلة، أدى فريضة الحج مراراً، وتنتقل في بلاد الشرق كاليمن ودمشق وبيت المقدس، أصابته خسارة في ماله فعاد كآحاد الناس، فأقام في إحدى مدارس القاهرة

(١) التوقيع ما يكتب لعامة أرباب الوظائف كبيرها وصغيرها، وقد جاءت التسمية من التوقيع على حواشي القصص وظهورها، انظر ابن فضل الله العمري: التعريف بالمصطلح الشريف، ص ٨٥؛ الفنتشندي: صبح الأعشى، ج ١، ص ٥٣؛ البقالي: التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، ص ٢٨.

(٢) الدولة المؤيدية، أي الدولة التي تولى السلطنة فيها السلطان المؤيد شيخ المحمودي.

(٣) السخاوي: التبر المسبوك، ص ٢٨٥.

(٤) المقرئزي: السلوك، ج ٤، ق ٣، ص ١١٢؛ ابن تغري بردي: الدليل الشافي، ج ٢، ص ٥٩٨؛

ابن فهد: معجم الشيوخ، ص ٣٧٩؛ السيوطي: نظم العقيان، ص ١٣٧، ١٣٨.

(٥) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ١٥، ص ٥٣٧.

(٦) انظر التعريف مما سبق بالفصل الأول ص ١٤٣.

حتى وافته المنية<sup>(١)</sup>، وأما أخوه النور علي فلم تمدنا المصادر بالكثير عنه، إلا أنه كان مشهوراً كباقي الأسرة بالعلم<sup>(٢)</sup>، ومن هذه الأسرة أيضاً كمال الدين التاج محمد بن كمال الدين بن الجمال ابن الشمس التنسي (ت ٨١٩هـ/٤١٦م)، أخو ناصر الدين ابن التنسي، وهو أحد فقهاء المالكية بالثغر السكندري، نأب في القضاء كأبيه وجده، وجلس للتدريس وإسماع الحديث بمدارس الثغر<sup>(٣)</sup>، ومن أسرة التنسي أيضاً محمد بن محمد بن حسن العفيف سبط بنت ابن التنسي، ويعرف بابن العفيف، ولد سنة (٨٢٠هـ/٤١٧م)، وبأشر الخمس بالإسكندرية، ونأب في قضائها وصرف غير مرة<sup>(٤)</sup>.

### أسرة ابن المنير:

ترجع أصول أسرة ابن المنير إلى قبيلة (جدام) العربية التي استقر بعض أفرادها بالثغر السكندري مع الفتح العربي في القرن الأول الهجري / السابع الميلادي، وقد نالت هذه الأسرة شهرة عريضة وذلك بسبب تميز أبنائها بنتائجهم العلمي وتوليهم العديد من المناصب الدينية في الدولة كالقضاء وغيره، وقد وصف البلوي هذه الأسرة بقوله: (البيت الذي نأى على قواعد الإيمان الصحيحة، وسمى على عمد الأعمال الصالحة، والأنساب الصريحة)<sup>(٥)</sup>، ويأتي في طليعة هذه الأسرة: أبو المعالي محمد بن منصور بن أبي بكر ابن القاسم بن مختار الجذامي الجروي الإسكندراني المالكي (ت ٦٥٦هـ/٢٥٨م)، أجاز له مجموعة من علماء عصره حدث واستفاد منه خلق كثير وكتب عنه الطلبة، ولي القضاء<sup>(٦)</sup>، وهو والد شيخين جليلين وهما ناصر الدين وزين الدين<sup>(٧)</sup>، فأما ناصر الدين فهو الإمام ناصر الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن منصور بن أبي بكر بن القاسم ابن

(١) السخاوي: الضوء اللامع، ج٧، ص ٨٩ - ٩٠.

(٢) السخاوي: الضوء اللامع، ج٧، ص ٩٠.

(٣) السخاوي: الضوء اللامع، ج٩، ص ٢٨٩.

(٤) السخاوي: الضوء اللامع، ج٩، ص ١٠٣.

(٥) البلوي: تاج المشرق، ج٢، ص ٦١.

(٦) ابن العمادية: ذيل تكملة الإكمال، ج٢، ص ٥٩٩.

(٧) الصفدي: الوافي، ج٥، ص ٧٥؛ المقرئ: المقفى الكبير، ج٧، ص ٢٩٦.

الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن منصور بن أبي بكر بن القاسم ابن مختار الجذامي المالكي (ت ٦٨٣هـ/ ١٢٨٤م)، ويعد أحد كبار علماء النخبة في القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي<sup>(١)</sup>، وفيه قال العز بن عبد السلام: (الديار المصرية تفخر برجلين في طرفيها: ابن دقيق العيد في قوص، وابن المنير في الإسكندرية)<sup>(٢)</sup>، كما قال عنه قاضي القضاة تقي الدين بن شكر<sup>(٣)</sup>: (أجمع الشافعية والمالكية على أن أفضل عصرنا بالديار المصرية ثلاثة: القرافي<sup>(٤)</sup> بمصر القديمة، والشيخ ناصر الدين بن المنير بالإسكندرية، والشيخ تقي الدين بن دقيق العيد بالقاهرة المعزية، كلهم مالكية خلا الشيخ تقي الدين فإنه جمع بين المذهبين)<sup>(٥)</sup> ولد ناصر الدين بالإسكندرية ودرس العلوم الشرعية على أبيه وغيره، وتلمذ على يد الزاهد الكبير أبي القاسم القباري برع في التفسير والقراءات وعلوم القرآن والحديث وعلومه والفقه والأصول واللغة والآداب والمعاني والبديع والشعر<sup>(٦)</sup>

- (١) ابن الوردي: تنمة المختصر، ج ٢، ص ٣٣٢؛ ابن شاکر الكتبي: عيون التواريخ، ج ٢١، ص ٣٤٨؛ ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج ١، ص ٩٢.
- (٢) ابن فرحون: الديباج المذهب، ج ١، ص ٢٤٥؛ ابن القاضي: درة الحجال، ج ١، ص ١٠؛ ابن العماد الدنبني: شذرات الذهب، ج ٦، ص ٥.
- (٣) هو صفى الدين عبد الله بن علي بن شكر (ت ٦٢٢هـ/ ١٢٢٥م)، كان محباً للعلم والعلماء، بنى المدرسة الصحابية بالقاهرة، جعلها وقفاً على المالكية، وأوقف عليها أوقاف جلييلة، الذهبي: العبر في خبر من غير، ج ٥، ص ٩٠؛ المقرئزي: الخطط، ج ٢، ص ٣٧١.
- (٤) هو شهاب الدين أحمد بن إدريس القرافي (ت ٦٨٢هـ/ ١٢٨٣م)، نسب إلى القرافة من غير أن يسكنها، وإنما سئل عند تفرقة الرواتب بمدرسة صاحب ابن شكر، فقيل عنه: توجه إلى القرافة، فقال بعض من حضر: اكتبوه القرافي، فلزمه ذلك، كان مالكياً إماماً في أصول الفقه والدين، عالماً بالتفسير وغيره من العلوم الشرعية، تولى التدريس بعدد من مدارس القاهرة، صنف في أصول الفقه كتب مفيدة. انظر ترجمته: ابن تغري بردي: المنهل، ج ١، ص ٢٣٣، الدليل، ج ١، ص ٣٩.
- (٥) ابن فرحون: الديباج، ج ١، ص ٢٣٨.
- (٦) الذهبي: العبر، ج ٥، ص ١٧٣؛ المقرئزي: السلوك، ج ١، ق ٣، ص ٧٥٧؛ ابن تغري بردي: النجوم، ج ٧، ص ٣٦١؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج ١، ص ٣١٦ - ٣١٧.

وكان خطيباً شاعراً<sup>(١)</sup>، تولى مناصب عدة بالإسكندرية، منها نيابة القضاء عن ابن التتسي عام (٦٥١هـ/١٢٥٣م)، ثم تولى القضاء والخطابة مرتين، وتولى التدريس بعدد من مساجدها ومدارسها، وولي نظر الأقباس والمساجد بها<sup>(٢)</sup> وذكر أنه كان لا يناظر تعظيماً لفضيلته، بل تورد الأسئلة بين يديه ثم يسمع ما يجيب فيها<sup>(٣)</sup>، تعرض لمحنة في حياته بعد توليته القضاء سنة (٦٨٠هـ/١٢٨١م)<sup>(٤)</sup>، حيث داهمت عصابة داره ومعهم قناني خمر ووضعوها في داره وادعوا أنهم وجدوها عنده، فأخذوا منه أكثر مناصبه، ولكنه توجه إلى القاهرة وسعى في الذين سعوا به إلى السلطان الناصر قلاوون، ونال من بعضهم وأعيدت إليه ولايته، وظل بها إلى أن توفي<sup>(٥)</sup>.

وهذه دلالة واضحة على أن بعضاً من الأسر العلمية كانت محل حقد وحسد كثير من الناس، كما يدل ذلك على مكانة الأسر العلمية عند سلاطين المماليك ومدى اهتمامهم بعلمائها، وتولييتهم المناصب الهامة في الدولة، ولقد صنف ابن المنير في علوم شتى<sup>(٦)</sup>، فله الانتصاف من الكشاف<sup>(٧)</sup>، وله ديوان خطب كتبه إلى قاضي القضاة شمس الدين أبي العباس أحمد بن خلكان، صاحب كتاب وفيات الأعيان<sup>(٨)</sup>، وله تفسير في عشر مجلدات<sup>(٩)</sup>، وله تفسير سورة الإسراء<sup>(١٠)</sup>،

(١) ابن العمادية: ذيل تكملة الإكمال، ج ٢، ص ٥٩٩.

(٢) ابن شاکر كتبي: عيون التواريخ، ج ٢١، ص ٢٤٤؛ ابن فرحون: الديباج، ج ١، ص ٢٤٤.

(٣) ابن تغري بردي: النجوم، ج ٧، ص ٥٨؛ المنهل، ج ٢، ص ١٨٥ - ١٨٦.

(٤) وقد أرخ ابن إياس وقاته في بدائع الزهور، ج ١، ق ١، ص ٣٥١، في سنة ٦٨٠هـ، وهو خلاف ما اجتمعت عليه المصادر.

(٥) النويري: نهاية الأرب، ج ٣١، ص ١٢٤؛ ابن شاکر كتبي: عيون التواريخ، ج ٢١، ص ٣٤٨ - ٣٤٩.

(٦) الياضي: مرآة الجنان، ج ٤، ص ١٩٨؛ ابن الوردي: تنمية المختصر، ج ٢، ص ٣٣٢؛ ابن

العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٥، ص ٣٨١.

(٧) ابن القاضي: درة الحجال، ج ١، ص ٩.

(٨) ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج ١، ص ٩٢؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج ١، ص ٣١٦.

(٩) الصفدي: الوافي، ج ٨، ص ١٢٨، ١٢٩؛ ابن شاکر الكتبي: فوات الوفيات، ص ١٣٢ - ١٣٣.

(١٠) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ٥٨.

وغيرها كثير<sup>(١)</sup>، وأما أخوه زين الدين ، فهو أبو الحسن علي بن محمد بن منصور المالكي (ت ٦٩٥هـ/ ١٢٩٥م)<sup>(٢)</sup>، قرأ الفقه على أعلام عصره، ومنهم أخوه، وكان له حظه من النبوغ، حتى إن بعض أكابر علماء عصره يقدمه على أخيه ناصر الدين<sup>(٣)</sup>، ولي قضاء الثغر بعد أخيه حتى عزل عام (٦٨٧هـ/ ١٢٨٨م)، وزين الدين هو شيخ الأسرة المنيرية إبان نزول العبدري صاحب الرحلة بها، وقد أطنب العبدري في مدحه حيث وصفه بأنه: ( الفقيه العالم الكامل الرئيس الأوحد القاضي العادل شرف الفقهاء والمفتين، وسط قلادة المدرسين، صدر البلغاء ورأس الكتاب والناظمين، وحيد العلماء وبحر المصنفين، ذو المآثر العينية والمفاخر العلية)<sup>(٤)</sup>، ويبين ابن فرحون مكانته العلمية فيقول: (كان ممن له أهلية الترجيح والاجتهاد في مذهب مالك)<sup>(٥)</sup>، وله مشاركة أدبية وأشعار ، أورد العبدري جملة منها<sup>(٦)</sup>.

ومن رموز الأسرة المنيرية ابن أخي ناصر الدين وزين الدين، الفقيه المحدث فخر الدين أبو محمد عبد الواحد بن منصور بن محمد بن منصور بن المنير السكندري (ت ٧٣٣هـ/ ١٣٣٣م)، والملقب بعز القضاة، درس الفقه على عميه ناصر الدين وزين الدين ، وسمع وحدث، وجلس للدرس والإفتاء على المذهب المالكي، وتولى نيابة الحكم بالإسكندرية، وتوفي بها وعمره اثنان وثمانون عاماً<sup>(٧)</sup>، وممن أسهم في الحياة العلمية بالإسكندرية من هذه الأسرة مجد الدين عز

(١) انظر في ترجمته: بيبرس الدوادر: زبدة الفكرة، ج ٩، ص ٣٢؛ ابن تغري بردي: النجوم،

ج ٧، ص ٣٦٣؛ الدليل الشافي، ج ١، ص ٨٦؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٥، ص ٣٨١.

(٢) ابن فرحون: الديباج، ج ٢، ص ١٢٣؛ ابن تغري بردي: المنهل، ج ٢، ص ١٨٥.

(٣) ابن فرحون: الديباج ج ٢، ص ١٢٣.

(٤) العبدري: الرحلة، ص ٨٩.

(٥) ابن فرحون: الديباج، ج ٢، ص ١٢٤.

(٦) العبدري: الرحلة، ص ٥، ١١، ١٦، ٧٣؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج ١، ص ٣١٧.

(٧) أبو الفداء: المختصر، ج ٤، ص ١٠٨؛ الصفدي: أعيان العصر، ج ٣، ص ١٨٧ - ١٨٨؛ ابن

حجر: الدرر، ج ٢، ص ٤٢٢، ج ٣، ص ٣٦ - ٣٧؛ السيوطي: حسن المحاضرة،

ج ١، ص ٤٥٩.

القضاة محمد بن عبد الواحد بن منصور ابن المنير السكندري (ت ٧٥٦هـ — ١٣٥٥م)، سمع وحدث واستفاد منه الطلبة<sup>(١)</sup>، ومن أفراد هذه الأسرة أيضاً جمال الدين محمد بن شرف الدين محمد بن المنير، وهو ابن أخي ناصر الدين القاضي، لقيه الرحالة البلوي عند مقدمه الثغر، وأخذ عنه ووصفه بالنزاهة والعدل والعلم والكرم، وقال عنه أنه كان: (مشاراً إليه من كل غائب وشاهد.. مشاوراً في النوازل والديانات، مستفتي في عوارض غوامض القضايا والمشكلات، تصطفيه الرتب العلية السنية، وتتنافس فيه الخطط الشرعية السنية، فطوراً مقدماً في أندية الوزراء والأعيان، وتارة صدرأ في قضاة العدل والإحسان، حتى اعترف بإرشاده الخاص العام، واعترف من بحر إرفاده الراوي والظامي، فما من جار في تحصيل مرام إلا عليه اعتمد، وما من سار على سبيل اعتصامه إلا بدليله استرشد)<sup>(٢)</sup> وقد أخذ البلوي عنه معظم تأليف عمه ناصر الدين، منها الأرجوزة الكبرى في التفسير، ومناسبات تراجم البخاري، وأجزاء من أحكام السماع<sup>(٣)</sup>، ومن علماء الأسرة أيضاً شمس الدين محمد بن المنير (ت ٨٠٣هـ / ١٤٠١م) المؤذن الشهير زمن السلطان الناصر فرج<sup>(٤)</sup>.

#### أسرة الدماميني:

يرجع نسب هذه الأسرة إلى بلدة بصعيد مصر يقال لها (دمامين)<sup>(٥)</sup>، وتعود أصولها إلى قبيلة (مخزوم) القرشية<sup>(٦)</sup>، وكان أفراد هذه الأسرة من العلماء المالكية، ومن أبرزهم: نجم الدين عمر بن محمد بن سليمان الدماميني (ت ٧٠٧هـ — ١٣٠٧م)،

(١) ابن حجر: الدرر، ج ٤، ص ١٥٣ — ١٥٤.

(٢) البلوي: تاج المفرق، ج ٢، ص ٦٢.

(٣) البلوي: تاج المفرق، ج ٢، ص ٦٢.

(٤) الصيرفي: نزهة النفوس، ج ٢، ص ١٢٩.

(٥) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٧، ص ٢٥٦؛ على مبارك: الخطط التوفيقية، ج ١١،

ص ٢٠، ويذكر صاحب الخطط التوفيقية أنها تابعة لمديرية (قنا)، انظر الخطط، ج ١١، ص ٥١.

(٦) وورد ذلك في نسب الشرف الدماميني المتوفى سنة (٨٠٣هـ) انظر: ابن حجر: إنباء الغمور،

ج ٣، ص ٣٦٢؛ والسخاوي: الضوء اللامع، ج ٩، ص ٦٣ — ٦٤؛ وابن العماد الحنبلي:

شذرات الذهب، ج ٧، ص ١٨٢.

سمع الحديث بالإسكندرية، وحدث بها ووصفه الصفدي بأنه : (كان من تجار الكارم، وكان رئيساً له مكارم)<sup>(١)</sup>، اشتهر بالكرم إضافة إلى شهرته بالعلم، نزل أحد العلماء ضيفاً عليه فأكرمه إكراماً بالغاً، فكتب على بابه لما ارتحل:

نزلت بدار نجم فاق بدرا أدام الله رفيعته وجاهه

فأعذب موردي وأطاب نزلي وأهدى لي رياسته وجاهه<sup>(٢)</sup>.

ومن أبرز علماء هذه الأسرة تاج الدين أبو بكر عتيق بن محمد بن سليمان المخزومي الدماميني (ت ٧٣١هـ/١٣٣٠م)، كان رئيس تجار الكارم بالإسكندرية سمع الحديث وأشتغل بالفقه بقوص، وكان له ذكاء مكنه من حفظ (التبهي)<sup>(٣)</sup>، ثم استوطن الإسكندرية، وكان كثير العطاء، له مشاركات علمية، وبني مدرسة بالثغر بدي العطارين وأوقف عليها أوقافاً كثيرة، تنقل وراء تجارته بالأقطار حتى وافته المنية بمصر<sup>(٤)</sup> مخلفاً وراءه ثروة عظيمة، منها مائة ألف دينار عينا<sup>(٥)</sup>، وممن نبغ من هذه الأسرة محمد بن أبي بكر بن محمد بن سليمان المخزومي المالكي المشهور بابن الدماميني (ت ٧٦٠هـ/١٣٥٩م)، وهو والد كل من شرف الدين وتاج الدين الآتي ذكرهما، وكان من كبار محدثي الثغر في زمنه، كما تولى أيضاً نظر الثغر<sup>(٦)</sup>، ومنهم أيضاً بهاء الدين عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن سليمان بن جعفر الأسكندراني الدماميني (ت ٧٩٤هـ/١٣٩٢م)، برع في الحديث وتفرد بالرواية وانتفع به الطلبة، كان فاضلاً ديناً له نظم ومعرفة<sup>(٧)</sup>، ومن

(١) الصفدي: أعيان العصر، ج ٣، ص ٦٥١.

(٢) الأذفوي: الطالع السعيد، ص ٤٥٦؛ الصفدي: أعيان العصر، ج ٣، ص ٦٥١.

(٣) هو أحد كبار الشافعية المعتمدة، لأبي إسحاق إبراهيم الشيرازي (ت ٤٧٦هـ/١٠٨٣م)، وعليه عمل المتأخرين من الشافعية، انظر حاجي خليفة: كشف الظنون، ج ١، ص ٣٩٥.

(٤) الأذفوي: الطالع السعيد، ص ٣٦٠؛ الصفدي: أعيان العصر، ج ٣، ص ٢١٠؛ المقرئ: السلك، ج ٢، ق ٢، ص ٣٤٠؛ ابن حجر: الدرر، ج ٢، ص ٤٣٤، ج ٣، ص ٤٨؛ ابن تغري

بردي: الدليل، ج ١، ص ٤٣٨.

(٥) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٩، ص ٢٩٠.

(٦) ابن حجر: الدرر الكامنة، ج ٣، ص ٤٠٨.

(٧) ابن حجر: الدرر الكامنة، ج ٢، ص ٣٥٧؛ السخاوي: الضوء اللامع، ج ٨، ص ٢٣٣.

هذه الأسرة أيضا شرف الدين محمد بن محمد بن أبي بكر الدماميني (ت ٨٠٣هـ/١٤٠٠م) وهو ابن المحدث محمد بن أبي بكر، كان عالما فقيها أديبا، بارعا في الفقه والأصول واللغة والحساب حيث مهر فيه، وكانت له دراية تامة بالمباشرات، أهله للعمل في ديوان الثغر، فتذكر المصادر أنه باشر نظر الأسواق بالثغر، ووكالة بيت المال، ونظر الكسوة، ونظر الخاص ونظر ديوان المفرد، وحسبة الثغر وحسبة القاهرة، وغير ذلك من الوظائف الديوانية بالإضافة لتوليّه منصب قاضي قضاة المالكية، وخطابة الجامع الغربي، وقد جمع كتبا كثيرة، وكان محسنا إلى أصحابه، ذا خلق ورياسة ودربة وسياسة، رحمه الله تعالى<sup>(١)</sup>، ومن هذه الأسرة أيضا تاج الدين أبو بكر بن محمد بن أبي بكر تاج الدين الدماميني، تولى عدة مناصب منها قضاء قضاة المالكية بالثغر السكندري والحسبة بها، وولى نظر الجيش كأخيه واستمر في مباشرته حتى سنة (٨٠٥هـ/١٤٠٢م) بحكم استعفائه من الوظيفة<sup>(٢)</sup>، ومن أشهر علماء هذا البيت أيضا، بدر الدين محمد بن أبي بكر بن عمر الدماميني (ت ٨٢٧هـ/١٤٢٤م)، جمع بين العلم والتجارة، تفقه على يد علماء الإسكندرية، ومنهم بهاء الدين الدماميني، وقد برع بدر الدين في علوم اللغة والنحو والنظم والنثر والخط، وشارك في الفقه ومعرفة الشروط، وتميز بسرعة الإدراك ودقة الملاحظة، وجلس للتدريس بعدد ممن مدارس الثغر، وناب في الحكم عنه أحد أبناء آل التنسي<sup>(٣)</sup>، ثم انتقل إلى القاهرة وناب بها، وتصدر لتدريس النحو بالجامع الأزهر، ثم ذهب إلى الحج وعاد إلى الإسكندرية،

(١) الصيرفي: نزهة النفوس، ج ٢، ص ١٢٩؛ ابن تغري بردي: الدليل الشافي، ج ٢، ص ٦٨٠؛ السخاوي: الضوء اللامع، ج ٩، ص ٦٣ - ٦٤؛ ابن القاضي: درة الحجال، ص ٤٣٣؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٧، ص ٣٧.

(٢) المقرئزي: السلوك، ج ٣، ق ٢، ص ٨٩٤ - ٨٩٥، ج ٣، ق ٣، ص ٩٩٨؛ ابن تغري بردي: المنهل، ج ١، ص ١١٠؛ الصيرفي: نزهة النفوس، ج ٢، ص ١٦٧؛ ابن اياس: بدائع الزهور، ج ١، ق ٢، ص ٦٦٩، ٦٧١.

(٣) السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص ٥١١؛ ابن القاضي: درة الحجال، ج ٢، ص ٩٨ - ٩٩؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٧، ص ١٨١؛ الشوكاني: البدر الطالع، ج ٢، ص ١٥٠.



حيث اشتغل بالعلم والتدريس، وتولى خطابة جامعها الغربي، وعمل بصناعة الثياب الحريرية، واتسعت تجارته، وصار له دولاب نسيج متسع، ولكنه ما لبث أن وقع تحت طائلة الديون واحترقت داره وأفلست تجارته، ولزمه الغرماء، فقام إلى جواره بعض الأعيان حتى صلح حاله، ثم عين في قضاء المالكية بالقاهرة، وخرج للحج ومن بلاد الحجاز دخل اليمن سنة (٨٢٠هـ/١٤١٧م)، وأقام بزبيد<sup>(١)</sup> لمدة عام، درس خلاله بالجامع الكبير بها واستفاد به علماء وطلبة العلم بالنحو، ومن نظمه في وصف العيش بزبيد قوله:

رعى الله مصرا إنا في ظللها نروح ونغدوا سالمين من الجهد  
 وشرب مياه النيل فيها براحة وأهل زبيد يشربون من الكد<sup>(٢)</sup>  
 ثم سافر إلى الهند فراج أمره بها، وصار له دنيا عريضة، واستمر به الحال إلى أن مات مسموما بالهند مخلقا وراءه عدة مؤلفات<sup>(٣)</sup>، ومن أبناء هذه الأسرة الذين نبغوا في علوم شتى القاضي جمال الدين عبد الله بن محمد بن الدماميني (ت ٨٤٥هـ/١٤٤١م)، عرف بالجمال الدماميني، أخذ العلم من جده البهاء أحد أئمة الأدب والحديث، تولى قضاء الثغر مدة ثلاثين عاما إلى أن توفاه الله<sup>(٤)</sup>.

(١) زبيد: اسم واد به مدينة يقال لها الحصيب، ثم غلب اسم الوادي عليها فلا تعرف إلا به، وهي مدينة مشهورة باليمن، أحدثت في أيام المأمون، وبإزائها ساحل المنذب، وينسب إليها جمع كثير من العلماء، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٣٧٦، الحميري: الروض المعطار، ص ٢٨٤.

(٢) الأمل: تحفة الزمن، ج ٢، ص ٢٦٨؛ السخاوي: الضوء اللامع، ج ٧، ص ١٨٤ - ١٨٥، القرافي: توشيح الديباج، ١٧٥.

(٣) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ١٥، ص ١٢٨ - ١٢٩؛ الدليل الشافي، ج ٢، ص ٥٨٣، ٥٨٤، وسيأتي بحث مؤلفاته في الفصل الخامس من هذه الرسالة إن شاء الله تعالى.

(٤) الصيرفي، ج ٣، ص ٤٢؛ المقريري: السلوك، ج ٤، ق ٢، ص ٩٦٨؛ ابن تغري بردي: النجوم، ج ١٥، ص ٤٩١؛ حوادث الدهور، ج ١، ص ٦٨؛ السخاوي: الضوء اللامع، ج ٥، ص ٥٣؛ التبر المسبوك، ص ٢٦ - ٢٧؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج ٢، ص ٢٢٨، ٢٣٣، العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٧، ص ٢٥٦.

ومن علماء هذه الأسرة أيضا: أحمد بن محمد بن ابي بكر بن عمر  
المخزومي السكندري (ت ٨٦٠هـ/٤٥٦م)، ولد بالثغر ونشأ به، وقرأ القرآن  
وتفقه على أبيه وغيره من علماء عصره، فبرع في الحديث والعربية والأدب، كان  
من فضلاء الثغر المشهورين بالخير والفضيلة<sup>(١)</sup> تصدر للتحدث بالثغر  
وبالقاهرة<sup>(٢)</sup>.

### أسرة بني وفا:

تتحدّر هذه الأسرة من أصول مغربية، استقر أفرادها بالإسكندرية خلال  
العصر المملوكي، إلا أن شهرة هذا البيت بلغت أوجها في القاهرة حيث نزل بها  
عميد هذه الأسرة محمد وفا (ت ٧٦٥هـ/١٣٦٣م)، وكان رجلا صوفيا من  
أقطاب الطريقة الشاذلية، ولد بالإسكندرية وتتلّمذ على ياقوت العرش وغيره من  
صوفية الثغر، ورحل إلى أخميم حيث تزوج وصار له طلاب ومريدون ثم تحول  
إلى القاهرة يعظ بمساجدها وكانت له مشاركة في الأدب<sup>(٣)</sup>، وقد ظهر من أبناء  
هذه الأسرة من كان له مشاركة في العلوم، وإن غلب عليهم التصوف، فمنهم أبو  
الحسن علي بن محمد بن وفا المالكي (ت ٨٠٧هـ/١٤٠٤م)، جلس مجلس أبيه  
وكان له مشاركة في التفسير والأدب، وقد لمزه ابن حجر بقوله: (كان له نظم  
كثير واقتدار على جلب الخلق مع خفة ظاهرة)<sup>(٤)</sup>، وقال ابن العماد عنه: (وشعره  
ينعق بالاتحاد المفضي للإلحاد، وكذا نظم والده)<sup>(٥)</sup>، وذكر عنه أنه جعل مسجداً  
في داره يصلي فيه ومن يصاحبه الجمعة، مع أنه مالكي المذهب والمالكية يرون  
أن الجمعة لا تصح إلا في المسجد العتيق<sup>(٦)</sup>، ومن رموز هذا البيت شهاب الدين

(١) السخاوي: الثغور اللامع، ج ٢، ص ١٠٦.

(٢) السيوطي: نظم العقيان، ص ٥٤.

(٣) ابن تغري بردي: الدليل الشافي، ج ٢، ص ٦٩٣-٦٩٤؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٦،  
ص ٢٠٦.

(٤) ابن حجر: إنباء الغمر، حوادث سنة ٨٠٧هـ، ج ٥، ص ٢٥٦.

(٥) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٧، ص ٧١-٧٢.

(٦) ابن تغري بردي: الدليل الشافي، ج ١، ص ٤٧٢؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج ١، ق ٢، ص ١٤.

أحمد (ت ٨١٢هـ/١٤٠٩م)، شقيق علي من أبناء محمد وفا، وكان قد غلب عليه الزهد والتسك ولازم الخلوة وندر اجتماعه بالناس إلى أن وافته المنية<sup>(١)</sup>، وقد سار على نهجه عدد من أبنائه منهم أبو الفضل عبد الرحمن بن الشهاب أحمد بن أبي الوفا، وقد نهج طريق أبيه وجلس للوعظ، إلا أنه تميز ببراعته في الشعر حتى ذكره ابن حجر في معجمه وقال بأنه مدحه بأبيات شعرية<sup>(٢)</sup>، وذكر السخاوي أنه لو عاش لفاق أهل زمانه في ذلك، لأنه توفي غريقاً في عنفوان شبابه في النيل عام (٨١٤هـ/١٤١١م)، ولم يكن قد تجاوز الثلاثين من عمره<sup>(٣)</sup>

ومنهم أيضاً أبو الفتح محمد بن أحمد بن وفا السكندري المالكي (ت ٨٥٢هـ/١٤٤٨م)، ثاني أبناء الشهاب أحمد، وأكثرهم علماً وفضلاً، حفظ القرآن وكتب في العلم وبرع في الشعر، وخطب في الناس بعد عمه علي بن محمد بن وفا، وصار أعلم بني وفا قاطبة وأشعرهم، وحضر مجلسه أكابر الدولة وأعيانها والأئمة والفقهاء، فمن مقدمة من حضر مجلسه الظاهر جقمق قبل توليه السلطنة، توفي بالقاهرة وكانت جنازته حافلة ودفن بالقرافة بجانب آبائه<sup>(٤)</sup>.

والذي يجدر ذكره هنا أن إدراجنا لهذه الأسرة ضمن الأسر العلمية بالإسكندرية كان مراعاة لبراعتهم في الأدب والشعر، لا من باب التصوف الذي لم نوليه اهتمامنا في هذه الدراسة لكونه مخالفة عقدياً واضحة.

### أسرة ابن الكويك:

أسرة عراقية تعود أصولها إلى مدينة تكريت<sup>(٥)</sup>، سكنت الإسكندرية وجمع أفرادها بين العلم والتجارة، وغلب عليهم التفقه على مذهب الإمام الشافعي، أسهم

(١) ابن أبياس: بدائع الزهور، ج ١، ق ٢، ص ٨٠٢؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٧، ص ٩٦.

(٥) ابن حجر: المعجم المؤسس، ج ٣، ص ١٤٨.

(٣) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ١٣، ص ١٨٧، ج ٢، ص ٨٣٤؛ السخاوي: الضوء

اللامع، ج ٤، ص ٥٨ - ٥٩، ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٧، ص ١٠٦.

(٤) ابن تغري بردي: النجوم، ج ١٥، ص ٥٢٨ - ٥٢٩؛ الدليل الشافعي، ج ٢، ص ٨٣٢ - ٨٣٣؛

السخاوي: التبر المسبوك، ص ٢٤٧ - ٢٤٨؛ السيوطي: نظم العقيان، ص ١٣٧.

(٥) تكريت، مدينة كبيرة ذات قلعة حصينة، غربي دجلة، قريبة من الموصل، نسبة إلى تكريت بنت

وائل أخت بكر بن وائل، انظر: ياقوت: معجم البلدان، ج ٢، ص ٣٩٩؛ ابن سعيد: الجغرافيا، ص ١٥٧ - ١٥٨.

أفرادها بدور فاعل في تنشيط الحركة العلمية بالإسكندرية، ويأتي في طليعتهم القاضي شهاب الدين بن الكويك أحد تلامذة الإمام ابن دقيق العيد<sup>(١)</sup>، ومنهم أيضاً شمس الدين محمد بن محمد بن أبي الفتح بن محمود بن أبي القاسم بن الكويك (ت ٧١٤هـ/١٣١٥م)، نزيل الإسكندرية، اشتهر بالتجارة، وكانت له مبار كثيرة ومعروف بالمدينة<sup>(٢)</sup>، ومنهم سراج الدين عبد اللطيف بن أحمد بن محمد بن أبي الفتح بن محمود بن أبي القاسم التكريتي ابن الكويك (ت ٧٣٤هـ/١٣٣٣م)، ابن أخي شمس الدين، اشتغل بالتجارة وحدث بالثغر، وبرع في الفقه الشافعي، وفرق على كل من سمع عليه ديناراً ديناراً، عرف عنه أيضاً نظمه للشعر، كان فاضلاً عاقلاً، محباً للرحلة من أجل العلم أو التجارة، بنى مدرسة بالثغر، وهو والد كل من أبي جعفر وأبي اليمن المحدثين بالثغر السكندري<sup>(٣)</sup>، فأما أبو جعفر فهو محمد بن عبد اللطيف بن أحمد بن الكويك السكندري (ت ٧٦٩هـ/١٣٦٧م)، ولد بالإسكندرية ونبغ في الحديث وصار من كبار محدثي الثغر، وناب في الحكم بالإسكندرية، وباشر نظر الأحباس، ثم انتقل إلى القاهرة مدرساً بأحد مدارسها وبها توفي<sup>(٤)</sup>، أما أبو اليمن فهو محمد بن عبد اللطيف بن أحمد بن محمد عز الدين ابن الكويك (ت ٧٩٠هـ/١٣٨٨م)، مسند الثغر، تفقه به وحدث، وتلمذ عليه المقرئزي، وصاهر العز بن جماعة، وكان مسموع الكلمة عند القضاة<sup>(٥)</sup>، ومن شيوخه وجيهة بنت علي أخت منصور بن سليم<sup>(٦)</sup>، وبرز من علماء هذه الأسرة ابن أبي اليمن سراج الدين أبو الطيب محمد بن محمد بن عبد اللطيف بن

(١) الادفوي: الطالع السعيد، ص ٥٩٥.

(٢) ابن حجر: الدرر الكامنة، ج ٤، ص ٢٥٢.

(٣) الادفوي: الطالع السعيد، ص ٤٨٩؛ ابن حجر: الدرر، ج ٣، ص ١٩٨؛ ابن شاهين: زبدة كشف الممالك، ص ٤١.

(٤) ابن حجر: الدرر الكامنة، ج ٤، ص ٤٤ — ٤٥.

(٥) ابن حجر: الدرر الكامنة، ج ٤، ص ١٤٣ — ١٤٤؛ السخاوي: التبر المسبوك، ص ٢٢؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج ١، ق ٢، ص ٣٩١؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٦، ص ٣١٤.

(٦) ابن حجر: الدرر، ج ٤، ص ١٤٤؛ إنباء الغمر، ج ١، ص ٣٦١.

الكويك (ت ٨٠٧هـ/٤٠٤م)، كان نابغاً في علوم الحديث، وحدث وروى<sup>(١)</sup>، ومن أبنائه أيضاً المحدث شرف الدين محمد بن أبي اليمن ابن الكويك السكندري الشافعي (ت ٨٢١هـ/٤١٨م)، درس الحديث على علماء عصره حتى مهر فيه، وتصدى لإسماعه حتى آخر عمره، ومن أشهر من تلقاه عنه الإمام ابن حجر العسقلاني<sup>(٢)</sup>، لازم إسماع الحديث رغم كفاف بصره لكبر سنة، وافته المنية وهو في الرابعة والثمانين من عمره<sup>(٣)</sup>.

### أسرة ابن عرام:

ترجع أصولها إلى مدينة أسوان<sup>(٤)</sup> أقصى صعيد مصر، استوطنت الإسكندرية واسهم كثير من أفرادها في تنشيط الحركة العلمية بالإسكندرية، منهم تقي الدين ابن عرام كان من محدثي الثغر المشهورين بالعلم والتقوى، وهو عم بهاء الدين وتاج الدين<sup>(٥)</sup>، فأما بهاء الدين فهو أحمد بن أبي بكر بن عرام الأسواني (ت ٧٢٠هـ/٣٢٠م)، ولد بالإسكندرية، وتلقى بها علومه، وتولى نظر الاحتباس، درس الفقه والعربية، ونظم الشعر وكتب النثر، وصفه الصفدي بأنه يجري في ميدان الأدب ولا يعثر<sup>(٦)</sup>، وأما تاج الدين فهو عبد الله بن أبي بكر بن عرام الشافعي الإسكندري (ت ٧٢١هـ/٣٢١م)، سمع الحديث وبرع في العربية، كان حفيداً لزينب بنت أبي الحسن الشاذلي، برع في اللغة والأدب<sup>(٧)</sup>، ومن نسائهم فاطمة بنت محمد بن أبي بكر بن عرام، حدثت بالإسكندرية وسمع منها خلق كثير<sup>(٨)</sup>، ومنهم تقي الدين أبو عبد الله محمد بن بهاء الدين أحمد بن أبي (١) وهو الابن الأصغر لأبي اليمن، ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٧، ص ٧٢-٧٣.

(٢) ابن حجر: ابناء الغمر، ج ٣، ص ١٨٨، وأرخ وفاته في سنة (٨٢٢هـ/٤١٩م)، وكناه بأبي الطاهر؛ السخاوي: الضوء اللامع، ج ٩، ص ١١١-١١٢.

(٣) الصديقي: نزهة النفوس، ج ٢، ص ٤٣٠-٤٣١؛ المقرئ: السلوك، ج ٤، ق ١، ص ٤٧٥-٤٧٦؛ ابن بَرْدِي: النجوم الزاهرة، ج ١٤، ص ١٥٥، الدليل، ج ٢، ص ٦٨٧؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج ٢، ص ٤١؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٧، ص ١٥٢.

(٤) الصفدي: أعيان العصر، ج ٢، ص ١٨٦.

(٥) الأذفوي: الطالع السعيد، ج ٢، ص ٢٥١.

(٦) الصديقي: أعيان العصر، ج ٢، ص ١٨٦؛ ابن حجر: الدرر الكامنة، ج ١، ص ١١٩.

(٧) ابن حجر: الدرر الكامنة، ج ٢، ص ٣٥٦.

خلق كثير<sup>(١)</sup>، ومنهم تقي الدين أبو عبد الله محمد بن بهاء الدين أحمد بن أبي بكر بن عرام الشافعي (ت ٧٧٧هـ/ ١٣٧٥م)، برع في علم الحديث بالإضافة إلى الفقه والعربية، قصده الطلبة للانتفاع بعلمه<sup>(٢)</sup>.

### أسرة الغرافي:

تتسب هذه الأسرة إلى بلدة الغراف، وهو نهر كبير تحت واسط بينها وبين البصرة<sup>(٣)</sup>، وذكر العيني أن نسبها ينتهي إلى الخليفة علي بن أبي طالب رضي الله عنه<sup>(٤)</sup>، وقد نزل بالثغر السكندري جماعة من هؤلاء نبغ منهم أكثر من عالم خلال العهد المملوكي، منهم الشريف أبو العباس أحمد بن محمد بن عبد المحسن بن أبي العباس أحمد بن محمد بن علي بن الحسن بن علي بن محمد بن جعفر بن إبراهيم بن إسماعيل بن جعفر بن محمد بن إبراهيم بن عبد الله بن موسى بن جعفر بن محمد بن الحسين بن علي بن أبي طالب الواسطي الغرافي (ت ٦٦٦هـ/ ١٢٦٧م)، كان رجلاً قاضياً محدثاً وتاجراً، نزل الإسكندرية وحدث بها<sup>(٥)</sup>، كتب على كتاب "التبئية" في الفقه شرحاً جليلاً استدل فيه بعدة أحاديث وخرجها، سماه "معتمد التبئية على أحاديث مسائل التبئية"<sup>(٦)</sup>، ومنهم المحدث تاج الدين علي بن أحمد بن الحسين الغرافي (ت ٧٠٤هـ/ ١٣٠٤م)، وهو من أشهر رجال هذه الأسرة، حدث فأكثر الحديث، وحمل عنه الحديث وحدث به عنه في حياته، كان فاضلاً عالماً محدثاً مكثراً مسنداً مفيداً، يرتزق بالوراقة، فإذا حصل قوته لا يتجاوز، درس بالمدرسة النبيهية وارتحل إليه طلاب الحديث، والعلم عامة للأخذ منه<sup>(٧)</sup>، ومن أفراد هذه الأسرة أيضاً عز الدين إبراهيم بن أحمد بن عبد المحسن عز الدين

(١) السخاوي: الضوء اللامع، ج ١٢، ص ١٠٠.

(٢) الأدفوي: الطالع السعيد، ص ٧٤؛ البلوي: تاج المفرق، ج ١، ص ٢١٠.

(٣) ياقوت: معجم البلدان، ج ٦، ص ٢٧٣.

(٤) العيني: عقد الجمان، ص ٣٦، ٣٧.

(٥) ابن العمادية: ذيل تكملة الإكمال، ج ٢، ص ٤٩٣.

(٦) الصفدي: الرافعي بالوفيات، ج ٧، ص ١٤٢؛ العيني: عقد الجمان، ص ٣٦، ٣٧؛ المقرئزي:

المقفي الكبير، ج ١، ص ٥٠٩.

(٧) اليافعي: مرآة الجنان، ج ٤، ص ٢٣٩؛ العامري: غريال الزمان، ص ٥٧٨.

الأسرة أيضا عز الدين إبراهيم بن أحمد بن عبد المحسن عز الدين العلوي  
الغرافي الاسكندري الشافعي (ت ٧٢٨هـ/ ١٣٢٧م)، ولد بالإسكندرية، وهو أخو  
تاج الدين يصغره بعشر سنين، سمع بدمشق وحلب، وهو ابن بضع وعشرين سنة،  
وصف بأنه زاهد، وولي بعد أخيه مشيخة دار الحديث النبيهية<sup>(١)</sup>.

### أسرة منصور بن سليم:

من الأسر المعروفة بالثغر، اشتهرت باسم المحدث وجيه الدين أبي المظفر  
الهمداني منصور بن سليم بن فتوح الملقب بابن العمادية (ت ٦٧٧هـ/ ١٢٧٨م)،  
قال عن نفسه إنه: (سمع الحديث بالإسكندرية وبمصر ودمشق وحلب والموصل  
والعراق ومكة، ومولده بالإسكندرية سنة سبع وستمائة)<sup>(٢)</sup>، ووصفه اليونيني بأنه:  
(الفتية العالم المحدث الفاضل)<sup>(٣)</sup>، ووصفه الذهبي بأنه الإمام المحدث الذي لم  
يخلف بعده مثله<sup>(٤)</sup>، ولد بالإسكندرية وسمع من جماعة وحدث ودرس بها، وجمع  
وصنف وخرج وحدث، وكان حافظا صالحا حسن الطريقة جميل السيرة، محسنا  
إلى من يرد إليه من الطلبة، حسن الأخلاق لين الجانب<sup>(٥)</sup>، وقد ولي ابن العمادية  
الاحتساب بثغر الإسكندرية<sup>(٦)</sup>، وقد ذكر الذهبي جملة ممن أخذ عنهم الحديث من  
شيوخه وجملة من تلاميذه<sup>(٧)</sup>، ورحل إلى بغداد وأقام بها مدة حيث درس على يديه  
عدد من علماء النظامية وعدد من علماء بغداد بلغوا ٧٦ عالما و ٢٦ عالمة،

(١) الصندي: أعيان العصر، ج ١، ص ٤٩ - ٥٠؛ الوافي بالوفيات، ج ٥، ص ٣١٢؛ ابن حجر:  
الدرر الكامنة، ج ١، ص ١٠؛ ابن تغري بردي: المنهل، ج ١، ص ٤٠ - ٤١، ج ٦، ص ٨٠؛ ابن  
العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٦، ص ٨٠.

(٢) ابن العمادية: ذيل تكملة الإكمال، ج ١، ص ٣٤٨، وقد حدد الياضي مولده بأنه في الثامن من  
صفر بالإسكندرية، انظر: الياضي، حسن بن إبراهيم: جامع التواريخ المصرية، لوحة ٢١٦،  
حوادث سنة ٦٧٣هـ.

(٣) اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج ٣، ص ١٠٣.

(٤) الذهبي: تاريخ الإسلام، حوادث الفترة، ص ١٤١، ١٤٢.

(٥) المقرئ: شذرات الذهب، ج ٦، ص ٢٧.

(٦) الياضي: جامع التواريخ المصرية، لوحة ٢١٦، حوادث سنة ٦٧٣هـ.

(٧) الذهبي: تاريخ الإسلام، حوادث الفترة، ص ١٤٢.

وتصدر كذلك التدريس بالمدرسة المستنصرية بها، ورحل إلى طلب العلم في أقطار عدة منها حماة والموصل ودمشق وحلب وحران، ومكة<sup>(١)</sup> صنف المعجم والأربعين البلدانية وتاريخ الإسكندرية، وله ذيل على ابن نقطة فيما نيله على كتاب الأمير ابن ماكولا<sup>(٢)</sup>، وقد توفي في ليلة الحادي والعشرين من شوال سنة ٦٧٣هـ بالإسكندرية<sup>(٣)</sup>، وممن برز من أسرته أخته لأمه المحدثه وجيهة بنت علي بن يحيى بن سلطان الأنصارية الصعيدية ثم الإسكندرية (ت ٥٧٣٢هـ/ ١٣٣١م)، سمعت الحديث من جماعة من العلماء، ووصفت بأنها سمعت كثيراً، وأجاز لها جماعة، وخرج لها بعض أهل الحديث مشيخة، وسمع منها الذهبي وغيره<sup>(٤)</sup>، وأما والد وجيهة فهو أبو الحسن علي بن يحيى بن علي بن سلطان الصعيدى الإسكندراني المؤدب، كان محدثاً سمع منه الذهبي الكثير من المرويات، توفي بعد سنة (٦٧٨هـ/ ١٢٧٩م)<sup>(٥)</sup>، ومن أفراد هذه الأسرة عبد الرحمن بن سليم بن منصور الهمداني ابن العمادية الشافعي (ت ٦٩١هـ/ ١٢٩١م) أخو وجيه الدين، وأحد أعيان الإسكندرية، سمع من ابن رواج والصفراوي والهمداني وسبط السلفي<sup>(٦)</sup>، كما اشتهر من هذه الأسرة أبو القاسم الهواري، أخو وجيه الدين لأمه كان من محدثي الثغر، وسمع منه الذهبي<sup>(٧)</sup>.

#### أسرة ابن رشيق:

من علمائها علم الدين محمد بن الحسين بن عتيق بن رشيق الربيعي

- (١) الذهبي: تذكرة الحفاظ، ج ٤، ص ١٤٦٧؛ ناجي معروف: تاريخ علماء المستنصرية، ج ١، ص ١٧٢، ١٧٥.
- (٢) اليونيني: الذيل، ج ٣، ص ١٠٣؛ ناجي معروف: تاريخ علماء المستنصرية، ج ١، ص ١٧٢، وقد طبع هذا الذيل بمركز البحث العلمي بجامعة أم القرى باسم (ذيل تكملة الإكمال).
- (٣) الليانعي: جامع التواريخ المصرية، لوحة ٢١٦، حوادث سنة ٦٧٣هـ.
- (٤) الذهبي: تذكرة الحفاظ، ج ٤، ص ١٤٦٧؛ الشوكاني: البدر الطالع، ج ٢، ص ٣٢٥.
- (٥) الذهبي: تاريخ الإسلام، حوادث الفترة، ص ٣٠٨؛ ابن الجزري: غاية النهاية، ج ١، ص ٥٨٤.
- (٦) ابن القاضي: درة الحجال، ج ٣، ص ٧٧.
- (٧) الذهبي: تذكرة الحفاظ، ج ٤، ص ١٤٦٧.



المالكي (ت ٦٨٠هـ/ ١٢٨١م)، كان من فضلاء الثغر وعلمائه، تولى قضاء الثغر وحسنت سيرته<sup>(١)</sup>، وصفه ابن فرحون بأنه: (كان من سادات المشايخ، جمع بين العلم والعمل والورع والتقوى)<sup>(٢)</sup>، وهو والد الفقيه زين الدين أبي القاسم محمد بن محمد بن عتيق بن رشيق المالكي الإسكندري (ت ٧٢٠هـ/ ١٣٢٠م)، كان من علماء الإسكندرية المشهورين بغزارة العلم، برع في الفقه وقرض الشعر، تولى قضاء الإسكندرية مدة ١٢ سنة، عرض عليه قضاء الشام فامتنع<sup>(٣)</sup>.

#### أسرة آل ابن حجر:

فمنهم: عثمان بن محمد بن علي بن أحمد بن محمود الكناني العسقلاني<sup>(٤)</sup> (ت ٧١٤هـ/ ١٣١٤م)، اشتهر بابن حجر وابن البراز، سكن الإسكندرية، وانتهت إليه رئاسة الافتاء في المذهب الشافعي، وتفقه به جماعة، ومن أسرته ناصر الدين أحمد الفقيه، وهو عم ابن حجر العسقلاني صاحب فتح الباري (ت ٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م)<sup>(٥)</sup>.

#### أسرة ابن خير السكندري

من علماء هذه الأسرة البارزين جمال الدين عبد الرحمن بن محمد بن خير الأنصاري الإسكندراني المالكي (ت ٧٩١هـ/ ١٣٨٩م)، تولى نيابة الحكم والقضاء بالإسكندرية، برع في المذهب المالكي وتصدر لتدريسه للطبقة، ندب لتولية القضاء بالقاهرة فباشره بعفة ونزاهة<sup>(٦)</sup>، ومنهم ابنه ولي الدين أحمد بن عبد

(١) السيوطي: حسن المحاضرة، ج ١، ص ٤٥٨؛ ابن القاضي: درة الحجال، ج ١، ص ٤٧.

(٢) ابن فرحون: الديباج، ج ٢، ص ٣٢٢.

(٣) المقرئ: السلك، ج ٢، ق ١، ص ٢١٣؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج ١، ص ٤٥٨.

(٤) نسبة إلى عسقلان: وهي مدينة بفلسطين، يقال لها عروس الشام، نزلها جماعة من الصحابة، ولم تزل عامرة حتى استولى عليها الإفرنج، فحررها صلاح الدين، وخربها لئلا يستخدمها الفرنج ضد المسلمين، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٦، ص ١٧٤؛ الحميري: الروض المعطار، ص ٤٢٠.

(٥) ابن حجر: الدرر الكامنة، ج ٣، ص ٦٤.

(٦) ابن حجر: رفع الأصر، ج ٢، ص ٢٤١؛ ابن تغري بردي: الدليل الشافي، ج ١، ص ٤٠٦؛

السيوطي: حسن المحاضرة، ج ٢، ص ١٨٨.

الرحمن بن محمد بن خير الإسكندراني المالكي (ت ٧٩٣هـ/ ١٣٩١م)، برع في  
الفقه، وقام بتدريسه للطلبة، وانتفع به خلق كثير، انتقل إلى القاهرة وتصدر  
للتدريس في كثير من مدارسها<sup>(١)</sup>.

#### أسرة ابن البوري:

ومن علمائها جمال الدين محمد بن أحمد بن هبة الله الأموي الإسكندري  
المعروف بابن البوري، كان من فقهاء الثغر المشهورين (ت ٧٦٧هـ/ ١٣٦٥م)  
بالإسكندرية<sup>(٢)</sup> وقد نبغ من أفراد هذه الأسرة ابن أخيه محمد بن علي بن أحمد بن  
هبة الله الأموي المعروف أيضاً بابن البوري (ت ٨٠٢هـ/ ١٣٩٩م)، درس علم  
الحديث على علماء عصره، فبرع فيه وتصدر له<sup>(٣)</sup>.

#### أسرة الشمني:

تعود جذورها إلى (شمنة)، مزرعة بقسنطينة من بلاد المغرب، ولد بها  
عالمنا كمال الدين محمد بن حسن بن محمد بن خلف الله الشمني، ثم رحل إلى  
الإسكندرية واستوطنها وسمع بها الحديث من عدد كبير من علمائها، ثم تصدر  
لتدريسه على الطلبة، صنف فيه مؤلفات مفيدة، توفي سنة (٨٢١هـ/ ١٤١٨م)<sup>(٤)</sup>  
وقد خلفه في العلم ابنه تقي الدين أبو العباس أحمد بن كمال الدين محمد الشمني  
الحنفي الإسكندري (ت ٨٦٨هـ/ ١٤٦٣م)، كان من أئمة علماء الفقه والحديث  
بالثغر، برع في الفقه والتفسير، صنف الكثير في علوم شتى<sup>(٥)</sup>.

(١) ابن حجر: الدرر الكامنة، ج ١، ص ١٦٨.

(٢) ابن حجر: الدرر الكامنة، ج ٣، ص ٣٧١.

(٣) المقرئزي: المقفى الكبير، ج ٦، ص ٢٥٤؛ ابن حجر: الدرر الكامنة، ج ٣، ص ٤٠٤؛ السخاوي:

الضوء اللامع، ج ٨، ص ١٦٧.

(٤) الصيرفي: نزهة النفوس، ج ٢، ص ٤٣١.

(٥) السيوطي: حسن المحاضرة، ج ١، ص ٤٧٤ — ٤٧٥؛ السخاوي: الذيل على رفع الأصر،

ص ٢٠٦.

## موارد الإنفاق على التعليم

تباينت موارد الإنفاق على التعليم خلال العصر المملوكي ما بين وقف أو هبة أو صدقة، أو إنفاق من جهة الدولة، إلا أن الوقف كان المصدر الرئيس لذلك وهذا واضح في بعض المدارس بمصر المملوكية التي خربت لتعطيل أوقافها، كما ذكره المقرئزي وغيره<sup>(١)</sup>، ويرى بعض الباحثين أنه بدون الأوقاف كان لا يمكن أن تقوم قائمة للدراسة في ذلك العصر، وأن ريع الأوقاف هو المصدر الأساس والوحيد لغالبية مدارس ومكاتب الأيتام في العصر المملوكي<sup>(٢)</sup>، ومن هنا كان الحديث لزاماً على الوقف والحبس في هذا العصر.

### ١- الأوقاف أو الأحباس

الوقف في اللغة هو الحبس، يقال: وقف يقف وقفاً، أي حبس يحبس حبساً<sup>(٣)</sup>، وفي الاصطلاح هو: تحبيس الأصل وتسييل الثمرة<sup>(٤)</sup>، أي التصرف في ريع العين وما تدره من مال مع بقاء العين ذاتها وجعل منفعتها لجهة من جهات البر، وهي بهذا تخرج عن ملك صاحبها وتسيل منفعتها بجعلها مبدولة على وجه القرية لله سبحانه وتعالى<sup>(٥)</sup>، والأصل في ذلك عموم قوله تعالى: {لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون}<sup>(٦)</sup>، وقوله صلى الله عليه وسلم: ((إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له))<sup>(٧)</sup>.

(١) كالمدرسة الخروبية ومدرسة إينال والمطى، انظر: المقرئزي: الخطط، ج ٢، ص ٣٦٨، ج ٢، ص ٤٠١.

(٢) محمد أمين: الأوقاف، ص ٢٤٠.

(٣) ابن منظور: لسان العرب، ج ٨، ص ٤٨٩٨.

(٤) ابن قدامة: المغني، ج ٨، ص ١٨٤.

(٥) عبد العزيز الداود: الوقف وشروطه وخصائصه، ص ١٠٧، مجلة أضواء الشريعة، كلية الشريعة، جامعة الإمام محمد بن سعود، العدد ١١، ١٤٠٠هـ.

(٦) آل عمران، آية، ٩٢.

(٧) مسلم: الجامع الصحيح، في كتاب الوصية، ج ٣، ص ١٢٥٥ (ح ١٦٣١).

وقد أجمع الجمهور من أهل العلم على جواز الوقف واستحبابه، وأنه مندوب مرغّب فيه<sup>(١)</sup>، وقد وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم ووقف أصحابه المساجد

والأرض والآبار والحدائق والخيول، فعن أنس رضي الله عنه قال: لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وأمر ببناء المسجد قال: ((يا بني النجار: ثامنوني بحائطكم هذا؟)) فقالوا: والله لا نطلب ثمنه إلا إلى الله تعالى، أي فأخذه فبناه مسجداً<sup>(٢)</sup>.

وأخرج البخاري أن عمر رضي الله عنه سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن ماله بخبير فقال له ((إن شئت حبست أصلها، وتصدقت بها))<sup>(٣)</sup>. أي يوقف أرضها ويجعل ثمرتها في وجوه البر من صلة و صدقة. والوقف بهذا ينقسم إلى قسمين:

١ - وقف أهلي وذري، وهو ما تكون منافعه للأولاد والأحفاد والذرية، ومن بعدهم إلى جهة خيرية.

٢ - وقف خيري، وهو ما تصرف نفقته على جهة بر ابتداء كمساجد ومدارس وغير ذلك<sup>(٤)</sup>.

ورغم أنه لا فرق بين الوقف والحبس: فالوقف والحبس اسمان لمسمى واحد، فالوقف لغة هو الحبس كما تقدم، والفقهاء يعبرون تارة عن الأوقاف بالأحباس وبالعكس، كما يترجم المحدثون أبواب كتبهم بذلك فيعقد الإمام النسائي

(١) أبو بكر الجزائري: منهاج المسلم، ص ٣٩٨.

(٢) البخاري: الجامع الصحيح، في كتاب الصلاة، ص ٩٢ (ح ٤٢٨)، وكتاب الحج، ص ٣٧٠ (ح ١٨٦٨)، وكتاب الوصايا، ص ٥٦٣، ٥٦٤ (ح ٢٧٧١، ٢٧٧٤، ٢٧٧٩)؛ وأخرجه مسلم: الجامع الصحيح، في كتاب المساجد، ج ١، ص ٣٧٣ (ح ٥٢٤).

(٣) البخاري: الجامع الصحيح، في كتاب الوصايا، ص ٥٦٣ (ح ٢٧٧٢)؛ مسلم: الجامع الصحيح، في كتاب الوصية، ج ٣، ص ١٢٥٥ (ح ١٦٣٢).

(٤) سيد سابق: فقه السنة، ج ٣، ص ٣٧٩؛ محمد أمين، الأوقاف، ص ٢٩.

في سننه كتابا عن (الأحباس)<sup>(١)</sup> ويذكر فيها نصوص الوقف، إلا أنه في العهد المملوكي ظهر فرق إداري بين الأوقاف والأحباس، فصار اسم الأوقاف يطلق على الأوقاف الخيرية على الحرمين وجهات البر، وكانت تحت إشراف قاضي القضاة، وكذلك تطلق على الأوقاف الأهلية، وتطلق ثالثا على الأحباس وهي (الرزق) التابعة لديوان الأحباس وهي الأراضي الزراعية التي يعطيها الخلفاء والملوك والسلاطين بمقتضى حجج شرعية أو تقاسيط ديوانية إلى بعض الناس<sup>(٢)</sup> ويصرف ريعها إلى مستحقيها ويتوارثها الخلف عن السلف، أو تتحل بانقراض المستحقين وتعود إلى الديوان الذي خرجت منه<sup>(٣)</sup>.

وأما الأوقاف الحكومية وهي الأوقاف الخيرية التي لا يدخل فيها وقف أهلي فكانت في الدولة المملوكية تحت إشراف قاضي القضاة مباشرة، وتصرف على الأشراف، الفقهاء والصوفية والفقراء والقراء والأسرى وابن السبيل والمريض والمجنون وتجهيز الموتى وأسوار الثغور وقناطر الطرقات وعمارة المساجد ومصالح المدارس والأربطة والخوانق<sup>(٤)</sup>، ومنذ عام (٧٨٥ هـ / ١٣٨١ م) أي في عهد السلطان برقوق أصبح السلطان يقوم بتعيين نظار الأوقاف بنفسه، وأما الأوقاف الأهلية فكان يقوم بنظارتها واقفها أيام حياته ثم الأرشد فالأرشد من أولاده، وتكون تحت نظر قاضي القضاة الشافعي في الأغلب<sup>(٥)</sup>.

وقد ازدهر الوقف ازدهارا كبيرا في العصر المملوكي، وقد يعزى ذلك لعدة أمور لعل من أهمها:

(١) النسائي: السنن، ج ٦، ص ٢٢٩-٢٣٧.

(٢) يذكر القلقشندي أن نظر الأحباس أصله أراضي اشتراها الإمام الليث بن سعد وأوقفها على جهات البر ثم تبعه الناس في إضافة الأوقاف حتى عهد الظاهر بيبرس، الذي أفرد للجوامع والمساجد والربط والزوايا ونحو ذلك رزقا وجعل له متحدثا وهو ناظر الأحباس، انظر:

القلقشندي: سبج الأعشى، ج ١١، ص ٢٥٢، ٢٥٣.

(٣) محمد أمين: الأوقاف، ص ١٠٨-١٠٩.

(٤) محمد أمين: الأوقاف، ص ١١٣.

(٥) محمد أمين: الأوقاف، ص ١١٦.

رغبة الدولة في نشر المدارس السننية لمنع أي اتجاه في تنشيط الاتجاهات الشيعية بعد أفول نجم الفاطميين الشيعة، ولا شك أن هذه المدارس تحتاج إلى أموال كثيرة في جهات صرفها من مرتبات للناظر والمدرسين والطلاب ونحو ذلك، فقام الوقف بسد هذه الحاجة، وصار السلاطين والأمراء وغيرهم يوقفون الأراضي الزراعية والدور والحوانيت والخانات والحمامات والمجازر والمعاصر وغير ذلك (١).

ما ذكره بعض الباحثين أن من أسباب انتشار الوقف هو حفظ الأموال من المصادر التي كثرت في عهد المماليك لمن تغضب عليه الدولة، فيصادر السلطان الجديد رجال السلطان الراحل وحاشيته، فوجد سلاطين المماليك ورجال دولتهم في نظام الوقف حماية لأموالهم وتأمين أموالهم من المصادر، وحتى في بعض الحالات التي حاول فيها السلاطين التسلط على الوقف، ويتركون منه ما يكفي للقيام بالشعائر الدينية، ويستولون على الفائض، وجدوا معارضة شديدة من بعض القضاة والفقهاء (٢).

وإن كان في اعتقادنا أن هناك بعض الحوادث الفردية التي تدل على أن هناك من لجأ للوقف حماية لماله، أما أن يكون هذا شعوراً عاماً لدى أصحاب الوقف سواء من المماليك أو غيرهم ففيه نظر، وعلى فرض صحته، فإنه يعكس صورة أخرى وهي مدى خوف سلاطين وأمراء المماليك من القضاة والفقهاء، أو بمعنى آخر مدى قوة السلطة القضائية التي تجعل السلاطين أو الأمراء يخافون من تغيير الوقف حتى لا يحدث مصادمة ظاهرة للشريعة (٣)، في حين لا يبالون بمصادرة الأموال أو الممتلكات الغير موقوفة.

(١) انظر وقفية السلطان الناصر محمد بن قلاوون على خانقاة سرياقوس، ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج ٢، ص ٤٢٨.

(٢) محمد أمين: الأوقاف ص ٧٢، ٨٢، ٩١.

(٣) وهناك أمثلة كثيرة من معارضة الفقهاء للسلاطين ذكر بعضها محمد أمين في كتابه الأوقاف، ص ٣٦٩، وما بعدها، ومن أطرفها أن القاضي سراج الدين الهندي أغلظ على ألجاي يوسف ناظر الأوقاف لما استكثر معلوم التدريس وذكر أنه يأخذه لحفظ بلاد المسلمين فقال القاضي قاضي القضاة له (ومن علمكم الجهاد إلا الفقهاء فسكت)، بل نستطيع أن نقول إنه

إعفاء الأوقاف من الضرائب<sup>(١)</sup>، ولا أظن أن هذا عاملاً كبيراً، فليست  
الضرائب المفروضة في زمن المماليك باهظة جداً حتى يلجأ من يلجأ إلى الوقف  
ويكون هذا دافعاً وحيداً لذلك.

وقد سار سلاطين المماليك على نهج الأيوبيين بالاستمرار في دعم الحركة  
العلمية بالموارد المانية من خلال الأوقاف، لذا أوقفوا الأوقاف الكثيرة على الثغر  
سواء على الأربطة والخانقاة أو المدارس أو من خلال المساعدات المادية  
والعينية لطلاب العلم به، فعلى سبيل المثال كان الخليفة المستعين بالله والذي سكن  
الإسكندرية وتوفي بها كثير الخير والإحسان<sup>(٢)</sup>، أيضاً قام السلطان قايتباي بإنشاء  
مدرسة بالثغر وأوقف عليها ما يكفيها من نفقات للمدرسين والطلبة والمتصوفة  
والأيتام والله إل<sup>(٣)</sup>، كذلك أنشأ قايتباي (سنة ٨٨٤ هـ / ١٤٧٩ م) القلعة أو البرج  
بالإسكندرية حتى لا تطرق الفرنج الثغر على حين غفلة، وجعل به جماعة من  
المجاهدين قاطنين به، وأجرى عليهم الرواتب في كل شهر، وأوقف عليه الأوقاف

---

القاضي قاضي القضاة له (ومن علمكم الجهاد إلا الفقهاء فسكت)، بل نستطيع أن نقول إنه كان  
هناك الكثير من السلاطين من يتورع عن أخذ مال الأوقاف بدليل أن السلطان طومان باي  
حين منى جيشه بالهزيمة على أيدي سليم العثماني طلب من ممالিকে الخروج للأخذ بالثأر  
فرفضوا إلا إذا دفع لهم نفقة، وحسنوا له الأخذ من الأملاك والأوقاف والرزق والإقطاعات  
ليستعين بها على النفقة ومحاربة الجيش العثماني، لكن قايتباي لم يوافق وقال: ما أحدث في  
أيامي هذه المظلمة أبداً، فشكره الناس على ذلك ودعوا له. انظر في ذلك: ابن إياس: بدائع  
الزهور، ج ٥، ص ١٢٧.

(١) محمد أمين: الأوقاف، ص ٩١.

(٢) الصيرفي: نزهة النفوس، ج ٣، ص ٢٠٩.

(٣) ابن إياس: بدائع الزهور، ج ٣، ص ٣٢٩؛ لقد قام السلطان قايتباي بإنشاء المدارس بمصر  
والقدس ودمشق، وبمكة، ولما كانت المعلومات التي بين أيدينا والتي تخص مدرسته بالإسكندرية  
ليس فيها سوى الاسم فقد، فقد استعنا بما كتبه الحارثي في رسالته عن مدرسة قايتباي بمكة،  
باعتبار أن منشئ تلك المدارس شخص واحد، وأن نظم التعليم كانت واحدة في ذلك الزمان،  
انظر: عدنان الحارثي: عمارة المدرسة في مصر والشام، رسالة دكتوراه بجامعة أم القرى،  
ج ١، ص ٢٢٥ - ٢٧٣.

الجليلة<sup>(١)</sup>، ومما هو جدير بالذكر أن القلعة تحتوي بداخلها مسجدا له إمام وخطيب ومؤذن وخادم وغير ذلك، وهؤلاء لا بد وأن لهم رواتب شهرية تصرف عليهم غير الهبات العينية والتي انتشرت كثيراً في هذا العصر والتي تتضمن الخبز واللحم وغير ذلك<sup>(٢)</sup>.

كذلك قام السلطان قايتباي سنة (٨٧٩هـ/١٤٧٤م) ببيع قطعة أرض من أملاك بيت المال بظاهر الثغر السكندري تجاه باب رشيد للأمير قجماس الإسحاقي نائب الثغر لينفق ثمنها على المجاهدين والمرابطين بالثغر<sup>(٣)</sup>، ومما هو جدير بالذكر أن الأمير قجماس الإسحاقي- نائب السلطان بالإسكندرية - قام بإنشاء رباط على بحر السلسلة ( أودع فيه الأسلحة والأقوات وما يلزم المرابطين فيه )<sup>(٤)</sup> وأوقف الأوقاف على هذا الرباط ومنشآته الأخرى وعلى نفسه وذريته بعض الأملاك<sup>(٥)</sup>، كذلك عُرف نائب الإسكندرية الأمير سيف الدين بكتمر، بأنه صاحب الأوقاف في بلدان شتى<sup>(٦)</sup>، وكذلك الحال بالنسبة لخليل ابن عرام الذي اشتهر خلال ولايته الإسكندرية بمساعدته لطلبة العلم والعلماء، خاصة في أوقات الأزمات التي تمر على الثغر كالجلاء أو القحط ونحوها، فقد أمد سكان الإسكندرية وخاصة العلماء والفقراء بأسمطة ممدودة في بعض سنين الجلاء كعام (٧٧٠هـ/١٣٦٨م) و عام (٧٧٥هـ/١٣٧٣م)<sup>(٧)</sup>، كما بنى الأمير يشبك بن مهدي الدوادر الكبير في طرف المدينة برجا في موقع مناسب يمكن من خلاله استخدام المدافع لضرب سفن العدو عند محاولتها مهاجمة المدينة، وقد أوقف الأمير يشبك على هذا البرج أراضيا كثيرة، وجعل من مصارف وقفه ما يصرف على أرباب الوظائف

(١) ابن اياس: بدائع الزهور ، ج٣، ص١٥٦، ٣٢٩؛ محمد أمين: الأوقاف، ص ٢٢٥.

(٢) السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الإسكندرية، ص ٤٦٥؛ محمد أمين: الأوقاف، ص ١٨١.

(٣) محمد أمين: وثائق من عصر سلاطين المماليك، ص ٣٩٧.

(٤) السخاوي: الضوء اللامع، ج٦، ص ٢١٢؛ محمد أمين: الأوقاف، ص ٢٢٦.

(٥) محمد أمين: الأوقاف، ص ٢٢٦.

(٦) ابن كثير: البداية والنهاية، ج٧، ق١٤، ص ١٢٠.

(٧) النويري السكندري: الإمام، ج٦، ص ٣٧٦ - ٣٧٧.



والمقاتلة والعدة التي ترصد للجهاد في سبيل الله تعالى كما جاء بوثيقة الوقف والتي حددت المرتب الخاص بكل فرد يعمل في هذا البرج<sup>(١)</sup>.

كما شارك كبار التجار ومحبو العلم السلاطين والأمراء بإنشاء العديد من المدارس بالثغر وأوقفوا عليها الأوقاف الكثيرة، كمدرسة ابن الكويك وابن حباسة والسراجية وابن الدماميني فقد ذكر الأدفوي أنه أوقف عليها أوقافا كثيرة<sup>(٢)</sup>

ولقد تعددت مصارف الوقف في العهد المملوكي، ويهمننا هنا ما يصرف على الحركة العلمية في الإسكندرية، حيث كانت مصروفات الوقف تقسم إلى عمارة المساجد والمدارس والأربطة وما يلحق بها من مساكن وغيرها، وإلى أجور العاملين بالمساجد والمدارس والأربطة، من إداريين ومدرسين ومستخدمين بالإضافة إلى النفقات الاحتياطية للمدرسة أو الجامع أو الربط، أو ما ينفق في وجوه البر<sup>(٣)</sup>.

وكان الناظر للوقف هو المسؤول الأول عن الإشراف على هذه المباني وموظفيها، وعمارة أوقافها، وإجاراتها وقبض أثمانها وصرفها وفق شرط الواقف ويحدد له بموجب ذلك أجر سنوي تحدده الوقفية<sup>(٤)</sup>، وقد كان الناظر منذ القرن

(١) النويري السكندري: الإمام، ج ٦، ص ٣٧٧.

(٢) الأدفوي: الطالع السعيد، ص ٣٥٥ - ٣٦٠، ولمزيد من التفاصيل عن هذه المدارس انظر الفصل الثالث فيما يلي، ص ٢٩٢ وما بعدها.

(٣) انظر وقفيات السلطان الناصر حسن، ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج ٣، ٣١٤؛ محمد أمين: الأوقاف، ص ١٨٤، ٢٥٣.

(٤) جاء في وقفية السلطان حسن أجر الناظر بنحو (١٠٠٠ درهم) نقرة، ابن حبيب: التذكرة، ج ٣، ص ٢٦٤، والدرهم النقرة كان على عهد السلطان الظاهر بيبرس، وكان عياره الثلثان من فضه والثلث من النحاس، القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٣، ص ٦٤٢، ٦٤٣، ثم ظهر في عهد الناصر حسن سنة ٧٥٩هـ، الفلوس الجدد وكانت من النحاس الأحمر، وفي عهد المؤيد شيخ ظهرت الدراهم الفضة المؤيدية، وكانت عبارة عن مسكوكات صغيرة الوزن من الفضة أرباع وأنصاف، المقريري: السلوك، ج ٤، ق ١، ص ٣٠٧؛ محمد أمين: ص ٢٩٧. ولقد اعتمدنا في مبحثنا هذا على وقفيات كانت الأجور فيها بالدرهم النقرة حتى لا يحدث لبس، واضعينا في الاعتبار أن هذه الأجور تختلف من عصر لآخر ومن مكان لغيره.

الثالث الهجري من القضاة المالكية واستمر هذا الأمر حتى عهد السلطان برقوق حيث عين على الثغر ناظراً حنفياً وهو همام بن عبد الواحد السيواسي<sup>(١)</sup>، وممن تولى نظر الأوقاف بالإسكندرية القاضي ناصر الدين ابن المنير<sup>(٢)</sup>

أما المدرس فتختلف جامعيته أو راتبه والمخصصات التي يأخذها على حسب علمه الذي يقوم بتدريسه من فقه، أو قرآن أو حديث أو نحو إلى غير ذلك<sup>(٣)</sup>، هذا بخلاف ما يكون من مزايا عينية وهبات سنوية في المناسبات كرمضان<sup>(٤)</sup>، وكان يقرر للمعيد عادة نحو ثلث ما يقرر للمدرس<sup>(٥)</sup>، أما الطلبة فيختلف عددهم من مدرسة لأخرى، كما يختلف ما يكفون به من مهام، فقد كانت المدارس تكلف طلبة لقراءة القرآن أو الحديث في أوقات معينة، ويقرر لهم عادة نحو نصف ما يتقاضاه المعيد<sup>(٦)</sup>، وسائر الطلبة يتقاضون نحو من نصف ما يقرر للطلبة المكلفين<sup>(٧)</sup>، كما أن هناك من جملة الطلاب من يكف بمهمة (النقيب) الذي يضبط غياب الطلاب ويزيد ما يأخذه عن سائر الطلاب المكلفين بنحو العشر إلى

(١) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ٦٣؛ الصيرفي: نزهة النفوس، ج ١، ص ١٢١؛ المقريزي: السلوك، ج ٣، ق ٢، ص ٥٣٦.

(٢) الداوودي: طبقات المفسرين، ج ١، ص ٨٨ — ٨٩.

(٣) فعلى سبيل المثال حددت وقفية السلطان الناصر حسن والأمير صرغتمش مبلغ ثلاثمائة درهم نقرة شهرياً لكل مدرس من مدرسي الفقه أو الحديث أو التفسير، و ١٥٠ درهماً شهرياً لمدرس القراءات. ابن حبيب: التذكرة، ج ٣، ص ٣٦٠، سامح عبد الرحمن: القيم النقدية، ص ١٥٧، ١٥٨.

(٤) ابن حبيب: التذكرة، ج ٣، ٣٦١.

(٥) حددت له وثيقة السلطان حسن ووثيقة صرغتمش مائة درهم نقرة شهرياً، ابن حبيب: التذكرة، ج ٣، ص ٣٥٧. سامح عبد الرحمن: القيم النقدية، ص ١٦١.

(٦) فقد حدد له ٥٥ نقرة شهرياً، سامح عبد الرحمن: القيم النقدية، ١٦٤.

(٧) سامح عبد الرحمن: القيم النقدية، ١٦٥، وقد حدد لهم في وثيقة السلطان حسن لطلاب التفسير عشرون درهماً نقرة، ولطلاب الحديث نحو ذلك، وللطلاب المبتدئين في الفقه ثلاثون، ويزيد معلوم طلاب الفقه حسب ازدياد معرفتهم.

الخمس<sup>(١)</sup>، وأما خازن الكتب فقد كان يصرف له على نحو ما يصرف للطلبة المكلفين أو للمعيد<sup>(٢)</sup>، وأما خادم المدرسة القائم على شؤون تنظيفها ونحو ذلك فمخصصه الشهري ما بين ما يأخذ المكلف من الطلبة وما يأخذه المعيد<sup>(٣)</sup>.

كما خص قراء القرآن والحديث ببعض هذه الوقفيات<sup>(٤)</sup> ومن ذلك المدرسة التي أنشأها عثمان بن الظاهر جقمق في الإسكندرية ظاهر باب البحر ودفن أمه في قبة بها ورتب عندها قراء ليالي الجمع وإسماع الحديث في أيامها سوى قراءة في كل يوم<sup>(٥)</sup>.

كذلك حوت بعض المدارس على مدرس للطب ويستحق نصف ما يأخذه مدرسو الفقه أو التفسير أو الحديث، أما مدرسو أصول الفقه واللغة العربية والمواقيت وعلم الهيئة، فيستحق كل منهم ثلث مما يتقاضاه مدرس الفقه<sup>(٦)</sup>.

كما أشارت وثائق الوقف الصرف على الكتابيب الخاصة بالأيتام، فكان المؤدب يتقاضى نحواً مما يتقاضاه طلبة المدارس<sup>(٧)</sup>، وكان يختار من هؤلاء الطلبة عدد معين لتعليمهم القرآن والخط العربي ويصرف لكل منهم مبلغ معين شهرياً قد يصل إلى ضعف ما يتقاضاه طلاب المدارس أحياناً<sup>(٨)</sup>، كما يصرف لهم

---

(١) في وثيقة صرغتمش أنه يأخذ ٥ إلى ١٠ دراهم عن ما يأخذه الطلاب المكلفون. سامح عبد الرحمن، السابق، ص ١٦٨.

(٢) أي ما بين ٥٠ - ١٠٠ درهم نقرة شهرياً، كما في وثيقة صرغتمش والسلطان حسن السابق، ص ١٨١.

(٣) إلى ما بين ٥٠ - ١٠٠ درهم نقرة، حسب ما جاء في المصدر السابق، ص ٢٠٨، ٢٠٩.

(٤) حددت وثيقة الناصر حسن ما يصرف لهم ما بين ٤٠ إلى ٥٠ درهم نقره، ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج ٣، ٣٦٠، ٣٦٢.

(٥) السخاوي: الضوء اللامع، ج ١٢، ص ٣٨، والذي لا شك فيه أن هذه الظاهرة واحدة من البدع التي انتشرت في المجتمع المملوكي آنذاك، ولا تزال آثارها قائمة حتى اليوم.

(٦) محمد أمين: الأوقاف، ص ٣٦١ - ٣٦٤.

(٧) سامح عبد الرحمن: القيم النقدية، ص ١٨٨.

(٨) ويرجع السبب في ذلك إلى كون الأيتام ليس لهم من يصرف عليهم بعكس طلاب المدارس الذين لهم ذويهم أو أملاكهم.

عند ختم القرآن نحو من ضعف الراتب الشهري<sup>(١)</sup>، وكان لهؤلاء الأيتام عريف ينال نصيباً من هذه الوقفيات<sup>(٢)</sup>، كما أشارت هذه الوثائق إلى أنه كان يصرف لهم في أول شهر رجب، وفي النصف من شعبان، وفي عيدي الفطر والأضحى من البندق والكعك والتمر وغير ذلك<sup>(٣)</sup>، مما يدل على أن الوقفية كانت تراعى سن المتعلم ولا تحرمه مما يحتاجه.

وربما كان من مخصصات الوقف رسم الضيافة، فقد ذكر البلوي في رحلته أنه لما نزل بالمدرسة السراجية وأنه كان يطعم بها كل شيء، ولم ينقصه حتى الخن والزيت<sup>(٤)</sup>، كما ذكر العبدري أنه لما نزل بمدرسة الغرافي نال من بره وتأنيسه ما جعله يدعو الله أن يكافئه به<sup>(٥)</sup>.

كما شملت هذه الوقفيات مخصصات للقائمين على الوظائف الدينية بالمساجد كالإمام والذي كان يسكن بملحق بالمسجد<sup>(٦)</sup>، والخطيب والذي خصص له بالمسجد خلوة لإعداد الخطبة<sup>(٧)</sup>، والمؤذن والذي كانت وظيفته مرتبطة بكل مسجد، وإن كانت بعض المساجد الكبرى رتبت عدداً أكبر من المؤننين<sup>(٨)</sup>، كما كان بالمساجد مقررات لمجمر المبخرة والوقاد الذي يقوم بإيقاد الشموع<sup>(٩)</sup>،

(١) سامح عبد الرحمن: القيم النقدية، ١٨٨ - ١٨٩.

(٢) كان نصيبه لا يتجاوز ٤٠ نقرة، انظر وقفية السلطان الناصر حسن، ابن حبيب: التذكرة، ج ٣، ص ٣٦٤.

(٣) سامح عبد الرحمن: السابق، ص ١٨٩.

(٤) البلوي: تاج المفرق، ج ٢، ص ٦٨.

(٥) العبدري: الرحلة، ص ٢٣٥.

(٦) كان يتقاضى حوالي ١٠٠ نقرة شهرياً، انظر: وثيقة السلطان حسن، ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج ٣، ص ٣٦١.

(٧) خصص له ثلاثمائة درهم نقرة شهرياً انظر: وثيقة وقف السلطان الناصر حسن، ابن حبيب: التذكرة، ج ٣، ص ٣٥٧.

(٨) خصص له ٤٠ درهم نقرة شهرياً، وثيقة وقف السلطان الناصر حسن، ابن حبيب: التذكرة، ج ٣، ص ٣٦٢، محمد أمين: الأوقاف، ص ١٩١.

(٩) ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج ٢، ص ٤١١.

والمزملائي أنذني يطوف بالماء لسقيا المدرسين وطلبة العلم<sup>(١)</sup>، بالإضافة إلى رواتب ومخصصات عينية للفراش والبواب والكحال والطبيب<sup>(٢)</sup>.

وممن اهتم بالأوقاف من علماء الثغر القاضي محمد بن علي بن عبد الوهاب المعروف بابن أبي الفرج (ت ٦٦٤هـ/١٢٦٥م)، فقد جاء في ترجمته أنه وأهله كانوا مهتمين بالآثار الجميلة والأوقاف وأوجه الخير<sup>(٣)</sup>.

كذلك خضر بن أبي بكر والذي بنى بالثغر المدرسة الخضراء وأوقف عليها أموالاً وأوقافاً كثيرة<sup>(٤)</sup>.

### — الهبات والصدقات:

لقد تنافس علماء الإسكندرية في توزيع الهبات والعطايا على طلبتهم وخاصة في المناسبات كشهر رمضان، فقد كان الشيخ المحدث معين الدين أبو عبد الله محمد بن جمال الدين الشافعي غاية في الجود والكرم لطلبة العلم خاصة الوافدين على الإسكندرية فمنهم البلوي أحد أولئك الطلبة الذين عاشوا من أعطيات هذا الشيخ الجليل والذي ضاعفها في شهر رمضان<sup>(٥)</sup>، وإلى جانب ذلك تكفل بعض علماء الإسكندرية بنفقات طلبتهم طوال مدة إقامتهم بالإسكندرية، كما فعل

(١) النبراوي: أسعار السلع الغذائية، ص ٥٠٥.

(٢) كانت مهمة الفرش تنحصر في كنس وتنظيف المنشأة التعليمية، وبيوت الطلبة، ويصرف له في كل شهر خمسة وعشرون درهماً نقرة، أما البواب فكانت مهمته هي حراسة المكان والقيام على فتحه وإغلاقه، وتصرف له كل شهر عشرة دراهم نقرة، أما الكحال وهو المتخصص في معالجة أمراض العيون والطبيب المعالج للأمراض الباطنية فكانت مخصصاتهم الشهرية لا تتجاوز خمسة عشر درهماً نقرة، انظر: النبراوي: أسعار السلع الغذائية، ص ٥٠٥ - ٥٠٨. كما لا يفوتنا هنا أن نذكر المخصصات العينية التي كانت تصرف إما شهرياً أو سنوياً أو في المناسبات الدينية للقائمين على هذه المنشآت والتي تنوعت ما بين مواد غذائية كالخبز البر والدقيق والحبوب والأرز، واللحم الضأن، والحلوى، والفواكه، والعسل، والسكر، .. الخ، أو ملابس والتي تنوعت هي الأخرى ما بين قميص وطاقيّة ومداس .. الخ، انظر وثيقة وقف السلطان حسن ابن قلاوون، ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج ٣، ص ٤١٧.

(٣) اليونيني: الذيل، ج ٢، ص ٣٠٤؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، حوادث الفترة، ص ١١١ - ١١٢.

(٤) ابن كثير: البداية، ج ٧، ص ١٣، ص ٢٨٠.

(٥) البلوي: تاج المفرق، ج ٢، ص ٤٤ - ٤٥.

علماء الإسكندرية بنفقات طلبتهم طوال مدة إقامتهم بالإسكندرية، كما فعل قاضي  
قضاة الإسكندرية محي الدين أبو عبد الله محمد الشافعي مع البلوي حين أنشده  
الأخير قصيدة مدحه فيه فاستحسنها وأعجب بها<sup>(١)</sup>، وأمر له بنفقة عن كل يوم مدة  
إقامته بالإسكندرية<sup>(٢)</sup>.

كذلك كان لمحمد بن محمد بن الكويك معروف وصدقات وبر بالإضافة  
للمدرسة التي أوقفها بالثغر<sup>(٣)</sup>، أيضا يذكر النويري أن محمد بن سلام صاحب  
رباط ابن سلام، والذي أوقف رباط قاعة القرافة وما بها من سلاح للمرابطين،  
كانت له مبيعات جارية وأموال يفرقها على أهل الصلاح والمساكين<sup>(٤)</sup>، بل وجد  
بالثغر أسر علمية توارثت استضافة الوافدين من طلبة العلم على الثغر والتكفل بهم  
طيلة وجودهم بالمدينة أمثال أسرة الدماميني، نزل بها الكثير من علماء عصرها  
البارزين، فقد نزل على نجم الدين عمر بن سليمان الدماميني بعض الفضلاء، فلما  
ارتحل كتب على بابه:

نزلت بدار نجمٍ فاق بدرأ أدام الله رفعتَه وجَاهَه  
فأعذبَ موردي وأطابَ نزلِي وأهدى لي رياسته وجَاهَه<sup>(٥)</sup>

كما استضاف تاج الدين عتيق الدماميني بمنزلة بمدينة الإسكندرية الأدفوي  
صاحب كتاب "الطالع السعيد"، وأحسن ضيافته وأكرمه وأهدى إليه<sup>(٦)</sup>.

(١) لعل استحسان قاضي القضاة لها كان من باب المجاملة، وحتى لا يكسر خاطره خاصة وهو  
غريب عن دياره منقطع عن أهله، وكذلك ليدفعه للزيادة من طلب العلم الذي رحل من أجله.

(٢) البلوي: تاج المفرق، ج ٢، ٨٩ - ٩٠.

(٣) الصفدي: أعيان العصر، ج ٥، ص ٣٥٢.

(٤) النويري السكندري: الإمام، ج ٢، ص ١٥٤.

(٥) الصفدي: أعيان العصر، ج ٣، ص ٦٥١، وراجع ص ٢١٧.

(٦) الأدفوي: الطالع السعيد، ص ٣٥٩ - ٣٦٠.

## الإتفاق الحكومي:

وعلى الرغم من أن نظم التعليم المختلفة كانت قائمة على الوقف إلا أنه وجد بالثغر السكندري نوع من الإتفاق الحكومي على العلم والتعلم، فقد جاء في وظيفة نظر الصادر وهي الخاصة بالقدر المقرر الذي يؤخذ من تجار الفرنج الواردين إلى الإسكندرية، وأن يصرف هذا المتحصل على صورة مرتبات لناس مخصوصين من أهل العلم والصلاح، ينفق عليهم جزء معلوم من متحصل هذه الجهة<sup>(١)</sup>.

والجدير بالذكر أن ضريبة الصادر كانت قد ألغيت في عهد الدولة الأيوبية حتى التقى صلاح الدين الأيوبي بالفقيه أبي الطاهر بن عوف بالإسكندرية فأشار عليه انفيقه بإعادة هذه الضريبة وأن يصرف متحصلها على فقهاء الثغر<sup>(٢)</sup>.

ولا شك أن ما يأخذه الفقهاء من هذا الصادر يعينهم على التفرغ لطلب العلم ولم يقتصر الإتفاق الحكومي بالإسكندرية على الأعطيات والهيئات التي كانت تتفق على العلماء والمتعلمين، بل تعدى ذلك إلى ترميم دور العلم والعبادة، ففي عام (٧٧٢هـ/١٣٧٠م) قام ناظر الثغر معين الدين محمد بن شهاب الدين بترميم الجامع الغربي وجدد بياضه، و نقش ذلك على رخامة علقها بالمسجد، كما قام أيضاً بترميم الجامع الشرقي عند سقوط أحد أعمدته بمعاونة القاضي كمال الدين<sup>(٣)</sup>.

(١) القاشندي: صبح الأعشى، ج ١١، ص ٤١٦.

(٢) الشيال: تاريخ مدينة الإسكندرية، ص ٧٧.

(٣) النويري السكندري: الإمام، ج ٤، ص ٤١.

## العلاقات العلمية بين الإسكندرية وبعض البلدان المجاورة

(مدن مصر الداخلية - الشام - الحجاز - المغرب - الأندلس).

ارتبطت الإسكندرية بعلاقات علمية متميزة مع سائر أقطار العالم الإسلامي. وقد كانت منذ نهاية العهد الفاطمي عامل جذب للعلماء مع وجود مدرستي الحديث والفقهاء بها، وعلى رأسها الحافظ السلفي والفقير أبو عوف بها ومن قبلهما الإمام الطرطوشي، فأخذت الرحلة طريقها إلى الإسكندرية، وحطت بها العلماء رحالهم بها، وزادت الرحلة ونبت العلم مع الاتجاه السنني المتزايد بالمدينة منذ الأيوبيين ومن بعدهم المماليك، الذين أكدوا سنية الدولة، وزادوا في الرعاية العلمية للثغر، وعلى الرغم من كون الإسكندرية المدينة الثانية بمصر الملوكية إلا أنها شكلت من الناحية العلمية دوراً ريادياً لتقدم اشتغالها بالعلوم الشرعية السنية قبل القاهرة المعزية<sup>(١)</sup>.

ولقد ارتبطت الإسكندرية علمياً بعلاقات كثيرة مع كافة مراكز العلم في العالم الإسلامي وقد اتخذت هذه العلاقات أشكالاً عدة، فمن العلماء من قدم الإسكندرية واستوطنها وتلقى فيها علومه أو درس بها، ومنهم من نزل بها فقرأ بها وسمع من محدثيها أو تفقه على يد فقهاءها، أو تلقى الأدب والنحو من علمائها ثم عاد إلى بلاده ناشراً ما حمله منها من علوم، وفي المقابل خرج من الإسكندرية عدد من رواد العلم جالوا في مدن وأقطار العالم الإسلامي لطلب العلم أو المساهمة في التعليم.

ولما كانت القاهرة هي مركز الإشعاع الحضاري والعلمي آنذاك، فمن الطبيعي أن تكون هي المحطة الأولى لطلبة العلم<sup>(٢)</sup>

(١) لقد بينا ذلك فيما تقدم من مباحث انظر، ص ٢٥-٢٦ .

(٢) إن العلاقات العلمية ما بين الأقطار عادة ما تكون قائمة على الأخذ والعطاء المتبادل لكي يتم الهدف من هذه العلاقة وهو انتقال العلم والمعرفة، والارتقاء الحضاري للشعوب، ولكن ونتيجة لضئامة المحتوى الثقافي المتبادل ما بين الإسكندرية ومدن العالم الإسلامي سواء مدن مصر الداخلية أو بلاد الشام والعراق والحجاز والمغرب .. الخ، فقد كان هذا المبحث مخصصاً للفقهاء والقضاة والعلماء والمدرسين والمحدثين والوعاظ وغيرهم ممن أسهم في تمييز



فمن علماء الإسكندرية الذين وفدوا على القاهرة، وطافوا بين أروقتها العلمية ما بين محدثين ومدرسين: المحدث المسند رشيد الدين بن رواج، دخل القاهرة وحدث بها<sup>(١)</sup>، ومنهم جمال الدين عبد الرحمن بن مكي الإسكندراني (ت ٦٥١هـ/١٢٥٣م)، سمع من جماعة بالإسكندرية ووفد عليه الطلبة ثم رحل إلى القاهرة فقصده الطلبة هناك فجلس لتعليمهم<sup>(٢)</sup>، ومنهم عبد الرحمن بن علي بن محمد بن محمد بن مهران الإسكندراني المولد المصري الوفاة، الفقيه الشافعي البارع، كان جامعا لفنون شتى توفي بمصر سنة (٦٦٤هـ/١٢٦٥م)<sup>(٣)</sup>، ومنهم أيضا محيي الدين عبد الله بن محمد أبو الصلاح قاضي قضاة مصر ويعرف بلقب عين الدونة الصفراوي الإسكندراني الشافعي (ت ٦٧٨هـ/١٢٧٩م)، تولى قضاء الديار المصرية والوجه القبلي مدة سنين، حتى أصابه المرض وأقعد بسببه فعزل عن القضاء ولزم بيته حتى توفي، وصف بالفضل والديانة ولطف الأخلاق وحسن المجالسة، دخلت عليه امرأة في مجلس حكمه لقضية لها، فقال لها ما اسمك؟ فقالت: ست من يراها فوضع كفه على عينيه، وقد بلغ الثمانين وأنشد يقول:

إن الثمانين وبلغتها ما أوجت سمعي إلى ترجمان

توفي بالقاهرة ودفن بالقرافة<sup>(٤)</sup>، ومنهم فخر الدين أحمد ابن المخلطة، رحل إلى دمشق وأخذ عن الذهبي، ودرس بالقاهرة بالمدرسة الصرغتمشية الفقه

العلاقات العلمية بين الإسكندرية وأقطار العالم الإسلامي من الجانبين الإسكندراني والبلدان الإسلامية، وأما مبحث الرحلة في طلب العلم، في الفصل الثالث، فالتحدث عن طلب العلم الذي رحلوا إلى البلاد الإسلامية لطلب العلم وتحصيله، وأما الفصل الرابع بأكمله فخصص للطلبة وترحالهم الذين وفدوا إلى الإسكندرية من جميع بلدان العالم الإسلامي للنيل من معين علمها الصائغ، وذلك لكثرة من وفد إليها من طلاب العلم في العهد المملوكي.

(١) الذهبي: تاريخ الإسلام، حوادث الفترة، ص ٣٩٧؛ المقرئ: السلوك، ج ١، ق ١، ص ٣٨١؛

ابن زغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ٢٢؛ السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص ٤٧٦؛ ابن

العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٥، ص ٢٤٢.

(٢) الذهبي: تاريخ الإسلام، حوادث الفترة، ٨٩.

(٣) العبادي: الذيل، ص ٦٨؛ ابن فرحون: الديباج، ج ١، ص ٤٤٨، ٤٤٩.

(٤) اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج ٢، ص ٣٦٢، ج ٤، ص ٢٩.

والعربية<sup>(١)</sup>، ومنهم عبد الله بن محمد بن محمد بن سليمان بن عطاء بن جميل بن فضل بن خير الأنصاري الإسكندراني المالكي يعرف بابن خير، ولد بالإسكندرية، سمع الكثير وحدث ببلده، وصف بالقاضي العالم المسند الرحلة، ذهب إلى القاهرة وحدث في الجامع الأزهر بها كتاب "الشفاء" وغيره، عمر حتى مات سنة (بضع وعشرين وسبعمائة)<sup>(٢)</sup>، ومنهم عمر بن أبي بكر بن أحمد الإسكندراني القاهري كان عالماً بالحديث، أخذ عنه السخاوي وأجاز له توفي سنة (٧٦٣هـ/١٣٦١م) وقد جاوز الستين عاماً<sup>(٣)</sup>، ومنهم فخر الدين محمد بن سراج الدين الربيعي ابن الكويك الإسكندراني (ت ٧٦٩هـ/٢٣٦٧م) سمع بالإسكندرية، قدم القاهرة، ودرس بعدد من مدارسها<sup>(٤)</sup>، ومنهم عبد الرحمن بن محمد بن سليمان بن عطاء بن جميل الإسكندراني المالكي (ت ٧٩١هـ/١٣٨٨م) سمع وحدث، تولى قضاء المالكية بالقاهرة، فحمدت سيرته، سمع منه الكثير من علمائها أمثال ابن حجر العسقلاني<sup>(٥)</sup>، ومنهم محمد بن محمد بن حسن بن علي بن يحيى بن محمد بن خلف الشمس الإسكندراني، ثم القاهري، اشتغل بالعلم وسمع من البهاء الدماميني والتاج بن موسى، وتقدم في الحديث ودرس وتوفي سنة (٨٢١هـ/١٤١٨م) بالجامع الأزهر<sup>(٦)</sup>، ومنهم محمد بن محمد بن محمد بن خلف الله الشمني ثم الإسكندراني المالكي، ولد بالإسكندرية، وسمع بها من شيوخها واشتغل فيها بالعلم ومهر، ثم قدم القاهرة، فسمع فيها من علمائها، وتقدم في الحديث وصنف فيه،

(١) ابن تغري بردي: النجوم، ج ١٠، ص ٣٢٩؛ السيوطي: بغية الوعاة، ج ١، ص ٣٧٠. والمدرسة الصرغتمشية: أسسها الأمير سيف الدين صرغتمش بن عبد الله الناصري، وكان ذلك سنة (٧٥٧هـ/١٣٥٦م)، وكانت مجاورة لجامع أحمد ابن طولون، وقد أوقف عليها الأمير سيف الدين الكثير من الأوقاف، انظر: المقرئزي: الخطط، ج ٢، ص ٤٠٣.

(٢) السخاوي: الضوء اللامع، ج ٥، ص ٦٣.

(٣) السخاوي: الضوء اللامع، ج ٥، ص ١١٧.

(٤) ابن العراقي: الذيل على العبر، ج ١، ص ٢٥٩.

(٥) ابن حجر: المجمع المؤسس، ج ٣، ص ١٦٢-١٦٣.

(٦) السخاوي: الضوء اللامع، ج ٥، ص ٧٤-٧٥.

ودرسه في المدرسة الجمالية<sup>(١)</sup>، ثم عرضت له علة فمات بها سنة (٨٢٢هـ/٤١٩م)<sup>(٢)</sup>، ومنهم شمس الدين محمد الإسكندراني المالكي، المعروف بابن المعلمة (ت ٨٣٣هـ/٤٢٩م)، ولى حسبة القاهرة، له مشاركة في العربية وغيرها<sup>(٣)</sup>، ومنهم نور الدين حسين بن محمد بن أحمد بن عبد الله الإسكندراني (ت ٨٤٧هـ/٤٤٣م)، حفظ القرآن في صغره، وتصدر للتحديث، سكن القاهرة، وتولى الخطابة في جامع السيوطي، احترقت كتبه بسبب حريق وقع بشونة مجاوره لمكتبته<sup>(٤)</sup>.

وأم تقتصر وفادة علماء الإسكندرية على القاهرة، بل تعدتها إلى معظم المدن المصرية، فمن دخل منهم إلى قوص<sup>(٥)</sup>: محمد بن أحمد بن عبد الرحمن الكندي الدشناوي القوصي مولدا ودارا ووفاة، نبغ في علم القراءات والحديث حدث بقوص والقاهرة والإسكندرية، فقد سمع منه في الإسكندرية سراج الدين عبد اللطيف بن الكويك وفخر الدين بن عثمان النويري المالكي وخالق<sup>(٦)</sup>، وأحمد بن مرهق بن ناهض بن عبد العزيز أبو العباس ناظر قوص وأعمالها كان فقيها فاضلا أديبا شاعرا تقلب في الخدمة السلطانية وتولى نظـر الدواوين بقوص والإسكندرية ودرس بعدد من المدارس ببلده، وله مؤلفات عدة<sup>(٧)</sup>.

- (١) المدرسة الجمالية : تقع برحبة باب العيد بالقاهرة، بناها الأمير جمال الدين الاستادار، وانتهت عمارتها سنة (٨١١هـ/٤٠٨م)، المقرئزي: الخطط، ج ٢، ص ٤٠١.
- (٢) ابن حجر: إنباء الغمر، ج ٣، ص ١٨٦؛ السخاوي: ذيل الدرر، ص ٢٦٨-٢٦٩.
- (٣) ابن حجر: إنباء الغمر، ج ١، ص ٤٥١.
- (٤) السخاوي: التبر المسيوك، ص ٧٩.
- (٥) قوص: مدينة بأعلى صعيد مصر، مدينة عظيمة واسعة، قسبة صعيد مصر، تخط بها التجارة القادمة من عدن، انظر ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٧، ص ١٨٣.
- (٦) الأنفوي: الطالع السعيد، ص ٤٨٨؛ الصفدي: الوافي بالوفيات، ج ٢، ص ١٥٠؛ أعيان العصور، ج ٤، ص ٢٦٨؛ المقرئزي: السلوك، ج ٢، ص ٢٣٩؛ ابن حجر: الدرر الكامنة، ج ٣، ص ٣٢٣؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج ١، ص ١٩٠.
- (٧) العبيدي: الذيل، ص ٢٣٥ - ٢٣٦.

و- منهم شمس الدين علي بن أبي بكر بن عبد الله بن مفرج الأنصاري الشافعي الإسكندراني، كان جيد الفهم له مشاركات في الأصول والفقاه سمع الحديث من الدمياطي، وتقي الدين بن دقيق العيد، ولازمه وأملى عليه شرح الإسلام، وأخذ الفقه والأصول والنحو من ابن العراقي، توجه إلى قوص وأعاد بإحدى مدارسها، ثم تولى قضاء فوه<sup>(١)</sup>، ثم نقل إلى قضاء أسيوط<sup>(٢)</sup>، ثم عزل فتوجه إلى مكة وجاور بها إلى أن توفي سنة (٧٤٠هـ/١٣٣٩م)<sup>(٣)</sup>.

وممن وفد على رشيد<sup>(٤)</sup>: علي بن عبد اللطيف البرلسي ثم الإسكندراني التاجر، ابنتى بها بيتين وصهرجياً تعلوه مدرسة لطيفة، ثم ارتحل إلى مكة وجاور بها حتى توفي سنة (٧٨٧هـ/١٣٨٣م)<sup>(٥)</sup>.

وممن وفد على بلبيس<sup>(٦)</sup>: تاج الدين محمد بن أحمد بن إبراهيم بن إسماعيل بن هلال الإسكندراني (ت ٧٦٥هـ/١٣٦٣م)، تولى القضاء بها وكانت له مشاركة في العربية نظماً ونثراً.

وفي مقابل ذلك فقد وفد على الإسكندرية عدد من علماء مصر ليتولوا بها المناصب الدينية أو الإدارية من قضاة وفقهاء وعلماء، وليسهموا في تنشيط الحركة العلمية بها، فمن القاهرة جاءها قاضي القضاة علم الدين أبو عبد الله محمد

(١) فوه: بالضم ثم التشديد، بليدة على شاطيء النيل قرب رشيد، ذات أسواق ونخل كثير، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٥، ص ٤٠٦.

(٢) أسيوط: مدينة بغربي النيل بصعيد مصر جليلة كبيرة كثيرة البساتين، ينسب إليها جماعة، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ٢٥١؛ الحميري: الروض المعطار، ص ٥٨.

(٣) الفاسي: العقد الثمين، ج ٦، ص ٢٢٨ - ٢٢٩.

(٤) رشيد: بليدة على ساحل البحر والنيل قرب الإسكندرية، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٢٥٢.

(٥) السخاوي: الضوء اللامع، ج ٥، ص ٢٤٥.

(٦) بلبيس: بكسر الباءين، وسكون اللام وياء وسين مهملة، مدينة على طريق الشام، قرب الفسداط، فتحت سنة ١٨هـ على يد عمرو بن العاص، ياقوت: معجم البلدان، ج ٢، ص ٢٦٢.

ابن الإخنائي الشافعي (ت ٧٣١هـ/ ١٣٣٠م)، تولى القضاء بالإسكندرية فحمدت سيرته، وصف بالعلم والفضل والمهابة، والنزاهة والعفة<sup>(١)</sup>.

ومن سخا<sup>(٢)</sup>: محمد بن عبد الخالق بن طرخان أبو عبد الله المحدث المسند، من أهالي قرية سخا على النيل بأسفل مصر، رحل إلى الإسكندرية واستوطنها، وتفرد فيها بعلو الإسناد وأجاز للطلبة منهم الرحالة ابن رشيد سنة (٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م)، له السماع الصحيح العالي<sup>(٣)</sup>.

ومن المحلة<sup>(٤)</sup>: تاج الدين التنوخي محمد بن صالح المحلي، ولي نظر الإسكندرية، من الأحياس والمساجد والجوامع والمدارس، وحدث بها<sup>(٥)</sup>، وممن نزلها من أهل المحلة: الشهاب المحلي أحمد بن محمد بن علي بن هارون بن علي (ت ٨٦٠هـ/ ١٤٥٥م)، ولد بالمحلة ونشأ بها وحفظ القرآن وتعاين التكسب بماء الورد ونحوه، ناب في الحكم بالقاهرة ثم بعد ذلك ترقى فتولى قضاء الإسكندرية، التقى به السخاوي في الإسكندرية وتباحثا في بعض العلوم<sup>(٦)</sup>.

كما شملت هذه العلاقة بعض المدن خارج حدود الأراضي المصرية وبالأخص بعض مدن الشام والحجاز والعراق والمغرب، فمن علماء الإسكندرية الذين ارتحلوا إلى دمشق رشيد الدين عبد العزيز بن محمد بن الطاهر المعروف

(١) أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، ج ٤، ص ١٠٦؛ ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج ٢، ص ٢٢٠.

(٢) سخا: قرية كبيرة من قرى أسفل مصر، تشتهر بالزراعة، انظر ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ١٩٦.

(٣) الصفدي: الوافي، ج ٣، ص ٢١٩؛ ابن تغري بردي: الدليل الشافي، ج ٢، ص ٦٣٢؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج ١، ص ٣٨٤؛ ابن القاضي: درة الحجال، ج ٢، ص ١٩؛ ابن العماد: الشذرات، ج ٥، ص ٤٠٢.

(٤) المحلة: بالفتح، وهي مدينة مشهورة بمصر، بالقرب من القاهرة، انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٥، ص ٦٣.

(٥) ابن العمادية: ذيل تكملة الإكمال، ج ٢، ص ٥٨٩؛ الصفدي: الوافي بالوفيات، ج ٣، ص ١٥٦-١٥٧.

(٦) السخاوي: الضوء اللامع، ج ٢، ص ١٥٢ - ١٥٣.

بابن عوف، أحد فقهاء الإسكندرية ومفتيها، وقد نزل بالمدرسة العادلية<sup>(١)</sup> بدمشق والتقى به الفقيه أبو شامة، وأرخ وفاته في (٦٥٦هـ/١٢٥٨م)<sup>(٢)</sup> وجمال الدين الإسكندراني (ت ٦٨٠هـ/١٢٨١م)، كان شيخ الحساب في زمنه، فقد تولى الحساب بمكة ودمشق وانتفع به خلق كثير<sup>(٣)</sup>.

وبها توفي برهان الدين إبراهيم بن فلاح بن محمد الجذامي الإسكندراني شيخ القراء الشافعي، ولد بالإسكندرية، وكان معروفاً بالعلم والديانة، ناب في خطابة الجامع الأموي وباشر الحكم مدة بدمشق ودرس بها، وتوفي بها سنة (٧٠٢هـ/١٣٠١م)<sup>(٤)</sup> وممن دخل دمشق أيضاً علاء الدين ابن عرفة علي بن المنظر بن إبراهيم ابن عمر ابن يزيد الكندي الإسكندراني الدمشقي (ت ٧١٦هـ/١٣١٦م)، اشتغل بالأدب ومهر في العربية، وأجاد الشعر وأبدع فيه وجمع تذكرة النبيه في عدة مجلدات، تقرب من الخمسين، تولى التدريس بإحدى مدارسها وتصدر لتدريس الحديث بها إلى أن وافته المنية<sup>(٥)</sup>، ومنهم أيضاً جمال الدين أبو عبد الله محمد بن أبي الربيع سليمان بن مسور الزواوي المالكي الإسكندراني (ت ٧١٧هـ/١٣١٧م)، برع في الفقه المالكي مما أهله لتولي منصب قاضي المالكية بدمشق لمدة ثلاثين سنة<sup>(٦)</sup>، ومنهم معين الدين محمد بن أحمد المصغوني الإسكندراني، قدم دمشق وكان عاقلاً فاضلاً، حدث بدمشق عن التاج

(١) المدرسة العادلية : بدمشق بدأ في إنشائها الملك العادل نور الدين محمود، ثم الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب ، وأتمها الملك المعظم عيسى، انظر عنها: النعيمي: المدارس، ج ١، ص ٣٥٩ - ٣٦٢.

(٢) أبو شامة: الذيل على الروضتين، ص ١٥٦.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٦، ق ١٣، ص ٢٩٩، ج ٧، ق ١٤، ص ٧٨؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، حوادث الفترة، ص ٣٥٠؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج ١، ص ٥٠٦؛ ابن القاضي: درة الحجال، ج ١، ص ٧٠٢.

(٤) المقرئزي: السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٩٤٥.

(٥) ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج ٢، ص ٧٧؛ الشوكاني: البدر الطالع، ج ١، ص ٤٩٩؛ حاجي خليفة: كشف الظنون، ج ١، ص ٣٨٩.

(٦) المقرئزي: السلوك، ج ١، ق ١، ص ١٧٩ - ١٨٠؛ ابن حجر: الدرر الكامنة، ج ٣، ص ٤٤٨.

الغرافي بمجلس إمام دمشق آنذاك أبي المظفر بن المسمعاني<sup>(١)</sup>، ومنهم عمر بن أبي اليمن علي بن سالم بن صدقة اللخمي المالكي تاج الدين الفاكهاني (ت ٧٣١هـ/١٣٣٠م)، قرأ القراءات على عدد من فضلاء عصره بالإسكندرية، كان فقيها متفنا في الحديث والفقه والأصول والعربية والأدب، وكان على حظ وافر من اتباع السلف الصالح والتمسك بالدين الحنيف، له العديد من المؤلفات رحل إلى القدس ودمشق وحدث هناك ببعض تصانيفه<sup>(٢)</sup>، وممن حدث بدمشق من أهل الإسكندرية إبراهيم بن أحمد بن فلاح الإسكندراني (ت ٧٧٨هـ/١٣٧٦م)، حدث بدمشق وأجاز له حافظ دمشق ابن عساكر، وكان يوم بمشهد أبي بكر كأبيه وجدته، وكان حسن الخط والقراءة<sup>(٣)</sup> ومنهم حفيده علي بن أبي الفضل بن أحمد بن إبراهيم بن فلاح الإسكندراني (ت ٧٨٣هـ/١٣٧٩م)، وصف بأنه من بيت الرواية والفضل، واشتهر بالحديث وعمر طويلا<sup>(٤)</sup>.

ولم تقتصر العلاقات العلمية بين الإسكندرية ومدينة دمشق من بلاد الشام بل تعدتها إلى مدن أخرى مثل طرابلس، فقد نزل بها أحد علماء الإسكندرية وهو القاضي شمس الدين أحمد بن أبي بكر بن عطية الإسكندراني الشافعي (ت ٧٠٧هـ/١٣٠٧م)، فتولى الحكم بها، كان إماماً فاضلاً حازماً عارفاً بالمذهب الشافعي: متفناً، وصف بالرأي والحزم والشجاعة، وقد قام ببناء المدرسة الشمسية بجوار الجامع المتصدي بطرابلس<sup>(٥)</sup>.

(١) المقرئزي: المقفى الكبير، ج ٥، ص ٢٤٤؛ ابن حجر: الدرر الكامنة، ج ٣، ص ٤٣٨.

(٢) أبو الفدا: المختصر، ج ٤، ص ١٠٤؛ ابن الوردي: تنمة المختصر، ج ٢، ص ٣٢١؛ ابن فرحون: الديباج المذهب، ج ٢، ص ٨٠.

(٣) ابن حجر: إنباء الغمر، ج ١، ص ١٣٤؛ ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج ١، ص ٤٧—٤٨.

(٤) ابن حجر: إنباء الغمر، ج ١، ص ٢٤٨.

(٥) ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج ١، ص ٢٨٣ — ٢٨٤، ابن حجر: الدرر الكامنة، ج ١، ص ١٢١—١٢٢، وهذه المدرسة الشمسية التي بناها شمس الدين القاضي الإسكندراني تعتبر المدرسة الثانية بعد المدرسة الزريقية أقدم المدارس المملوكية بطرابلس، للمزيد عنها وعن بانيتها انظرو:

ونذب من الإسكندرية إلى حلب قاضي القضاة شهاب الدين أحمد بن إبراهيم الصالحي الحنفي، ليتولى بها القضاء، وقد باشره بعفة ونزاهة لمدة ٣٣ سنة، كان عارفاً بالفقه أصولاً وفروعاً، درس وخطب وأفاد توفي بالإسكندرية سنة (٧٧٢هـ/١٣٧٠م) (١).

كما شملت تلك العلاقة مدينة بغداد، فقد رحل إليها ابن العطار إبراهيم بن عبد الله بن إبراهيم بن محمد الأنصاري الإسكندراني الحنفي (ت ٦٤٩هـ/١٢٥١م)، برع في المذاهب وتأدب على يد أبي زكريا بن معطي النحوي (٢)، جال في بلاد عدة، منها اليمن والشام والعراق، ذكر ابن تغري بردي أن: (أبا المظفر منصور بن سليم ذكره في تاريخ الإسكندرية وأثنى على علمه وفضله، وذكر شيئاً من نظمه، وقال: رأيت بالموصل وبغداد في خدمة الملك الناصر صلاح الدين، ثم انتقل إلى القاهرة واستوطنها ومات بها) (٣)، ومنهم عبد الله بن عبد الرحمن بن عمر الشارمساخي (٦٦٩هـ/١٢٧٠م)، نشأ بالإسكندرية، وتلقى علومه بها، فبرع وتفنن، وكان من أئمة المالكية، صنف في الفقه والنظر والخلاف، رحل إلى بغداد فأكرمه الخليفة المستنصر وعينه مدرساً بالمستنصرية وخاع عليه خلعة سوداء (٤) وعمامة وطرحة، وأعطى بغلة بمركب جميل، ومن طريف ما يذكر عنه أن الخليفة أمر أن يحضر عنده جميع المدرسين ببغداد بجميع المدارس، وأرباب الدولة، فحضروا وقام الشارمساخي بإلقاء خطبة بليغة نالت إعجاب الحاضرين، ثم سأله بعض العلماء عن مسألة بيوع الآجال، فقال: أنكر

---

عمر عبد السلام تدمري: تاريخ وآثار مساجد ومدارس طرابلس في عصر المماليك، ص ٢٧٨، السيد عبد العزيز السالم: طرابلس الشام، ص ٤١٨ - ٤٢٠.

(١) ابن تغري بردي: المنهل، ج ١، ص ٢٠٨ - ٢٠٩؛ النجوم الزاهرة، ج ١، ص ١١٦.

(٢) هو يحيى بن سيب المعطي الفقيه الحنفي زين الدين النحوي (ت ٦٢٨هـ/١٢٣٠م)، الذهبي: العبر، ج ٥، ص ١١٢.

(٣) ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج ١، ص ٨٧، ٨٨.

(٤) هي عبارة عن عمامة سوداء مدورة بعذبة مذهبة، وتسمى أحياناً بالخلعة الخليفية أو السلطانية، انظر: البقلي: التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، ص ١٢١.



فيها ثمانين ألف وجه، فاستغرب فقهاء بغداد من ذلك، فشرع يسردها عليهم إلى أن انتهى إلى مائتين وجهاً، فاستطالوها وأضربوا عن سماعها، واعترفوا بفضل الشيخ وسعة علمه، له مؤلفات عدة منها كتاب "الفوائد" في الفقه، و "التعليق" في علم الخلاف، و "شرح آداب النظر" وغير ذلك كثير<sup>(١)</sup>، وممن ارتحل إليها منصور بن سائيم ابن العمادية درس بالمدرسة النظامية والمستنصرية، وتخرج على يديه عدد كبير من علماء بغداد<sup>(٢)</sup>.

ولقد امتد التواصل العلمي أيضاً بين الإسكندرية وبلاد الحجاز، فرحل إليها حاجا زين الدين ابن المنير فاغتم الكثير من الحجاج والعلماء فرصة وجوده بينهم للأخذ عنه والسماع منه<sup>(٣)</sup>، كذلك بدر الدين حسن بن عبد العزيز بن عبد الكريم قاضي الإسكندرية، فتذكر المصادر أنه حدث بمكة وأخذ عنه جماعة، كان محباً للفقراء وطلبة العلم كثير الكرم والعطاء، توفي سنة (٧٧٤هـ/١٣٧٢م)<sup>(٤)</sup>، ومنهم المحدث تقي الدين عرام، كان له مكان بالمسجد الحرام يحدث به<sup>(٥)</sup>، ومنهم أحمد بن سليمان بن أحمد الشهاب التروجي الإسكندراني، جال ورحل في البلاد ودخل العراق وأنهى، ثم أقام بالحرمين حتى مات بمكة سنة (٨١٢هـ/١٤٠٩م)، ودفن بالمعلاة، ووصف بأنه كانت له نباهة في العلم ويذاكر بأشياء حسنة من الحكايات والشعر، وقد أوقف عدة كتب على أحد أربطتها<sup>(٦)</sup> وممن وفد على بلاد الحجاز يحيى بن محمد بن يحيى بن أحمد المالكي، ولد بالإسكندرية سنة

(١) ابن فرحون: الديباج، ج ١، ص ٤٤٨ - ٤٤٩؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج ١، ص ٤٥٧.

(٢) الذهبي: لذكورة الحفاظ، ج ٤، ص ١٤٦٧؛ الناجي: تاريخ المستنصرية، ج ١، ص ١٧٢، ١٧٥.

(٣) الصفدي: أعيان العصر، ج ٣، ص ٣٧ - ٣٨.

(٤) ابن حجر: الدرر الكامنة، ج ٢، ص ١٨ - ١٩.

(٥) ابن فهد: لحظ الألفاظ، ص ٢٥٦ - ٢٦٠.

(٦) القاسي: العقد الثمين، ج ٣، ص ٤٣؛ ابن فهد: اتحاف الوري، ج ٣، ص ٤٧٩؛ السخاوي:

الضوء الناعم، ج ١، ص ٣٠٨.

(٧٧١هـ/١٣٦٩م)، جاور بمكة ووصف بالصلاح وتوفي بها سنة (٨٤٦هـ/١٤٤٢م)<sup>(١)</sup>.

وممن وفد على اليمن من علماء الإسكندرية: محمد بن تميم شرف الدين أبو عبد الله الإسكندراني (ت ٧١٥هـ/١٣١٥م)، كاتب الدرج باليمن، ووصف بأنه صاحب نظم بديع، ولفظ صنيع، كان يعرف بالمقاماتي، له موشحات بديعة<sup>(٢)</sup> ومنهم الفقيه محمد بن محمد المخزومي (ت ٨١٧هـ/١٤١٤م)، أقام بزبيد مدة ينسخ للملك الأشرف<sup>(٣)</sup>، وممن وفد على اليمن سنة (٨٢٠هـ/١٤١٧م) محمد بن أبي بكر الدماميني درس بالجامع الكبير بمدينة زبيد، ثم غادرها إلى الهند حيث توفي بها سنة (٨٢٧هـ/١٤٢٣م)<sup>(٤)</sup>.

وفي المقابل استقبلت الإسكندرية جمع كبير من العلماء والمحدثين والفقهاء والوعاظ والمدرسين والذين أسهموا بدور فاعل في تنشيط الحركة العلمية بها، فممن وفد إليها من دمشق: جمال الدين ابن النجار إبراهيم بن سليمان بن حمزة بن خليفة الدمشقي المجود (ت ٦٥١هـ/١٢٥٣م)، طاف بعدد من بلدان العالم الإسلامي كحلب وبغداد وبعليك حيث عمل كاتباً عند صاحبها، ورحل إلى الإسكندرية حيث تولى نقابة الأشراف بها، حدث وكتب الإجازات وله نظم حسن<sup>(٥)</sup>، ومنهم شمس الدين أبو عبد الله الدمشقي الشافعي، المعروف بابن

(١) السخاوي: الضوء اللامع، ج ١٠، ص ٢٥٨.

(٢) الصفدي: أعيان العصر، ج ٤، ص ٣٧٤؛ الوافي، ج ٢، ص ٢٧٩ - ٢٨٠؛ المقرئزي:

السلوك، ج ٢، ص ١٠٨؛ ابن حجر: الدرر، ج ٤، ص ٣٢.

(٣) ابن حجر: إنباء الغمر، ج ٧، ص ١٥٩؛ الذيل على الدرر، ص ٢٣٨. والملك الأشرف هو

إسماعيل بن الملك الأفضل العباس بن علي الرسولي، تولى الحكم بعد وفاة أبيه سنة

(٧٧٨هـ/١٣٧٦م)، كان صاحب سياسة وحنكة أهلته للقضاء على الفتن والاضطرابات التي

واجهته، عرف عنه حب العلماء والعلم وانشغاله به، توفي سنة (٨٠٣هـ/١٤٠٠م)، محمد

عبد العال: بنو رسول، ص ٢٢٤-٢٢٥.

(٤) الأمدل: تحفة الزمن، ج ٢، ص ٢٦٨.

(٥) الكتبي: وفيات الوفيات، ج ١، ص ٩ - ١٠.

اللبان، كان إماما عالما فقيها أفتى وأفاد، تصدى لتدريس الطلبة، حدث بدمشق والقاهرة والإسكندرية وتوفي بالقاهرة سنة (٧٤٩هـ/١٣٤٨م)<sup>(١)</sup>.

ومنهم عبد الأحد بن عبد الله بن شقير الحراني دمشقي (ت ٧٠٩هـ/١٣٠٩م)

وسمع الكثير وحدث بدمشق والإسكندرية<sup>(٢)</sup>، ومنهم الشيخ المسند الرحلة علاء الدين ابن الحسن علي بن الحسين العرضي الدمشقي ولد سنة (٦٧٧هـ/١٢٧٨م) بدمشق، ونشأ بها وسمع وحدث، وبأشر نظر الجيش، ثم أعرض عن ذلك وأقبل إلى طلاب الحديث واستوطن الإسكندرية آخر عمره، وتوفي بها سنة (٧٦٤هـ/١٣٦٢م)<sup>(٣)</sup>.

ومن الموصل<sup>(٤)</sup>: محمد بن يوسف بن عبد الله الجزري الموصلية (ت ٧١١هـ/١٣١١م)، دخل الديار المصرية فتولى الخطابة والإقراء بجامع القلعة<sup>(٥)</sup>، ثم رقد على الإسكندرية فدرس بها، ولقيه ابن رشيد السبتي بها ونال منه إجازة تامة عام (٦٨٤هـ/١٢٨٥م)<sup>(٦)</sup>.

(١) ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج ٣، ص ١١٦.

(٢) ابن حجر: الدرر الكامنة، ج ٢، ص ٤٢١ - ٤٢٢.

(٣) ابن العراقي: الذيل على العبر، ج ١، ص ١٢٥ - ١٢٦.

(٤) المرصلي: بالفتح وكسر الصاد، المدينة المشهورة العظيمة، إحدى قواعد بلاد الإسلام قليلة النظير، وهي باب العراق، وسميت الموصل لأنها وصلت بين الجزيرة والعراق، وقيل وصلت بين دجلة والفرات، وينسب لها جمع من العلماء، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٨، ص ١٩٥ - ١٩٨؛ الحميري: الروض المعطار، ص ٥٦٣.

(٥) هي قلعة صلاح الدين الأيوبي، وتسمى قلعة الجبل، بنيت سنة (٥٧٢هـ/١١٧٦م)، وهي أكبر المنشآت العسكرية التي شيدها الأيوبيون لدفع الخطر الصليبي عن مصر، وحفلت عمارتها من الخارج بالتحصينات والأبراج والبوابات المنيعة فيما اشتملت منشآتها الداخلية على مسادن السلطان، وشيدت على هضبة صخرية مرتفعة، انظر: الكحلوي: أثار مصر الإسلامية، ص ١٥٠ - ١٥١.

(٦) ابن القاضي: درة الحجال، ج ٢، ص ١٩ - ٢٠.

ومن صفد<sup>(١)</sup> القاضي شمس الدين محمد بن عامر قاضي قضاة المالكية وكان معدوداً من فقهاء المالكية، ناب في الحكم بالقاهرة سنين كثيرة، ثم نزل الإسكندرية وتولى قضائها غير مرة، وتوفي بها سنة (٨٥٨هـ/١٤٥٤م)<sup>(٢)</sup>.

ومن بغداد نزل بها: الحافظ العالم الفاضل مجد الدين أبو الخير سعيد بن عبد الله الهلالي الدلّهي الحنبلي (ت ٧٤٩هـ/١٣٤٨م)، كان عارفاً بالفقه والخلاف، وأعاد بالمدرسة النظامية ببغداد، له مؤلفات عدة منها "تفتيت الأكباد في واقعة بغداد"، برع في التراجم والوفيات، رحل من بغداد إلى الشام ومصر ونحل الثغر الإسكندري<sup>(٣)</sup>، يذكر العبادي أن منصور بن سليم ذكره في تاريخ الإسكندرية قال بأنه: (قدم مصر والإسكندرية في الجامع الجيوشي، وكان عارفاً بالفقه والخلاف ظاهر التدين والصلاح، .. ..، سمع منه شيخنا قاضي القضاة بدر الدين بن جماعة قصائد الوتريات، ورافقه في الحج، وروى لنا عنه الوتريات شيخنا السيد الشريف عز الدين الغرافي بسماعه من تقي الدين المازري بسماعه من مجد الدين المذكور)<sup>(٤)</sup>.

وممن وفد عليها من بلاد المغرب من مدينة تلمسان<sup>(٥)</sup>: يحيى بن محمد بن موسى أبو زكريا التجيبي التلمساني حج وجاور وسمع بمكة، وسكن الإسكندرية، وعظ بها وصنف التفسير والرقائق، مات سنة (٦٥٢هـ/١٢٥٤م)<sup>(٦)</sup>.

- (١) صفد: بفتح الفاء، مدينة في جبال عاملة، المظلة على حمص من الشام، وهي من جبال لبنان، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٥، ٣٦٧.
- (٢) ابن حبيب: تنكرة النبيه، ج ٣، ص ١١٨؛ ابن تغري بردي: النجوم، ج ٦، ص ١٧٢.
- (٣) الياضي: مرآة الجنان، ج ٤، ص ١٦٠ - ١٦١؛ الصفيدي: أعيان العصر، ج ٢، ص ٤٠٨، ٢٠٩؛ السامري: غريبال الزمان، ص ٥٤٢.
- (٤) العبادي: الذيل على طبقات فقهاء الشافعية، ص ٨٧.
- (٥) تلمسان: عبارة عن مدينتين متجاورتين متسورتين بينهما رمية حجر، إحداهما قديمة والأخرى حديثة، اختطها المثلثون ملوك المغرب، كان يسكن بالحديثة الجنود وأصحاب السلطان وأصناف من الناس، أما القديمة فكانت سكن الرعية، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٤٤؛ الحميري: الروض المعطار، ص ١٣٥.
- (٦) الذهبي: تاريخ الإسلام، حوادث الفترة، ص ١٤٠.

ومنهم **ابن الجرح** أبو عبد الله محمد بن إبراهيم التلمساني (ت ٦٥٦هـ/١٢٨٥م)، درس بمدارس الإسكندرية وظل بها إلى أن توفي<sup>(١)</sup> ومذمهم **حافي** رأسه محمد بن عبد الله بن عبد العزيز بن عمر العلامة جمال الدين التلمساني الزناتي النحوي (ت ٦٩٣هـ/١٢٩٥م)، ولد بتلمسان ثم انتقل إلى الإسكندرية، فبرع في العربية وأصبح من أئمتها، وتصدر لها زماناً، فكان يقرئ بداره، قرأ عليه ابن المنير شيئاً من النحو، وهو أحد النحاة الثلاثة المحمدين في عصر واحد، هو في الإسكندرية وابن النحاس<sup>(٢)</sup> في مصر، وابن مالك<sup>(٣)</sup> في دمشق، ومن شعره ما كتبه إلى الأمير نور الدين بن مسعود الصوابي، يقول فيه:

شكوتُ إليك نور الدين حالي وحسبي أن أرى وجه الصواب

وكنيتي بعثتها ورهنتُ حتى بقيت من المجوس بلا كتاب<sup>(٤)</sup>

ومن دكالة<sup>(٥)</sup>: **عبد الحميد بن علي بن الحسن بن عبد الملك أبو محمد**

الدكالي الفقيه الشافعي (ت ٦٥٤هـ/١٢٥٦م)، سكن مصر واستوطنها ثم نزل

الإسكندرية، وأفتى بها على مذهب الشافعي له باع في الأب والشعر فمن شعره:

أكابدُ أفكار الحياة من الدهر وأرجو انتصاراً في العواقب بالصبر

وأعجب من صرف الزمان وجوره وإن كان ذا مجرى العواقب في الدهر<sup>(٦)</sup>

(١) السيوطي: حسن المحاضرة، ج ١، ص ٤٥٧؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٥، ص ٢٨٣.

(٢) ابن النحاس: هو اللغوي الأديب محمد بن إبراهيم بن أبي نصر ابن النحاس شيخ الديار المصرية في علم اللسان، وتخرج به جماعة من الأدباء، توفي سنة ٦٩٨هـ، السيوطي: بغية الوعاة، ج ١، ص ١٣.

(٣) هو محمد بن عبد الله الطائي الجبائي جمال الدين أبو عبد الله المعروف بابن مالك النحوي، (ت ٦٧٢هـ/١٢٧٣م) انظر: ابن شاکر كتبي: فوات الوفيات، ج ٢، ص ٤٥٢.

(٤) الصفدي: الوافي بالوفيات، ج ٣، ص ٣٦٥ - ٣٦٦.

(٥) دكالة: بلد بالمغرب ذكر ياقوت أنه يسكنه البربر، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٦٦.

(٦) العبادي: الذيل، ص ٨١ - ٨٢.

ومن تاز<sup>(١)</sup>: أبو عبد الله التازي المقرئ المغربي المالكي  
(ت ٧٧٨هـ/١٣٧٦م)، أحد فضلاء الثغر ناب في الحكم عن قاضي القضاة بدر  
الدين الأحنائي، كان مشهورا بالعلم والفرائض<sup>(٢)</sup>.

ومن قسنطينة<sup>(٣)</sup>: سالم بن عبد الله بن سعادة بن طاجين القسنطيني، نزيل  
الإسكندرية، لازم القاضي برهان الدين ابن جماعة، كانت له محاضرة حسنة  
وبرع في

فنون عديدة، مات بالإسكندرية سنة (٨٢٠هـ/١٤١٧م)<sup>(٤)</sup>.

ومن سيواس<sup>(٥)</sup>: شهاب الدين أحمد بن سعيد السيواسي المغربي المالكي  
(ت ٨٧٤هـ/١٤٦٩م)، تولى قضاء دمشق، ثم ولي قضاء الإسكندرية، وكان من  
أهل العلم والفضل<sup>(٦)</sup>.

وأما بلاد الأندلس فمن قرطبة<sup>(٧)</sup>: ضياء الدين أبو العباس أحمد بن عمر  
بن إبراهيم الأنصاري القرطبي المحدث المالكي، نزل الإسكندرية، ودرس بها إلى  
أن وافته المنية ودفن بها سنة (٦٥٦هـ/١٢٥٨م)<sup>(٨)</sup>، يقول عنه ابن فرحون أنه:  
(كان يشار إليه بالبلاغة والعلم والتقدم في علم الحديث والفضل التام وأخذ عنه  
الناس من أهل المشرق والمغرب)<sup>(٩)</sup>، ومنهم أحمد بن إبراهيم بن محمد بن يوسف  
(١) تازا: من بلاد المغرب، حد بين المغرب الأوسط وبلاد المغرب مثل وهران ومليسة، وفي  
جبالها بنيّة مديّة الرباط، انظر: الحميري: الروض المعطار، ص ١٢٨؛ مؤلف مجهول:  
الاستبصار، ١٨٦.

(٢) ابن العراقي: ذيل العبر، ج ٢، ص ٤٤٧؛ ابن حجر: إنباء الغمر، ج ١، ص ١٤٩.

(٣) قسنطينة: مدينة وقلعة عالية حصينة من حدود إفريقيا مما يلي المغرب، حولها مزارع كثيرة،  
الحميري: الروض المعطار، ص ٤٨.

(٤) ابن حجر: إنباء الغمر، ج ٣، ص ١٤٨.

(٥) سيواس: بلد بالروم، ينسب لها جماعة، البغدادي: مرصد الاطلاع، ج ٢، ص ٧٦٨.

(٦) ابن إياس: بدائع الزهور، ج ٣، ص ٤٠.

(٧) قرطبة: مدينة وسط الأندلس، كانت مقر ملوك بني أمية، وهي محصنة بسور عظيم، تميزت  
بحسنها وجمالها عن سائر بلاد الأندلس، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٣٢٤.

(٨) اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج ١، ص ٩٥-٩٦؛ العيني: عقد الجمان، ج ١، ص ١٩٠؛ ابن

تغري بردي: الدليل الشافي، ج ١، ص ٦٦؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج ١، ص ٤٥٧.

من أهل المشرق والمغرب<sup>(١)</sup>، ومنهم أحمد بن إبراهيم بن محمد بن يوسف المرادي العشاب اشتغل بالنحو وغيره، ووزر للحياني صاحب تونس، ثم نزل الإسكندرية، وحدث بها بكثير من مسموعاته، سمع منه تقي الدين ابن عرام وآخرون، مات بالإسكندرية سنة (٧٣٦هـ/١٣٣٥م)<sup>(٢)</sup>، ومنهم الشاعر المجيد أبو عبد الله بن العطار، وصفه ابن سعيد بأنه: (حلو المنازع ظريف المقاطع والمطالع، مطبوع النوادر موصوف بالأديب، مازحته بالإسكندرية، وبهذه الحضرة العلياً (تونس) وما زال يدين بالانفراد والتجوال في البلاد حتى قضى مناه وألقى بهذه المدينة نصيباً لا يخطر لهم ببال ولا يبيت إلا على وعد من وصال، وله حين سمع ما ارتجلته في السكنين بالإسكندرية حين داعبني باختلاسها القاضي زين القضاة ابن الريغي، وقال: ما إليها سبيل حتى يحضر لك معنى نبيل:

أحاجيك ما شيء إذا ما سرقتَه وفيه نصابٌ ليس يلزمك القطع  
على أن فيه القطع والحدُّ ثابتٌ ولا حدٌّ فيه هكذا حكم الشرع<sup>(٣)</sup>

ومن أشبيلية<sup>(٤)</sup>: أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن وثيق الإشبيلي شيخ

القراء بالإسكندرية، مات بها سنة (٦٥٤هـ/١٢٥٦م)<sup>(٥)</sup>.

ومن غرناطة<sup>(٦)</sup>: ضياء الدين أبو الحسن علي بن محمد بن يوسف ابن

عفيف الأنصاري الأندلسي الغرناطي (ت ٦٨٦هـ/١٢٨٧م)، كان إماماً عالماً فاضلاً ماهراً، قدم مصر وأقام بها واجتمع بعلمائها وسمع وكتب، ثم رجع وجمال

(١) ابن فرحون: الديباج، ج ١، ص ٢٤١.

(٢) ابن حجر: الدرر الكامنة، ج ١، ص ٢٥٦.

(٣) ابن خايل: اختصار القدر، ص ٢١٥ - ٢١٦؛ المقري: نفع الطيب، ج ٢، ص ٣٣٩ - ٣٤٠.

(٤) إشبيلية: مدينة كبيرة بالأندلس قريبة من البحر، يمر بها نهر يسمى (وادي الكبير)، كثيرة الشجر والزيتون والفواكه، اشتهرت بزراعة القطن، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ١٩٥، الحميري: الروض المعطار، ص ٥٨ - ٦٠.

(٥) الذهبي: دول الإسلام، ج ٢، ص ١٢١؛ معرفة القراء الكبار، ج ٢، ص ٦٥٥؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج ١، ص ٥٠١.

(٦) غرناطة: مدينة عظيمة من مدن الأندلس، اشتهرت بجمالها وحسنها وحصانتها المنيعة،

ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٣٢٤

في الأندلس، ثم عاد واستوطن الإسكندرية، كان شاعراً مجيداً خاصةً في المدائح النبوية والتي منها قصيده ذكرها ابن حبيب في تذكرته قال فيها:

لله ما يلقاه فيك مُنِيٌّ مِمْ أَحْشَاؤُهُ مِمَّا بِهِ تَتَوَقَّدُ  
قَدْ كَانَ يَقْنَعُ بِالْخِيَالِ إِذَا سَرَى عِنْدَ الْكَرَى لَوْ كَانَ مِمَّنْ يُوقَدُ<sup>(١)</sup>

ومن صقلية<sup>(٢)</sup>: أسرة أبي عبد الله محمد بن الشيخ أبي الطاهر منصور بن الحضرمي الصقلي المالكي، رحلت هذه الأسرة العلمية من صقلية واستقرت بالإسكندرية، وولد هو بها ونشأ وتعلم وحدث، مات بها سنة (٦٦٤هـ/١٢٦٥م) من بيت حديث، فقد حدث هو وأبوه وجده وجد أبيه، وجد جده<sup>(٣)</sup>.

(١) ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج ١، ص ١١٤.

(٢) صقلية: بثلاث كسرات، من جزائر البحر مقابلة إفريقية، وهي مثلثة الشكل، بها مدن كثيرة وبها عيرون، غزيرة، وأنهار جاررية، أفاض ياقوت في ترجمتها، معجم البلدان، ج ٥، ص ٣٧٤.

(٣) العيني: عقد الجمان، ج ١، ص ٤٣١.



## الاتجاه السني للحركة العلمية في الإسكندرية وأثره في التمكين للمذهب السني بها :

لقد احتفظت الإسكندرية بهويتها السنية برغم وجود الحكم الفاطمي الشيعي في البلاد المصرية، متأثرة بالحركة العلمية السنية النشطة بها، فقد رزحت مصر تحت الحكم العبيدي الشيعي ما يزيد على القرنين من الزمان، حاول فيها الفاطميون بكل ما أوتوا من إمكانيات تبديل الهوية المصرية السنية إلى التشيع والرفض وعلى عكس توقعاتهم، فقد ظل المصريون متمسكين بسنيتهم<sup>(١)</sup> مما حدا بالخلفاء الفاطميين إلى محاولة مصانعتهم ، ويمكن أن نعتبر أول اتجاه في المصانعة كان عندما أنشأ الخليفة الحاكم بأمر الله<sup>(٢)</sup> دار العلم أو ما يسمى في بعض المصادر بـ (دار الحكمة) وذلك في عام (٣٩٥هـ / ١٠٠٥م)<sup>(٣)</sup>، فقد جعل الدراسة فيها مفتوحة وسمح بالاشتغال بفقهاء المذاهب السنية ، وولى أمرها جماعة منهم مشايخ السنة، كان على رأسهم الحافظ عبد الغني بن سعيد وأبوا أسامة جنادة بن محمد اللغوي وأبو الحسن علي بن سليمان المقرئ الأنطاكي، ولم يستمر الأمر طويلاً ففي نهاية عام (٣٩٩هـ / ١٠٠٩م) قتل أبو أسامة اللغوي وأبو الحسن الأنطاكي واضطر الشيخ عبد الغني بن سعيد إلى الاختباء<sup>(٤)</sup>، وحملت إليها الكتب من خزائن القصور، كما جلس فيها القراء وأصحاب النحو واللغة والأطباء وحضر إليها الناس على طبقاتهم فمنهم من يحضر لقراءة الكتب أو النسخ أو التعلم، وجعل فيها ما يحتاج الناس إليه من الحبر والأقلام والورق والمحابر<sup>(٥)</sup>.

(١) سرور: الدولة الفاطمية في مصر، ص ٨٤.

(٢) هو الحاكم بأمر الله أبو علي منصور بن المعز العبيدي، تولى الحكم بعد أبيه سنة (٣٨٦هـ / ٩٩٦م) وكانت مدة حكمه (٢٠) سنة، سيرته من أعجب السير، مات مقتولاً سنة (٤١١هـ / ١٠٢٠م)، ابن حماد: أخبار ملوك بني عبيد، ص ٩٤، المقرئ: اتعاظ الحنفاء، ج ٢، ص ٣.

(٣) المقرئ: اتعاظ الحنفاء، ج ٢، ص ٨٠.

(٤) المقرئ: الخطط، ج ٢، ص ٣٤٢، ٣٤١.

(٥) المقرئ: اتعاظ الحنفاء، ج ٢، ص ٥٦، الخطط، ج ١، ص ٤٥٩.

هذا كان من شأن دار الحكمة والبدايات للانفراج السني في هذه الدولة الشعبية ولكن تكاد تجمع المصادر على أن البدايات الحقيقية للتحويل إلى المذهب السني في الحكم كانت مع أواخر العهد الفاطمي عندما تولى الوزارة وزراء سنيون وهما الوزير رضوان بن ولخشي والعاقل بن السلار، حيث أقاموا المدارس السننية بمصر وبالتحديد في مدينة الإسكندرية، مما حدا ببعض الباحثين أن يقول إن الإسكندرية كانت أول مدينة مصرية عرفت نظام المدارس وأن أول أستاذ نظمي للمذهب السني في مصر كان بها (١).

فتذكر لنا المصادر التاريخية أن الطرطوشي، وهو الشيخ محمد ابن الوليد بن محمد بن خلف الفهري الطرطوشي، نسبة إلى طرطوشة بالأندلس، قدم إلى الإسكندرية واستقر بها عام (٤٩٠هـ/١٠٩٧م) وتزوج فيها من امرأة ذات يسار، فحسنت حاله ووهبت له داراً، جعل الطابق العلوي منها موضع سكناه، وأما الطابق السفلي فجعله مدرسة يلقي فيها دروسه على طلاب العلم (٢).

ويذكر تلميذه أبو الطاهر ابن عوف أحوال الثغر وعلماءه حين قدمه الطرطوشي والأسباب التي دفعته لنشر العلم السني، والتصدي لمناوئيه بقوله: (كان نزوله بالإسكندرية في الوقت الذي قتل فيه علماءها، فوجد البلد عاطلاً عن العلم، فأقام بها وبث علماً جماً، وكان يقول: إن سألتني الله تعالى عن المقام بالإسكندرية - لما كانت عليه في أيام الشيعة العبيدية من ترك إقامة الجمعة ومن غير ذلك من المناكر التي كانت في أيامهم - أقول له: وجدت قوماً ضلالاً فكنت سبب هدايتهم) (٣).

وأما ثاني مدارس الإسكندرية فهي المدرسة الحافظية، التي أنشأها الوزير السني رضوان بن ولخشي لمحاربة التشيع وأهل الذمة في نفس الوقت، فقد استنحل أهل الذمة في مصر واستولوا على الوظائف المهمة في الدولة

(١) سعاد ماهر: مساجد مصر، ص ١٦٧.

(٢) ابن فرحون: الديباج، ج ٢، ص ٢٤٦.

(٣) ابن فرحون: الديباج، ج ٢، ص ٢٤٧.

وتزايد الأمر سنة (٤٦٦هـ/١٠٧٣م) مع قدوم بدر الدين الجمالي<sup>(١)</sup> إلى مصر، فلفقد كان أرمنيا اعتنق الإسلام لما ولاه الفاطميون دمشق، واشترط عند قدومه إلى مصر إنجده المستنصر<sup>(٢)</sup> أن يصحب جيشه معه، وكان يضم آلاف من الأرمن المسيحيين وعائلاتهم الذين استقروا في مصر حول القاهرة<sup>(٣)</sup>. واستمرت هجرة الأرمن كذلك في عهد ولده الأفضل ومن بعده المأمون البدلأحي<sup>(٤)</sup>.

ولما تولى الخلافة الحافظ عبد المجيد<sup>(٥)</sup> اختار وزيره إسماعيليا من أصل أرمني وهو أبو الفتح يانس ثم استوزر بعد ذلك بهرام الأرمني والي الغربية ونعته ( بسيف الإسلام تاج الملوك) رغم كونه نصرانيا وذلك في سنة (٥٢٩هـ/١١٢٨م) ولم يلبث بهرام أن أحضر من بلاد الأرمن اخوته وأهله حتى صار منهم بالديار المصرية نحو ثلاثين ألف إنسان وبنيت في عهده كنائس وأديوة فخاف المصريون من تفاقم أمرهم<sup>(٦)</sup> فبعث رؤساء المصريين إلى والي الغربية رضوان بن رنخشي أحد الأفراد الموصوفين بالشجاعة والإقدام، فحشد نحو

(١) هو أمير الجيوش بدر الدين الجمالي (ت ٤٨٧هـ/١٠٩٤م)، كان شديد البطش سريع الغضب تسلط على الحكم حتى لم يبق للخليفة المستنصر بالله شيء، تولى الوزارة لمدة (٢١) سنة. النويري: نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ٢٤، المقرئزي: اتعاظ الحنفاء، ج ١، ص ٣٨٠.

(٢) هو المستنصر بالله معد بن الظاهر علي بن الحاكم منصور بن العزيز، تولى الحكم بعد أبيه سنة (٤٢٧هـ/١٠٥٥م)، وتوفي سنة (٤٨٧هـ/١٠٩٤م)، وكانت مدة ولايته ٦٠ سنة و ٤ أشهر، جرت في أيامه فتن ومحن بسبب الغلاء والقحط، فاستجد بأمر الجيوش الجمالي من الشام ووكل له أمر الرعية. النويري: نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ٢٤٠؛ الذهبي: العبر، ج ٣، ص ٣١٨؛ ابن دقماق: الجواهر الثمين، ص ٢٠٨.

(٣) النويري: نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ٢٣٥.

(٤) المقرئزي: الخطط، ج ١، ص ٣٩٩.

(٥) هو الحافظ لدين الله أبو الميمون عبد المجيد ابن أبي القاسم بن محمد (ت ٥٤٤هـ/١١٥٠م)، كانت ولايته ١٨ سنة و ٤ أشهر و ١٩ يوما، وصف بالبطش والظلم، ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٣، ص ٢٣٧.

(٦) النويري: نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ٣٠١ - ٣٠٢.

ثلاثين ألفاً من العربان وغيرهم وسار بهم نحو القاهرة لمحاربة بهرام، فلما تقاربوا رفع رضوان المصاحف على الرماح فترك عسكر المسلمين بهرام والتجأوا بأجمعهم إلى رضوان<sup>(١)</sup>، وهرب بهرام بإشارة الحافظ إلى أخيه الباسك في قوص ونهب العامة سائر ديار الأرمن وبعض الكنائس، وقد توسط ملك صقلية روجر الثاني لدى الحافظ ليمنح بهرام وذويه الأمان<sup>(٢)</sup>، ونتيجة لتلك الأحداث اضطر الحافظ إلى تعيين رضوان وزيراً خلفاً لبهرام، فعمل على استخدام المسلمين في المناصب التي كانت بأيدي النصارى ورسم على أهل الذمة الجزية وبعض الشروط<sup>(٣)</sup>، ولما كانت اتجاهاته سنية فقد أنشأ مدرسة سنية في مدينة الإسكندرية عام (٥٣٢هـ/١١٣٧م)، لعدة اعتبارات من أهمها أن الإسكندرية مدينة سنية وجل أهلها من اتباع المذهب المالكي، وهي أيضاً بعيدة عن القاهرة مركز الخلافة الفاطمية الشيعية، وكذلك لتكون جبهة سنية يقاوم بها مذهب الدولة ونفوذ أهل الذمة، وقد أسند رئاستها وإدارة أوقافها إلى الفقيه المالكي أبي طاهر بن عوف، ولم يكتف الوزير رضوان بإنشاء مدرسة سنية مالكية في قلب الدولة الشيعية بل فكر في خلع الخليفة الفاطمي الحافظ واستشار في ذلك أبا الطاهر بن عوف وابن أبي كامل فقيه الإمامية وداعي الدعاة ابن سلامة، إلا أن هذا الأمر لم يتم<sup>(٤)</sup>.

وأما ثالث المدارس السنية بالإسكندرية في العهد الفاطمي فهي المدرسة التي أنشأها العادل بن السلار الذي كان والياً على الإسكندرية قبل توليه منصب الوزارة. وقد خص هذه المدرسة والتي سميت بالسلفية لتدريس الحديث والمذهب

(١) ابن ميسر: أخبار مصر، ص ١٢٤-١٢٥؛ المقرئ: اتعاظ الحنفاء، ج ٣، ص ١٥٨.

(٢) النويري: نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ٢٠٣، ٢٠٦؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٦، ص ٤٥٨-

(٣) ابن ميسر: أخبار مصر، ص ١٢٨-١٢٩.

(٤) المقرئ: اتعاظ الحنفاء ص ١٣٧.

الشافعي، ونصب بها رجلاً من كبار الحفاظ في عصره هو الحافظ أبو الطاهر السلفي وذلك بعد أربعة عشر عاماً من إنشاء المدرسة الحافظية (١).

وعندما استولى صلاح الدين الديار المصرية من الفاطميين، بدأ التحول السني الرسمي لمصر ابتداء من عام (٥٦٥هـ/١١٦٩م) حين أبطل الأذان بـ(حي على خير العمل) واستفتح بإقامة الخطبة في الجمعة الأولى بمصر لابي العباس سنة (٥٦٧هـ/١١٧١م) (٢)، وأمر أن يذكر في خطبة الجمعة الخلفاء الراشدين الأربعة (٣)، وعزل قضاة مصر من الشيعة، وحل مكانهم قضاة شافعية وعمر المدارس السنية بمصر والشام (٤)، وكانت للإسكندرية النصيب الأكبر والحظ الأوفر من اهتمامات صلاح الدين، فقد أنشأ بها المدارس ورحل إليها مصطحباً معه ولديه الأفضل والعزیز للسمع من السلفي (٥)، ورحل كذلك إلى أبي الطاهر بن عوف وسمع منه الموطأ (٦)، وقد واصل السلاطين الأيوبيون من بعده الجهود في التمكين للمذهب السني من خلال بناء المدارس وتقريب العلماء السنة (٧)، وهكذا ظلت الإسكندرية تؤدي دورها في العهد الأيوبي في نشر السنة والتمكين بها.

ولما ورث المماليك السلطة في مصر بعد أقول نجم الأيوبيين، واصلوا جهرد أسلافهم في محاربة التشيع بمصر، فقد حفظت لنا كتب التاريخ حركة رجل شيبي يدعى بالكوراني - نسبة إلى كوران من قرى اسفرائية - حيث أظهر

(١) السبكي: طبقات الشافعية، ج ٦، ص ٣٧؛ الصفيدي: الوافي بالوفيات، ج ٧، ص ٣٥٤؛ المقرئزي: اتعاظ الحنفاء، ج ٣، ص ١٩٨.

(٢) السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص ٤٧٧.

(٣) أبو شامة: الروضتين، ج ١، ص ٤٨٨؛ النويري: نهاية الأرب، ج ٢٦، ص ١٠٩؛ المقرئزي: الخطط، ج ٢، ص ٢٧١؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج ٢، ص ٥.

(٤) انظر في جهود صلاح الدين في إقامة المدارس السنية لمحاربة التشيع، سعيد عاشور: مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، ص ١٠٤، ١٠٥.

(٥) السيوطي: حسن المحاضرة، ج ٢، ص ١٨٢.

(٦) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ١٠، ص ٤٥٨؛ المقرئزي: اتعاظ الحنفاء، ج ١، ص ١٣٩.

(٧) لمعرفة المزيد عن الحركة الفكرية في عهد الأيوبيين، انظر: عبد اللطيف حمزة، الحركة الفكرية في مصر في العصريين الأيوبي والمملوكي الأول، ص ١٤٩ - ١٥٧.

الزهد والورع، وأخذ يجمع بعض خدم السلطان ويحرضهم على الخروج على المماليك ليتولى بدلهم حاكم شيعي، ثم ثاروا وشقوا القاهرة وهم ينادون: يا آل علي وفتحوا دكاكين السيوفيين أخذوا ما فيها من سلاح، ولكن عسكر السلطان ببيرس أحاطوا بهم وأوثقوهم وأنزلوا بهم عقوبة الصلب تعزيراً، وكان ذلك في أواخر سنة (٦٥٩هـ/١٢٦٠م)<sup>(١)</sup>.

وللحد من اتساع نطاق حركة التشيع بمصر عامة والإسكندرية خاصة فقد عمد سلاطين المماليك إلى اتخاذ إجراءات وقائية منها:

أولاً: أن السلطان الظاهر ببيرس رتب القضاة على المذاهب الأربعة، فقد كان القضاء أول الأمر في يد القاضي تاج الدين ابن بنت الأعز، ولما كثرت الشكايات منه وتوقفه في كثير من الأحكام جعل قضاة أربعة من كل مذهب من مذاهب السنة الأربعة المعروفة<sup>(٢)</sup>.

ثانياً: أكثر السلاطين المماليك من إنشاء المدارس السننية كوسيلة علمية للتمكين للمذهب السنني في البلاد، وأوقفوا عليها الأوقاف، لتتمكن من أداء رسالتها في محاربة التشيع، فقد قام الظاهر ببيرس بإنشاء أول مدرسة مملوكية سننية بالقاهرة سنة (٦٦٠هـ/١٢٦١م)، وسميت بالمدرسة الظاهرية، وقد جعل بها خزانة كتب ضخمة، وبنى بجانبها مكتباً لتعليم أيتام المسلمين<sup>(٣)</sup>، وقد سار على نهجه من جاء بعده من سلاطين المماليك الذين تنافسوا في إنشاء المدارس ودور العلم، وقد شهدت الإسكندرية عدد كبير من المدارس ودر العلم في العهد المملوكي<sup>(٤)</sup>.

ثالثاً: اهتمام سلاطين المماليك بالحديث وعلومه، فيذكر السيوطي الحال التي كانت عليها علوم الحديث والسنة زمن المماليك مقارنة مع زمن الفاطميين بقوله: (وما زال بها علم جم إلى أن ضعف ذلك باستيلاء العبيديين الرافضة عليها

(١) المقرئزي: السلوك، ج ١، ق ٣، ص ٤٠٠.

(٢) ابن نقماق: الجوهر الثمين، ص ٢٧٥؛ ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج ٣، ص ٤٦٦.

(٣) المقرئزي: الخطط، ج ٢، ص ٣٧٧ - ٣٧٨.

(٤) سيأتي نكراً ذلك بالتفصيل في الفصل الثالث من هذه الرسالة إن شاء الله تعالى.

سنة ٣٥٨، وبنو القاهرة وشاع التشيع بها وقل الحديث والسنة إلى أن وليها أمراء السنة النبوية وضعف الروافض والحمد لله<sup>(١)</sup>، وأضاف السخاوي: (وهي الآن أكبر البلاد عمارة بالفضلاء من سائر المذاهب والفنون)<sup>(٢)</sup>، وقد سبقت الإسكندرية بلاد مصر المملوكية في هذا الأمر، ففيها يقول الذهبي: (ما زال بها الحديث قليلا حتى سكنها السلفي، فصارت مرحولا إليها في الحديث والقراءات)<sup>(٣)</sup>، وقد اعتاد سلاطين المماليك إصدار المراسيم السلطانية بقراءة صحيح البخاري ومسلم في القلعة وفي المساجد وإلزام الناس بالحضور فمن ذلك ما كان في عام (٨٢٦هـ/٤٢٢م)، حيث أمر السلطان (برسباي) بإحضار العلماء لسماع "صحيح البخاري" بالقلعة<sup>(٤)</sup>، وفي عام (٨٢٩هـ/٤٢٥م) أمر السلطان (برسباي) بقراءة "صحيح مسلم" بالقلعة واجتمع الفقهاء والعلماء وخلع عليهم في يوم الختم خلعا سنية، وفي عهد السلطان (الأشرف قايتباي) عام (٨٧٢هـ/٤٦٧م) ختم "صحيح البخاري" بالقلعة وحضر القضاة والعلماء وفرقت الخلع كالعادة<sup>(٥)</sup>، وفي عهد السلطان (قانسوه الغوري) في رمضان عام (٩١١هـ/٥٠٥م) كان ختم قراءة "صحيح البخاري"، وكان الختم بالحوش السلطاني، ويعلق ابن إياس على ذلك بقوله: (وكانت العادة القديمة بأن البخاري يقرأ بالقصر ويختم بالقصر ويكون له يوم مشهود وتفرق هناك الخلع على القضاة ومشايخ العلم ..)<sup>(٦)</sup>.

وكان السلاطين يتشددون في معاقبة من يسيء الأدب في مجلس العلم فقد أكد السلطان (برسباي) على القاضي الشافعي عام (٨٣٨هـ/٤٣٤م) أن يحضر معه عصا في دروس الحديث، ومن تعدى أو أساء الأدب في المجلس أدب<sup>(٧)</sup>.

(١) الذهبي: الأمصار ذوات الآثار، ص ١٧٠ - ١٧١.

(٢) السخاوي: الإعلان بالتوبيخ، ص ٦٦٢.

(٣) الذهبي: الأمصار ذوات الآثار، ص ١٨٠.

(٤) ابن حجر: إنباء الغمر، ج ٣، ص ٣٠٦.

(٥) ابن إياس: بدائع الزهور، ج ٣، ص ١١.

(٦) ابن إياس: بدائع الزهور، ج ٤، ص ٨٨.

(٧) ابن حجر: إنباء الغمر، ج ٣، ص ٥٤٨.

وكانوا يرتبون الخلع المقررة للطالب الذي يديم سماع الحديث ويعطونه المال الجزيل كما ذكره ابن حجر في تاريخه<sup>(١)</sup>.

ولا شك أن قراءة الحديث مغايرة تماماً للمذهب الشيعي الذي يعتمد في أصله على أساطير وخرافات، ولا شك أيضاً أن قراءة "الصحيحين" مكنت للمذهب السني في نفوس العوام والأمراء وأكابر الدولة مما وطد للسنة في مصر وخرج التشيع إلى غير رجعة.

ولقد كان تلاميذ الحافظ السلفي بالإسكندرية يتصدرون الإقراء والتحديث وكانت الرحلة تشد لهم من كل مكان<sup>(٢)</sup>.

رابعاً: تعاقب سلاطين المماليك على إزالة المنكرات الظاهرة والأمر بالمعروف للتأكيد على تطبيق المذهب السني، فقد قام الظاهر بيبرس بالقضاء على بؤر التشيع نهائياً، واستئصال شأفته في دولته، وإقامة الجمع، والترضي عن الصحابة، والقضاء على المنكرات بها، وإقامة شعائر وشرائع الإسلام فيها<sup>(٣)</sup>، كما منع تعاطي الحشيش والاتجار به، وأمر بإراقة الخمر في سائر البلاد، وإغلاق بيوت المسكرات، ومنع الحانات والخواطي بجميع أقطار دولته في مصر والشام وأرسن المراسيم لتقرأ على المنابر في سائر الأقطار، ولما ورد المرسوم إلى قاضي الإسكندرية ناصر الدين أحمد بن المنير قال:

ليس لإبليس عندنا أرب غير بلاد الأمير مأواه  
حُرْمَتُهُ الخمرُ والحشيشُ معاً حُرْمَتُهُ مِاءه ومرعاه<sup>(٤)</sup>.

وقد توعد بيبرس من يعصرها أو يشربها بالقتل، فأريق على الأجناد والعوام منها ما لا يحصى قيمته<sup>(٥)</sup>، وشنق بعض من شرب الخمر<sup>(٦)</sup>.

(١) ابن حجر: إنباء الغمر، ج ٣، ص ٥٤٨.

(٢) للوقوف على تفصيله انظر ما يلي ص ٣٤٢.

(٣) المقرئزي: السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٦٠٨.

(٤) المقرئزي: الخطط، ج ١، ص ١٩٦، وانظر ما سبق ص ١٢٢ في الأوضاع الاجتماعية.

(٥) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص ٦٦٨؛ المقرئزي: السلوك، ج ١، ق ٣، ص ٦٦٨.

(٦) المقرئزي: الخطط، ج ١، ص ١٩٧.



وحذا حذو الظاهر بيبرس من سلاطين المماليك من بعده، ففي عد الناصر محمد قام والي القاهرة بتوسيط جماعة من المفسدين، وأراق الخمر، وأحرق الحشيش، وقد نال ذلك العمل منه استحسان الناصر<sup>(١)</sup>، وفي بغداد تم رسم إراقه الشراب حتى ملأ دجلة، ومنع الناس من عصر العنب، وأمر بالنداء على أن من وجد عنده شيء من الشراب فيكون عرضة لعقوبة القتل، وقتل بسبب ذلك جماعة كما رسم باستتابة الخواطيء وتزويجهن حتى لم يبقى في البلاد خاطئة<sup>(٢)</sup>، وفي الإسكندرية قام الأمير بكتمر الحسامي<sup>(٣)</sup> والي الثغر بإراقه الخمر ومنع بيعها وحمل الناس على الأمور الشرعية ووقع عليهم الغرامات حتى امتثلوا للشرع<sup>(٤)</sup> بل نستطيع القول أن الإسكندرية أصبحت يضرب بها المثل في المحافظة على علوم الشريعة، وتغيير المنكر، فقد ذكر القلقشندي نقلاً عن صاحب مسالك الأبصار عن مدينة فاس: (أنها صلحت أن تكون قاعدة الملك، وأنها تشبه الإسكندرية في المحافظة على علوم الشريعة وتغيير المنكر والقيام بالناموس)<sup>(٥)</sup>.

وسار النواب على نهج سلاطينهم في هذا الأمر، فهاهو نائب الإسكندرية جانبك الناصري، يخلع عليه السلطان ببندر جدة، وكان الناصري قد حمل قسطاً من العلم من الإسكندرية، فلما وجد بجدة مصطبة اصطح الناس على أن من التجأ من أرباب الجرائم بها، فإنها تفيده ولا يجرؤ أحد على أخذه من عليها كان من كان، فقام بهدم هذه المصطبة حفاظاً على عقائد الناس، وقد عبر ذلك ابن تغري بردي بقوله: (فإن الله يغفر له بإزالة هذه البدعة من بين المسلمين)<sup>(٦)</sup>.

(١) ابن حجر: الدرر الكامنة، ج ٣، ص ٣٢٨ - ٣٢٩.

(٢) اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج ٢، ص ٤٠٤.

(٣) هو الأمير بكتمر الحسامي (ت ٧٣٨هـ / ١٣٣٧م)، تولى الثغر خلفاً للأمير بيلباك المحسن، وكان قبل ذلك حاجباً بدمشق، لمزيد عن ترجمته انظر ابن حجر: الدرر الكامنة، ج ١، ص ٤٨٧، ابن تغري بردي: المنهل، ج ٣، ص ٣٨٦.

(٤) المقرئ: السلوك، ج ٢، ص ١، ص ٢٥٠.

(٥) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٥، ص ١٥٧.

(٦) ابن تغري بردي: المنهل، ج ٤، ص ٢٣٠، ٢٣١.

خامساً: حرص سلاطين المماليك ونوابهم على إنزال عقوبة التعزير على الزنادقة<sup>(١)</sup>، فلا شك أن الاتجاهات الفكرية المنحرفة تعتمد على مخالفة الكتاب والسنة فيما تعتقد وتدعو إليه، كما كان من شأن العبيديين في مصر الفاطمية، ولما قام سلاطين المماليك بتأكيد هوية مصر السنية سيراً على نهج الأيوبيين، رأوا أن الأمر يحتاج إلى القبض بيد من حديد لمنع المخالفات العقديّة بدولتهم من ذلك ما ذكره ابن حبيب في حوادث سنة (٧٠١هـ/١٣٠١م) من ضرب رقبة أحمد بن محمد البقبي بالقاهرة المحروسة بين القصرين لزندقته وتلاعبه بالدين واستخفافه بالشرع الشريف واستهتاره بالقرآن الكريم<sup>(٢)</sup>، وقد سلم لقاضي القضاة المالكية زين الدين علي بن مخلوف (ت ٧١٨هـ/١٣٣٨م)، الذي حكم بقتله<sup>(٣)</sup>، وقد قال فيه الحكيم شمس الدين محمد بن دانيال<sup>(٤)</sup> لما سجن ليقتل:

يظن فتى البقبي أنه سيخلص من قبضة المالكي  
نعم سوف يُسَلِّمُهُ المالكي قريباً ولكن إلى مالك<sup>(٥)</sup>

(١) الزنديق: هو الذي يظهر الإسلام ويخفي الكفر، إذا تبين أمره قبل أن يتوب من الزندقة، انظر: أبو بكر الجزائري: منهاج المسلم، ص ٥٠٥؛ وهبة الزحيلي: الفقه الإسلامي وأدلته، ج ٦، ص ١٨٤.

(٢) ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج ١، ص ٢٤١؛ ابن حجر: الدرر الكامنة، ج ١، ص ٣٢٩؛ ابن تغوي بردي: المنهل الصافي، ج ٢، ص ١٨٧-١٨٨.

(٣) ابن حجر: الدرر الكامنة، ج ٣، ص ٢٠٢؛ وقد أورد العيني في كتابه عقود الجمان القصّة بالكامل، وكيف أن جماعة من أصحابه ومن أكابر القبط حاولوا عند القاضي زين الدين أن يستتبيه وأن لا يقتله وأرادوا أن يثبتوا له جنوناً ليتخلص من هذه الورطة، ولكن القاضي أمر بإرافة دمه لما ثبت لديه من زندقته وكفره بعد أن تحدث في هذا الأمر مع السلطان الملك الناصر بن قلاوون، والذي ترك أمر القضاء في ذلك الزنديق للقاضي، انظر: العيني: عقد الجمان، ج ٤، ص ١٧٧-١٨٣.

(٤) هو محمد بن دانيال بن يوسف الموصلّي، الحكيم شمس الدين الكحال الفاضل الأديب (ت ٧١٠هـ/١٣١٠م)، انظر: ابن حجر: الدرر الكامنة، ج ٤، ص ٥٤؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٦، ص ٢٧.

(٥) ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج ١، ص ٢٤٢؛ ابن تغوي بردي: المنهل، ج ٢، ص ١٨٨.

وكذلك كان الأمر بدمشق ففي سنة (٧٠٤هـ/—١٣٠٤م) حكم القاضي المالكي بقتل محمد بن عبد الرحيم بن عبد المنعم بن عمر بن عثمان الباجريقي وإراقة دمه وإن تاب وأسلم، لاستخفافه بالدين وكلامه في الباري عز وجل (١).  
وكذلك ما حدث بالصعيد سنة (٩١١هـ/—١٥٠٥م) عندما خرج شخص من الفقراء قيل له المهدي وقامت عليه البينة بأنه زنديق ساحر يتوضأ باللبن ويستجي به، وأشياء من هذا النمط فأرسل السلطان إلى قاضي القضاة المالكي، فحكم بقتله وضربت عنقه تحت شباك المدرسة الصالحية بعد أن أشهروه على جمل (٢).  
وفي نفس العام خرج خارجي من الصعيد يزعم أنه من خلفاء الصوفي وتكلم بكفريات وطعن في القرآن والحديث فطلب إلى مصر وحكم عليه الشيخ شمس الدين الخطيب الحنفي بقتله، ورميت برقبته ثم اتبع باثنين من جماعته (٣).  
ولقد كان أكثر هؤلاء الزنادقة يحالون على القاضي المالكي بالديار المصرية، لأن مذهب المالكية ينص على أن الزنديق ينفذ فيه الحكم وإن أظهر التوبة خلافاً للمشهور من بقية المذاهب (٤)، ولذا اختار المالكيك الإحالة للمالكية

(١) ابن حبيب: تذكرة البنية، ج ١، ص ٢٦٤، ويلاحظ أن الباجريقي هرب بعد الحكم عليه وأقام بمصر بالجامع الأزهر ثم نزل اقرب دمشق إلى أن مات سنة (٧٢٤هـ/—١٣٢٣م)، كما ذكره ابن حجر في الدرر الكامنة، ج ٤، ص ٢٣٠؛ وابن شاکر: فوات الوفيات، ج ٢، ص ٤٤؛ وابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٦، ص ٦٤.

(٢) ابن إياس: بدائع الزهور، ج ٤، ص ٨٧.

(٣) ابن طولون: مفاكهة الخلان، ج ١، ص ٣٠٢. (وإن كان غالب القضاة المالكية بمصر كانوا من الإسكندرية كقضاة بيت التنسي والدمايني وغيرهم).

(٤) اختلف العلماء في قبول توبة الزنديق، فذهب الإمام الشافعي إلى قبولها لأن النبي صلى الله عليه وسلم كف عن المنافقين مع إخبار الله تعالى له بباطنهم، وذهب الإمام مالك إلى عدم قبول توبته واستدل لهذا بقوله تعالى: {إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا}، والزنديق لا تظهر منه علامة تبين، وعن الأمام أبي حنيفة والإمام أحمد روايتان كالمذهبيين، انظر: ابن قدامة: المغني، ج ١٢، ص ٢٦٩—٢٧١؛ ابن عبد البر: الكافي في فقه أهل المدينة المالكي، ج ٢، ص ١٠٩١؛ ابن تيمية: مجموع الفتاوى، ج ١٦، ص ٣٠، وهذا الخلاف في توبته في الظاهر

لمنع التهتك والاستهتار بالشرع، بل إنهم كانوا يعملون على الفور بفتوى القضاة المالكية خاصة التي تصلهم من الإسكندرية لحسم مادة الزندقة، كما حدث سنة (٦٦٦هـ/١٢٦٧م)، حين أرسل قضاة الإسكندرية فتوى بقتل بولص الراهب المعروف بالحبيس، والذي أظهر الكثير من المال دون أن يعلم مصدره، وكان يواسي به أهل الذمة وغيرهم، فجاءت الفتاوى من فقهاء الإسكندرية إلى السلطان الظاهر بيبرس بقتله، وعللوا ذلك بخوف الفتنة على ضعفاء النفوس من المسلمين (١)، ويلاحظ أن هؤلاء الزنادقة كانوا في كثير من البلاد شمالها وجنوبها إلا أنه لم تحدثنا المصادر عن وجود شيء من ذلك بالإسكندرية، بل لما وجد بالإسكندرية من حكم عليه بالزندقة لم يكن من أهلها إنما كان قادما من خارجها، فقد ضربت عنق ميخائيل الأسلمي الذي كان نصرانيا وأسلم وقرر في نظر الإسكندرية سنة (٧٨٩هـ/١٣٨٧م)، بعد أن اثبت عليه أنه زنديق وشهد عليه بذلك خمسون إلا واحد (٢)، ولعل السبب في ذلك هو تقدم الإسكندرية على غيرها من المدن بظهور مدارس السنة بها إبان الحكم الفاطمي وأيضا كان انتشار المذهب المالكي بالإسكندرية واعتلاء منصب القضاء بها قضاة مالكيون حد من زحف الفكر الزنديقي إلى الثغر مما أثر في التمكين للمذهب السني بها والله تعالى أعلم

أما في الباطن ففتنعه التوبة عند الله إن كان تاب توبة صحيحة، انظر: خالد حمزة: تقریب وترتيب شرح العقيدة الطحاوية، ج ٢، ص ٧٩٤.

(١) اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج ٢، ص ٣٨٩.

(٢) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٦، ص ٣٠١.

# الفصل الثالث

## دور العلم في الإسكندرية

### ونظمه ووسائله خلال العصر المملوكي

- . المساجد .
- . الكتاتيب .
- . المدارس النظامية .
- . دور العلماء .
- . الأربطة والخانقوات .
- . أثر شيخ الإسلام ابن تيمية على الحياة العلمية بالإسكندرية .
- . الرحلات العلمية .
- . الإجازات العلمية .
- . المناظرات والندوات العلمية .
- . المدرسون وطرق التدريس .

## المساجد

لم يقتصر دور المسجد في الإسلام على مجرد أداء الصلوات الخمس، بل تجاوز ذلك، فصار مؤسسة اجتماعية تربوية لم تعرف الدنيا لها مثيلاً ويُعدُّ المسجد النواة الأولية لبث الدعوة الإسلامية، ولا أدل على أهميته من أن النبي صلى الله عليه وسلم أول ما قدم المدينة قام بالإعداد لبناء المسجد، واشترى أرضه من يتيمين ثم قام بتجهيزه حتى صار مسجداً مؤسساً على التقوى<sup>(١)</sup>، ولعل من أهم خصائص المسجد في الإسلام أنه منارة علم دائمة، ومؤسسة تربوية واجتماعية، ومكان لعقد رايات الجهاد<sup>(٢)</sup>.

ولم يحدث تغيير كبير في خصائص المساجد في الدولة المملوكية عنها في عصور الإسلام السابقة، فكانت المساجد تؤدي دورها العلمي من خلال الخطابة وحلقات الدروس، وتؤدي دورها الاجتماعي التربوي كذلك، كما أنها لم تغفل الدور الجهادي ولا سيما وأن دولة المماليك دولة جهادية<sup>(٣)</sup>.

أما بالنسبة لدور المسجد في الحركة العلمية، فقد كانت المساجد والمدارس تمثل وحدة واحدة من ناحية التدريس العلمي لعلوم الشريعة، بل صارت كثير من المدارس تقام فيها الصلوات الخمس، بل وصلاة الجمعة أيضاً<sup>(٤)</sup>، إلا أننا يمكن أن نلمح فرهاً بين دور المسجد العلمي، ودور المدارس، وذلك من خلال ما يلي:

— كانت الدروس بالمساجد مفتوحة، بمعنى أن الشيخ يلقي الدرس على الطلاب، والطلاب لا يتقيدون بعدد معين، بعكس المدارس التي كانت أعداد

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٢، ق ٣، ص ٢١٣ - ٢١٧؛ محمد بن عبد الوهاب: مختصر سيرة الرسول، ص ٩٣.

(٢) الوثلي: المسجد ودوره التعليمي عبر العصور، ص ٢٢، ٢٣.

(٣) سعيد عاشور: العلم بين المسجد والمدرسة، من مجموعة أبحاث تاريخ المدارس الإسلامية في مصر، ص ١١٦ - ١١٨.

(٤) محمد حمزة: العلاقة بين النص التأسيسي والوظيفة والتخطيط المعماري للمدرسة في العصر المملوكي، من أبحاث ندوة المدارس في مصر الإسلامية، ص ٢٨٨.

الطلاب لا يتجاوز ما قرره واقف المدرسة عادة (١).

— لم تكن ثمة أوقاف مرتبة لطلاب حلقات الدروس في المساجد، ولذا فالرغبة في العلم الشرعي كانت الحافز الأساسي لهؤلاء الطلاب، ولذا نبغ فيهم كثيرون وصاروا أئمة يقتدى بهم.

— عادة لا يتم تقرير مرتب للمدرس بالمساجد، إلا في بعض الحالات، ولهذا فإن المدرس إنما يلقي دروسه حسبةً.

— كانت المساجد مفتوحة وحلقات العلم فيها كثيرة ومتنوعة، وبإمكان الطالب أن ينتقل من حلقة إلى أخرى وفق رغبته، كما أن الحضور كان بها اختيارياً، ولكافة الطبقات والأعمار.

— كانت المساجد مفتوحة أمام الغرباء بحيث يدخلونها بغير حرج أو تكلف بينما كانت المدارس لها أنظمتها التي قد يتحرج بعض الغرباء من دخولها (٢).

ولما كان سلاطين المماليك ممن اهتم بإنشاء العماير الدينية ومنها المساجد (٣)، فقد شهدت مدينة الإسكندرية في عهدهم العديد من هذه المساجد والتي عبر عنها ابن جبير بقوله وهي: (أكثر بلاد الله مساجد، حتى إن تقدير الناس لها يطفف، فمنهم الكثير والمقل، فالمكثر ينتهي في تقديره إلى اثني عشر ألف مسجد والمقل دون ذلك لا ينضب، فمنهم من يقول: ثمانية آلاف، ومنهم من يقول غير ذلك، وبالجملة فهي كثيرة جداً، تكون منها الأربعة والخمسة في موضع) (٤).

(١) انظر محمد أمين: الأوقاف، ص ٢٤٧.

(٢) ولا شك أن وجود العديد من الغرباء بأسئلتهم ومناقشاتهم يثري الحركة العلمية، كما يأتي تفصيله إن شاء الله في الفصل الرابع من هذه الرسالة.

(٣) النهرواني: الإعلام، ص ٢١٤، وانظر على سبيل المثال المنشآت الدينية من مساجد ومدارس وأربطة أنشأها السلطان المنصور قلاوون وأبناؤه الناصر محمد وأخوه الحسن والتي ما زالت إلى الآن تشهد على روعة البناء والتصميم وتؤكد على حب المماليك للبناء والعمارة.

(٤) ابن جبير: الرحلة، ص ٤٣.

كما تحدث الهروي عن ذلك بقوله: (وبها من المساجد والمعابد ما لا رأيتُه  
بغيرها، وذكر لي ابن منقذ أن فيها اثني عشر ألف مسجد)<sup>(١)</sup>.

وعلى الرغم من التفاوت الرقمي نسبيا عند ابن جبير والهروي، إلا أن  
زائرا آخر للإسكندرية في نفس الفترة، وهو محمد بن عبد الوهاب بن خزيمة  
الذي أقام بالمدينة نحو الأربعين سنة، ذكر عددا آخر للمساجد، حيث قال:  
(وبها ٨٠٠ مسجد، منها ١٩٠ للخطبة)<sup>(٢)</sup>.

وهذه النقول في الجملة لها دلالتها على كثرة مساجد الثغر، وخاصة  
المساجد التي تقام فيها صلاة الجمعة، كذلك لها دلالتها على كثرة أهل الإسكندرية  
في ذلك الزمان، فإن الأصل أن خطبة الجمعة تكون في البلد الواحد في مسجد  
واحد فقط، ثم الأمر يزداد بحسب احتياج البلد إلى مسجد آخر وثالث<sup>(٣)</sup>، ووجود  
(١٩٠) مسجدا يخطب فيه الجمعة بالإسكندرية يدل على كثرة أهلها، إضافة إلى  
ذلك له دلالة أخرى على نشاط الحركة العلمية، إذ كانت خطب الجمع تشكل  
دروسا يستفيد منها الحاضرون، ناهيك عن الخطب المدونة والتي استيفاد منها  
الكثير من طلبة العلم من أهل المدينة وممن يفد إليها.

ولا شك أن الحال استمرت على هذا المنوال في طوال العهد المملوكي  
ويأتي في طليعة هذه المساجد جامعان يعود بناؤهما إلى ما قبل العصر  
المملوكي، ألا وهما الجامع الغربي والجامع الشرقي .

(١) الهروي: كتاب الإشارات، ص ٤٧ - ٤٨.

(٢) نقلا عن الشيال: تاريخ الإسكندرية، ص ٨١. وهذا الرقم قد يكون أقل مبالغة، ويرجح أنه  
صاحبه ممن أقام بالإسكندرية ولم يكن رحالة يسمع ما يقال له، إلا أن العدد مازال كبيرا !.

(٣) لقد نص الفتواء على أنه إذا كان البلد كبيرا يحتاج إلى جوامع فصلاة الجمعة في جميعها  
جائزة، وأما مع عدم الحاجة فلا يحق أكثر من واحدة، وإن حصل الغنى باثنتين لم تجز الثالثة  
وكذلك ما زاد، انظر في ذلك: ابن قدامة، المغني: ج ٣، ص ٢١٣.



فالأول وهو الجامع الغربي: فيعد أقدم مساجد الإسكندرية، إذ يعود تاريخ إنشائه إلى الفتح الإسلامي للإسكندرية، فقد أقامه القائد عمرو بن العاص رضي الله عنه فوق كوم وعله<sup>(١)</sup> غربي المدينة بمسافة غير بعيدة عن البحر<sup>(٢)</sup>.

وقد ذكره القلقشندي في نسخة تكليف بالخطابة جاء فيها: (وأما الجامع الغربي فهو أجل جوامع الإسكندرية قدراً وأعظمها صيتاً وأسيرها في الأفاق ذكراً يحضر الجمعة فيه أهل المشرق والمغرب، ويلم بخطبته سكان الوهاد والهضب)<sup>(٣)</sup>، وهذا الحشد الكبير الذي يجتمع لصلاة الجمعة له دلالتان حضارية وعلمية، فالحضارية لتقدم العمارة الهندسية بالإسكندرية، فإن المسجد الذي يتسع لـ (أهل المشرق والمغرب.. وسكان الوهاد والهضب)، لابد أن يكون ضخماً وأعمدته عالية بحيث لا يحدث اختناق، كما لابد أن يراعى كون العتب والقباب في السقف بحيث تعكس صوت الإمام إلى المصلين في آخر الصفوف، ففي كتب الرحالة وصف المسجد بأنه بناء ضخم، مربع الشكل، يشتمل على أربعة إيوانات يضم إيوان القبلة ٢٩ بلاطة تقطعها خمسة أساكيب<sup>(٤)</sup>، ويتوسط صحن الجامع قبة للوضوء تحيط بها أحواض الزهور، وتحتوي عقودها على زخارف جميلة، وتتكون مئذنته من ثلاث طوابق، ويعلو جدران المسجد شرفات مسننة الشكل تشبه شرفات الجامع الأزهر، ويدور بأعلى جدران المسجد نوافذ معقودة<sup>(٥)</sup>.

(١) كوم وعله: عبارة عن تل من الأنقاض بيدوا للقدام إلى الإسكندرية من أبواب البر، وينسب هذا الاسم إلى عبد الرحمن بن وعله السبئي المصري صاحب ابن عباس رضي الله عنهما وهو صاحب المقبرة وصار اسمه علماً عليها، انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ١، ص ٨٨؛ السيد عبد العزيز السالم: تاريخ الإسكندرية، ص ٤٥٧.

(٢) ابن عبد الحكم، فتوح مصر، ص ٤١، ١٣٠؛ ابن رشيد: ملء الغيبة، ج ٣، ص ٩٣.

(٣) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ١١، ص ٤١٨.

(٤) البلاطة: هي الجزء المعماري المحصور بين أربعة أعمدة، في حين إن الأسكوب: هو العرضة الموازية لجدار القبلة. انظر حسين مؤنس: المساجد، ص ٨٨، ٨٩. وأما الإيوان: فهو قاعة مسقوفة بقبوة، انظر أحمد فكري: مساجد القاهرة ومدارسها، ج ٢، ص ٨٧.

(٥) السيد عبد العزيز السالم: تاريخ الإسكندرية، ص ٤٧٢.

وقد أطلق عليه جامع الألف عمود<sup>(١)</sup>، وذكر المؤرخون أنه صلى في أحد أيام الجمع فيه على سبعمائة جنازة دفعة واحدة وذلك إبان الوباء الذي اجتاح الإسكندرية عام (٧٤٩هـ/١٣٤٨م)<sup>(٢)</sup>، كما عرف باسم المسجد العتيق<sup>(٣)</sup>، وهذه التسمية مأخوذة من كونه أول المساجد الجامعة التي أقيمت بالثغر مع الفتح الإسلامي للمدينة، وعرف أيضا بجامع السبعين<sup>(٤)</sup>، والجامع الأخضر<sup>(٥)</sup>.

وقد ظل هذا المسجد موضع العناية من قبل الأيوبيين والمماليك، فقد زاد في مساحته السلطان صلاح الدين الأيوبي زيادة كبيرة<sup>(٦)</sup>، وصلى فيه السلطان المملوكي الأشرف شعبان الجمعة إبان زيارته للمدينة وتفقدته لأنحائها بعد واقعة القبارصة<sup>(٧)</sup>، وقد أمر بترميمه في عام (٧٧٢هـ/١٣٧٠م)، فقام بذلك الشيخ معين الدين ابن الشيخ بهاء الدين عبد الله الدماميني ناظر الإسكندرية<sup>(٨)</sup>، كما أن الشيخ ابن سلام صاحب الرباط المعروف كان قد دأب على تغطية هذا المسجد بصفوف من الحصر والجداول من ماله الخاص<sup>(٩)</sup>.

وقد ظل الجامع الغربي يؤدي رسالته العلمية طيلة العصر المملوكي<sup>(١٠)</sup> وقد تولى الخطابة فيه ثلة من العلماء، من أشهرهم ناصر الدين ابن المنير قاضي الإسكندرية، والذي بلغت شهرته في الخطابة أنه لما صدر الأمر بتولية القاضي

- 
- (١) النويري السكندري: الإمام، ج ١، ص ١٠٢، ج ٦، ص ٤٨؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج ١، ص ٨٥؛ السيد عبد العزيز السالم: تاريخ الإسكندرية، ١٠٤.
  - (٢) ابن بطوطة: الرحلة، ص ٦٥٢.
  - (٣) ابن رشيد: ملء العيبة، ج ٣، ص ٩٣؛ النويري السكندري: الإمام، ج ٤، ص ٤٠.
  - (٤) علي مبارك: الخطط، ج ٧، ص ١١٥.
  - (٥) راجع مجلة الجمعية الملكية للآثار بالإسكندرية، مج ٣٤، سنة ١٩٤١، ص ٩٨، ٩٩، نقلا من هامش: النويري السكندري: الإمام، ج ١، ص ١٠٢.
  - (٦) النويري السكندري: الإمام، ج ٤، ص ٤٠.
  - (٧) النويري السكندري: الإمام، ج ٦، ص ٤.
  - (٨) النويري السكندري: الإمام، ج ٤، ص ٤١ - ٤٥.
  - (٩) النويري السكندري: الإمام، ج ٢، ص ١٥٤.
  - (١٠) السيد عبد العزيز السالم: تاريخ الإسكندرية، ص ٤٧٢.

محمد بن الطنّاحي الخطبة بالمسجد عام (٨٠٤هـ/٤٠١م)، جاء في سجل تكليفه بالخطبة ما يلي: (فليرق منبره رقى من خطب المنبر لخطبته، وعلم علو مقامه فقابله بعلو رتبته، ويشنف الاسماع بوعظه، ويشبع القلب بلفظه، ويحي العقول بتذكيره، ويبك العيون بتحذيره، وليعد للجامع ما تعوده من الإسعاد، ويجدد ما درس من معالم خطابته حتى يقال: هذا ابن المنير قد عاد)<sup>(١)</sup>، وهذا الوصف يدل على ما كان عليه ابن المنير في خطبته من التذكير وقوة الألفاظ وإيحاء الحاضرين حتى صار مضرب المثل في الخطابة، وممن تولى الخطابة أيضا بهذا المسجد شرف الدين محمد الدماميني<sup>(٢)</sup>، وكذلك بدر الدين محمد الدماميني<sup>(٣)</sup> وأيضا الزين عبد الرحمن الفكري وقد ظل محتفظا بإمامته وخطابته حتى مات سنة (٨٣٣هـ/٤٢٩م)<sup>(٤)</sup>، ومن بعده ابنه الشهاب أحمد (ت ٨٧٠هـ/٤٦٥م) واستمر إماما للمسجد (٣٥) عاما، ثم جلس شاهدا، وترك الإمامة والعمل بالقضاء وانصرف للتجارة<sup>(٥)</sup> ومنهم علي بن محمد بن محمد بن عبد الوهاب بن يفتح الله القرشي السكندري (ت ٨٦٢هـ/٤٥٧م)<sup>(٦)</sup>.

وممن درس بالجامع الغربي أيضا: الإمام عبد الكريم بن علي بن محمد النحوي الضريير والملقب بالبارع، فقد كانت له حلقة به يقرئ النحو، وصف بميله نحو الخير مع كثرة الصمت<sup>(٧)</sup>.

وأما الجامع الشرقي: فكان يقع بحي العطارين، ولذا أطلق عليه جامع العطارين، ويرجع تاريخ بنائه إلى الفتح الإسلامي أيضا<sup>(٨)</sup>، ولكنه لم يكن جامعا

(١) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ١١، ص ٤١٨، ٤١٩.

(٢) المقرئزي: السلوك، ج ٣، ق ٣، ص ٩٩٨.

(٣) القرافي: نوشيح الديباج، ص ١٧٩، ١٧٦.

(٤) السخاوي: الضوء اللامع، ج ٤، ص ١٥٦؛ الداودي: طبقات المفسرين، ج ١، ص ٢٨٧.

(٥) السخاوي: الضوء اللامع، ج ١، ص ٣٣٥.

(٦) السخاوي: الضوء اللامع، ج ٦، ص ١٨.

(٧) الصفدي: نكت الهميان، ص ١٩٥.

(٨) الشياح: الإسكندرية طبغرافية المدينة، ص ٢٠٣، ٢١٦.

إلا في عهد الوزير الفاطمي أمير الجيوش بدر الدين الجمالي وزير الخليفة الفاطمي المستنصر حيث أمر بإعادة بنائه من المصادرات التي فرضها على أهل الإسكندرية عقوبة لهم على مداراتهم لولده الأوحده الذي ثار عليه، ومنذ ذلك الحين أقيمت فيه الخطبة وصار جامعاً<sup>(١)</sup>، وقد استمرت الخطبة فيه طيلة عهد الفاطميين إلا أن صلاح الدين الأيوبي أوقف الخطبة فيه، ولعله لعدم الحاجة مع وجود الجامع الغربي، إلا أنه في العهد المملوكي وتحديداً زمن الناصر محمد بن قلاوون أعيدت خطبة الجمعة به، وعين القاضي فخر الدين محمد بن محمد بن مسكين الشافعي (ت ٧٦١هـ/١٣٦٠م) خطيباً له<sup>(٢)</sup>، وقد أطلق عليه أيضاً الجامع الجيوشي، نسبة إلى الوزير الفاطمي أمير الجيوش الجمالي<sup>(٣)</sup>، وقد قام على خدمته ثلثة من علماء الإسكندرية، من هؤلاء قاضي القضاة كمال الدين التنسي، فقد أولاه عناية واهتماماً فائقاً، من حيث تفقده وترميمه وتجديده، فمن ذلك عندما سقط سنة (٧٧٢هـ/١٣٧١م) عمود من أعمدته فتكسر قطعاً، فقام بانتزاع عمود من أعمدة الجانب البحري للمسجد ووضع مكان العمود الساقط، ثم دعمه بعمود آخر جلبه من فندق الموز بشارع المرجانيين وكان قد تهدم في واقعة القبارصة، كذلك قام كمال الدين بترميم الجامع في العام التالي وكساه بالبياض، وغرس في صحنه أشجاراً على نحو ما كان في مساجد الأندلس، ووصف بأنه كان منتظم الشكل، يقوم على كل ركن من أركانه الأربعة مئذنة مرتفعة، يحتوى على فناء داخلي مكشوف يتوسط صحنه ميضأة وأشجار ونباتات، احتوت جدرانه على زخارف جميلة محفورة على قطع الرخام والجرانيت ومطعمة بالفسيفساء<sup>(٤)</sup>، وقد نظم النويري السكندري شعراً جاء فيه:

(١) المقرئزي: اتعاظ الحنفا، ج ٢، ص ٣٢١؛ وقد سجل هذا التجديد على لوحة رخامية لا تزال حتى الآن باقية في أدنى المئذنة انظر: السيد عبد العزيز السالم: تاريخ الإسكندرية، ص ٢٢٠.

(٢) النويري السكندري: الإمام، ج ٤، ص ٤٠؛ المقرئزي: اتعاظ الحنفا، ج ٢، ص ٣٢١؛ السلوك، ج ٣، ق ١، ص ٥٦.

(٣) النويري السكندري: الإمام، ج ٤، ص ٤٠.

(٤) السيد عبد العزيز السالم: تاريخ الإسكندرية، ص ٤٧١.

غدا الجامع الشرقي بالحسن مبدعا له بهجة يصبو له كل من سعا  
 بياض له كالياسمين تخاله كدر على حيطانه مترصعا (١).  
 ومن تولى الخطابة والإمامة والتدريس فيه الفقيه ناصر الدين ابن المنير (٢)،  
 كذلك تولى شيخ القراءات المكين الأسمر تعليم قراءة القرآن وتلاوته فيه (٣).  
**مسجد سوق العجم:** ذكر التجيبي أنه قرأ به على التاج الغرافي كتاب  
 ثواب قضاء حوائج الإخوان وما جاء في إغاثة اللفهان للحافظ أبي الغنائم وجزءا  
 فيه أربعون حديثا من حديث ابن زنبور (٤) في سنة (٦٩٦هـ/١٢٥٨م) (٥).  
**مسجد أبي الدرداء رضي الله عنه:** قرأ فيه التجيبي أيضا كتاب نهاية  
 الرائض في خلاصة الفرائض (٦) على مؤلفه جمال الدين الصودي (٧) سنة  
 (٦٩٦هـ/١٢٩٦م)، وقرأ غير ذلك من كتبه على المؤلف ذاته (٨).

#### مسجد الشمس الواسطي:

ذكره التجيبي في معرض حديثه عن العلوم التي تلقاها فيه، والتي منها  
 جزء فيه فضيلة من أسمه أحمد للحافظ ابن بكير (٩)، قرأه على جمال بن عبد الله  
 بدق سماعه من منصور بي سليم بالثغر سنة (٦٦٧هـ/١٢٦٨م) (١٠).

- (١) النويري السكندري: الإمام، ج ٤، ص ٤٤.
- (٢) العماد الاصبهاني: الخريدة، ص ١٩٣.
- (٣) المقرئزي: درر العقود، ج ١، ص ٢٣٦.
- (٤) هو أبو صالح محمد بن أبي الأزهر المكي المعروف بابن زنبور، (ت ٢٤٨هـ/٨٦١م)، ابن  
 العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٢، ص ١١٩.
- (٥) التجيبي: البرنامج، ص ١٥٧، ١٧٧ - ١٧٨.
- (٦) رضا كحالة: معجم المؤلفين، ج ٦، ص ٢٣٨.
- (٧) هو جمال الدين أبو محمد عبد الله بن أبي بكر بن عبد السلام المغربي الصودي تزيل  
 الإسكندرية، كان حيا سنة (٦٩٩هـ/١٢٩٩م)، انظر: كحالة: السابق، ج ٦، ص ٣٨.
- (٨) التجيبي: البرنامج، ص ٢٧٤ - ٢٧٥.
- (٩) هو الإمام الحافظ أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن بكير (ت ٣٨٨هـ/١٠٠٢م). انظر ترجمته  
 في ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٣، ص ١٢٨.
- (١٠) التجيبي: البرنامج، ص ٢٣٤.

**مسجد قُداح:** ورد ذكره عرضاً في ترجمة الإمام زين الدين محمد بن أحمد بن يوسف الصنهاجي (ت ٧١٧هـ/١٣١٧م)، إمام القراءات بالشعر، فقد كان يؤم المصلين بذلك المسجد<sup>(١)</sup>، ومما لا شك فيه أن إماماً بهذه الصفة لا بد أن تكون حلقاته أو بعض حلقاته العلمية بالمسجد الذي يؤم الناس فيه.

### جامع الأمير قجماس الإسحافي<sup>(٢)</sup>:

كانت تقام به صلاة الجمعة والجماعات، وقد أقام الأمير بجوار الجامع بستانا وخانا لنزول الغرباء فيه<sup>(٣)</sup>.

### جامع السواري:

ويقع خارج باب السدرة<sup>(٤)</sup> على مقربة من عمود السوراي المشهور، وقد قام الأمير قجماس بتجديده وإقامة الشعائر الدينية به إبان توليه نيابة الإسكندرية<sup>(٥)</sup>.

**مسجد القشميري:** ذكره النويري السكندري حين أرخ لواقعة القبرصي، وذكر أنه كان يتولى العناية به عبد الله بن الفقيه أبي بكر، وقد أخذ منه النويري تفاصيل اقتحام القبارصة لرباط ابن سلام<sup>(٦)</sup>.

(١) الصفدي: أعيان العصر، ج ٤، ص ٤٥٧-٤٥٨؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٦، ص ٤٦.

(٢) هو الأمير قجماس الإسحافي تولى إمارة النجر مرتين الأولى سنة (٨٧٥هـ/١٤٧٠م)، واستمرت حتى سنة (٨٨٠هـ/١٤٧٥م)، والثانية سنة (٨٨١هـ/١٤٧٦م) واستمرت حتى سنة (٨٨٢هـ/١٤٧٨م)، انظر ابن إياس: بدائع الزهور، ج ٣، ص ١٣٢، ١٤٢.

(٣) السخاوي: الضوء اللامع، ج ٦، ص ٢١٣؛ محمد أمين: فهرس وثائق القاهرة، ص ٣٨٢-٣٨٩.

(٤) باب سدرة: أحد أبواب الإسكندرية، ويقع في الطرف الغربي من السور الجنوبي للمدينة، وعرف بذلك نسبة إلى شجرة عاتية من أشجار السدر كانت تقوم إلى جواره، انظر السيد عبد العزيز السالم: تاريخ الإسكندرية، ص ٤٤٨.

(٥) السخاوي: الضوء اللامع، ج ٦، ص ٢١٣.

(٦) النويري السكندري: الإمام، ج ٢، ص ١٥٠-١٥١.

**مسجد أبي الأشهب:** ذكره النويري السكندري في الإمام في معرض حديثه عن دخول السلطان الأشرف شعبان للمدينة واختراق موكبه لشوارع المحجة العظمى والذي به المسجد<sup>(١)</sup>.

**مسجد قصر السلاح:** ويقع داخل قصر السلاح، وقد صلى به السلطان الأشرف شعبان العصر في أول يوم من زيارته للمدينة سنة (٧٧٠هـ/١٣٦٨م)<sup>(٢)</sup>.

**مسجد بظاهر المدينة:** ويقع من ناحية الغرب من مدينة الإسكندرية، كان يعتكف به ياقوت العرشي للتعبد والتهدج<sup>(٣)</sup>.

**مسجد القمري:** أنشأه أبو الحسن علي بن إسماعيل البياع القمري، بمنطقة بالإسكندرية تدعى بـ (القمرة)، وقد تصدى منشئه لرواية الحديث به<sup>(٤)</sup>.

**مسجد تربة الأمير طغية<sup>(٥)</sup>:** يقع في شبه جزيرة المنار، وكان يعلو باب هذا المسجد غرفة كانت محل جلوس الأمير جنفرا لاستعراض طوائف الجند في إطلاقهم النفط المشتعل<sup>(٦)</sup>.

**مسجد الهمداني:** ذكره البلوي في رحلته، وينسبه إلى الإمام المحدث أبي الفضل جعفر بن الحسن الهمداني (ت ٦٣٦هـ/١٢٣٨م)<sup>(٧)</sup>.

(١) النويري السكندري: الإمام، ج ٦، ص ٣.

(٢) النويري السكندري: الإمام، ج ٦، ص ١٧.

(٣) النويري السكندري: الإمام، ج ٥، ص ٢١٧.

(٤) ابن العمادية: ذيل تكملة الإكمال، ج ٢، ص ٥٢٧.

(٥) هو الأمير سيف الدين بن عبد الله الناصري، كان من أعظم أمراء الملك الناصر محمد بن قلاوون، ولما مرض الناصر، شعر أن طغية له إقبال على أن يأخذ الملك لنفسه من بعده، فقام الناصر بسجنه بمدينة الإسكندرية حتى لا تتحقق ظنونه، واستمر طغية في محبسه حتى توفي سنة (٧١٨هـ/١٣١٨م)، انظر ترجمته: ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج ٢، ص ٥٦؛ ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج ٦، ص ٤٠٨؛ الدليل الشافي، ج ١، ص ٣٦٤.

(٦) النويري السكندري: الإمام، ج ٢، ص ١٣٣، ١٣٤، ج ٦، ص ١٧.

(٧) البلوي: تاج المفرق، ج ٢، ص ١٠٣. ولعله هو الإمام المحدث جعفر بن علي بن هبة الله أبو

## جامع صفوان:

ذكره السخاوي إبان حديثه عن الشيخ محمد بن عوض الشمس أبي عبد الله السكندري المالكي (ت ٨٥٦هـ/٤٥٢م)، أنه كان يجلس في حانوت اليهود المجاور لجامع صفوان من الثغر، وقد كرر السخاوي ذكره عند ترجمته لعدد آخر من الفقهاء مكثفياً بذكر اسمه فقط<sup>(١)</sup>.

## مسجد الفقيه ناصر الدين بن عربي:

و يقع في حي العطارين ورد ذكره في وقفية الناصر محمد، بالإضافة إلى مسجد آخر لم تذكر الوقفية اسمه يقع بنفس الحي<sup>(٢)</sup>.

## مسجد المنار:

ويعود تاريخ إنشائه إلى عهد الدولة الطولونية بمصر، فقد قام الأمير أحمد بن طولون ببناء قبة من الخشب في أعلى المنار ليصلي بها المرابطون بالمنار، ثم ما لبثت أن تهدمت بفعل الرياح، فبنى الملك الكامل الأيوبي مكانها مسجداً<sup>(٣)</sup> وفي أيام الظاهر بيبرس تداعي بعض أركان المنار وسقط فتأثر المسجد الموجود بها؛ فأمر الظاهر ببناء ما تهدم، وفي سنة (٦٧٣هـ/١٢٧٤م)، أمر بيبرس بهدم القبة وتشبيدها من جديد، وقد ظل المسجد في موضعه من المنار حتى سنة (٧٠٢هـ/١٣٠٢م)، حيث انهدم نتيجة لزلزال قوي ضرب الإسكندرية، وفي سنة (٧٠٣هـ/١٣٠٣م) أعيد بناء المسجد على يد الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير، وممن تولى الأذان فيه المحدث عبد الله بن أبي بكر بن عمر الإسكندري، فقد صعد إليه في واقعة القبارصة سنة (٧٦٧هـ/١٣٦٥م) ليؤذن

---

الفضل الرمذاني الإسكندراني المالكي المقرئ (ت ٦٣٦هـ/١٢٣٨م)، كان من علماء الإسكندرية الذين تفقهوا على السلفي وغيره، تصدر للإقراء ومات بدمشق، للوقوف على المزيد من ترجمته انظر: السيوطي: حسن المحاضرة، ج ١، ص ٤٤٥؛ ابن العماد الحنبلي: الشذرات، ج ٥، ص ١٨.

(١) السخاوي: الضوء اللامع: ج ٣، ص ٣٤، ج ٨، ص ٢٧٣.

(٢) ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج ٢، ص ٤٣٢، ٤٣٥، ٤٣٦.

(٣) السيوطي: حسن المحاضرة، ج ١، ص ٩٠.



فشاهده إفرنجي فصعد إليه ورماه من أعلى المنار فسقط ميتاً<sup>(١)</sup>، وقد شاهده المقريزي بنفسه، مما يؤكد أنه ظل قائماً حتى منتصف القرن التاسع الهجري<sup>(٢)</sup>، ثم بعد ذلك زال مع المنار بسبب الزلازل والإهمال وعدم الترميم، حتى أقام عليه قايتباي المحمودي قلعته المشهورة.

### مسجد قايتباي بداخل القلعة:

وقد أنشأه السلطان المملوكي قايتباي المحمودي داخل القلعة حين قام ببنائها، على أنقاض المنار القديم، والمسجد عبارة عن صحن مركزي مربع الشكل، تحيط به أربع إيوانات صغيرة تزدان بواطن عقودها بزخارف هندسية ونباتية، وتكسوا أرضية الصحن الفسيفساء المتعددة الألوان في تكوينات هندسية بديعة، ويرتفع إيوان الصلاة قليلاً عن أرضية الصحن، ويفتح على الصحن بعقد منفوخ، وينتهي جدار القبلة في الإيوان بمحراب تقوم عضادته على عمودين من الرخام، وجميع إيوانات المسجد الأربعة مسقوفة، ويعتبر إيوان القبلة أكثرها اتساعاً<sup>(٣)</sup>.

**مصلى العيد:** ويقع بشبه جزيرة المنار، وكان مخصصاً كما يتضح من اسمه لصلاة العيدين، وقد قام القبارصة في حملتهم على المدينة بهدم الأعمدة الحاملة لقبه منبر هذا المصلى<sup>(٤)</sup>.

**مسجد الرحمة:** ويقع بالقرب من عمود السواري<sup>(٥)</sup>.

**مسجد الأمير عز الدين الأفرم:** ويقع عند فم خليج الإسكندرية، وقد بناه الأفرم سنة (٦٦٢هـ/١٢٦٣م) عند حفر الخليج<sup>(٦)</sup>.

(١) ابن حجر: الدرر الكامنة، ج ٢، ص ٣٥٦.

(٢) المقريزي: السلوك، ج ١، ق ١، ص ٢٩٣؛ الحميري: الروض المعطار، ص ٥٥٠ - ٥٥١.

(٣) السيد عبد العزيز السالم: تاريخ الإسكندرية، ص ٤٦٥؛ عبد الرحمن عبد التواب: قايتباي المحمودي، ص ٢٠٣.

(٤) النويري السكندري: الإمام، ج ٢، ص ١٧٢.

(٥) ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ١٨٤.

(٦) ببيرس: زبدة الفكرة، ج ٩، ص ١٠٥.

وإلى جانب هذا فقد وجدت في الإسكندرية مساجد اعتقد عوام الناس ومن ليس لهم بضاعة في العلم الشرعي أن العمل بها أفضل من العمل في غيرها سوى الحرمين وبيت المقدس منها: مسجد سليمان عليه السلام، ومسجد موسى عليه السلام، ومسجد ذي القرنين ومسجد الخضر<sup>(١)</sup>، ومساجد أخرى اتخذت على القبور كمسجد أبي العباس المرسي<sup>(٢)</sup>، ومسجد سيدي بشر<sup>(٣)</sup>، ومسجد عبد الرحمن بن هرمز<sup>(٤)</sup>، وضريح الطرطوشي<sup>(٥)</sup>، وزاوية الأعرج<sup>(٦)</sup>، وضريح

(١) ابن زهير: الفضائل الباهرة، ص ١٠٢.

(٢) أقيم على ضريح أبي العباس المرسي، على يد أحد التجار ويدعى زين الدين بن القطان سنة (٧٠٦هـ/١٣٠٧م)، وجدد قجماس الإسحاقي عمارته في أيام نيابته للثغر، وابتنى لنفسه قبرا بداخله ليدفن بجوار المرسي، وقد رمم وجدد مرات عدة، انظر: علي مبارك: الخطط، ج ٧، ص ١٨٨؛ الشيال: أعلام الإسكندرية، ص ٢١٢؛ السيد عبد العزيز السالم: تاريخ الإسكندرية، ص ٤٧٥؛ نقولا يوسف: أعلام من الإسكندرية، ص ١٦٧. وهو الآن قائم بالقرب من الساحل، إلا أنه محل فتنة لأهل الثغر شأنه شأن المشاهد الأخرى، وبالملاحق ص ٦١٧ صورة لضريح المسجد الحديث.

(٣) يرجع بناؤه إلى أوائل القرن السادس الهجري نسبة إلى بشر بن محمد بن بشر الجوهري، الذي وفد الإسكندرية في القرن السادس وأخذ عن السلفي وتوفي سنة (٥٢٨هـ/١١٣٢م)، ودفن على مقربة من البحر، ولا يزال قائما حتى اليوم، وتسمى الجهة باسمه، انظر سعاد ماهر: مساجد مصر، ص ٣٤٠.

(٤) نسبة إلى الإمام المحدث التابعي الجليل عبد الرحمن بن هرمز الأعرج، وفد إلى الإسكندرية مرابطا ومات بها سنة (١١٧هـ/٧٣٦م) ودفن برأس التين، الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ٥، ص ٦٩؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج ١، ص ١٤٥؛ الشيال: أعلام الإسكندرية، ص ٤٣.

(٥) نسبة إلى الطرطوشي الفقيه الأندلسي، صاحب المدرسة المالكية التي أنشأت في العصر الفاطمي، وهذا الضريح ملحق به مكان للصلاة، السالم: تاريخ الإسكندرية، ص ٢٢٩؛ نقولا يوسف: أعلام من الإسكندرية، ص ٢٥٣.

(٦) نسبة إلى برهان الدين الأعرج أحد الصوفية الذين عاشوا بالإسكندرية في القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي، انظر ابن بطوطة: الرحلة، ج ١، ص ٣٧ - ٣٨.

سنان<sup>(١)</sup>، وهي في الحقيقة مشاهد وليست بمساجد، إذ لا يجتمع في الإسلام مسجد وقبر، وقد حارب علماء السنة ومنهم شيخ الإسلام ابن تيمية اتخاذ القبور مساجد أو العكس، وأمر بإزالة هذه المنكرات، لما لها من خطر كبير على الاعتقاد<sup>(٢)</sup>.

---

(١) نسبة إلى أبي علي سند بن عفان بن إبراهيم المالكي تلميذ الطرطوشي، توفي سنة (٤٥١هـ/١٠٥٨م)، ودفن بمقبرة وعلة، ابن فرحون: الديباج: ج١، ص٣٩٩-٤٠٠؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج١، ص٤٥٢.

(٢) ابن تيمية: الفتاوى، ج٤، ص٥١٩، ج١٧، ص٤٦٤. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد)). انظر: البخاري: الجامع الصحيح كتاب الصلاة، ص٩٣ (ح٤٣٦)؛ مسلم: الصحيح، ج١، ص٣٧٥ (ح٥٢٨)؛ وانظر: ابن حجر: فتح الباري، ج٣، ص٢٠٠، وقال صلى الله عليه وسلم ((لعن الله زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج))، الترمذي: السنن، في كتاب الصلاة، ج٢، ص١٣٦ (ح٣٢٠)، وقال حديث حسن، أبو داود: السنن، كتاب الجنائز، ج٣، ص٢١٨ (ح٣٢٣٦)، النسائي: السنن، ج٤، ص٩٤ (ح٢٠٤٣).

## الكتاتيب

الكتّاب هو محلّ تعليم الصبيان، ويقال: إن هذا من اللحن الدارج، فقد نكر ابن منظور أن المكتّب هو موضوع الكتاب، والمكتب والكتاب موضوع تعليم الكتاب، والجمع الكتاتيب والمكاتب، ثم أورد قول المبرد: (المكتب موضوع التعليم والمكتب: المعلم، والكتاب: الصبيان، قال: ومن جعل الموضوع الكتاب فقد أخطأ)<sup>(١)</sup>، إلا أن الظاهر أن هذا لم يكن متفقاً على كونه لحناً في اللغة، فقد جاء في مختار الصحاح أن الكتاب والمكتب واحد<sup>(٢)</sup>، وليس هناك ما يمنع أن يكون الكتاب هو الكتّبة، ثم اتسع استعمال الكلمة في الموضوع الذي يتعلم فيه الصبيان الكتابة والله أعلم.

ودور الكتاتيب دور قديمة، فلم يزل الناس في كل مجتمع يجتمعون على وضع نظام تعليم الصبيان، وقد وجدت هذه الدور في العصر النبوي، وقد جاء عن أم سلمة أنها بعثت يوماً إلى معلّم الكتاب: ابعث إليّ غلماناً ينفشون صوفاً، ولا تبعث إليّ حرّاً<sup>(٣)</sup>.

وتعليم الصبيان الكتابة كان من مهام الدولة النبوية، فقد جاء في مسند الإمام أحمد عن ابن عباس أنه: (كان ناس من الأسارى يوم بدر لم يكن لهم فداء، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم فداءهم أن يعلموا أولاد الأنصار الكتابة)<sup>(٤)</sup>. وقد انتشرت الكتاتيب في جميع أرجاء العالم الإسلامي عبر العصور المختلفة، وشهدت توسعاً ملحوظاً في العصر المملوكي، وصارت المدد الأول للمدارس السننية التي كثرت في هذا العصر، كما كانت تهدف إلى أن تكون بداية لتعليم الأولاد على المنهج الأقوم والطريق الأرشد<sup>(٥)</sup>، ففي الكتاتيب يتعلم الأولاد

(١) ابن منظور: لسان العرب، ج ٦، ص ٣٨١٧، مادة كتب.

(٢) الرازي: مختار الصحاح، ص ٤٩٥، مادة كتب.

(٣) ابن حجر: فتح الباري، ج ١٢، ص ٥٣، هذا وقد علقه البخاري بصيغة التمريض عن أم سلمة في كتاب الديات، باب من استعان عبداً أو صبيّاً.

(٤) أحمد بن حنبل: المسند، ج ١، ص ٢٤٧.

(٥) ابن الحاج: المدخل، ج ٢، ص ٤٥٧ - ٤٥٨.

القرآن الكريم ويقومون بحفظه وتلاوته، وكذلك يتعلمون الكتابة والخط وشيئا من المسائل الفقيه وبعض متون الحديث وأصول الحساب وما يعين على إظهار دين الله ومعرفة أحكامه<sup>(١)</sup>.

وقد شهد العصر المملوكي نوعين من هذه الكتاتيب: الأهلية: وهي التي يتخذها من له قدرة على التعليم وسيلة للتكسب فيتعلم فيها الصبيان بأجر معلوم يدفعه أولياؤهم له<sup>(٢)</sup>، والعامية: وهي التي أنشأتها الدولة أو أصحاب المناصب والجاه من سلاطين وأمراء وتجار وعلماء من جملة الأوقاف بحيث يكون التعليم فيها بدون أجر، وفي العادة تكون للأيتام والمعدمين والفقراء والمساكين، وغالباً ما تحدد هذه الكتاتيب عدد الطلاب الذين يدرسون بها، وتكون ملحقة بالمدارس أو الجوامع لكي يضمن تيسير الإشراف عليها والعناية بها سواء في تدبير المدرس المناسب له أو الصرف المنظم على طلبتها أو الترميمات العمرانية المستمرة عليها<sup>(٣)</sup>، وكان يقوم على أمر هذه الكتاتيب: المؤدب وهو الفقيه أو المعلم، وقد روعي أن يكون صحيح العقيدة، أميناً على عمله، وعالماً بما يقوم به، متزوجاً<sup>(٤)</sup>. وقد روعي عند إقامة الكتاب أن يكون بعيداً عن الأسواق مع ضرورة صرف الباعة من بابه، حتى لا يتلهى الصبيان بما في أيديهم عن الدرس، فإن تعذر فعلى شوارع المسلمين، ويكره أن يكون الموضع بمكان غير مسلوكة للناس أو في القرافة أو أن يكون في المساجد لحديث النبي صلى الله عليه وسلم: ((جنبوا مساجدكم صبيانكم ومجانينكم))<sup>(٥)</sup>، لذا فكانت تلحق بجانب المساجد أو المدارس أو

(١) ابن الأخوة: معالم القرية، ص ١٧٠؛ ابن الحاج: المدخل، ج ٢، ص ٤٥٢.

(٢) ابن الحاج: المدخل، ج ٢، ص ٤٥٤ - ٤٥٥.

(٣) حياة حجي: صورة من الحضارة، ص ١٨٨ - ١٨٩.

(٤) السبكي: معيد النعم، ص ١٣٠؛ ابن الحاج: المدخل، ج ٢، ص ٤٥٧.

(٥) ابن ماجه: السنن، في كتاب المساجد، ج ١، ص ٢٤٧ (ح ٧٥٠)، وأشار المحقق إلى ضعفه.

الأربطة أو أعلى الأسبلة<sup>(١)</sup>، وقد حدد سن معين لدخول الكتاب وهو السبع سنوات، وإن كان بعض الآباء يلحقون أبناءهم في سن أقل ليستراح من تعبهم<sup>(٢)</sup>. ويستمر الطالب في المكتب متنقلاً ما بين حلقاته من حفظ للقرآن أو سماع للحديث أو تعلم للفقهاء أو اشتغال بالقراءة والكتابة والخط حتى سن البلوغ<sup>(٣)</sup>، ثم ينتقل إلى المدارس أو المساجد التي تروق له ليلتحق بإحدى حلقاتها، وإن لم يرغب فينصرف لشؤون الحياة.

وتبدأ الدراسة بالكتاتيب يومياً من طلوع الشمس وحتى العصر، ما عدا الثلاثاء والخميس، فالدراسة فيهما حتى الظهر فقط، أما يوم الجمعة فكان عطلة رسمية، بالإضافة لعطلات العيدين والتي تتم قبل العيد بيوم أو يومين أو ثلاثة<sup>(٤)</sup>. وتبدأ الدراسة بالقرآن فيحفظ الصبي صغار السور، بعد معرفته للحروف وضبطها، ثم عقائد السنن كقواعد الإسلام الخمس والوضوء والصلاة، وأصول الحساب والخط، مع التدريب على الحفظ والكتابة<sup>(٥)</sup>.

ولكي تتم العملية التعليمية والتربوية على أكمل وجه كان المعلم أو المؤدب يستعين بالعرفاء والرقباء من الصبيان الكبار الذين قاربوا البلوغ أو التخرج، ولا سيما في الوقت الذي يغيب فيه المعلم أو المؤدب عن الدرس<sup>(٦)</sup>، ويسمح للصبي بالانصراف إلى منازلهم خلال فترة الغذاء للاستراحة، حيث لم يكن مسموحاً لهم بإحضار الطعام إلى المكتب لئلا ينكسر الفقير، ويظل مشوشاً ساخطاً على نفقة والديه<sup>(٧)</sup>.

(١) ابن الحاج: المدخل، ج ٢، ص ٤٥٨.

(٢) ابن الحاج: المدخل، ج ٢، ص ٤٥٧، ٤٥٩.

(٣) ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج ٣، وقفية السلطان حسن، ٤١٠.

(٤) ابن الحاج: المدخل، ج ٢، ص ٤٦٢.

(٥) ابن الحاج: نفسه، ج ٢، ص ٤٥٩؛ علي السيد علي: القدس في العصر المملوكي، ص ١٥٩.

(٦) ابن حبيب: التذكرة، ج ٣، وقفية السلطان حسن، ص ٤٠٩؛ ابن الحاج: المدخل، ج ٢، ص ٤٦٤.

(٧) ابن الحاج: المدخل، ج ٢، ص ٤٥٨.

وقد حددت نظم العقوبة داخل الكتاتيب، بحيث يتم تأديب الأطفال لإصلاحهم، وذلك بالتدرج، فبدأ المعلم تأديب الصبي من خلال العبوس في وجهه، ثم يتدرج إلى توبيخه، واستخدام أسلوب التغليظ والتهديد، فإن لم يجد نفعاً فيقوم بضربه ضرباً غير مبرح، عادة ما يكون على أسفل الرجلين أو الأفضاذ أو غيرها من المواضع التي لا يخشى منها مرض ولا غائلة، ويكون الضرب بعضا وسط لا هي بالغليظة التي تكسر العظام أو الرقيقة التي لا تؤلم<sup>(١)</sup>، ويعتبر هذا النوع من التأديب هو النوع الوسط الذي يصلح الأولاد، وأن التأديب الشديد يؤثر تأثيراً سلباً على نفسية الصبي، فيحمله على الكذب وغير ذلك من الصفات المذمومة ويؤكد على ذلك ابن خلدون بقوله: (.. ومن كان مرباه بالعسف والقهر من المتعلمين أو المماليك أو الخدم سطا به القهر، وضيق على النفس في انبساطها، وذهب بنشاطها، ودعاه إلى الكسل، وحمل على الكذب والخبث، وهو التظاهر بغير ما في ضميره خوفاً من انبساط الأيدي بالقهر عليه، وعلمه المكر والخديعة لذلك، وصارت له هذه عادة وخلقاً، وفسدت معاني الإنسانية التي له من حيث الاجتماع والتمرن، وهي الحمية والمدافعة عن نفسه ومنزله، وصار عيالاً على غيره في ذلك، بل وكسلت النفس عن اكتساب الفضائل والخلق الجميل، فانقبضت عن غايتها ومدى إنسانيتها، فارتكس وعاد في أسفل سافلين... فينبغي للمعلم في متعلمه والوالد في ولده أن لا يستبد عليهم في التأديب)<sup>(٢)</sup>.

كما وضع فقيه الإسكندرية أبو الطاهر إسماعيل بن عوف الزهري قاعدة عظيمة في ضرب الصبيان، فقد سأل فقهاء الثغر، هل لضرب صبيان المكتب حد فاختلفوا في تحديده فأجاب ابن عوف بقوله: (الضرب للصبيان كالغيث للنبات)<sup>(٣)</sup>. وكان الأولاد يكتبون في الألواح، وهي عبارة عن خشبة يكتب عليها الصبي الآيات القرآنية ليتسنى له حفظها، وبعد ذلك يقوم بمسحها بالماء بخرقة بعد

(١) ابن الأخوة: معالم القرية، ص ١٧١؛ المدخل: ابن الحاج، ص ٤٦٠،

(٢) ابن خلدون: المقدمة، ص ١٢٥٣.

(٣) العبدري: الرحلة، ص ٩٠.

حفظها لكتابة الآيات الجديدة<sup>(١)</sup>، وكانت الألواح تزين في الأعياد والمواسم لإدخال السرور على الأولاد، وحثهم على مواصلة القراءة وكذلك عند التخرج من الكتّاب وإتمام حفظ القرآن وهو ما يعرف في ذلك الوقت بـ(الإصرافة)، وهي عبارة عن احتفال بختم الصبي القرآن، كما تزين جدران الكتاب وحيطانه وأسقفته بالحريز، وكذلك يزين الصبي نفسه، ويركب فرساً أو بغلة مزينة، حاملاً معه إصرافته (شهادته) وهي عبارة عن لوح تزيينه أشرطة الحريز ويمشي بين صبيان الكتّاب حتى يوصلونه إلى بيته، وهم ينشدون له الأناشيد الجميلة، وبعد وصولهم إلى البيت يقوم المؤدب بإعطاء لوح الإصرافة إلى أقارب الطالب فيكرمونه بدراهم الفضة فرحين بهذه المناسبة السعيدة<sup>(٢)</sup>.

وكان الصبي يتخرج من الكتاب وهو حافظ للقرآن الكريم ومتون الأحاديث وعقائد السنن وأصول الحساب، عارفاً بالأدب والخط، متعلماً لسلوكيات التهذيب والتقويم من بر الوالدين، والانقياد لهم بالسمع والطاعة، مراعيّاً لقواعد الآداب والكلام، وغير ذلك من أولويات الذوق السليم<sup>(٣)</sup>.

ورغم أن المصادر التي تسنى لي الاطلاع عليها لم تشر إلى مسميات هذه الكتاتيب باستثناء ما ورد في تذكرة النبيه أن الناصر أوقف أملاكاً له بمدينة الإسكندرية وفيها ذكر (المكتب المرسوم لتعليم القرآن)، ومن خلال وصف المكان يتضح أنه كان في شارع مسلوك في سوق<sup>(٤)</sup>، كما هو الحال في مكاتب مصر عامة كما تقدم، إلا أنها أشارت إلى بعض من عمل في هذه الكتاتيب من المعلمين والمؤدبين منهم: علي بن يحيى الإسكندراني المؤدب، وهو والد المعمرة وجيهة<sup>(٥)</sup>، ومنهم أحمد بن عبد الباري بن عبد الرحمن بن عبد الكريم أبو العباس

(١) ابن الحاج: المدخل، ج ٢، ص ٤٦٠.

(٢) ابن الحاج: المدخل، ص ٤٧٠ — ٤٧١.

(٣) ابن الأخوة: معالم القرية، ص ١٧١.

(٤) ابن حبيب: التذكرة، ج ٢، ص ٤٣٣، سطر ٥٧ من وثيقة وقف السلطان الناصر محمد لخانقات سرياقوس.

(٥) الذهبي: تاريخ الإسلام، حوادث الفترة، ص ٣٠٨.



المؤدب (ت ٦٩٥هـ/ ١٢٩٥م)، أحد فضلاء الإسكندرية وشيوخها، نشأ بها وقرأ القرآن بالسبع على أبي القاسم عيسى<sup>(١)</sup>، وطلب العلم، وسمع من الصفراوي<sup>(٢)</sup> والهمداني<sup>(٣)</sup>، وعني بالحديث وسمع الكثير<sup>(٤)</sup>، وأحمد بن محمد بن عبد الوهاب بن عمر أبو العباس القرشي الإسكندراني المؤدب (ت ٦٥٤هـ/ ١٢٥٦م)، كان على علم بالقرآن والحديث قرأ القراءات وحدث<sup>(٥)</sup>، ومنهم عبد الرحمن بن مهند بن سليم بن مخلوف أبو القاسم القرشي الإسكندراني المالكي المؤدب (ت ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م)، كانت له مشاركة في علوم الحديث<sup>(٦)</sup>، وأيضاً أبو عبد الله محمد المقرئ المؤدب السكندري المالكي (ت ٧٧٨هـ/ ١٣٧٦م)، كامن من فضلاء الثغر وأعلامهم في علم القراءات<sup>(٧)</sup>.

ومن الملاحظ أن المؤدبين في الإسكندرية كانت لهم مشاركة في العلوم الشرعية بما يدفع بالتلميذ لطلب العلم رجاءً أن يكون مثل مؤدبه، فالتلميذ يقتدي بأستاذه ومعلمه، مما يدل على أن الكتاتيب كانت نواة للحركة العملية بالإسكندرية وكانت الدافع الأول للتعلم والمصدر المغذي للمدارس فيما بعد.

(١) هو عيسى بن عبد العزيز بن عيسى اللخمي الشريشي الإسكندراني (ت ٦٢٩هـ/ ١٢٣١م)، الذهبي: العبر، ج ٥، ص ١١٦.

(٢) هو عبد الرحمن بن عبد المجيد بن إسماعيل الإسكندراني المالكي الصفراوي (ت ٦٣٦هـ/ ١٢٣٨م)، الذهبي: العبر، ص ١٥٠.

(٣) هو جعفر بن علي بن هبة الله أبو الفضل الهمداني الإسكندراني، (ت ٦٣٦هـ/ ١٢٣٨م)، الذهبي: العبر، ج ٥، ص ١٤٩.

(٤) ابن تغري بردي: المنهل، ج ١، ص ٣٢٩.

(٥) الذهبي: تاريخ الإسلام، حوادث الفترة، ص ١٦٢.

(٦) الذهبي: تاريخ الإسلام، حوادث الفترة، ص ٢٦٤.

(٧) التبريزي السكندري: الإمام، ج ١، ص ١٠٢، ١٠٣.

## المدارس النظامية

تعد المدارس<sup>(١)</sup> أحد أهم المؤسسات التعليمية الحضارية الإسلامية<sup>(٢)</sup>، وهي كما عرفها أحمد فكري: (المسجد الجامع الذي أقيمت في حرمه بيوت لسكن فريق مختار من الفقهاء أو الطلاب ورتب لتدريسهم فيه مدرسون بأجر معلوم ووفرت للجميع فيه سبل البحث والدراسة والمعيشة وأجريت عليهم الجرايات الوافرة)<sup>(٣)</sup> وقد عرفت الإسكندرية المدارس السنوية النظامية قبل العهد المملوكي، فقد ظهر في العصر الفاطمي مدرسة الطرطوشي، والتي أنشأها أبو بكر محمد بن الوليد

(١) المدراس والمدرس: الموضوع الذي يدرس فيه، والمدرس الكتاب، والمدراس الذي يقرأ الكتب ويدرسها، ودرس الكتاب، يدرسه درسا ودراسة، انظر ابن منظور: لسان العرب، ج ٢، ص ١٣٦٠، الفيروز آبادي: القاموس المحيط، ص ٧٠٢.

(٢) اختلف العلماء حول أصل المدرسة ونشأتها فمنهم من يرى أنها بدأت منذ القرن الأول الهجري حيث كان الصحابة يعلمون الناس في المساجد، وبعض الدور سواء كان ذلك بمكة أو المدينة، راجع: عباس كامل: المدارس الإسلامية ودور العلم وعمارته الأثرية، مجلة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، السنة الثالثة، ١٣٩٧هـ العدد ٣، ص ١٥١-١٥٣، ومنهم من يرى أنها بدأت في نيسابور ومرو وبخارى في فترة حكم محمود الغزنوي (٣٩١-٤٢١هـ/٩٩٩-١٠٣٠م)، انظر ايمن فؤاد السيد، المدارس في مصر قبل العصر الأيوبي، من أبحاث تاريخ المدارس في مصر، ص ٩٩، ومنهم من يجعل من المدرسة النظامية التي أسسها نظام الملك الوزير السلجوقي ببغداد أول مدرسة نظامية عرفها العالم الإسلامي في القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي، انظر زبيدة محمد عطا: مكتبات المدارس في العصرين الأيوبي والمملوكي، ضمن أبحاث ندوة تاريخ المدارس في مصر الإسلامية، ص ٢٠٢.

(٣) أحمد فكري: مساجد القاهرة ومدارسها، ج ٢، ص ١٩٢، وفي اعتقادنا أن المدرسة من خلال هذا التعريف من الممكن أن تنطبق على صفة المسجد النبوي الشريف، لأنه اشترط مكاناً للتدريس، ومسكناً للطلاب، ومصدراً للإنفاق الحكومي، وكان أهل الصفة معتكفين بالمسجد النبوي لطلب العلم، وكان يقال لهم القراء كما جاء في حديث رواه البخاري (ح ٤٠٩١)، وكذلك ينفق عليهم النبي صلى الله عليه وسلم، كما ورد مصرحاً به في حديث رواه الإمام أحمد في المسند، ج ١، ص ٧٩، وعليه فتكون صفة المسجد النبوي أول مدرسة نظامية في الإسلام، والله أعلم.

الطرطوشي عندما استقر بالإسكندرية سنة (٤٩٠هـ/١٠٩٧م)، وجلس لتدريس الفقه على المذهب المالكي بها<sup>(١)</sup>، والمدرسة المسروورية والتي أنشأها مسرور الخادم في أواخر العصر الفاطمي<sup>(٢)</sup>، بالإضافة إلى المدرسة السلفية والحافظية وقد استمرت حتى العصر المملوكي والذي يعد في حقيقته امتداداً للعصر الأيوبي عصر انتشار المدارس في الأراضي المصرية، فقد ورث سلاطين المماليك عن الأيوبيين الاهتمام بإنشاء المدارس والتي وصف ابن بطوطة كثرتها بمصر بقوله: (ولا يحيط أحد بحصرها لكثرتها)<sup>(٣)</sup>، ولقد حفلت الإسكندرية بالعديد من المدارس النظامية المختلفة، والتي لا تختلف في مجملها عن غيرها من مدارس المدن المصرية الأخرى، وكان التخطيط العمراني للمدارس آنذاك على ثلاثة أنواع أساسية<sup>(٤)</sup>، أولها التخطيط ذو النظام الأيوبي، وهو عبارة عن صحن مكشوف أو مغطى ويسمى (دور قاعة) تحيط به أربعة إيوانات أكبرها وأعمقها إيوان القبلة وقد تكون إيوانين وربما واحد أو ثلاثة، وأما التخطيط الثاني فهو ذو الأروقة حول صحن أو دور قاعة، وهو عبارة عن صحن أو قاعة يحيط بها أربعة أروقة وربما توسط سقف الرواق منها قبة ترتفع عن بقية السقف وقد فتحت بأضلاعها عدة نوافذ التهوية والإضاءة، كما زود بعضها بمئذنة ومنبر ودكة المبلغ أو المؤذن وخلوة الخطيب وكرسي المصحف<sup>(٥)</sup>، كما زود بعضها بصومعات<sup>(٦)</sup> كالمدرسة

(١) الذهبي: العبر، ج٤، ص٤٨؛ المقري: نفح الطيب، ج٢، ص٢٩٣؛ ابن فرحون: الديباج، ج٢، ص٢٤٥.

(٢) المقرئ: الخطط، ج٢، ص٣٧٧.

(٣) ابن بطوطة: الرحلة، ص ٣٣.

(٤) انظر تخطيطاً لمدرسة مملوكية بالملحق ص ٦١٨.

(٥) محمد حمزة إسماعيل: العلاقة بين أوجه التأسيس والوظيفة والتخطيط المعماري للمدرسة في العصر المملوكي، من أبحاث ندوة المدارس: ص ٢٧٧.

(٦) الصومعة: جمعها صوامع، وهي من البناء، وقد رأى ابن منظور أنها من البناء سميت هكذا لتلطيف أعلاها، والصومعة عبارة عن منارة مرتفعة، أول من اتخذها الرهبان مكاناً لهم، وقد أطلق العرب على أبراج الزهاد اسم الصومعة، وفي الإسلام ومع بناء المساجد وإحراق المآذن بها والتفنن في أشكالها، استعملت كلمة الصومعة للدلالة على المآذن ويرجع ذلك إلى

النايلسية بالإسكندرية فقد ذكر النويري أن لهذه المدرسة صومعة اختبأ بأعلاها جمال الدين ابن النايلسي ، فصعد إليها جماعة من القبارصة وقذفوه من أعلاها<sup>(١)</sup>، أما النوع الثالث من أنواع تخطيط المدارس فهو ذو الحجرة الواحدة أو عدد من الحجرات، وهو من أبسط وأقدم الأساليب المعمارية التي استعملها الإنسان في بناء منشآته، بالإضافة إلى استمراريتها وشيوعها<sup>(٢)</sup> ، وقد حظيت مدارس الإسكندرية بمزيد من العناية من قبل أصحابها حيث زينت جدرانها ومداخلها بالنقوش والزخارف، فقد ذكر النويري عن المدرسة الخلاصية بالإسكندرية أنه كان لها باب ذو حنقتين من النحاس المخرم، وكروسي للربعة، وبيت لها من النحاس الأندلسي المطعم بالفضة، وأنه لم يرى لمثلها حسن صنعة ودقة تخريم، وقد تعرضت هذه المدرسة لاعتداء القبارصة في سنة (٧٦٧هـ / ١٣٦٥م) فخلعوا الحنقتين واستولوا على كروسي الربعة وبيتها<sup>(٣)</sup>.

وزخرفت أوراقه مدارسها بالفسيفساء بدقة ومهارة، ويلاحظ أنه للفسيفساء خاصية أخرى غير الناحية الجمالية، وهي أنها لا تتأثر بالرطوبة العالية بسبب موقع الثغر على البحر، ويؤكد ذلك ما ذكره غرس الدين خليل من أن مدارسها كانت مرخمة ومنقوشة<sup>(٤)</sup>.

ولم يقتصر دور المدارس على الناحية العلمية فحسب بل أدت كثير من المدارس دورا إيجابيا في الناحية الاجتماعية، فعادة ما كان يلحق بالمدارس وحدات سكنية خاصة للمدرسين والطلبة، وخاصة الغرباء منهم، فقد ذكر منصور بن سليم ابن العمادية أن الشاعر مظفر بن عبد الله بن العلامي الفقيه، سكن معهم

---

أن المآذن الأولى التي شيدت في صدر الإسلام كانت مربعة الشكل، ومن الجدير بالذكر أن هذا الطراز من الصوامع استمر في بلاد المغرب والأندلس انظر: ابن منظور: لسان العرب، ج ٨، فصل الصاد حرف العين، الكحلوي: أثار مصر الإسلامية، ص ١٦٣.

(١) النويري السكندري: الإمام، ج ٢، ص ١٧٣.

(٢) عدنان الحارثي: عمارة المدرسة في مصر والحجاز، ج ١، ص ٣١١.

(٣) النويري السكندري: الإمام، ج ٢، ص ١٧٣.

(٤) غرس الدين خليل: زبدة كشف الممالك، ص ٤٩ — ٥٠.

المدرسة الحافظية بالثغر<sup>(١)</sup>، فقد كانت المدرسة الحافظية بالإسكندرية كبيرة متسعة، وقد جاء في نسخة سجل تدريسها الإشارة إلى مشكلة تشتت الوافدين إلى الثغر، حيث جاء فيها: (وأن طالبي العلم من أهله - يعني الثغر- ومن الواردين إليه والطارئين عليه متشتتو الشمل متفرقو الجمع، أبي أمير المؤمنين أن يكونوا حائرين متلودين ولم يرض لهم أن يبقوا مذنبين متبديدين، وخرجت أوامره بإنشاء المدرسة الحافظية بهذا الثغر المحروس)<sup>(٢)</sup>.

وبهذا كان الغرباء من الطلبة ينزلون بهذه المدرسة ومن هؤلاء الشيخ آدمد بن مودون بن القاسم بن جعفر الخلطي المعروف بالحجازي فقد نزل بالمدرسة الحافظية لما قدم الإسكندرية<sup>(٣)</sup>،

ولا شك أن نزول العلماء وطلاب العلم بالمدارس يعطي الفرصة لطلاب المدرسة لمناقشة ومناظرة القادم إليهم، ويوسع آفاق المتعلم للاطلاع على علوم أخرى غير التي يدرسها في مدرسته، ويحبب إليهم الرحلة وكل هذا يثري الحركة العلمية ولا أدل على ذلك مما ذكره الرحالة من لقاءاتهم بشيوخ المدارس ومناظراتهم في مدارسهم كما ذكره العبدري وغيره<sup>(٤)</sup>.

هذا وقد حفلت بعض المدارس بأماكن العلاج (البيمارستانات)، وكان الطلاب وغيرهم يتلقون فيها العلاج وذلك مثل البيمارستان الملحق بالمدرسة التي أقامها صلاح الدين عام (٥٧٧هـ/١١٨١م)<sup>(٥)</sup>، والتي ظلت موجودة حتى العهد المملوكي<sup>(٦)</sup>.

كذلك حوت بعض المدارس الأضرحة والقبور، ولقد أثر ذلك في الناحية العلمية بصورة سلبية، وبشكل واضح، فقد ظلت الإسكندرية ردحا من الزمان لا

(١) ابن العمادية: ذيل تكملة الإكمال، ج٢، ص٤٩٥.

(٢) القلتشندي: صبح الأعشى، ج١٠، ص٤٥٨.

(٣) الفاسي: العقد الثمين، ج٣، ص١٨٦.

(٤) انظر مبحث المناظرات من هذا الفصل ص٣٥٢.

(٥) ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج١، ص٣٠٠.

(٦) السيد عبد العزيز السالم: تاريخ الإسكندرية، ص٤٨٠.

يرى طلابها غضاضة في دفن الموتى بالمساجد والمدارس<sup>(١)</sup>، ومن المعلوم أن وجود مثل هذه المشاهد له أثره في عقيدة التوحيد لدى الناس، إذ صار العوام يتبركون ويستغيثون بهؤلاء المقبورين ومن يسمونهم بـ (الأولياء) وصارت القصص تنسج والأساطير تروى حول كرامات هؤلاء المقبورين، وقد تصدى لهذه المخالفات العقديّة الكثير من العلماء الذين وفدوا على الإسكندرية آنذاك وفي مقدمتهم شيخ الإسلام ابن تيمية<sup>(٢)</sup>.

ولقد انتشرت المدارس في الإسكندرية المملوكية وتبوعت الدراسة بها من قراءات وحديث وفقه ولغة وأدب وغير ذلك من العلوم، واعتمد أكثرها على جهود فردية من العنماء والتجار<sup>(٣)</sup>، وهذا أعطى علماء الإسكندرية نوعاً من الحرية في التدريس بغير توجيه من أحد.

كذلك ارتبطت أسماء كثير من المدارس بأسماء الأسر العلمية، كمدرسة بني كويك والدماميني وابن حباسة وابن المنير وغيرها، وبقاء المدرسة أدى في

---

(١) يذكر غرس الدين خليل في كتابه زبدة كشف الممالك، ص ١٥١، عدداً من الأماكن كالمسجد والمدارس والأربطة والتي كانت تقصد للزيارة فيقول: (وبالثغر عدد من المزارات والأماكن المباركة ما يطول شرحها، منها مشهد دانيال عليه السلام، وجابر الأنصاري، وابن الحاجب المالكي، وأبي بكر الطرطوشي، وأبي العباس المرسي، وياقوت العرش، وعبد الله الراسي، وقاسم القباري، وأبي الفتح الواسطي، وغير ذلك من الصلحاء والأماكن المباركة).

(٢) سيأتي تفصيله في مبحث (أثر شيخ الإسلام ابن تيمية على الحياة العلمية بالإسكندرية) إن شاء الله تعالى.

(٣) لقد لاحظنا وبرغم حب السلاطين المماليك بتشديد العماير والأبنية الدينية إلا أن جل اهتمامهم كان منصبا على مدينة القاهرة، ولعل ذلك يعود إلى أنها كانت درة المدائن وقلب العالم الإسلامي النابض وعاصمة البلاد وحاضرتها، بعكس الإسكندرية التي برغم كونها القاعدة الثانية في البلاد بعد القاهرة كما ذكر القلقشندي (صبح الأعشى، ج ٣، ص ٣١٨ - ٣١٩)، إلا أنها كانت عرضة للغارات الغاشمة من قبل الفرنج ولا أدل على ذلك من واقعة القبرصي التي لم تترك لا أخضر ولا يابسا، فربما لذلك خشي سلاطين المماليك وأمرؤهم على بناء مثل هذه العماير الدينية الباهظة التكاليف بالثغر، واكتفوا بإنشاء مساجد أو مدارس أو خوانق تؤدي الغرض الوظيفي والذي أنشئت من أجله.

المقابل إلى استمرار الأسرة العلمية في العطاء إذ أن أبناءها يحرصون على طلب العلم وتهيئة أنفسهم للعمل بها لضمان استمرارية المدرسة.

كذلك أدى وجود المدارس بالإسكندرية واشتهارها في العالم إلى وجود عامل جذب قوي للرحالة والعلماء لقصد هذه المدارس العلمية للقراءة على أصحابها، وأخذ الإجازات منهم، فصارت كالمراكز التي تستقطب العلماء من الشرق والغرب<sup>(١)</sup>.

### ومن أشهر مدارس الإسكندرية :

المدرسة الحافظية أو (العوفية): نسبة إلى الخليفة الفاطمي الحافظ لدين الله والذي أمر ببنائها لتدريس المذهب السني المخالف لمذهب الدولة الشيعي تحت ضغط الوزير السني رضوان ابن ولخشي، ويطلق عليها أيضاً العوفية<sup>(٢)</sup> نسبة إلى الفقيه المالكي أبي الطاهر بن عوف<sup>(٣)</sup>، وقد امتد عطاؤها إلى حين الدولة المملوكية، وتولى التدريس فيها جماعة من العلماء والفضلاء منهم زرية أبي الطاهر بين عوف الذي كان إمام عصره وفريد دهره في الفقه على مذهب الإمام مالك رحمه الله، وعليه مدار الفتوى، وقد جمع إلى ذلك: الورع والزهد وكثرة العبادة، والتواضع التام ونزاهة النفس، وكان ربيب الإمام أبي بكر الطرطوشي وقيل إن خالته كانت زوج الطرطوشي، وعليه تفقه، وبه انتفع في علوم شتى وتوفي وله ست وتسعون سنة وكان ذلك سنة (٤٨٥هـ/١٠٩٢م)، وممن سمع منه الحافظ السلفي، وغيره من كبار علماء العصر<sup>(٤)</sup>، وممن تولى التدريس بهذه المدرسة حفيده ويدعى نفيس الدين أبو الحرم مكي، وهو مؤلف "شرح التهذيب" لأبي سعيد البراذعي<sup>(٥)</sup>، وقد تسابق الفضلاء لإحراز هذا الكتاب، فقد قدم ابنا الإمام أبي زيد من المغرب ونسخاه وأنفقا في نسخه مالا عظيماً، وكان لدى —

(١) وهذا بالتالي له دوره في الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية للبحر، كما سبق دراسة ذلك في الفصل الأول.

(٢) ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج٢، ص٤٣٠.

(٣) انظر ما سبق ص ٢٦٦.

(٤) الذهبي: العبر: ج٤، ص٢٤٢.

(٥) ابن فرحون: الديباج، ج١، ص٢٩٣.

أبي زيد من المغرب ونسخاه وأنفقا في نسخه مالا عظيما، وكان لدى - نائب السلطنة بالإسكندرية - ببيرس الجمدار نسخة منه، وبيعت في تركته بالقاهرة فاشترها قاضي القضاة الأحنائي المالكي<sup>(١)</sup>، وهذا له دور إيجابي في مدى تأثير الفقه المالكي بالإسكندرية على القاهرة، ولاسيما وأن هذا الكتاب كان خلاصة الندوات والمناظرات التي كانت تعقد في هذه المدرسة بين نفيس الدين ومن يحضر درسه من الفضلاء<sup>(٢)</sup>، ولم تكن الدراسة بهذه المدرسة قاصرة على المذهب المالكي، فقد درس بها الشهاب أبو القاسم عبد الرحمن بن عتيق بن عبد السلام الشافعي الإسكندراني المقرئ (ت ٦٥٤هـ/ ١٢٥٦م)<sup>(٣)</sup>، وكذلك أحمد بن قيس شهاب الدين الأنصاري الشافعي (ت ٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م)، وكان يعرف بها بـ (الشافعي)، وهو فقيه في مذهبه، قال عنه السبكي: (لم يكن بقى في الشافعية أكبر منه)<sup>(٤)</sup>.

#### المدرسة العادلية أو (السلفية):

نسبة إلى الإمام السلفي، وهو الحافظ أبو الطاهر محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم سلفه الأصبهاني (ت ٥٧٦هـ/ ١١٨٠م)، الملقب بصدر الدين، أحد الحفاظ الرحالة، دخل الإسكندرية سنة (٥١١هـ/ ١١٠٩م)، قادماً من بلاد الشام، وأقام بالثغر حتى قصده الناس من الأماكن البعيدة وسمعوا عليه، وقام وزير الخليفة الفاطمي العادل ابن السلار ببناء مدرسة له بالثغر، لذلك فقد تتسبب هذه المدرسة في بعض المصادر للوزير فيقال لها العادلية، وقد فوض ابن السلار أمر

(١) ابن فرحون: الديباج، ج ١، ص ٢٩٤.

(٢) الفاسي: العقد الثمين، ج ٣، ص ١٨٦.

(٣) ابن العمادية: ذيل تكملة الإكمال، ج ٢، ص ٦٠٧.

(٤) ابن حجر: الدرر الكامنة، ج ١، ص ٣١٦.



التدريس فيها إلى الحافظ السلفي<sup>(١)</sup>، وقد استمرت هذه المدرسة في تدريس العلوم الشرعية حتى العهد المملوكي<sup>(٢)</sup>.

### مدرسة الأشرف قايتباي:

أنشأها السلطان الأشرف قايتباي أثناء توليته حكم السلطنة بالديار المصرية وكانت بالقرب من القلعة التي أنشأها مكان المنار القديم<sup>(٣)</sup>، ومن المتوقع أن تكون هذه المدرسة من حيث التصميم والوحدات الأساسية شبيهة بتلك المدارس التي أنشأها السلطان بالقاهرة ومكة، وغيرها من المدن الإسلامية، أي تحتوي على قاعات الدرس والصلاة، ومكتب السبيل للأيتام، والمكتبة والوحدات السكنية والميضاة، بالإضافة إلى الأوقاف الخاصة بها للصرف عليها<sup>(٤)</sup>.

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ١، ص ١٠٥ - ١٠٧؛ الياضي: مرآة الجنان، ج ١، ص ٣١٦؛ الذهبي: تذكرة الحفاظ: ١٢٦٨؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٤، ص ٢٥٥.

(٢) ابن حجر: الدرر الكامنة، ج ٢، ص ٤١٠؛ الشيال: تاريخ مدينة الإسكندرية، ص ١٠٨.

(٣) ابن الجيعان: القول المستطرف: ص ١٢٥؛ العزي: الكواكب السائرة، ج ١، ص ٢٩٩؛ السخاوي: الضوء اللامع، ج ٦، ص ٢٠١؛ ابن أبياس: البدائع، ج ٣، ص ٣٢٩؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٨، ص ٨.

(٤) لقد قام السلطان بإنشاء مدرسة في عدد من المدن الإسلامية في زمن متقارب نسبياً، فقد أنشأ بصحراء القاهرة مدرسته ما بين سنتي (٨٦٥ - ٨٧٢ هـ / ١٤٦٠ - ١٤٦٧ م)، ثم أنشأ المدرسة الكبرى بمصر في عام (٨٧٢ هـ / ١٤٦٧ م)، وأما مكة فقد تم الانتهاء من بنائها في مطلع (٨٨٤ هـ / ١٤٧٩ م)، ولعله من المرجح أن تكون مدرسة الإسكندرية بنيت في هذه الفترة الزمنية ما بين (٨٧٢ - ٨٨٤ هـ / ١٤٦٠ - ١٤٧٩ م)، ويلاحظ في مدارس القاهرة ومكة نوع من التطابق في الوحدات الأساسية للبناء وكذلك الموظفين، فبينما ضمت مدرسة القاهرة قاعات الدرس ومكتب السبيل والمكتبة والوحدات السكنية والميضاة والمئذنة، فإننا نجد هذه الوحدات نفسها في مدرسة مكة المكرمة، وأما الوظائف الدينية من شيخ المدرسة والمدرسين والطلاب والأيتام في المكتب فتكاد تكون متطابقة أيضاً، ولا يوجد ثمة اختلاف ظاهر إلا في احتواء مدرسة القاهرة على قاعة الصلاة وكذا الوظائف المتعلقة بالخطابة والإمامة، والتي لا توجد بمدرسة مكة، ويعود ذلك لإقامة الصلاة بالحرم المكي الشريف، انظر: عدنان الحارثي: عمارة المدرسة في مصر والحجاز، ج ١، ص ١٢٧ - ١٧٠، ٢٢٥ - ٢٣٧.

## مدرسة دار الحديث التكريتية:

أنشأها سراج الدين عبد اللطيف بن محمد بن سند التاجر الكارمي التكريتي (ت ٧١٤هـ/١٣١٤م)، وصف بالوجاهة والفضل والمعروف، وحبه للعلم وطلبته<sup>(١)</sup>، أنشأ هذه المدرسة سنة (٦٧٨هـ/١٢٧٩م)، وجعلها لدراسة الحديث الشريف والفقهاء على المذهب الشافعي<sup>(٢)</sup>، ويذكر أن هذه المدرسة حولت في القون الثاني عشر للهجرة إلى زاوية صغيرة، تقع في شارع البلقراطية بقسم الجمرك، وتحفظ هذه الزاوية اليوم باللوحة التأسيسية للمدرسة، ونصها:

(بسم الله الرحمن الرحيم، وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً، أوقف هذا المسجد المبارك ودار الحديث العبد الراجي رحمة ربه عبد اللطيف بن رشيد الشريف على مذهب الإمام أبي عبد الله محمد بن إدريس الشافعي رحمه الله عليه في شهر المحرم سنة ثمان وسبعين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه)<sup>(٣)</sup>.

## مدرسة ابن الكويك أو (الكارمية):

أنشأها التاجر الكارمي عبد اللطيف بن أحمد بن محمود بن أبي الفتح بن الكويك التكريتي، من متحصل فائدة يوم واحد<sup>(٤)</sup>، فقد كان عبد اللطيف من أسرة علمية تجارية، اشتهرت في القرنين السابع والثامن الهجري<sup>(٥)</sup>، فلم يمنعه ثراؤه أو انشغاله بالتجارة هو أو أفراد عائلته من طلب العلم، فتذكر المصاادر أن عبد

---

وعليه يمكن أن نتوقع أن تكون مدرسة الإسكندرية من الناحية التخطيطية والوظيفية على النحر الذي رأيناه في مدارس القاهرة ومكة، مع فارق بسيط وهو أنها لم تكن تحفة معمارية كمدرسته بالقاهرة والله أعلم.

(١) ابن حجر: الدرر الكامنة، ج ٣، ص ٢٠.

(٢) الصفي: أعيان العصر، ج ٣، ص ١٥٩-١٦٠؛ ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج ٢، ص ٦٠-٦١؛

ابن حجر: الدرر الكامنة، ج ٣، ص ٣٤.

(٣) السالم: تاريخ الإسكندرية، ص ٤٧٨.

(٤) خليل بن شاهين: زبدة كشف الممالك، ص ٥١.

(٥) انظر ما سبق، ص ٢٢١.

اللطيف تفرقه وتلقى الحديث على كبار علماء الإسكندرية ، توفي سنة (٧٣٤هـ/١٣٣٣م)<sup>(١)</sup>.

#### مدرسة الدماميني:

أنشأها العالم التاجر تاج الدين عتيق بن محمد ابن سليمان المخزومي الدماميني (ت ٧٣١هـ/١٣٣٠م)، وأسرة الدماميني من كبريات الأسر السكندرية في العصر المملوكي ذات ثراء عريض ومكانة علمية واجتماعية عالية، وقد ذكر الأدفوي أن تاج الدين بنى المدرسة بالمرجانيين وهو أحد شوارع الحي التجاري بالإسكندرية الشهير بحي العطارين، وقد أوقف تاج الدين على مدرسته الأوقاف الكثيرة ليضمن بذلك استمراريتها في أداء رسالتها العلمية<sup>(٢)</sup>.

#### مدرسة القاضي الفقيه زين الدين ابن المنير:

أنشأها الإمام زين الدين أبو الحسن علي بن محمد بن منصور المالكي والملقب بابن المنير، ولي قضاء الثغر بعد أخيه ناصر الدين وظل فيه حتى عزل سنة (٦٨٧هـ/١٢٨٨م)، كان الكثير من الطلبة يحرصون على الالتقاء به وأخذ العلم منه، خاصة الرحالة ، فقد لقيه العبدري وابن فرحون وسمعا منه واستفادا من علمه<sup>(٣)</sup>، وصفه العبدري بأنه: (الفقيه العالم الكامل الرئيس الأوحد القاضي العادل شرف الفقهاء والمفتين، وسط قلادة المدرسين صدر البلغاء ورأس الكتاب والناظمين)<sup>(٤)</sup>.

#### المدرسة العمادية:

ورد ذكرها في وثائق الوقف التي أوقفها الناصر قلاوون على خانقاه سرياقوس، وتقع في حي موجود به معصرة من ضمن أوقاف الناصر<sup>(٥)</sup>، ويبدو لي أن منشئ هذه المدرسة هو ابن العمادية وجيه الدين بن منصور بن سليم

(١) ابن حجر: الدرر الكامنة، ج ٢، ص ٣؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٦، ص ٣١٤.

(٢) الأدفوي: الطالع السعيد، ص ٣٥٩ - ٣٦٠؛ ابن حجر: الدرر الكامنة، ج ٣، ص ٤٨.

(٣) ابن فرحون: الديباج، ج ٢، ص ١٢٤؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج ١، ص ٣١٧.

(٤) العبدري: الرحلة، ص ٨٩.

(٥) ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج ٢، ص ٤٣٦.

الهمداني الإسكندراني الشافعي<sup>(١)</sup>، وصف بأنه كان جميل السيرة، محسناً إلى من يقرأ عليه من الطلبة<sup>(٢)</sup>.

#### مدرسة فائد:

حوت هذه المدرسة على دور لسكنى الطلبة الغرباء، فممن سكنها من الطابة الرحالة الشيخ أبو بكر بن عبد الله بن عمر بن خضر بن إلياس الضرير الأديب، كان شغوفاً بالأدب وبرع فيه وتعالى النظم، خرج من الصعيد ليبدأ رحلته في تلقي العلم، فحط رحاله في عدد من المدن كالقاهرة، حيث عمل في إحدى حوانيتها بالخياطة، كما ارتحل إلى ودمشق والقدس، ومكة وحج مرتين، دخل الإسكندرية في القرن التاسع الهجري/السادس عشر الميلادي، ونزل بمدرسة فائد وعمل بها مؤذناً، وظل بها كذلك إلى أن أصابه العمى فانتقل إلى مدرسة ابن بصاصة<sup>(٣)</sup>.

#### المدرسة البصاصية أو (مدرسة ابن بصاصة):

تنسب إلى ابن بصاصة الذي يبدو لنا أن أمر إنشائها يعود إليه، ورغم أنني لم أقف على ترجمة له ولا على تاريخ إنشائها، إلا أنها كانت موجودة ضمن المدارس المملوكية المشهورة بمدينة الإسكندرية، والتي عمرت طويلاً، وقد حوت هذه المدرسة على عدد من الدور لإيواء الغرباء من الطلبة كغيرها من مدارس العصر المملوكي بالإسكندرية، فممن سكنها أبو بكر بن عبد الله بن عمر بن خضر بن إلياس الضرير الأديب سالف الذكر، وقد لقيه البقاعي سنة (٨٦٨هـ/١٤٦٣م) بالمدرسة وتباحثاً سويماً في فنون الأدب، وكتب عنه البقاعي قصيدة طويلة جاء في أولها:

كلمًا تاه دلالاً وصَلَفٌ زدت شوقاً وغراماً وشغفٌ

(١) انظر ما سبق، ص ٢٣٥.

(٢) ابن شاکر کتبی: عیون التواریخ، ج ٢١، ص ٦٣.

(٣) السخاوي: الضوء اللامع: ج ١١، ص ٣٩ — ٤٠.

وكان الأديب الضير حن للترحال من جديد فسافر من الإسكندرية بعد سنة (٨٤٠هـ/٤٣٦م)، لينقطع خبره بعد ذلك<sup>(١)</sup> لتطوي كتب السير صفحة حياته. وممن تولى التدريس بها الشيخ الفقيه الصالح المعمر زكي الدين أبو محمد عبد المحسن بن عبد الله الشافعي الفوي الإسكندراني، فقد قرأ عليه التجيبي جزءاً من كتاب "الشهاب"<sup>(٢)</sup> للشيخ أبي عبد الله القضاعي، وقد حصل التجيبي من الشيخ زكي الدين على إجازة هذا الكتاب وكان ذلك سنة (٦٩٦هـ/٢٩٦م) بداخل المدرسة البصافية<sup>(٣)</sup>، كذلك ممن تولى مشيختها الشيخ شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد الله الصنهاجي، فلقد ولد بالثغر ونشأ به وحفظ القرآن وقرأ به بالروايات على جماعة من علمائها، فبرع فيه وأصبح علماً مبرزاً به، وولي مشيخة المدرسة البصافية فتصدر للإقراء وانتفع الطلبة به لعلمه وفضله<sup>(٤)</sup>.

#### المدرسة السراجية:

لم تشر المصادر التي تيسر لي الإطلاع عليها إلى من أنشأها، ولكن المعلومات التي تيسرت لنا عن مدرسيها تشير إلى أنها إحدى مدارس الشافعية بالإسكندرية، وقد تولى مشيختها الفقيه المفتي شمس الدين أبو عبد الله محمد الكناني الشافعي الإسكندراني، عرف بحبه للعلم ومساعدته للطلبة، فقد كان هينا لينا معهم متوندا إليهم، خاصة الغرباء منهم، فعلى سبيل المثال حين نزل البلوي بهذه المدرسة فإن الشيخ شمس الدين تفانى في إكرامه، ومكنه من الإطلاع على مكتبته الخاصة، بل وعلمه كيفية الرماية بالقوس العربية، وقد كان البلوي في غاية الغبطة والسرور من ذلك<sup>(٥)</sup>، وقد حوت هذه المدرسة غيرها من المدارس دوراً

(١) السخاوي: الضوء اللامع، ج ١١، ص ٤٠.

(٢) هو كتاب شهاب الأخبار في الحكم والأمثال والآداب من الأحاديث النبوية، للقاضي أبي عبد الله محمد بن سلامة بن جعفر القضاعي (ت ٤٥٤هـ/١٠٦١م)، حاجي خليفة: كشف الظنون،

ج ٢، ص ٩٢.

(٣) التجيبي: البرنامج، ص ١٤٨.

(٤) السخاوي: التبر المسبوك، ص ٣٥٥ - ٣٥٦.

(٥) البلوي: تاج المفرق، ج ٢، ص ٦٨ - ٧٠.

لسكنى الغرباء، فقد سكن البلوي إحدى هذه الدور، وقد كان الطلبة النزلاء يدونون ما يجول بخواطرم على أبواب وجدران البيوت، وقد لاحظ البلوي ذلك في الدار التي سكنها، ومما جاء فيه:

عليك سلام الله يا خير منزل رحلنا وودعناك غير نميم  
فإن تكن الأيام فرق بيننا فما أحد من صرفها بسليم  
وكتب بخط آخر على أحد الجدران ما نصه:

تركنا همنا ثم ارتحلنا كذا الدنيا نزول وارتحال  
وما دهر على أحد بباق ولا يبقى على الإنسان حال  
وبخط آخر كتب أيضاً:

قد حضرنا في ذا المكان وغبنا وكذا الدهر غيبته وحضور  
وبخط آخر كتب كالرد أيضاً:

قد حضرنا في ذا المكان وغبتم وقرأنا من بعده ما كتبتم  
وذكرناكم بكل جميل فاذكرونا بمثله إن حضرتم

ومن العجب أن البلوي لما قرأ هذه الأبيات لم يستنكر الكتابة على  
الجدران والأبواب، بل قام هو الآخر بتسجيل ذكرياته وما يدور بخلاجات قلبه على  
أحد الجدران، ومما كتبه:

قد توالى لنا الدموع نجيعا وذكرناكم بخير جميعا

وسألنا يا حاضرين دعاء واجترعنا الفراق والتوديعاً<sup>(١)</sup>

وننا وقفه مع هذه الأبيات التي أوردها البلوي سواء التي كانت من نظمه  
أو نقلها لنا عن الطلبة النزلاء، ففيها دلالة على أن المدرسة كانت تحتوي على  
عدد من الدور التي كانت مهياً لنزول الطلبة الغرباء، كذلك اختلاف الخطوط على  
الجدران والأبواب دليل على كثرة الطلبة اللذين نزلوا بها، كما تدل هذه الكتابات  
على المكانة العلمية للمدرسة عند الطلبة، وحرصهم على النزول بها، وأنهم كانوا  
يجدون الرعاية والاهتمام المادي والمعنوي من قبل القائمين عليها، بدليل أنهم لو

(١) البلوي: تاج المشرق، ج ٢، ص ٧٨ - ٧٩.

وجدوا غير ذلك لما كلفهم الأمر كثيراً ولقاموا على الفور بتدوين احتجاجاتهم على الجدران.

### مدرسة ابن حباسة:

قام بإنشائها وجيه الدين أبو علي منصور بن عبد العزيز ابن حباسة الإسكندراني (ت ٦٣٩هـ/ ١٢٤١م)، وهو من تجار وأعيان الثغر<sup>(١)</sup>، وأحد أبناء أسرة تعود جذورها التاريخية إلى حباسة ابن علي بن محمد بن محمود بن موسى بن عز العرب بن زيد بن عمرو بن محارب بن مكائر بن رافع .. إلى أن ينتهي نسبه إلى إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان<sup>(٢)</sup>.

ولقد تعاقب أبناء هذه الأسرة والتي عرفت بطلب العلم ورواية الحديث على تولي مشيختها والتدريس بها، فممن تولى العمل بها حفيد مؤسسها ويدعى نور الدين أبا عبد الله بن زين الدين أبي الحسن يحيى بن وجيه الدين ابن حباسة لقيه العبدري أثناء وجوده بالإسكندرية بمدرسة جده سنة (٦٨٩هـم ١٢٩٠م) وأخذ عنه بعض المعارف والمعلومات عن بن جبير ورحلته<sup>(٣)</sup>، وممن تولى مشيختها أيضاً عز الدين أبو إسحاق إبراهيم بن نور الدين أبي عبد الله بن وجيه الدين بن حباسة، لقيه البلوي أثناء رحلته سنة (٧٣٧هـ/ ١٣٣٦م)<sup>(٤)</sup>، بالإسكندرية وقد ناهز التسعين إلا أن هرمه لم يمنعه من مواصلة مسيرته التعليمية، فما دخل عليه البلوي إلا ورآه مطالعاً في الدواوين والتأليف، أو ناسخاً للحديث والعلوم ولقد استفاد منه البلوي ولازمه حتى بمنزله، وقرأ عليه نحو أربعين مجلداً في أنواع مختلفة من العلوم، وقد أجاز له الشيخ الإجازة التامة<sup>(٥)</sup>، ويبدو لي أن عز الدين لم يكن على قيد الحياة حين داهم القبارصة الإسكندرية سنة (٧٦٧هـ/ ١٣٦٥م)، وقاموا بنهب المدينة وحرق كل ما طالته أيديهم بما في ذلك

(١) ابن العمادية: ذيل تكملة الإكمال، ج ١، ص ٢٠٢.

(٢) البلوي: تاج البفرق، ج ٢، ص ٨٢.

(٣) العبدري: الرحلة، ص ٩٣.

(٤) البلوي: تاج المشرق، ج ١، ص ١٨.

(٥) البلوي: تاج المشرق، ص ٨٣.

مدرسته، فيذكر لنا النويري السكندري أن القبارصة قاموا بحرق درابزي مدرسة ابن حباسة مع سقف إيوانها<sup>(١)</sup>.

#### المدرسة الكولمية:

وهي من المدارس الشافعية بالإسكندرية، وإن كنا نجهل مؤسسها ومتى أنشئت، إلا أن ابن حجر العسقلاني أمداً باسم شيخين جليلين تولوا مشيختها، وهما تقي الدين أحمد بن عبد الرزاق ابن عبد العزيز بن موسى الإسكندراني الفقيه الشافعي، وابنه محمد، والذي سمع منه ابن حجر بمدرسة إقرائه سنة (٧٩٧هـ/١٣٩٤م)<sup>(٢)</sup>.

#### مدرسة الفخر:

لم تشر المصادر التي بين يدي إلى من أنشأ هذه المدرسة، واكتفى النويري السكندري بالإشارة إلى أنها قد أحرقت على يد القبارصة إبان هجومهم الغاشم على المدينة، وأن موقعها كان بالقرب من باب رشيد<sup>(٣)</sup>.

#### المدرسة الزكوية:

ذكرها ابن رشيد في معرض حديثه عن أحد المشايخ الذين لقيهم في رحلته بمدينة الإسكندرية، وهو الشيخ جمال الدين أبو عبد الله محمد بن حسن بن علي التونسي، حيث أن الأخير تلقى الكثير من علوم الدين واللغة بهذه المدرسة على بعض مشايخها أمثال أبي عبد الله بن الجرج<sup>(٤)</sup>.

#### المدرسة النابلسية:

(١) النويري السكندري: الإمام، ج ٢، ص ١٦٥. هذا ولم تشر المصادر إلى هذه المدرسة بعد واقعة القبارصة، ولا ندرى هل المدرسة دمرت تماماً من الحريق، وأغلقت ولم تجد من يقوم بترميمها وإعادتها إلى ركب المسيرة التعليمية، أم أنها جددت وأعيدت إلى ما كانت عليه في سابق عهدها.

(٢) ابن حجر: المجمع المؤسس، ج ٢، ص ٤٩٢.

(٣) النويري السكندري: الإمام، ج ٢، ص ١٦٦.

(٤) ابن رشيد: حوله العيبة، ج ٣، ص ١٣ - ١٤.



بناها عبد الله بن أبي بكر بن عمر النابلسي الإسكندري وقد قام على أمر المدرسة من بعده ابنه المحدث جمال الدين المعروف بابن النابلسي، قتل في واقعة القبارصة سنة (٧٦٧هـ/١٣٦٥م)، فقد اختفى بداخل صومعة مدرسة أبيه عليه ينجوا من القبارصة، ولكنهم أدركوه وقاموا برمييه من أعلى المدرسة على الأرض فاندقت عنقه ومات<sup>(١)</sup>.

#### المدرسة الخلاصية:

قام بإنشائها نور الدين ابن خلاص، ومن الواضح أنه كان رجلاً ميسور الحال وأنه قد صرف على تعميرها مبلغاً كبيراً من المال، بدليل أن القبارصة حين هاجموا المدينة سنة (٧٦٧هـ/١٣٦٥م)، قاموا بنهب حلقتي باب المدرسة وكانتا مصنوعتين من النحاس المخرم، ولو لم تكونا ذات قيمة مادية لما تجشموا عناء حملهما معهم، ولقد قام نور الدين ابن خلاص بعمل حلقتين لباب المدرسة بعد الواقعة بعدة أشهر، كذلك نهب القبارصة أيضاً كرسي الربعة وبيتها، وكانا من النحاس الأندلسي المخرم المطعم بالفضة، بطريقة بدیعة وفي غاية الدقة، بعد أن ألقوا بأجزاء القرآن على الأرض<sup>(٢)</sup>.

#### مدرسة دار الحديث النبيهية:

كغيرها من المدارس التي لم تشر المصادر التي تيسر لي الإطلاع عليها إلى من أنشأها، عرفت في كتب التاريخ تارة بالمدرسة النبيهية وأخرى بدار الحديث النبيهية، ولعل من هذا الاسم الأخير يتضح أنها كانت مخصصة لتدريس مادة الحديث، وقد تولى مشيختها عدد من علماء الإسكندرية منهم أبناء الغرافي تاج الدين، الذي سمع التجيبي الكثير من كتب الحديث عليه سنة

(١) النويري السكندري: الإمام، ج ٢، ص ١٧٣؛ ابن حجر: الدرر، ج ٢، ص ٢٥١.

(٢) النويري السكندري: الإمام، ج ٢، ص ١٧٣.

(٦٩٦هـ/١٢٩٦م)<sup>(١)</sup>، أيضاً تولى مشيختها وتصدى للتدريس بها أخوه عز الدين وقد لقيه ابن رشيد بها وسمع منه<sup>(٢)</sup>.

### مدرسة الأنصاري أو (القمني):

أنشأها الإمام فخر الدين أبو محمد بن الحسن بن أبي إسحاق إبراهيم القمني الأنصاري، وهو أحد محدثي الثغر في القرن (٨هـ/١٤م)، وقد انقطع القمني في مدرسته لتدريس الحديث والسنة الشريفة ولقد استمر مدرساً بها حتى وافته المنية سنة (٧٤٠هـ/١٣٣٩م)، وممن أخذ منه الرحالة البلوي، فقد سمع منه عدة تصانيف في الحديث والسيرة، وأجاز له الرواية عنه فيما سمعه<sup>(٣)</sup>.

### المدرسة الأبرزارية أو (دار الحديث الأبرزارية):

تغيرنا من مدارس الإسكندرية التي لم تمدنا المصادر المتوفرة بمعلومات عنها سوى أنها كانت مخصصة لدراسة الحديث، فقد تولى مشيختها والتدريس بها عالم الإسكندرية في الحديث، تاج الدين الغرافي، مما جعل لها سمعة في الأفق فقصده الطلبة من جميع الإنحاء، فعلى سبيل المثال قصده بن رشيد سنة (٦٨٤هـ/١٢٨٥م)، وهو يدرس بهذه المدرسة، وسمع منه الحديث وقام بنقله<sup>(٤)</sup> وممن تصدى للتدريس بها الفقيه المحدث ناصر الدين محمد بن عبد الوهاب بن عطية الإسكندراني (ت ٧١٢هـ/١٣١٢م) حيث تولى مهنة (قاريء الحديث) بها للشيخ تاج الدين الغرافي<sup>(٥)</sup>.

### المدرسة العنمية:

(١) التجيبي: البرنامج، ص ١٧٨-١٧٩؛ ابن فهد: ذيل تذكرة الحفاظ، ص ٩٠.  
(٢) ابن رشيد: ملء العيبة، ج ٣، ص ٧١، ٧٨؛ الذهبي: المعين في طبقات المحدثين، ص ٢٣٧؛ ابن حجر: الدرر، ج ١، ص ١٠، ج ٣، ص ١٧-١٨؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٦، ص ٨٠.

(٣) البلوي: تاج المرفق، ج ٢، ص ٣٨-٤١؛ ابن حجر: الدرر، ج ٣، ص ٤١٨.

(٤) ابن رشيد: ملء العيبة، ج ٥، ص ٩١؛ العبادي: ذيل طبقات الشافعية، ص ١٩٢.

(٥) الصفدي: أعيان العصر، ج ٤، ص ٥٥٦.

وهي واحدة من المدارس التي لم تتحفنا المصادر التي بين أيدينا بشيء  
عن أنشأها؛ تولى مشيختها الشيخ العالم نجم الدين أبو الحسن علي بن زين الدين  
بن هبة الله الأنصاري الخزرجي المالكي، ولد عام (٦٧٧هـ / ١٢٧٨م) حسب ما  
ذكره البلوي أثناء رحلته إلى الإسكندرية، وقد سمع عليه العديد من الكتب  
الحديثية<sup>(١)</sup>.

#### مدرسة الجرارة:

ذكرها صاحب الضوء اللامع في معرض حديثه عن عمر بن علي ابن  
عمر البحيري الخراشي الإسكندري المالكي، وقال بأنه تولى الإمامة بها، ثم انتقل  
إلى مكة المكرمة ففطنها وتوفي بها سنة (٨٧٣هـ / ١٤٦٨م)<sup>(٢)</sup>.

#### مدرسة بني حديد:

تعود أصول هذه المدرسة إلى أسرة بني حديد والتي عاشت في العصر  
الفاطمي وامتدت حتى الأيوبي وتولت عدة مناصب دينية كالقضاء وغيره<sup>(٣)</sup>، وقد  
ظلت هذه المدرسة تؤدي دورها العلمي خلال عصر الأيوبيين ثم عصر المماليك،  
وممن نواحي التدريس بها والإفتاء، الفقيه العالم أحمد بن محمد بن سلامة أبو  
الحسين الإسكندراني المالكي (ت ٦٤٥هـ / ١٢٤٧م)<sup>(٤)</sup>، وقد حوت هذه المدرسة  
على مكان مخصص لسكنى الغرباء والمدرسين والطلبة، فقد نزل بها الإمام أبو  
زكريا يحيى بن أبي مؤول الزناتي الفقيه المالكي حين استوطن الإسكندرية، وقد  
انتفع به الطلبة، ثم غادر الإسكندرية ودخل العراق وتوفي بها<sup>(٥)</sup>.

(١) البلوي: تاج المفرق، ج ٢، ص ٣٦-٣٩؛ ابن حجر: الدرر الكامنة، ج ٣، ص ١٢٢.

(٢) السخاوي: الضوء اللامع، ج ٦، ص ١٠٧.

(٣) ابن فرحون: الديباج، ج ٢، ص ٢٤٦-٢٤٧. فمن أبناء هذه الأسرة أبو طالب أحمد بن عبد

المجيد بن أحمد بن الحسن بن حديد قاضي الإسكندرية، وغم أبيه القاضي أبو الحسين زيد بن

الحسن بن حديد الإسكندراني، والحسين بن أحمد بن عبد الله بن الحسين بن حديد

الإسكندراني، انظر: ابن العمادية: ذيل تكملة الإكمال، ج ١، ص ٢١٤.

(٤) ابن فرحون: الديباج، ج ١، ص ٢٤٣.

(٥) ابن العمادية: ذيل تكملة الإكمال، ج ١، ص ٣١٠.

### مدرسة المجد معالي الجزري:

من الواضح من أسمها أن مؤسسها كان رجلاً عالماً، ورد ذكرها عند الحديث عن الفقيه العلامة المفتي شهاب الدين أبي العباس الشافعي (توفي في حدود نيف وأربعين وسبعمائة للهجرة)، أحد العلماء المشهورين والفقهاء المذكورين بالديار المصرية، انتقل من القاهرة إلى الإسكندرية ليتولى حسبها وعمل بها في عدد من المدارس منها مدرسة المجد معالي الجزري<sup>(١)</sup>.

### مدرسة بن فياض ومدرسة المقدسي:

وقد ذكرهما منصور بن سليم ابن العمادية في معرض حديثه عن أبي المعالي معمد الفقيه المالكي (ت ٦٣٧هـ/ ١٢٣٩م)، وأخيه القاضي أبو محمد عبد الرحيم بن المخيلي (ت ٦٤٢هـ/ ١٢٤٤م) الذي تولى التدريس في هاتين المدرستين بعد موت أخيه<sup>(٢)</sup>.

### المدرسة الخضراء:

بُنيت في عصر السلطان المملوكي الظاهر بيبرس البندقداري، وقد قام ببنائها الشيخ خضر بن أبي بكر بن موسى المهراني (ت ٦٧٦هـ/ ١٢٧٧م)<sup>(٣)</sup>، أحد مشاهير الصوفية، فقد قام الشيخ خضر بهدم كنيسة قديمة للنصارى بالإسكندرية - كانوا يزعمون أن رأس يحيى وزكريا عليهما السلام فيها - وقام بإنشاء مدرسته

(١) العبادي: ذيل طبقات الفقهاء الشافعية، ص ٢٠٥ - ٢٠٧.

(٢) ابن العمادية: ذيل تكملة الإكمال، ج ٢، ص ٩٥٠.

(٣) كان هذا الشيخ يدعى إنه يعلم الغيب، فكثيراً ما كان يخبر السلطان الظاهر بيبرس بأشياء من هذا القبيل، فقد أخبره بسلطنته، وبانتصاراته على الأعداء، اعتقله الظاهر بعد ذلك نتيجة لرميه بالفحش وغير ذلك من الأمور التي تخالف الشرع، فأمر الظاهر بعد المشورة بقتله، فقال للسلطان، أنا أجلي قريب من أهلك، وبينني وبينك أيام يسيرة، فخاف السلطان ووجم، وتوقف عن قتله واكتفى بحبسه والتضييق عليه. الذهبي: تاريخ الإسلام، ص ٢٢١ - ٢٢٢.

الخضراء على أنقاضها، مستعينا بأموال كثيرة من بيت المال، ثم أوقف عليها الأوقاف ليضمن استمراريتها<sup>(١)</sup>.

### المدرسة والبيمارستان الصلاحي:

أمر بإنشائها السلطان الأيوبي صلاح الدين وذلك أثناء زيارته للثغر

سنة

(٥٧٧هـ / ١١٨٢م)، وقد تمت عمارتها سنة (٥٨٣هـ / ١١٨٧م)<sup>(٢)</sup>، وقد ظلت هذه المدرسة قائمة حتى العصر المملوكي فقد قام الأمير المملوكي سيف الدين الأكرز نائب الثغر بتعميرها وتزويد البيمارستان بما يحتاجه من المستلزمات الطبية كالأدوية وأدوات الجراحة وغير ذلك، كما قام بوضع سلسلة على رحبتها لمنع الدواب من الدخول إليها أو إلحاق الأذى بها<sup>(٣)</sup>.

### مدرسة ظاهر باب البحر:

وهي من المدارس التي لم تشر المصادر التي وصلت إلينا إلى من أنشأها، وما نعرفه عنها هو أنها أنشئت خارج أسوار مدينة الإسكندرية في منطقة ظاهر باب البحر<sup>(٤)</sup>، ولعل هذه المدرسة كانت المحطة الأولى للطلبة القادمين من

(١) اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج ٣، ص ٢٦٤ - ٢٦٨؛ ابن شاعر كتيبي: عيون التواريخ، ج ٢١، ص ١٣، ١٤٩.

(٢) كما تشير بذلك اللوحة التأسيسية التي عثر عليها وتتعلق بإنشاء تلك المدرسة، والتي جاء فيها: (مما أمر بعمله السيد الأجل الملك الناصر، جامع كلمة الإيمان، قانع عبدة الصليبان، صلاح الدنيا والدين، سلطان الإسلام والمسلمين أبو المظفر يوسف بن السيد الأجل أدام الله قدرته، وأعلى أبدا كلمته، ونشر في الخافقين أعلامه، (أتم) عمارتها وأنشأها الأمير الاسفسلار الكبير .. زين الدين .. جلال الأمراء، مملوك أمير المؤمنين أبو سعيد قراجا سنة ثلاث وثمانين وخمسائة)، انظر السيد عبد العزيز السالم، تاريخ الإسكندرية، ص ٤٩.

(٣) ابن جبير: الرحلة، ص ٤٦؛ المقرئ: السلوك، ج ١، ق ١، ص ٧٦؛ السيد عبد العزيز السالم: تاريخ الإسكندرية، ٢٤٦.

(٤) باب البحر: أحد الأبواب التي تفتح في السور الشمالي للمدينة، ويطلق عليه عدة أسماء منها على سبيل المثال باب أستوم، وباب السلسلة، وهذا الباب كان يطل على رقعة مستوية من الأرض تطل على الميناء الشرقية، ومنه كان المسافرون يدخلون إلى المدينة بعد نزولهم من

جهة البحر، وقد قام السلطان عثمان بن الظاهر جقمق بدفن والدته التي توفيت  
وهي معه بالإسكندرية، بقبة أنشأها في هذه المدرسة، ورتب عندها قراء ليالي  
الجمع وكذلك إسماع الحديث في سائر أيام الأسبوع، بالإضافة إلى ما كان يقرأ من  
القرآن في كل يوم<sup>(١)</sup>.

---

السفن ومنه يخرجون للإبحار، انظر: السخاوي، الضوء اللامع، ج ٣، ص ٢٠١؛ الحميري:  
الروض المعطار، ص ٥٥؛ السيد عبد العزيز السالم: تاريخ الإسكندرية، ص ٤٥٢.  
(١) السخاوي: الضوء اللامع، ج ١٢، ص ٣٨.

## دور العلماء

لم يقتصر طلب العلم في الإسكندرية ودوره على المساجد والكتاتيب والمدارس بل تعدى ذلك إلى أماكن أخرى ومنها (دور العلماء)، فقد فتح العديد من العلماء بيوتهم للإقراء والتدريس وبذل الإجازات لمستحقيها، وذلك امتداداً لما كان عليه السلف من فتح دورهم لطالبي العلم<sup>(١)</sup>.

ومن أشهر دور العلم بالإسكندرية دار المحدث وجية الدين يحيى الصنهاجي الإسكندراني، فقد لقيه ابن بطوطة عند مروره بالإسكندرية ووصفه بأنه من قضاتها المشهورين بالعلم والفضل<sup>(٢)</sup>، كذلك لقيه البلوي وذكر أنه كان إماماً في الفروع والأحكام، وأخذ عنه وأجازته العديد من المؤلفين بمنزله بالثغر<sup>(٣)</sup>.

كذلك منهم: تاج الدين الغرافي، فقد ذكر البلوي أنه لقيه بمنزله بالإسكندرية وسمع منه حديث الرحمة المسلسل بالأولية<sup>(٤)</sup>.

ومنهم الشيخ شرف الدين أبو العباس أحمد بن أبي الحسن الكتامي الشافعي لقيه البلوي وترجم له، وذكر أنه لقيه بمنزله من الإسكندرية، وسمع عليه تصانيف جملة<sup>(٥)</sup>.

وفي كلام البلوي دلالة على طول الوقت الذي قرأ فيه علي الشيخ في بيته مما يدل على انقطاعه للتدريس في بيته، وكذلك طول المدة التي يمنحها للطلاب في بيته، والله أعلم.

ومن دور العلم بالإسكندرية دار الشيخ محمد بن عبد الله التلمساني المعروف بحافي رأسه، فكان يقرئ بداره وكان من أئمة العربية والنحو<sup>(٦)</sup>.

(١) السمعاني: أداب الإماء والاستملاء، ص ١٤١.

(٢) ابن بطوطة: الرحلة، ج ١، ص ٣٦.

(٣) البلوي: تاج المفرق، ج ١، ص ٦٢؛ ابن حجر: الدرر، ج ٤، ص ٤٢٨.

(٤) البلوي: تاج المفرق، ص ٢٠٦.

(٥) البلوي: تاج المفرق، ج ١، ص ٢٠٣.

(٦) ابن شاكر كتبي: وفيات الوفيات، ج ٢، ص ٤٥٤ — ٤٥٥.

ومنهم الإمام العلامة ناصر الدين ابن المنير الذي كان يسمع العلم بمنزله، فقد لقيه البلوي بمنزله وسمع عليه أكثر تأليف عمه العالم الكبير قاضي القضاة في الإسكندرية ابن المنير، ومما سمع عليه الأرجوزة الكبرى في التفسير، وكتاب تراجم أبواب البخاري.

كذلك كان الشيخ عز الدين ابن حباسة (من علماء القرن ٨هـ/٤م)، يقوياً عليه في بيته، فقد لقيه البلوي بمنزله وحرص على ملازمته وسمع عليه في بيته عدداً من مروياته تقرب من الأربعين مجلداً<sup>(١)</sup>.

أيضاً كان الشيخ المقرئ المجود عبد الله أبو محمد المكين الأسمر متصدراً للإقراء بالإسكندرية، فقد قرأ عليه صاحب "ملء العيبة" الحديث بدكان في منزلة بالثغر وأجازته بجميع ما تجوز له روايته<sup>(٢)</sup>.

كما كان الشيخ الفقيه شمس الدين أبو عبد الله بن كمال الدين القرشي الإسكندري، يسمع العلم بحانوت الوثيقة بالإسكندرية<sup>(٣)</sup>، والظاهر أنه كان حانوتاً مشهوراً بالإسكندرية، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن العلماء لم تكن دورهم فقط هي محل بثهم العلم بجوار المراكز العلمية النظامية المعتادة من المساجد والمدارس، بل كان بثهم للعلم في كل مكان يمكنهم فيه ذلك ولو كان حانوتاً، وقد ذكر البلوي في رحلته أنه لقي أيضاً الشيخ شرف الدين أبا البركات محمد بن فخر الدين أبي بكر بن أبي محمد عبد الكريم بن عطاء الله الجذامي بالإسكندرية، وأنه لقيه بدكانه من الشهود بالإسكندرية.

أيضاً من العلماء اللذين فتحوا أبواب دورهم لطلبة العلم، الشيخ محمد بن صالح بن محمود بن حمزة أبو عبد الله التنوخي الفقيه الشافعي، فقد سمع منه أبو المظفر منصور بي سليم بمنزله بالثغر، وقد وصف بالسيرة الحسنة المرضية<sup>(٤)</sup>.

(١) البلوي: تاج المفرق، ج ٢، ص ٨٠ — ٨٦.

(٢) ابن رشيد: ملء العيبة، ص ٣٥.

(٣) البلوي: تاج المفرق، ج ١، ص ٢١٠.

(٤) اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج ٢، ص ١٣٥.



وقد سبق في ترجمة الشيخ الزاهد أبي القاسم المعروف بالقباري أنه كان  
يلزمه الإمام الشيخ ابن المنير في منزله وكان يأخذ عنه الزهد والرقائق<sup>(١)</sup>.  
وهكذا أسهمت دور العلماء في تنشيط الحركة العلمية بمدينة الإسكندرية  
وكانت فسحة للغرباء أن يحصلوا العلوم دونما حرج في المجالس العامة، وكانت  
من جهة أخرى تعطي للشيخ فرصة لبث علمه في غير المراكز النظامية للتعليم  
مما وسّع دائرة العلم في الثغر في العهد المملوكي.

---

(١) اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج ٢، ص ٣١٥، كذلك انظر الفصل الأول من هذه الرسالة، ص

## الأربطة والخانقاوات

الأربطة: جمع رباط، والربط والمرابطة: ملازمة ثغر العدو، وأصله أن يربط كل واحد من الفريقين خيله، ثم صار لزوم الثغر رباطاً<sup>(١)</sup>، قال تعالى: ﴿وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾<sup>(٢)</sup>، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا﴾<sup>(٣)</sup>، ومن ثم أطلق لفظ (رباط) على البناء المحصن الذي يقوم قريباً من الحدود ويرابط به جماعة من المجاهدين لمهاجمة الأعداء ودفع خطرهم، وأكثر المسلمون من إقامة الربط على أطراف دولتهم وكان المرابطون يجمعون بين حياة الجهاد والحياة الدينية، حتى ضعف خطر المسيحية على المشرق الإسلامي، وعندئذ أخذ الرباط يفقد الطابع الحربي، وتغلب عليه الصفة الدينية<sup>(٤)</sup>، ثم تحول الرباط إلى المكان الذي ينزل به الصوفية<sup>(٥)</sup>.

والخانقاه: وجمعه خانقاوات وخوانق، هي كلمة فارسية تعني البيت، وقيل أصلها خونقاه أي الموضع الذي يأكل فيه الملك، وجعلت لانقطاع الصوفية فيها لعبادة الله تعالى<sup>(٦)</sup>، حسب زعمهم.

وقد ظهرت الخوانق في الإسلام في حدود الأربعمئة من الهجرة<sup>(٧)</sup>، في الوقت الذي كثرت فيه الصوفية وتعددت مشيختها<sup>(٨)</sup>.

والظاهر أن الرباط والخانقاة اسمان لمسمى واحد فقد ذكر ابن الحاج أن: (الرباط هو المسمى في عرف العجم خانقاة)<sup>(٩)</sup>، وحتى لما عرف المقرئ الرباط

(١) ابن منظور: لسان العرب، ج ٣، ص ١٥٦١، مادة ربط.

(٢) الأنفال، آية: ٦٠.

(٣) آل عمران، آية: ٢٠٠.

(٤) سعيد عاشور: المجتمع المصري، ص ١٦٨.

(٥) المقرئ: الخطط، ج ٢، ص ٤٢٧.

(٦) المقرئ: الخطط، ج ٢، ص ٤١٤؛ سعيد عاشور: المجتمع المصري، ص ١٦٨.

(٧) المقرئ: الخطط، ج ٢، ص ٤١٤.

(٨) الخطيب: دراسات في تاريخ الحضارة، ص ٧٣.

(٩) ابن الحاج: المدخل، ج ٣، ص ١٨٥.

والخانقاه، وذكر كل نوع على حدة، إلا أنه في تعريفه جمع بينهما في المعنى فكان تعريفه لكل منهما أنه: (بيت الصوفية ومنزلهم)<sup>(١)</sup>، وقد اهتم المماليك ببيوت الصوفية، وصار يعين لكل ربط أو خانقاة شيخ أو أكثر، يعاونه عدد من المتصوفة، واشترط في الشيخ أن يكون: (من جماعة الصوفية ممن عرف بصحبة المشايخ، وألا يكون قد اتخذ من التصوف حرفة)<sup>(٢)</sup>، وقد اختلفت الأربطة والخانقاوات فيما يهدى لها على حسب حال مشيختها، ما بين الأرز إلى اللحوم والفواكه والعسل، وألحق بها الحمامات والمطابخ، كما زود بعضها بخزانة للأشربة والأدوية وطبيب وكحال<sup>(٣)</sup>، مما يدل على اهتمام السلاطين والأمراء وكبار التجار بوقفيات الصوفية، حيث كان الكثير منهم يتفاخر ويتنافس على بناء الأربطة والزوايا<sup>(٤)</sup>.

وقد عاب ابن الحاج على أهل الخانقاوات السماعيات التي كانوا يقيمونها للذكر، ومعهم الشباب والمزمار والدف وما يقومون به من الرقص والتصفيق وهز الرؤوس كما يفعل أهل الخمور سواء بسواء، وكيف أن الشيخ يرقص بغير وقار ولا حياء ويأخذ في المنادة والبكاء وربما مزق ثيابه وعبث بلحيته<sup>(٥)</sup>.

(١) المقرئزي: الخطط، ج ٢، ص ٤٢٧. أيضا سميت الأربطة بـ (المحارس)، انظر الخزرجي: سير الأولياء، ص ١٣٦.

(٢) حجة وقف بيبرس الجاشنكير عن سعيد عاشور، المجتمع المصري، ص ١٧١.

(٣) حجة وقف الغوري، عن سعيد عاشور: المجتمع المصري، ص ١٧٢.

(٤) ابن بطوطة: الرحلة، ج ١، ص ٧١؛ النهرواني: الإعلام، ص ٢١٤، والزوايا: مفردا زاوية، وهي مشتقة من الفعل أنزوى، ينزوي، بمعنى اتخذ ركنا من أركان المسجد للاعتكاف والتعبد، ثم تطورت إلى أبنية صغيرة منفصلة في جهات مختلفة من المدينة ليقيم بها الصوفية والغرباء والطلبة، انظر: الخطيب: دراسات في تاريخ الحضارة، ص ٧٣، وقد ذكر ابن بطوطة في نفس المكان أن المصريين يطلقون على زواياهم اسم خانقاوات أو خوانق.

(٥) ابن الحاج: المدخل، ج ١، ص ١٠٤، ج ٢، ص ٢-٦، كما انتشر في مجالسهم اصطحاب المردان، وربما الأراذل وأصحاب المغاني والملاهي، وربما تعاطوا الحشيش، انظر: ابن الحاج: المدخل، ج ٣، ص ٩٥-١١٩؛ المقرئزي: الخطط، ج ٣، ص ٢٠٥.

وهكذا خرجت الخانقاوات عن شرط واقفيها إلى هذه المفاصد والمنكرات حتى استنكر العلماء أوضاعهم وأصدر السلطان جقمق مرسوماً لمنع الصوفية من عمل (مالا يجوز في زواياهم)<sup>(١)</sup>، وقال المقرئزي عن هؤلاء الصوفية: (لا ينسبون إلى علم ولا ديانة وإلى الله المشتكى)<sup>(٢)</sup>.

وقد وجد بالإسكندرية عدة أربطة و خانقاوات وزوايا، من ذلك:

#### رباط الواسطي:

نسبة إلى الشيخ أبي علي منصور بن نصر بن أبي الفضل الواسطي القاضي المتوفى سنة (٦٧٢هـ/١٢٧٣م)<sup>(٣)</sup>.

#### رباط سوار أو (محرس سوار):

وهو الذي نزل به أبو عبد الله محمد بن سليمان المعافري<sup>(٤)</sup>، كذلك نزل فيه عدد كبير من المتصوفة أمثال المرسي أبي العباس<sup>(٥)</sup>.

#### رباط الهكاري:

أنشأه محمد بن الأمير زين الدين أبي المفاخر باخل بن عبد الله الهكاري متولى الثغر زمن المنصور قلاوون، وكان أديباً عالماً توفى سنة (٦٨٣هـ/١٢٨٤م)، عند رباطه بخارج باب رشيد<sup>(٦)</sup>.

#### رباط ابن سلام:

أسسه الشيخ أبو عبد الله محمد بن سلام بشبه جزيرة المنار قبل واقعة القبارصة بأكثر من سنة، وقد صرف على بنائه مبلغاً كبيراً من المال، وجعله للمرابطين وليبيت فيه طائفة رماه رباط القرافة المتطوعين وليؤدوا الصلاة به وقد قام القبارصة أثناء وقعتهم الغاشمة على المدينة بمهاجمته وقتل من فيه

(١) ابن تغري بردي: حوادث الدهور، سنة ٨٥٢هـ، ج ١، ص ١٦٤.

(٢) المقرئزي: الخطط، ج ٤، ص ٢٧٢؛ عاشور: المجتمع المصري، ص ١٧٥.

(٣) الشعراني: الطبقات الكبرى، ج ١، ص ١٤٣؛ الشيال: تاريخ مدينة الإسكندرية، ص ١٠٧.

(٤) المقرئزي: نفع الطيب، ج ٢، ص ٣٤١؛ السيد عبد العزيز السالم: تاريخ الإسكندرية، ص ٤٨٢.

(٥) الخزرجي: سير الأولياء، ص ١٣٦-١٣٧.

(٦) النويري السكندري: الإمام، السيد عبد العزيز السالم: تاريخ الإسكندرية، ص ٤٨٢.

وأحرقوا أسقفه وكسروا قناديله، ويذكر النويري أن الصليبيين لما تكاثروا حوله أمطروهم رماة المسلمين بسهامهم فقتلوا منهم جماعة حتى نفذت سهامهم، ثم عمدوا بعد ذلك إلى شرفات الرباط فقاموا بهدمها وأخذ حجارتها ورموا بها على العدو إلى أن نفذت، فقام الصليبيون باقتحام الرباط من شبابيكه المهذمة وذبحوا جميع من كان به من المسلمين المرابطين حتى سالت دماؤهم من ميازيب الرباط، ولما شاهد الشيخ محمد بن سلام ما فعل برباطه بكى وتألّم على ما شاهده، فقام بسد شبابيكه وبابه بالحجارة، وبعد مرور خمس سنوات على الواقعة قام ابن سلام بتجديد الرباط وأعماراه وكان ذلك سنة (٧٧١هـ/١٣٦٩م)، فأصبح الرباط كما كلن أولاً، غير أنه جعل سقف إيوانه من الحجارة بدل الخشب حتى لا تلتهمه النيران، إذا حدث أمر ما<sup>(١)</sup>.

#### رباط قاعة القرافة:

وهو من وقوفات الشيخ محمد بن عبد السلام أيضاً<sup>(٢)</sup>، وممن تولى مشيخته، الشيخ أحمد أبو العباس (ت في القرن ٨هـ/١٤م)<sup>(٣)</sup>.

#### رباط الذهبي:

وهو من الأربطة المعروفة بمدينة الإسكندرية، تولى مشيخته الشيخ الشمس أبو عبد الله محمد بن محمد بن محمد بن أحمد المالقي السكندري الشافعي حفظ القرآن والشاطبية، وأخذ الحديث عن عدد كبير من علماء الثغر، وكذلك علم القراءات، وتولى مشيخة قاعة القرافة والذهبي عن والده، وظل كذلك إلى أن وافته المنية بمنزله بالرملة سنة (٨٧٨هـ/١٤٧٣م)<sup>(٤)</sup>.

#### رباط وتربة الأمير طغية:

كان بالقرب من رباط ابن سلام، وحوله عدد من الأضرحة، يعلو بابها غرفة يجلس فيها الأمير جنفرا نائب صلاح الدين بن عرام متولى الإسكندرية

(١) النويري السكندري: الإمام، ج ٢، ص ١٥١، ١٥٤.

(٢) النويري السكندري: الإمام، ج ٢، ص ١٥٤.

(٣) النويري السكندري: الإمام، ج ٢، ص ١٨٨.

(٤) السخاوي: الضوء اللامع، ج ٩، ص ١٩٩ - ٢٠٠.

ليستعرض إطلاق النفط المشتعل، وحول هذه التربة كان يقوم عدد من الربط  
أحرقها القبارصة وكسروا قناديلها وقناديل مزاراتها، وقد هدم نائب الإسكندرية  
هذه الربط بعد الواقعة بسنتين حتى لا يتخذها القبارصة في المستقبل مأوى لهم<sup>(١)</sup>.

#### رباط قجماس الإسحاقى:

عمره الأمير قجماس الإسحاقى نائب السلطنة في أيام الأشرف قايتباي  
خارج باب البحر على شاطئ بحر السلسلة وسبل به<sup>(٢)</sup>.

#### رباط الشاطبي:

ذكره صاحب الإمام حين ذكر متولي الإسكندرية الأمير سيف الدين  
أرغون الاالا - المعروف بالأحمدي وأنه دفن بهذا الرباط سنة  
(٧٧٥هـ/٣٧٣م)<sup>(٣)</sup>.

#### خانقاه بيليك المحسني:

ذكر ابن حجر أنها من إنشاء بيليك المحسني الذي كان نائبا على  
الإسكندرية في القرن السابع، ومن شيوخها مجد الدين موسى ابن أحمد بن محمود  
الأقصري (ت ٧٤٠هـ/٣٣٩م)<sup>(٤)</sup>، وممن تولى مشيخة هذا الرباط أيضا أحمد بن  
محمد بن عبد الله بن حمزة الشهاب المصري الشافعي (ت ٨٤٩هـ/٤٤٥م)،  
وصف بإصلاح وتلاوة القرآن<sup>(٥)</sup>.

#### رباط ابن حباسة:

يقع عند أحد أبواب الإسكندرية ويعرف بباب العزيز، بناه الشيخ ابن حباسة  
لأحد أعيان مشايخ الثغر المتصوفة ويدعى عبد المعطي بن محمود بن عبد  
المعطي بن عبد الخالق أبو محمد بن الثناء الإسكندري، حيث جلس الأخير في هذا

(١) النويري السكندري: الإمام، ج ٢، ص ١٧٢.

(٢) السخاوي: الضوء اللامع، ج ٦، ص ٢١٣؛ السيد عبد العزيز السالم: مدينة الإسكندرية،  
ص ٤٨٣.

(٣) النويري السكندري: الإمام، ج ٦، ص ٤٢٢ - ٤٢٣.

(٤) ابن حجر: الدرر الكامنة، ج ٥، ص ١٤٣ - ١٤٤.

(٥) السخاوي: الضوء اللامع، ج ٢، ص ١٣٢.

الرباط، ثم انتقل إلى مكة وتوفي بها سنة (٦٣٨هـ/١٢٤٠م)<sup>(١)</sup>، وممن تولى مشيخة هذا الرباط الشيخ أبو محمد عبد الله المغربي الصوفي<sup>(٢)</sup>.

### رباط ومشيخة الشاذلية:

نسبة إلى طائفة الشاذلية، وقد تتابع على مشيختها عدد من مشايخ الصوفية منهم السلطان المملوكي أحمد بن أينال أبو الفتح العلائي الظاهري الناصري، فقد تولى المذكور مشيخة الشاذلية، أثناء وجوده منفيا بالإسكندرية، توفي سنة (٨٩٣هـ/١٤٨٧م)<sup>(٣)</sup>.

### رباط الشيخ عبد الرزاق:

قام بإنشائه الشيخ عبد الرزاق أحد رموز التصوف بالإسكندرية في العصور المملوكي، وقد كان هذا الرباط يحتوي على عدد كبير من الخلوات<sup>(٤)</sup> لكثير من المشايخ الصوفية، لا يخرجون منها إلا لصلاة الجمعة، ومن هؤلاء الصوفية الذين استقروا في هذا الرباط أبو الفقراء حجاج، ووصف بأنه من أصحاب المكاشفات<sup>(٥)(٦)</sup>.

(١) الفاسي: العقد الثمين، ج ٦، ص ٤٩٧ — ٤٩٩.

(٢) ابن العمادية: ذيل تكملة الإكمال، ج ١، ص ٣٠٤.

(٣) السخاوي: الضوء اللامع، ج ١، ص ٢٤٦.

(٤) الخلوات الصوفية هي: بدعة مستحدثة بحيث ينقطع الشخص عن العالم الخارجي للتعبد وهي ليس فيها أي نفع لا للشخص ولا للمجتمع، يخرج منها الشخص مظلم الفكر محلا للوساوس نافرا عن الناس، وقد جعل الصوفية شروطا للخلوة، بأن تكون مظلمة، ويكون مداوما للصوم بقدر الإمكان مقللا للطعام والنوم، ساكتا عن الكلام إلا من ذكر الله، لا يخرج من خلوته إلا لصلاة الجماعة فقط، لمعرفة المزيد عن شروط الخلوة وأقسامها انظر: غالب عواجي: فرق معاصرة تنسب إلى الإسلام، ص ٨٠١ — ٨٠٨.

(٥) إن الغيب لا يظمه إلا الله سبحانه وتعالى، إلا أن الصوفية تعدوا على هذه الصفة وأقاموا أمرا سموه (الكشف الصوفي)، أو المكاشفات، ومعناه أنهم يعلمون الغيب إما عن طريق الله مباشرة — تعالى الله عما يقولون — أو عن طريق الرسول صلى الله عليه وسلم أو الأنبياء أو الخضر أو ملك الإلهام، انظر: غالب عواجي: فرق معاصرة، ص ٨٧٢ — ٨٧٥.

(٦) الخزرجي: سير الألياء، ص ١٠٨ — ١٠٩.

ومن رواد هذا الرباط: عبد الرحمن بن الطيب، فقد كان ممن يساعد فقراء الثغر بما يتحصل عليه من الأموال والأشياء العينية، كالأطعمة وغيرها<sup>(١)</sup>.  
ومن قاطنيه أيضا: شخص يدعى أبو النور، أقام فيه عشر سنين لم يخرج من زاويته من الرباط إلا للجمعة فقط<sup>(٢)</sup>، وقد حذا حذوه أحد رواد الرباط ويدعى موسى المغربي<sup>(٣)</sup>، ومن رواده أيضا أبو حفص عمر التلمساني، وهذا الصوفي لم تنتهي شطحاته عند ترك الاجتماع بالناس والمكشافات وغير ذلك بل تعدتها إلى ما هو أكبر من ذلك وهو أن الله عز وجل قد كلمه؟<sup>(٤)</sup> - تعالى الله عما يقول علوا كبيرا<sup>(٥)</sup> - وما يؤكد كلامنا أن كثير من هؤلاء المتصوفة والذين يسرون على نهجه ضاق بهم فقهاء الثغر، وأودعهم البيمارستانات، أمثال الصوفي عبد القادر النقاد، فقد سلك نفس المسلك، حيث ظهر عليه وله وصار ينطق بالعجائب والمكشافات، فقام فقهاء الثغر بالحكم عليه بالجنون وأودعوه أحد المصححات بها خوفا من أن يتأثر منه بعض ضعاف النفوس، وقد قام المرسي أبو العباس بزيارته في البيمارستان ورأى حاله وسمع نطقه وكلامه، ليقول بعد ذلك: هذا عبد قادر<sup>(٦)</sup>، وتعلمه قال ذلك في محاولة منه لتدارك الموقف حتى لا تنفض أفكارهم

(١) الخزرجي: سير الأولياء، ص ١٠٩.

(٢) الخزرجي: سير الأولياء، ص ١١٠.

(٣) الخزرجي: سير الأولياء، ص ١١٠.

(٤) يذكر التلمساني: أنه وقف ذات مرة على جانب البحر يدعوا الله للمسلمين فسمع من صدر البحر من يقول له: ولك مثله مرتين أو ثلاثا، فأخبر بذلك أحد مشايخ الصوفية، فلما سافر الأخير إلى المهدية من بلاد المغرب أرسل للتلمساني كتابا قال فيه: السلام على عمر الذي كلمه الحجر؛ فعتب التلمساني عليه، وقال: من يكلمه الله ينعت بكلام الحجر؟، ونحن في اعتقادنا أن الرجل كانت لديه نوع من التهيأت والتخيلات الباطلة، وأن ما سيمعه هو دوي أمواج البحر، خاصة لو علمنا أن الكثير من المتصوفة كان يجاهد نفسه عن تناول الطعام المتنوع وكذلك شرب الماء فهذا له تأثير كبير ليس على البنية الجسدية فقط وإنما على التركيز الفكري والحضور الذهني والله أعلم.

(٥) الخزرجي: سير الأولياء، ص ١١٠.

(٦) الخزرجي: سير الأولياء، ص ١١٢.



ولعله قال ذلك في محاولة منه لتدارك الموقف حتى لا تتفصح أفكارهم ومخالفاتهم العقديّة.

رباط أبي عبد الله العصار:

قام بإنشائه أبو عبد الله العصار، وقام بتولي مشيخته من بعده ابنه أبو الفضل، ومن سكان هذا الرباط أبو الربيع سليمان المراكشي<sup>(١)</sup>.  
ومن محمل ما سبق نجد أن هذه الأربطة أنشأها إما نواب الإسكندرية ومتوليها، أو فضلاء الثغر أو مشايخ الصوفية، كما أن بعضها كان رباطا حربيا ولم يكن مجرد زاوية للفقراء وأنها كانت تستخدم للصلاة كرباط ابن سلام، ومن المتوقع أن يكون بهذه الأربطة شيوخ لحث المجاهدين على الجهاد وإمامتهم في الصلاة وتعليمهم أمور دينهم، نذكر منهم على سبيل المثال بهاء الدين عبد الله بن محمد بن أبي بكر بن الخليل العسقلاني المكي المقرئ الشافعي المحدث، رحل من أجل طلب الحديث، فدخل الشام ومصر، برع في مذهب الشافعي وفي الحديث وعلم القراءات، ثم بعد ذلك أثر الانقطاع والخمول<sup>(٢)</sup>، فترك جميع ذلك وانقطع مرابطا بإحدى الزوايا الموجودة ظاهر مدينة الإسكندرية، وبقي كذلك إلى أن وافته المنية سنة (٧٧٧هـ/١٣٧٥م)<sup>(٣)</sup>، ومنهم أيضا أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد الماغوسي السلاوي، وصف بأنه عالم مجاهد مرابط، متفنن ناثر ناصح مرشد، نزل الإسكندرية ورباط بها وتوفي سنة (٧٨٠هـ/١٣٧٦م)<sup>(٤)</sup>.  
ويلاحظ أن هذه الأربطة والخانقاوات والزوايا، صارت أضرحة لمن بناها، ناهيك أنه لم يكن لهذه الأربطة والخانقاوات كبير الأثر بالحركة العلمية اللهم

(١) الخزرجي: سير الأولياء، ص ١١٣.

(٢) يذكر صاحب كتاب ذيل العبر، أنه: (كان كثير التقشف فوصل به ذلك إلى نوع من السوءاء)،

ابن العراقي، ج ٢، ص ٤١١. والسوءاء مرض من الأمراض النفسية، يتمثل بـ (الوسواس)

انظر: ابن قيم الجوزية: زاد المعاد، ص ٧٥.

(٣) الصفدي: الوافي، ج ١٧، ص ٥٩٦؛ أعيان العصر، ج ٢، ص ٧٢٠؛ ابن حجر: إنباء الغمر،

ج ١، ص ١١٤-١١٥؛ المقرئ: السلوك، ج ٣، ق ١، ص ١٥٨.

(٤) القرافي: توشيح الديباج، ص ٢٣٢.

إلا تعليم القرآن وقراءته، وأما ما يتعلق بعلوم الشريعة وأصولها، فلم يكن لها دور بارز في تنشيط الحركة العلمية، لأن المتصوفة في واقع الأمر لم يكونوا يهتمون بذلك، بما ابتدعوه من القول بالحقيقة وعلم الباطن مما تقدم ذكره في الفصل الأول<sup>(١)</sup>.

ومن الملاحظ أن معظم المنقطعين من المتصوفة لا يرابطون في الأربطة المبنية ظاهر الثغر السكندري والتي هي معدة للجهاد ومنازلة العدو، وإنما في الخانقاوات أو الأربطة التي ليست لها صفة جهادية، خاصة التي بناها مشايخ المتصوفة كرباط عبد الرزاق وغيره، وأن جل همهم توفير مسكن ومأكل لهم بالإضافة إلى أن معظم مرابطي هذه الخانقاوات كانوا من المغاربة أو الأندلسيين الذين انقطعوا عن أوطانهم في هذه الأربطة، فكان لزاما عليهم أن يحيطوا أنفسهم بهالة من التنظيم وذلك بإيهاهم العوام بأنهم أصحاب كرامات ومكاشفات ونحو ذلك لكي يضمنوا لأنفسهم حياة طيبة من خلال ما يرد عليهم من معونة من أهالي الثغر، إذ ليس لهم مهنة يمتهنونها لكسب العيش.

---

(١) راجع الأوضاع الدينية، ص ١٥٠.

## أثر شيخ الإسلام ابن تيمية على الحياة العلمية بالإسكندرية

قبل بيان الحركة العلمية التي أحدثها شيخ الإسلام ابن تيمية بالإسكندرية إبان اعتقاله ، يجدر بنا أن نتعرف أولاً على ابن تيمية وآرائه وأسباب سجنه.

فهو: أحمد بن عبد الحلیم بن عبد السلام بن عبد الله الحراني الدمشقي الملقب بتقي الدين المكنى بابي العباس، الإمام المحقق الحافظ المجتهد المحدث المفسر الأصولي النحوي الواعظ الخطيب الكاتب الأديب، شيخ الإسلام وقُدوة الأنام<sup>(١)</sup>، ولد سنة (٦٦١ هـ/١٢٦٢ م)، تلقى العلوم على كبار مشايخ عصره حتى برز في شتى علوم الإسلام من تفسير وحديث وفقه ولغة وأصول فقه وفرائض كما أتقن فنون الحساب والجبر والمقابلة ورد على المتكلمين والفلاسفة، وأفتى وله من العمر ٩ سنة، وجلس مجلس والده ولم يتجاوز ٢٢ سنة<sup>(٢)</sup>، بلغ مرتبة الاجتهاد وله خبرة تامة بالرجال وجرحهم وتعديلهم، وأما التفسير فقد بلغ فيه الغاية، وله في استحضار الآيات للاستدلال قوة عجيبة، كان يكتب في اليوم والليلة من التفسير أو الفقه أو من الرد على الفلاسفة نحو من أربعة كراريس<sup>(٣)</sup>، وبلغت تصانيفه نحو ٥٠٠ مجلد<sup>(٤)</sup>، كتب رسالته (الحموية) في سنة (٦٩٨ هـ/١٢٩٨ م) وله من العمر ٣٧ سنة، فكانت محنته الأولى بسبب هذه الرسالة، أو الفتوى الحموية<sup>(٥)</sup>، حيث

(١) المراغي: الفتح المبين، ج ٢، ص ١٣٠.

(٢) اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج ٤، ص ٢٠٣.

(٣) ابن عبد الهادي: العقود، ص ٦٤.

(٤) الصفدي: الوافي، ج ٧، ص ٢٣، أعيان العصر، ج ١، ص ٢٣٩. وعدها البعض ٣٠٠ مجلد

انظر: محمد أبو صعيليك وإبراهيم العلي: ثلاث رسائل في الجهاد لشيخ الإسلام ابن تيمية ص ١٩.

(٥) فقد سئل في هذه الفتوى عن الصفات، فذكر مذهب السلف ورجحه على مذهب المتكلمين فأوعز المخالفون للقاضي الحنفي الذي طلب حضوره فلم يحضر، فأمر أن ينادى في البلد ببطلان هذه العقيدة أو الفتوى أو الرسالة، ولكن الأمير سيف الدين جاغان نائب الشام أرسل طائفة فضربوا المنادي ومن معه، وثم الاجتماع مع الشيخ وقرئت الفتوى من الصباح إلى الثالث من الليل، وتبين أنه على حق في كتابه، وقال القاضي الشافعي عمر بن أحمد القزويني: (كل من تكلم في انشيخ يعزر)، انظر سرد هذه الحادثة مفصلة في ابن عبد الهادي: العقود:

أصبحت ناراً على أهل البدع، وأحدثت هزة في القلوب والأفكار، وبدأت الأنظار تتحول إلى صوت صاعد بالحق كسر حاجز الخوف وبدأ يصرخ في أمة احتوتها الأفكار المنحرفة، ثم بدأت محنة السجن منذ عام (٧٠٥هـ/١٣٠٥م) وله من العمر ٤٤ سنة، فقد عقد للشيخ رحمه الله عدة مجالس أمام النائب حول عقيدته المضمنة في رسالته (الواسطية) وقد خرج الشيخ من هذه الجلسات ظاهر الحجة عليهم<sup>(١)</sup>، وما بين سنة (٧٠٥-٧٠٩هـ)/(١٣٠٥-١٣٠٩م) سجن في مصر لم يتخللها إلا فترة واحدة لم تدم أكثر من شهر ما بين سجون مصر والإسكندرية وذلك بسبب الصوفية وعمره ٤٨ سنة، وفي الفترة ما بين (٧٢٠-٧٢١هـ)/(١٣٢٠-١٣٢١م) سجن في دمشق وذلك بسبب فتواه في الحلف بالطلاق وعمره ٦٠ سنة، وفي الفترة بين سنة (٧٢٦-٧٢٨هـ)/(١٣٢٥-١٣٢٦م) سجن بدمشق بسبب فتواه في منع شد الرحال إلى قبور الأنبياء على مقتضى الحديث الصحيح<sup>(٢)</sup>، وقد كتب رده على القاضي الإخنائي<sup>(٣)</sup> في السجن،

ص ٢٠٠، ٢٠٢؛ ابن كثير: البداية، ج ٧، ق ١٤، ص ١٣؛ السبكي: طبقات الشافعية، ج ٨، ص ٣١٠؛ المقرئ: السلوك، ج ١، ق ٣، ص ٨٢٤-٨٢٩، ٨٤٧-٨٤٩.

(١) انظر أحداث هذه المناظرة وما كان فيها، ابن تيمية: مجموع الفتاوى، ج ٣، ص ١٦٠-١٩٤؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٧، ق ١٤، ص ٣٨؛ ابن حبيب: التذكرة، ج ١، ص ٢٦٩؛ ابن الوردي: تنمة المختصر، ج ٢، ص ٣٦٣.

(٢) وهو قوله صلى الله عليه وسلم: (( لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد المسجد الحرام ومسجدي هذا والمسجد الأقصى ))، رواه البخاري: الجامع الصحيح، كتاب الجمعة، ص ٢٣٣، ٢٣٤ (ح ١١٨٩، ح ١١٩٧)، وفي كتاب الحج، ص ٣٦٩ (ح ١٨٦٤)، وفي كتاب الصوم، ص ٣٩٤ (ح ١٩٩٥)، ومسلم، الجامع الصحيح، في كتاب الحج، ج ٢، ص ١٠١٤، (ح ١٣٩٧) وانظر في هذه المسألة ابن تيمية: مجموع الفتاوى، ج ٢٧، ص ١١٤-٢٨٨، ٣١٤-٤٤٤، وانظر في محنته هذه: ابن حبيب: التذكرة، ج ٢، ص ١٦٠؛ ابن الوردي: تنمة المختصر، ج ٢، ص ٣٩٩.

(٣) هو قاضي القضاة إبراهيم بن محمد بن أبي بكر بن عيسى السعدني المالكي، برع في الفقه وناب في الحكم، ثم تولى القضاء مدة خمسة عشر عاماً إلى أن توفي سنة (٧٧٧هـ/١٣٧٥م)، انظر: ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج ١، ص ١٤٦.

وطار هذا الرد في الأفق مما جعل المناوئين له يحرصون على إصدار أمر من السلطان بمنعه من الكتابة، فصدرت منه الأقسام فصار يكتب رسائله بالفحم، وكان هذا في تاسع جمادى الآخرة، سنة (٧٢٨هـ/١٣٢٧م)، ثم تفرغ الشيخ بعد ذلك للعبادة وقراءة القرآن حتى توفي في السجن ليلة الثاني والعشرين من ذي القعدة من نفس العام وعمره ٦٧ سنة<sup>(١)</sup>.

ومن أشهر تلاميذه: الحافظ المزي (ت ٧٤٢هـ/١٣٤١م)، والمحدث الحافظ المقدسي (ت ٧٤٤هـ/١٣٤٣م)، ومؤرخ الإسلام الذهبي والبزار (ت ٧٤٩/١٣٤٨م)، وابن فضل الله العمري وابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ/١٣٥٠م)، وابن قدامة (ت ٧٧١هـ/١٣٦٩م)، والمفسر المؤرخ ابن كثير (ت ٧٧٤هـ/١٣٧٢م)، وثلة من العلماء والقضاة والمفتين والمحدثين<sup>(٢)</sup>.

قال عنه الذهبي: (كل حديث لا يعرفه ابن تيمية فليس بحديث)<sup>(٣)</sup>، وقال الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد، وقد سئل عن ابن تيمية لما اجتمع به، فقيل له: كيف رأيته؟، فقال: رجلاً سائر العلوم بين عينيه يأخذ ما شاء منها ويترك ما شاء<sup>(٤)</sup>، وقال عنه شيخ النحاة أبو حيان لما التقى به: (ما رأيت عيناى مثله)<sup>(٥)</sup>، وكذلك رثاء ابن الوردي بقوله:

غدا في عرض قوم سلاط لهم من نثر جوهره التقاط  
تقي الدين أحمد خير حبر فروق المعضلات به تخاط<sup>(٦)</sup>.

- 
- (١) البزار: الأعلام العلية، ص ٨٢ - ٨٣؛ الصفدي: أعيان العصر، ج ١، ص ٢٣٣؛ ابن تغري بردي: الدليل الشافي، ج ٢، ص ٢٣٦.
  - (٢) انظر في تلاميذ شيخ الإسلام: ابن ناصر الدين: الرد الوافي، ص ٦٢ وما بعدها؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٧، ق ١٤، ص ٢١٦.
  - (٣) ابن الوردي: بتمة المختصر، ج ٢، ص ٤٠٩.
  - (٤) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٦، ص ٨٣.
  - (٥) ابن الوردي: بتمة المختصر، ج ٢، ص ٤١٠.
  - (٦) ابن الوردي: بتمة المختصر، ص ٤١٠.

وقال عنه ابن تغري بردي إنه: (كان إمام عصره بلا مدافعة في الفقه والحديث والأصول والنحو واللغة وغير ذلك)<sup>(١)</sup>.

أما بالنسبة لمسألة حبس الشيخ بالثغر السكندري، فإنه لما كثر اجتماع الناس بابن تيمية في مصر، وكثر تلاميذه ومريدوه، ثارت نفوس الصوفية بقيادة ابن عطاء الله السكندري، فشكا أهل الخوانق والربط والزوايا بالقاهرة إلى السلطان الناصر محمد بن قلاوون، وصعد جماعة منهم إلى القلعة في ضجة شديدة من أجل لفت انتباه السلطان، وقالوا له إنه يسب مشائخهم، واستعانوا عليه بالأمرأء وغيرهم، وكان ذلك في شوال سنة (٧٠٧هـ/١٣٠٧م)، وقد ظهر من علم الشيخ وشجاعته وقوة قلبه الشيء الكثير، فادعى عليه ابن عطاء الله بأشياء لم يثبت عليه منها شيء، فقد فهم هؤلاء من قول الشيخ: (لا يستغاث بالنبى لأنه لا يستغاث إلا بالله)، أنه فيه تنقضا من مقام النبي صلى الله عليه وسلم، لما ألفوه من الاستغاثه بغير الله، ثم إنهم خيروه بين أشياء إما أن يسير إلى دمشق أو الإسكندرية بشروط أو الحبس، فاخترار الحبس، فدخل عليه جماعة في السفر إلى دمشق، فأجاب أصحابه إلى ما اختاروا جبرا لخواطرهم، وفي أثناء سفره رده البريد، وحضر عند قاضي القضاة، وقال بعض الفقهاء في المجلس (إن الدولة ما تريد إلا الحبس)، فردد القاضي بأن ذلك فيه مصلحة لابن تيمية، واستتاب أحد القضاة المالكية وأذن له أن يحكم عليه بالحبس فامتنع وقال: ما ثبت عليه شيء فأذن لقاضي مالكي آخر فتحير، فلما رأى الشيخ توقفهم في حبسه قال: أنا أمضي إلى الحبس، فقال القاضي المالكي: يكون في موضع يصلح لمثله، فأرسل إلى حبس القضاة، وكان ذلك كله بتخطيط من نصر المنبجي فقد كان مستحوذا على عقل السلطان بيبرس الجاشنكير الذي تسلطن فيما بعد<sup>(٢)</sup>، واستمر الشيخ في محبسه يستفتى ويقصده الناس ويزورونه، وتأتيه الفتاوى المشكلة التي لا يستطيعها الفقهاء من الأمرأء وأعيان الناس، فيكتب عليها من الكتاب والسنة، ثم بعد ذلك عقد للشيخ

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ١٠، ص ٢٧١، ٢٧٢.

(٢) فقد كان السلطان في ذلك الوقت الناصر محمد بن قلاوون، إلا أن مقاليد الأمور بيد بيبرس

مجلس انتهى بنزوله إلى إحدى الدور بالقاهرة، حيث أكب الناس على الاجتماع به ليلاً ونهاراً<sup>(١)</sup>. ولما كثر اجتماع الناس به وترددهم عليه ساء ذلك أعداءه وحصرت صدورهم، وصاحب ذلك تطور سياسي، فقد تسلطن بيبرس الجاشنكير، حيث خرج الناصر محمد إلى الكرك مكرهاً بسبب كف يده عملياً عن السلطة لأجل كتاب زور عليه يتضمن عزله وأثبتته القضاة ولم يكن صحيحاً<sup>(٢)</sup> وقد كان ابن تيمية على عدم وفاق مع الجاشنكير وشيخه نصر المنبجي، لذا قرروا نفيه إلى الإسكندرية لعل أحداً يتجاسر عليه فيقتله غيلة<sup>(٣)</sup>.

ومما يذكره خادمه إبراهيم الغباشي، أنه لما جاء الأمر بنقله إلى الإسكندرية وقف يبكي، فقال له الشيخ: (لا تبك، ما بقيت هذه المحنة تبطيء وقال له إسان يا سيدي: هذا مقام الصبر، فقال له: بل هذا مقام الحمد والشكر والله إنه نازل على قلبي من الفرح والسرور شيء لو قسم على أهل الشام ومصر لفضل عنهم، ولو أن معي في هذا الموضع ذهباً وأنفقت ما أدينا عشر هذه النعمة التي أنا فيها)<sup>(٤)</sup>، فكلام خادمه يدل على الحالة النفسية التي كان فيها الشيخ رحمه الله، فقد كان على يقين بزوال المحنة وانقلاب الأمر على الجاشنكير، فأراد أن يكسب الأجر في ذلك ببث العلم، وكان ذهابه في نهاية شهر صفر سنة (٧٠٩هـ/١٣٠٩م)، وأقام بمعتقله بالإسكندرية قرابة ثمانية أشهر، ببرج متسع مليح نظيف له شباكان أحدهما إلى جهة البحر والآخر إلى جهة المدينة، ووفروا له مواد الكتابة ومستلزماتها، وأحاطوه بالعناية والتبجيل، فقد قرر الشيخ بنفسه هذه الحقيقة وذلك حين أرسل رسالة من معتقله بالثغر إلى أصحابه بالشام - يحدثهم فيها على التبتل والخشوع إلى الله - جاء فيها: (.. فإني والله العظيم الذي لا إله

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، ج٧، ق١٤، ص٤٧.

(٢) ابن كثير: البداية، ج٤، ص٤٨؛ المحمود: موقف ابن تيمية، ج١، ص١٨٦.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية، ج٧، ق١٤، ص٥٢؛ محمد العبد: رسائل الإمام ابن تيمية من

السجن، ص٢٨، ٢٩.

(٤) إبراهيم الغباشي: ناحية من حياة شيخ الإسلام، ص٣١، ٣٢.

إلا هو في نعم من الله ما رأيت مثلها في عمري كله..<sup>(١)</sup>، ولقد كان المسئولون عن سجنه في غاية اللطف معه فلم يمنعوا أحداً من الدخول عليه، فكان يدخل عليه من شاء ويتردد إليه الأكابر والأعيان والفقهاء، يقرأون عليه ويستفيدون منه، وهو في أطيب عيش وأشرح صدر<sup>(٢)</sup>، وعلى عكس ما كان يتوقعه الجاشنكير ونصر المنبجي، فقد ألتف الناس حوله في محبة زائدة وحنوا عليه حنوا مفرطاً وتعظيماً لقدره وتقريباً لشخصه، وانتفاعاً بعلمه واشتغالاً عليه، يقول ابن كثير أنه قد جاء إلى دمشق كتاب من أخيه يصف حال ابن تيمية بالثغر قال فيه: (إن الأخ الكريم قد نزل بالثغر المحروس على نية الرباط، فإن أعداء الله قصدوا بذلك أموراً يكيدونه بها، ويكيدون الإسلام وأهله، وكانت كرامة في حقنا، وظنوا أن ذلك يؤدي إلى هلاك الشيخ فانقلبت عليهم مقاصدهم الخبيثة وانعكست من كل الوجوه وأصبحوا وأمسوا وما زالوا عند الله وعند الناس العارفين سود الوجوه يتقطعون حشرات وندماً على ما فعلوه، وانقلب أهل الثغر أجمعين إلى الأخ مقبلين عليه مكرمين له، وفي كل وقت ينشر كتاب الله وسنة رسوله ما تقر به أعين المؤمنين وذلك شجى في حلق الأعداء واتفق أنه وجد بالإسكندرية إبليس قد باض فيها وفرخ، أضل بها فرق السبعينية<sup>(٣)</sup>، والعربية<sup>(٤)</sup>، فمزق الله بمقدمه عليهم شملهم وشتت جموعهم شذر مذر، وهتك أستارهم وفضحهم، واستتاب جماعة كثيرة منهم وتوب رئيساً من رؤسائهم، واستقر عند عامة المؤمنين وخواصهم من أمير وقاض

(١) محمد محمد السبدة: رسائل ابن تيمية في السجن، ص ٣١.

(٢) اليافعي: برآة الجنان، ج ٤، ص ٢٤٥؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٧، ق ١٤، ص ٥٢؛  
العلمي: المنهج الأحمد، ج ٥، ص ٣٤.

(٣) هم أتباع ابن سبعين، وهو رجل أندلسي انتقل إلى مكة ومات بها منتحراً سنة (٦٦٧هـ/١٢٦٨م) وأتباعه يسمون (الليسية)، لأن ذكرهم كان: "ليس إلا الله"، انظر عنها:

محمود عبد الرؤوف النقاسم: الكشف عن حقيقة الصوفية، ص ٣٥٩.

(٤) هم أتباع ابن عربي، محي الدين المتوفى سنة (٦٣٨هـ/١٢٤٠م)، ثبت عنه أنها يعتقد بوحدة الوجود، أو الوحدة ما بين الخلق والمخلوقات، انظر ترجمته في أحمد بناني: موقف ابن تيمية من التصوف، ص ١٨٠.



وفقيهه، ومفتي وشيخ وجماعة المجتهدين، إلا من شذ من الأعمار الجهال، مع الذلة والصغار، محبة الشيخ وتعظيمه، وقبول كلامه والرجوع إلى أمره ونهيه، فعلت كلمة الله بها على أعداء الله ورسوله، ولعنوا سرّاً وجرهاً وباطناً وظاهراً، في مجامع الناس بأسمائهم الخاصة بهم، وصار ذلك عند نصر المنبجي المقيم المقعد ونزل به من الخوف والذل ما لا يعبر عنه..<sup>(١)</sup>.

وبالإضافة إلى ما ذكره أخو الشيخ في رسالته هذه عن أهل الإسكندرية ومناظرات الشيخ لأهل البدع والأهواء واستتابته الكثير من أقطابهم وجماعاتهم وقبول الناس لكلامه، المنبثق من الكتاب والسنة، فإن الشيخ كان يلقي الدروس بالسجن ويؤكد ذلك كلام الذهبي الذي قال: (أنه حدث بالثغر)<sup>(٢)</sup>، وبما أن الشيخ كان معتقلاً، فيكون قد حدث بالحديث من داخل المعتقل، كما تضمن ثبت كتبه رسالة اسمها (المسائل الإسكندرية على الملاحدة الاتحادية والسبعينية)<sup>(٣)</sup>، وهذا يدل على أنه كان يباحث الملاحدة والاتحادية والسبعينية في مسائل الاعتقاد في داخل المعتقل<sup>(٤)</sup>.

وقد ظل ابن تيمية طيلة بقائه بالثغر يُدرس ويعلم حتى رجع الناصر إلى السلطة، فلم يكن له هم إلا بطلب ابن تيمية، فأحضر إليه وبالغ في إكرامه<sup>(٥)</sup>، وفي ذلك يقول ابن حبيب:

إن كان أصبح شيخ العلم معتقلاً من كيد قوم تناهوا في الذي نقلوا  
لا تظهروا عجباً فالسيف يدخل في سجن القراب نعم والرمح يعتقل<sup>(٦)</sup>.  
رحم الله شيخ الإسلام، فقد أثر بقوة في الحياة العلمية بالإسكندرية على الرغم من قصر مدة إقامته بها.

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٧، ق ١٤، ص ٥٢، وانظر نصاً لهذه الرسالة بالملحق ص ٦٠٨.

(٢) الذهبي: تذكرة الحفاظ، ج ٤، ص ١٤٧٩.

(٣) الكتبي: فوات الوفيات، ج ١، ص ٧٤.

(٤) سيأتي في مبحث المناظرات زيادة بيان لذلك إن شاء الله تعالى.

(٥) المقرئ: السلوك، ج ٢، ق ١، ص ٧٨.

(٦) ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج ٢، ص ٢٦ - ٢٧.

## الرحلات العلمية

خرج العلماء السكندريون من ثغرهم طلباً للعلم فطافوا البلاد المصرية شرقها وغربها شمالها وجنوبها ، كذلك رحلوا إلى بلاد الحرمين والشام والعراق وغيرها من البلاد معتمدين في ذلك على قوله صلى الله عليه وسلم: ((من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة))<sup>(١)</sup>.

فمن رحل من الإسكندرية ضياء الدين محمد بن عبد الله بن إبراهيم بن عيسى المتيجي الإسكندراني المحدث (ت ٦٥٩هـ/ ١٢٦٠م)، رحل إلى عدد من البلدان طلباً للعلم حتى وصف بأنه (الرحال)، فعنى بالحديث وتفرد بعلو الإسناد<sup>(٢)</sup> ومنهم شمس الدين علي بن محمد بن أبي بكر بن عبد الله بن مفرج الأنصاري الإسكندري الشافعي، رحل إلى عدد من مدن مصر للسمع، وطلب العلم، فسمع من الدمياطي، وابن دقيق العيد، وتفقه على العلم العراقي، وأجيز بالإفتاء، وتولى قضاء فوه وأسيوط، وتوفي في طريقه إلى اليمن سنة (٧٤٠هـ/ ١٣٣٩م)<sup>(٣)</sup>

ومنهم كمال الدين محمد الشمني الإسكندراني المالكي، رحل إلى القاهرة وسمع من شيوخ الحافظ ابن حجر، كالعراقي وغيره<sup>(٤)</sup>، ومنهم عمر بن أبي بكر بن محمد بن أحمد السكندري، رحل إلى القاهرة للسمع من شيوخها، وقد استغل القاهريون وجوده معهم ليستفيدوا من علمه ويأخذوا منه الإجازة، فممن أجاز لهم السخاوي وغيره، وتوفي سنة (٨٦٣هـ/ ١٤٥٨م)<sup>(٥)</sup>، ومنهم أحمد بن محمد بن علي بن أحمد بن ناصر الشهاب الدرشمي السكندري المالكي (ت القرن ٨هـ/ ١٦م)، ولد بالإسكندرية، ونشأ بها فحفظ القرآن ومختصر ابن الحاجب

(١) مسلم: الجامع الصحيح، في كتاب الذكر والدعاء، ج ٤، ص ٢٠٧٤ (ح ٢٦٩٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) السيوطي: حسن المحاضرة، ج ١، ص ٣٨٠؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٥، ص ٢٩٩.

(٣) ابن حجر: الدرر الكامنة، ج ٣، ص ١٧٣ - ١٧٤.

(٤) ابن حجر: إنباء الغمر، ج ٣، ص ١٨٦.

(٥) السخاوي: الضوء اللامع، ج ٥، ص ١١٧.

والرسالة القشيرية وغير ذلك من كتب الفقه والنحو، ثم رحل إلى القاهرة لطلب الحديث، فقرأ على السخاوي واستجازه، ثم عاد إلى الإسكندرية فناب في قضائها ثم خرج إلى مكة حاجاً، فاستطابها فجاور حتى وافته المنية بها<sup>(١)</sup>، ومنهم الشمس محمد بن محمد بن أحمد الشمس أبو عبد الله بن البدر السكندري الشافعي (ت ٨٩٠هـ/٤٨٥م)، اشتغل بالإسكندرية بعلم الحديث حتى برع فيه، ولكن رغبته في الزيادة والتعلم جعلته يرحل إلى القاهرة غير مرة للأخذ من علمائها فأخذ من السخاوي وغيره علم الحديث والمصطلح<sup>(٢)</sup>.

كذلك رحل عدد من علماء الإسكندرية إلى الشام، حيث كانت حاضرتهم دمشق وغيرها من مدن الشام مزدهرة بالعلم، حافلة بالعلماء، لذا لم تخلو من محط رحال الإسكندرانيين.

فمن رحل إلى دمشق: شميل بن مهلهل بن أبي طالب اللخمي الإسكندراني المالكي التاجر (ت ٦٥٢هـ/٢٥٤م)، فلم تمنعه تجارته من سماع الحديث، فسمع بالثغر، ثم رحل إلى دمشق، فسمع بها من أبي اليمان الكندي<sup>(٣)</sup> محدث الوقت، وغيره، وقد روى عنه جماعة منهم الدمياطي<sup>(٤)</sup>، ومنهم المسند الإمام شرف الدين محمد بن عبد الخالق بن طرخان الإسكندراني، رحل إلى بلاد الشام فسمع الكثير من علمائها ومشائخها أمثال أبي الحسن المقدسي وعبد الله بن عبد الجبار وغيرهم<sup>(٥)</sup>، ومنهم برهان الدين إبراهيم بن محمد بن حاتم الإسكندراني، أخذ العلم بالإسكندرية، ثم شد الرحال في طلبه وهو في ريعان الشباب، فتوجه صوب دمشق، وسمع بها من عدد كبير من مشائخها، ثم عاد إلى

(١) السخاوي: الضوء اللامع، ج ٢، ص ١٤٤، ١٤٥.

(٢) السخاوي: الضوء اللامع، ج ٩، ص ١٤٥.

(٣) هو تاج الدين أبو اليمان زيد بن الحسن الكندي البغدادي، مسند الشام وشيخ القراءات والعربية، أفتى ودرس وصنف توفي بدمشق سنة (٦١٣هـ/٢١٦م). انظر الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ٢٢، ص ٣٤.

(٤) الذهبي: تاريخ الإسلام، حوادث الفترة، ص ١٢٣.

(٥) الصفدي: الوافي بالوفيات، ج ٣، ص ٢١٦.

الإسكندرية فتولى منصب القضاء بالإضافة إلى الخطابة والتدريس، كان خيراً صالحاً، انتفع الناس بعلمه، توفي سنة (٧٠٢هـ/١٣٠٢م)<sup>(١)</sup>، وفخر الدين أحمد بن المخلطة، رحل إلى دمشق وأخذ عن الذهبي وجماعة حتى صار عالماً في الحديث، ومكنه ذلك من أن يتولى التدريس بالمدرسة الصرغتمشية بالقاهرة والتحديث بها، ثم بعد ذلك عاد إلى الإسكندرية فتولى بها منصب القضاء إلى أن وافته المنية سنة (٧٥٩هـ/١٣٥٧م)<sup>(٢)</sup>.

وممن نزل مكة من علماء الإسكندرية في طلب العلم، كمال الدين محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الرحمن بن إبراهيم الهلالي السكندري المالكي المعروف بابن الريعي، ولد بالإسكندرية وتلقى بها علومه، وتولى قضاءها، ثم رحل إلى مكة لسماع الحديث، فسمع من عيسى الحجي وغيره، وتوفي سنة (٧٦٧هـ/١٣٦٥م)<sup>(٣)</sup>.

وإلى بغداد رحل الفقيه السكندري أبو الفضل عبد المنعم بن عبد العزيز وهو من رجال القرن السابع الهجري، فبعد أن تفقه بالإسكندرية على مذهب مالك، رحل إلى بغداد فلقى الفضلاء من علمائها من أهل الأدب، فتأدب بها، ولم يزل يأخذ نفسه بقول الشعر إلى أن صدر له<sup>(٤)</sup>.

وبمقارنة من رحل من الإسكندرية لطلب العلم مقابل من دخل إليها من أقطار العالم الإسلامي<sup>(٥)</sup> نلاحظ عدة أمور:

أولاً: ما حفلت به المصادر التاريخية من أسماء الوافدين إلى الإسكندرية قد فاق عدداً أسماء الخارجين منها في طلب العلم، وهذا له دلالاته الواضحة على

(١) ابن حجر: الدرر الكامنة، ج ١، ص ٥٤.

(٢) ابن حجر: الدرر الكامنة، ج ١، ص ٢٩٥؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ١٠، ص ٣٢٩؛ ابن القاضي: درة الحجال، ج ١، ص ٤٧.

(٣) ابن حجر: الدرر الكامنة، ج ٣، ص ٤٤٥.

(٤) ابن سعيد: الغصون اليانعة، ج ٢، ص ٨٩.

(٥) انظر على سبيل المثال الفصل الرابع والمخصص للرحالة الذين وفدوا من جميع أقطار العالم الإسلامي إلى الإسكندرية طلباً للعلم.

مدى ما كان يزخر به الثغر السكندري من مختلف العلوم والفنون ومن كبار الشيوخ والأئمة الذين كانت الرحال تشد إليهم.

ثانياً: شملت الرحلة إلى الإسكندرية كل العهد المملوكي، فلم تخل الإسكندرية من وافد إليها لطلب العلم، إلا أنه في عصر التدهور العلمي بآخر العهد المملوكي قلت الرحلة إليها بصورة ظاهرة عن أول العصر، ويقرر هذه الحقيقة السخاوي معلقاً على كلام الذهبي<sup>(١)</sup> بقوله: (الآن عدم إلا من بعض الغرباء وغالبهم مالكيون)<sup>(٢)</sup>، لذا لا غرو أن يرحل أهلها للسمع في عصور الدولة المتأخرة، يؤكد ذلك كثرة الأعلام المترجم لهم في آخر العصر المملوكي والذين رحلوا منها لطلب العلم.

---

(١) يذكر الذهبي أن الإسكندرية : (ما زال بها الحديث قليلاً حتى سكنها السلفي، فصارت مرحولاً إليها في الحديث والقراءات، ثم نقص بعد ذلك)، الأمصار ذوات الأثار، ص ١٧٠ — ١٨٠.

(٢) السخاوي: الإعلان بالتوبيخ، ص ٦٦.

## الإجازات

اختص الله سبحانه وتعالى هذه الأمة بشرف الإسناد<sup>(١)</sup>، وسلسلة الرواة فهي الأمة الوحيدة بين أمم الأرض التي تحمل تراثها الديني والثقافي بالأسانيد والروايات، ومنه ما هو بأعلى أنواع الأسانيد وهو التواتر<sup>(٢)</sup>، ولا يختص ذلك بالكتاب العزيز وحده، بل كثير من الأحاديث النبوية والتواريخ تحمل أيضاً صفة التواتر.

وللإسناد أهميته في نقل التراث الفكري، قال الإمام ابن المبارك: (الإسناد من الدين، ولولا الإسناد لقال من شاء ما شاء)<sup>(٣)</sup>.

ولقد كانت العصور الإسلامية الأولى تعني بالرواية والسماع، وكانت العلوم المتلقاة تقل طبقات أسانيداً باعتبار قرب العهد من النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة والأئمة المجتهدين، فكانت الأسانيد يقل عدد أفراد رجالها، مما يسهل حفظها على الأمة حتى صار عصر التدوين، وبدأت المصنفات تظهر إلى حيز الوجود بتدوين تلك الأسانيد المحفوظة، وصار الإسناد يدخل في مرحلة جديدة وهي حمل كتاب عن شخص بعد أن كان الأمر حمل عدة أحاديث.

وبهذا ظهر مصطلح جديد في طرق التحمل والرواية، وهو مصطلح (الإجازة العلمية)، وهي إجازة الشيخ مروياته للطالب بأن يرويها عنه، وبهذا تغلب المحدثون على الصعوبة الحاصلة من طول الأسانيد، فيكفي أن يجيز الشيخ كتاباً كصحيح البخاري مثلاً لتلميذه، فيروي التلميذ الجامع الصحيح بأسانيد من طريق هذا الشيخ، ولا تعدو الإجازة عبارة واحدة كأن يقول الشيخ

(١) المراد بالإسناد: سلسلة الرجال الموصلة إلى امتن، كأن يقول الرجل حدثني فلان أن فلاناً قال (كذا وكذا)، انظر في ذلك: محمود الطحان: أصول التخريج ودراسة الأسانيد، ص ١٥٨.

(٢) التواتر: هو التتابع قال تعال: {ثم أرسلنا رسلنا تتراراً}، [المؤمنون، آية ٤٤]، وعند علماء المصطلح يعرفونه بأنه ما يرويه الجمع الذي تحيل العادة تواطؤهم على الكذب، وحده بعضهم بعشرة أشخاص في كل طبقة من طبقات السند، انظر تعريف التواتر في: صبحي الصالح: علوم الحديث، ص ١٤٦.

(٣) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه في المقدمة، ج ١، ص ١٥.

لتلميذه (أجزتك رواية صحيح البخاري بإسنادي إليه)، وأصبح بعد تدوين الكتب لا فرق بين الإجازة والسماع، وإن كان السماع في عصر السلفي عالم الإسكندرية أقوى وأولى<sup>(١)</sup>.

واعتمد العلماء هذا النوع من التحمل والأداء، مادام التلميذ سمع الكتاب من الشيخ، أو كان الكتاب بنسخة صحيحة بخط مؤلفه أو قوبل على نسخته<sup>(٢)</sup>، ولا سيما فيما اشتهر في الأمصار ككتب الحديث الستة<sup>(٣)</sup>.

**والإجازة في اللغة:** مصدر: أجاز بمعنى إعطاء الإذن، وأجاز له: أي أذن له<sup>(٤)</sup>، وهي مشتقة من التجوز، وهو التعدي، فكأن الشيخ عدى روايته حتى أوصلها للرواي عنه<sup>(٥)</sup>.

**والإجازة عند المحدثين:** هي طريقة من طرق التحمل، وهي الطريقة الثالثة بعد السماع من الشيخ والقراءة على الشيخ<sup>(٦)</sup>، وهي أعم لأنها عبارة عن إذن الشيخ لتلميذه برواية مسموعاته أو مؤلفاته ولو لم يسمعها منه ولم يقرأها عليه<sup>(٧)</sup>.

وتمنح الإجازة لطالب العلم إما مشافهة أو كتابة، وذلك بأن يكتب الشيخ إجازاته على الكتاب الذي درسه الطالب عليه، أو يكتبها له الشيخ مستقلة عن الكتاب<sup>(٨)</sup>، وقد حوى بعضها على طرق الرواية، وخطى البعض الآخر من ذلك<sup>(٩)</sup>.

(١) السيوطي: تدريب الراوي، ج ٢، ص ٣١.

(٢) محمد لقمان السلفي: اهتمام المحدثين بنقد الحديث، ص ٢٧٧.

(٣) هي صحيح البخاري وصحيح مسلم، والسنن الأربعة لأبي داود والترمذي والنسائي وابن ماجه، وهي أشهر كتب الحديث، ودواوين الإسلام الكبار.

(٤) الفيروزآبادي: القاموس المحيط، ج ٢، ص ١٧٠؛ ابن منظور: لسان العرب، ج ٥، ص ٣٢٦؛ ابن حجر: نخبه الفكر، ص ٢١٦.

(٥) القاسمي: قواعد التخريج، ص ٢٠٥.

(٦) وعند بعض العلماء تأتي في المرتبة الخامسة بعد السماع والقراءة والمناولة والكتابة، انظر عياض اليعقوبي: الإلماع، ص ٦٨.

(٧) صبحي الصالح: علوم الحديث، ص ٩٥.

(٨) مريزن: الحياة العلمية في العراق، ص ٢٥٠.

(٩) ابن حجر: نخبه الفكر، ص ٢١٦.

ويمكن حصر الإجازة في خمسة أنواع، أولها: المناولة وهي أعلى أنواع الإجازة وصورتها أن يدفع المحدث إلى الطالب أصلاً من أصول كتبه، أو جزءاً منها كتبه بيده، ويقول: هذا الكتاب سمعي عن فلان فحدث به عني، وقد عدها بعض المحدثين مثل السماع<sup>(١)</sup>، وثانيها: أن يدفع الطالب إلى الشيخ صحيفة قد كتب فيها: إن رأى الشيخ أن يجيز لي جميع ما يصح عندي من حديثه فعل، فيجيزه الشيخ بقوله: قد أجزت لك كل ما سألت، أو يكتب له ذلك تحت خطه في الصحيفة فيقرؤه عليه<sup>(٢)</sup>، وثالثها: أن يكتب الشيخ بخطه حديثاً أو جزءاً من سماعه، ويكتب معه إلى الطالب أني قد أجزت لك روايتي بعد أن صححتة على بأصلي، أو صححه لي من أثق به<sup>(٣)</sup>، ورابعها: أن يكتب المحدث إلى الطالب: قد أجزت لك جميع ما صح ويصح عندك من حديثي، ولا يعين له شيئاً<sup>(٤)</sup>، وآخرها: أن يأتي الطالب إلى الراوي بخبر فيدفعه إليه، ويقول هذا من حديثك فيتصفح الراوي أوراقه ثم يقول: نعم هو من حديثي ويرده إليه، أو يدفع الراوي للطالب بعض أصوله، ويقول له هذا من سماعاتي، فيحدث الطالب به من غير أن يستجيز منه في الوجهين، وقد قبل ذلك وصححه بعض أهل العلم<sup>(٥)</sup>.

وأما أقسام الإجازة من حيث حكمها وجواز العمل بها فعلى وجوه، منها: ما هو مقبول ومنها ما هو مردود<sup>(٦)</sup>، فالمقبول منها أن يجيز الشيخ لشخص معين بكتب معينة، أو أن يجيز الشيخ لشخص معين لكن من غير تحديد كتب أو

(١) الخطيب البغدادي: الكفاية في علم الرواية، ص ٣٢٦.

(٢) الخطيب البغدادي: الكفاية في علم الرواية، ص ٣٣٤.

(٣) الخطيب البغدادي: الكفاية، ص ٣٣٦.

(٤) الخطيب البغدادي: الكفاية، ص ٣٤٥.

(٥) الخطيب البغدادي: الكفاية، ص ٣٤٦.

(٦) ومن أهل العلم من تشدد في رد كل أنواع الإجازة، كابن حزم وجماعة، فاعترضوا عليها ورأوها (بدعة غير جائزة)، وأن من قال لغيره أجزت لك أن تروى عني ما لم تسمع، فإنه قال: أجزت لك أن تكذب علي، لأن الشرع لا يبيح رواية ما لم يسمع، وإن كانت هذه مغالاة لأن الذي يروي بالإجازة لا يدعى السماع، ولا سيما والصور المقبولة عن الجمهور كثيرة، انظر: السيوطي: تدريب الراوي، ج، ص ٣٠، ٣١.



مرويات بعينها، كقوله: أجزتك مسموعاتي، أو أن يجيز الشيخ للشخص جميع إجازاته<sup>(١)</sup>، أما المرود منها فهو ما كان لمجهول بمجهول أو لشخص لم يولد بعد ونحو ذلك<sup>(٢)</sup>، أما الإجازة العامة وهي قول الشيخ أجزت أهل عصري أو الناس أو من شاء<sup>(٣)</sup> ونحو ذلك ففيها خلاف بين أهل العلم، هل يصح الاعتماد عليها أم لا<sup>(٤)</sup>، والتحقيق ما قاله الحافظ ابن حجر أن الرواية بها في الجملة أولى من إيراد الحديث معضلاً<sup>(٥)</sup>، ويمكن أن يستدل لذلك بحديث ((بلغوا عني ولو آية))<sup>(٦)</sup> <sup>(٧)</sup>، وكان محمد بن أحمد بن عرام الإسكندري، يرى أن الرجل عندما يروى بالرواية عن شيخ بالإجازة العامة عن شيخه بالإجازة الخاصة ويرويه أيضاً عن شيخ بالرواية الخاصة عن شيخه بالرواية العامة فإن ذلك في حكم الإجازة الخاصة عن الإجازة الخاصة<sup>(٨)</sup>، ولعل هذا يظهر فائدة أخرى للإجازة العامة.

وقد شاعت الإجازة العلمية في الأوساط الفكرية حتى تعدت علم الحديث إلى العلوم الأخرى بل صارت شاملة لمعظم العلوم، كالفقه والقراءات والتفسير والنحو والأدب والطب وغيرها، كما تعددت أغراضها إلى الإجازة بالفتيا والتدريس وعروضات الكتب والإجازة على الاستدعاءات<sup>(٩)</sup>.

وقد شكلت الإجازات العلمية أحد المظاهر العلمية الواضحة في الإسكندرية خلال العصر المملوكي، فقد كانت دافعاً أحياناً على الرحلة إلى الثغر السكندري

- 
- (١) التهاوني: كشف اصطلاحات الفنون، ج ١، ص ٢٩٥.
  - (٢) التهاوني: كشف اصطلاحات الفنون، ج ١، ص ٢٩٥.
  - (٣) الخطيب البغدادي: الكفاية، ص ٣٢٥؛ القاضي عياض: الإلماع، ص ٩٠، ١٠١.
  - (٤) صبحي الصالح: علوم الحديث، ص ٩٦.
  - (٥) المعضل من الحديث ما سقط من إسناده راويان فأكثر على التوالي، صبحي الصالح: علوم الحديث، ص ١٦٩.
  - (٦) البخاري: الجامع الصحيح، في كتاب أحاديث الأنبياء، ص ٧١٢ (ح ٣٤٦١).
  - (٧) السيوطي: تدريب الرواي، ج ٢، ص ٣٤.
  - (٨) السيوطي: تدريب الرواي، ج ٢، ص ٣٤.
  - (٩) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ١٤، ص ٣٦٤ - ٣٧٤.

طلباً لها، كما ظلت الإجازة صورة رائعة لتواصل سلسلة الإسناد للعديد من العلوم يحملها اللاحق عن السابق.

وعلى الرغم من تعدد دور العلم بالإسكندرية من مدارس ومساجد وغير ذلك، إلا أن الإجازات العلمية بها ظلت أمراً شخصياً يعني باختصاص الشيوخ يمنحونها إلى طلبتهم<sup>(١)</sup>، فكانت الإجازات لا تصدر غالباً إلا من أحد شيوخ المدارس أو المساجد أو دور العلم والذين بذلوا أنفسهم للطلبة من أهل الثغر أو الوافدين عليه.

فمن الإجازات العلمية بالثغر: الإجازة بالقراءات، وقد انتشرت بسبب وجود كبار علماء القراءات بالثغر، فمنهم المكين الأسمر، المتصدر لإقراء القرآن بالإسكندرية، فقد أجاز لكثير من أبناء الثغر السكندري أو الوافدين عليه أمثال ابن رشيد، فقد سطر في كتابه ملء العيبة أن المكين الأسمر أجاز له ولبنيه ولأخوته جميع ما تجوز له روايته<sup>(٢)</sup>، أيضاً من رواد القراء بالثغر وممن كانت الرحلة إليهم للسمع وأخذ الإجازات منهم الشيخ الكمال ابن فارس إبراهيم التميمي الإسكندري فهو آخر من قرأ بالرواية على الكندي، وكانت الرحلة إليه للإجازة منه<sup>(٣)</sup>.

ونظراً لوجود مدرسة الحديث بالإسكندرية ونزول الحافظ السلفي بها وكونه عمر طويلاً (أكثر من مائة سنة)، لذا كانت أنظار المحدثين تتجه للإسكندرية لأخذ الإجازة في الحديث بعلو الإسناد من تلاميذه بها، فقد كان السلفي معتنياً بالرواية مجيزاً لها بطرق تحمل كثيرة ومنها الإجازة، فقد قال: (أعلم أن الإجازة جائزة عند فقهاء الشرع، المتصرفين في الأصل منه والفرع، وعلماء الحديث في القديم قرناً فقرناً وعصراً فعصراً، إلى زماننا هذا يبيحون بها الحديث ويخالفون فيها المعاند المبتدع الخبيث)<sup>(٤)</sup>.

(١) بمعنى أنها لم تأخذ صفة الشهادات على النحو الذي تصدره المؤسسات العلمية الآن.

(٢) ابن رشيد: ملء العيبة، ج، ص ٣٥.

(٣) السيوطي: حسن المحاضرة، ج ١، ص ٥٠٣.

(٤) عن مقدمة بحقق المجاري، ص ٥١.

كذلك كان يرى الحافظ السلفي جواز الإجازة العامة المطلقة، كقوله مثلاً:  
(أجزت أهل زمانني)<sup>(١)</sup>، وبها كان يروى على بن فاضل المقرئ الضرير<sup>(٢)</sup>.  
وكان المكين الأسمر يجيز بالأمالي الخمسة والتي أخذها بإسناد عن  
جماعة منهم أبو القاسم الصفراوي عن السلفي، فقد أجازها بخطه سنة  
(٦٨٤هـ/١٢٨٥م) للرحالة ابن رشيد الفهري<sup>(٣)</sup>.

أيضاً أخذ الرحالة الوادي أشي كتاب الدعاء للمحامي من طريق تلاميذ  
السلفي، فقد ذكر في برنامجه أنه قرأ بالإسكندرية كتاب الدعاء للقاضي أبي عبد  
الله الحسين ابن إسماعيل بن محمد المحامي<sup>(٤)</sup> على الشيخ محي الدين أبي القاسم  
بن عبد الرحمن بن جماعة بسماعه على أبي الفضل جعفر بن علي بن أبي  
البركات هبة الله بن جعفر بن يحيى الهمداني بسماعه على أبي الطاهر السلفي<sup>(٥)</sup>.  
ومن المحدثين من لم يرض بهذه الإجازات، بل كان يحض على السماع  
بالترحال والتطواف لا بالإجازات العامة، أو بسماع — وبالإجازة في الباقي، وقد  
ذكر ابن رشيد أنه لما التقى بالإمام تاج الدين الغرافي بالإسكندرية وسأله الإجازة  
أنشده الغرافي:

علم الحديث فضيلة تحصيلها بالسعي والتطواف في الأمصار  
فإذا أردت حصولها بإجازة فقد استعصت الصفر بالدينار<sup>(٦)</sup>.  
ومع ذلك فقد حفظت لنا كتب التاريخ جملة من المحدثين بالإسكندرية منحوا

(١) السيوطي: تدريب الرواي، ج ٢، ص ٣٣.

(٢) الصفدي: نكت العميان، ص ٢١٢، ٢١٣.

(٣) ابن القاضي: درة الحجال، ج ٣، ص ٤٥.

(٤) هو أبو عبد الله الحسين بن إسماعيل ابن محمد بن إسماعيل بن سعيد الضبي البغدادي  
المحامي، سمع الحديث من خلق كثير وتصدر به حتى صار أسند أهل العراق، مع التصدر  
للإفادة والفتيا ستين سنة، مات (٣٣٠هـ/٩٤١م)، انظر ترجمته في الذهبي: سير أعلام  
النبلاء، ج ١٥، ص ٢٥٨؛ طبقات الحفاظ، ص ٣٤٣؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات  
الذهب، ج ٢، ص ٣٢٦.

(٥) الوادي أشي: البرنامج، ص ٢٢٨.

(٦) العبدري: الرحلة، ص ١١١؛ ابن القاضي: درة الحجال، ج ٣، ص ٢١٥.

الإجازات لطلبة العلم منهم عبد الرحمن سبط السلفي ، وابن رواج وابن الجميزي فقد أجازوا لعدد كبير من طلاب العلم منهم أحمد بن محمد بن عبد الرحمن بن علي (ت ٦٩٦هـ/ ١٢٩٦م)<sup>(١)</sup>، ومنهم القاضي بهاء الدين علي بن عيسى بن سليمان الثعلبي (ت ٧١٠هـ/ ١٣١٠م)، فقد سمع من سبط الحافظ السلفي وغيره، ثم أجاز بما سمع لابن رشيد سنة (٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م)<sup>(٢)</sup>، وأجاز من الإسكندرية أيضا كل من تاج الدين الخرافي ووجيهة الصعيدية السكندرية لعبد الله بن الزين أحمد بن محمد الطبري المكي الشافعي، أقام بمكة ثم انتقل لسكنى المدينة فمات بها ودفن بالبقيع سنة (٧٨٧هـ/ ١٣٨٣م)<sup>(٣)</sup>، كما أن محمد بن محمد حافي رأسه الإسكندري (ت ٧٢٥هـ/ ١٣٢٤م)، سمع بالإسكندرية وحدث وأجيز له<sup>(٤)</sup>، وذكر ابن رشيد أنه لقي بالإسكندرية سنة (٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م) مقال الحبشي وأجاز له جميع رواياته مشافهة<sup>(٥)</sup>، كما استجازه علي بن أبي البركات الحميري الإسكندري<sup>(٦)</sup>، كذلك استجازه الشيخ ضياء الدين الخرجي الإسكندري، وأجاز لأخوته وأبنائه جميع ما يجوز له رواية وما له من نظم ونثر، وقد حضر الشيخ زين الدين أبو بكر بن منصور وشهد على هذه الإجازة لتعذر بصر الشيخ ضياء الدين وكان قد أسن وعمره آنذاك ٩٥ سنة<sup>(٧)</sup>، كذلك ممن أجاز مروياته الشيخ عتيق بن عبد الجبار بن عتيق الأنصاري (ت ٦٧٧هـ/ ١٢٧٨م)، فقد أجاز مروياته للذهبي<sup>(٨)</sup>.

(١) الصفدي: أعيان العصر، ج ١، ص ٣٤٤ - ٣٤٥.

(٢) السيوطي: حسن المحاضرة، ج ١، ص ٣٦٨؛ ابن القاضي: درة الحجال، ج ٣، ص ٢١٣؛

العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٦، ص ٢٣.

(٣) الفاسي: العقد الثمين، ج ٦، ص ١٠٠ - ١٠١.

(٤) ابن حجر: أئدرر الكامنة، ج ٤، ص ٣١٠.

(٥) ابن رشيد: ملء العيبة، ج ١٩، ص ١٩.

(٦) ابن القاضي: درة الحجال، ج ٣، ص ٢١٤.

(٧) ابن رشيد: ملء العيبة، ج ٣، ص ٤٣؛ ابن القاضي: درة الحجال، ج ٣، ص ٢١٤.

(٨) الذهبي: تاريخ الإسلام، ص ٢٣٤.

وأما النظم في الإجازات فكان على وجهين، إما ينظم على الإجازة كالمقدمة، ومن ذلك ما كان ينظمه الشيخ أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن عيسى ضياء الدين المتيجي الإسكندراني المالكي العدل<sup>(١)</sup>، فكان يكتب على الإجازة:

أجزت لهم أعلى المهيمن قدرهم وحلاهم ذكراً جميلاً معطراً  
رواية ما أرويه شرقاً ومغرباً وما قلاته نظماً ونثراً مسطراً  
على شرط أهل العلم والصيغة التي يكون بها معنى الإجازة مظهراً  
ومذا جوابي ثم واسمي محمد عفا الله عنه ما مضى وتأخراً  
أقول وعبد الله اسم لوالدي وإبراهيم جدى قد نصت مخبراً  
ويعرف بالمتي نسبة بلدة وسطرت خطى بالعريض معبراً<sup>(٢)</sup>.

وذكر ابن حبيب أيضاً أن القاضي زين الدين محمد بن محمد بن عتيق بن رشيق المالكي كان له نظم يكتبه في الإجازة، ومن ذلك قوله:

أجزت لهم أبقاهم الله كل ما رويت عن الأشياخ في سالف الدهر  
وما سمعت أذناى من كل عالم وما جاء من نظمى وما راق من شعري  
على شرط أصحاب الحديث وضبطهم برياً من التصحيف عارٍ من النكر  
وبالله توفيقى عليه توكلى له الحمد في الحالين عسرأواليسر<sup>(٣)</sup>.

أو ينظم نفس الإجازة مثل ما كتبه وجيه الدين منصور بن سليم بن العمادية للشيخ حازم بن محمد بن حسن الأنصاري القرطاجني جواباً عن استدعائه الإجازة منه نظماً فقال:

إني أجزت لحازم بن محمد صدر الأفاضل والإمام السيد  
بجميع ما رويه فرويته عن ألف شخص<sup>(٤)</sup> من رواة المسند

(١) الذهبي: تاريخ الإسلام، ص ٣٩٥، ٣٩٦؛ العبر، ج ٥، ص ٢٥٥، ٢٥٦؛ تذكرة الحفاظ، ج ٤، ص ١٤٥٣.

(٢) الصفدي: أعيان العصر، ج ٣، ص ٣٥٨، وقد علق عليه بأنه: شعر غث ركيك، انظر كذلك ترجمته في ابن العماد الحنبلي: الشذرات، ج ٥، ص ٢٩٩.

(٣) ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج ٢، ص ١٠٨؛ العراقي: ذيل العبر، ص ١١٢.

(٤) وهذا يدل على كثرة مرويات ابن العمادية، فشيوخه ألف شخص!.

في شامها مع مصرها وعراقها وحجازها من متهم أو منجد<sup>(١)</sup>.  
هذا ولم ترتبط الإجازة دوماً بالرحلة، بل ظهرت إجازات بغير رحلة وهو ما يسميه العلماء بالاستدعاء، وهو أن يكتب الطالب طلباً للإجازة من الشيخ، ويرسلها له المجيز بخطه، وقد كثرت هذه الاستدعاءات بسبب تناقص أصحاب الرحلة، وصعوبتها، ولهذا كان المشايخ يستحبون إجابة المستدعين للإجازة بالمكاتبة لتبني السلسلة متصلة بالرسول صلى الله عليه وسلم وتدوم فضيلة الإسناد التي خصت بها هذه الأمة الإسلامية<sup>(٢)</sup>.

ويمكن أن يضاف إلى ذلك أيضاً حرص العلماء على أن تستمر سلسلة الإسناد إلى أبنائهم وبناتهم، ولما كانت الرحلة لا تيسر للنساء تيسرها للرجال، لذا كان الاستدعاء بالإجازة يغنيهن عن تجشم مشاق الرحلة بشروطها وضوابطها.

فعلى سبيل المثال ممن وقفت على إجازاتهم بالاستدعاء من شيوخ الإسكندرية: محمد بن عبد الملك بن عبد الله القرشي البكري الإسكندري المولد المكي الدار (ت ٧٨١هـ/١٣٧٧م)، فقد أجاز له جماعة من مصر والإسكندرية، وأجاز للفاسي في استدعاء بخط الشيخ ابن سكر شيخ الفاسي<sup>(٣)</sup>

ومن النساء اللاتي طلبن الإجازة بالاستدعاء: أم كلثوم بنت الشيخ أبي عبد الله محمد بن علي بن يحيى الغرناطي أم زين الدين الطبري المكية (ت ٧٨٢هـ/١٣٧٨م)، ذكر الفاسي أنه أجاز لها ولأختها أم الحسين جماعة من مصر والإسكندرية في استدعاء مؤرخ سنة (٧٢٧هـ/١٣٢٦م)، منهم الغزافي ووجيهية الإسكندرانية<sup>(٤)</sup>.

(١) ابن القاضي: درة الحجال، ج ١، ص ٢٥٥. ومتهم أو منجد: أي ما كان بتهمة وما كان بنجد من أرض الجزيرة العربية.

(٢) وقد ذكر محقق برنامج المجاري أن أبا جعفر أحمد بن علي البلوي أشعر بهذا المعنى في رسالة الاستدعاء التي وجهها إلى أبي عبد الله محمد بن غازي، انظر مقدمة تحقيق برنامج المجاري، ص ٥٢.

(٣) الفاسي: العقد الثمين، ج ٢، ص ١٢٦، ١٢٧.

(٤) الفاسي: العقد الثمين، ج ٨، ص ٣٤٩ - ٣٥٠.

وكذلك ست قريش فاطمة بنت العلامة تقي الدين أبي الفضل محمد بن فهد الهاشمي، فقد ذكر ابن فهد أنه أجاز لها خلائق من الحرمين والشام ومصر والإسكندرية، منهم شرف الدين ابن الكويك السكندري وبذر الدين ابن الدماميني<sup>(١)</sup>، ومنهن أيضاً زينب بنت عبد الله بن أحمد بن علي بن محمد بن القاسم بن صالح بن هاشم والمعروفة بأب محمد (ت ٨٥٩هـ/٤٥٤م)، ذكر ابن فهد في معجم شيوخه أنه أجاز لها جماعة من أهل الإسكندرية<sup>(٢)</sup>.

وقد تكون الإجازة بالاستدعاء منظومة أيضاً، وقد كتب بالإسكندرية الإمام الجرافي الإسكندري، إجازة منظومة لما استدعى منه الخليفة المستنصر العباسي مطلعها:

سلام على مغنى الخلافة والهدى وحيث أقيم الدين والفضل والعلم  
على سادة الإسلام شرقاً ومغرباً قضاء من الله الذي حكمه الحكم  
قضى لبني العباس أن تعلقو الورى فطاعتهم فرض على خلقه حتم  
وبعد أن سرد أسماء الخلفاء من لدن السفاح حتى المستنصر قال:

إمام الورى المستنصر الأيد الذي بنصرة دين الله يعنى ويهتم  
أجزت له دامت قواعد مجده مشيدة لا تنقضي خشية ولا هدم  
جميع الذي ألفتة ونقلته وما قلته مما تضمنه نظم<sup>(٣)</sup>.

وقال أيضاً:

وجميع ما صنفته وجمعه مشروطة بتوثق وتشدد  
وليبق في روض العلوم منعماً بسعادة وسعادة وتأييد<sup>(٤)</sup>.

كذلك كتب وجيه الدين منصور بن العمادية الإسكندري للشيخ حازم بن

محمد الأنصاري القرطاجي جواباً عن استدعائه الإجازة منه نظماً<sup>(٥)</sup>

(١) ابن فهد: معجم الشيوخ، ص ٤٠٥.

(٢) ابن فهد: معجم الشيوخ، ص ٤٠٣.

(٣) العبدري: الرحلة، ص ١١٥، ١١٦.

(٤) ابن القاضي: درة الحجال، ج ١، ص ٢٥٥.

(٥) انظر ما سبق ص ٣٤٣.

وأما صورة الإجازة، فهي تختلف من مجرد قول الشيخ: (أجزت لفلان رواية كذا..). إلى نظم شهادة كاملة تشمل مقدمة في فضل العلم ثم بيان حال المجاز بأنه يستحق هذه الإجازة من الشيخ ثم بيان موضوع الإجازة والوصية من الشيخ للمجاز في ذلك ثم خاتمة الإجازة، وهذا يكون غالباً في إجازة التدريس<sup>(١)</sup> وقد حفظ لنا القلقشندي إجازة كتبت له في الإسكندرية عند قدوم الإمام سراج الدين أبي عمر بن أبي الحسن الشهير بابن الملقن، وهو من كبار محدثي العصر ومن شيوخ ابن حجر العسقلاني، وقد منح ابن الملقن هذه الإجازة للقلقشندي بالفتيا والتدريس على مذهب الإمام الشافعي، وكان عمر القلقشندي وقتها إحدى وعشرين سنة، وهي إجازة طويلة حلوة العبارة، وجاء في مقدمتها من بيان فضل العلم: ( وقال تعالى: {وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم}<sup>(٢)</sup>، فثنى بذكرهم بعده لكونهم أفضل الخلائق عنده، وقال تبارك وتعالى اسمه وتقدس علمه: {إنما يخشى الله من عباده العلماء}<sup>(٣)</sup>، فأوضح بذلك أن أوليائه من خلقه العلماء، إذ وصفهم وخصهم بأنهم الخائفون منه الأتقياء، وقال عليه السلام: (( من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين ))<sup>(٤)</sup>، وقال أيضاً: (( من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة ))<sup>(٥)</sup>، وقال أيضاً: (( ألا أن الدنيا ملعونة ملعون ما فيها، إلا ذكر الله تعالى وما والاه وعالم ومتعلم ))<sup>(٦)</sup><sup>(٧)</sup>.

(١) وهي كالشهادات التي تمنحها بعض الجامعات الآن للمتخرجين من طلبتها، إلا أن هذه الشهادة تكون مختصره وتلك مطولة.

(٢) سورة آل عمران، آية: ٧.

(٣) سورة فاطر، آية: ٢٨.

(٤) تقدم تخريجه ص ٢٠٥.

(٥) مسلم: الجامع الصحيح، في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، ج ٤، ص ٢٠٧٤ (ح ٢٦٩٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٦) الترمذي: السنن، في كتاب الزهد، ج ٤، ص ٤٨٦ (ح ٢٣٢٢)؛ وابن ماجه: السنن، في كتاب الزهد، ج ٢، ص ١٣٧٧ (ح ٤١١٢)؛ الدارمي: السنن، في المقدمة، ج ١، ص ١٠٦ (ح ٣٢٢).

(٧) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ١٤، ص ٣٢٤، وانظر كامل نص الإجازة بالملحق ص ٦٠٩.



ثم ذكر حال المجاز وهو القلقشندي ، بأنه طلب العلم وصحب الأكابر ،  
ومما جاء في هذه الفقرة من الإجازة المذكورة: (ولما كان فلان أدام الله تعالى  
تسديده وتوفيقه ويسر إلى الخيرات ريقه ممن شب ونشأ في طلب العلم والفضيلة،  
وتخلق بالأخلاق المرضية الجميلة الجليلة، وصحب السادة من المشايخ والفقهاء  
والقادة من الأكابر والفضلاء، واشتمل عليهم بالعلم الشريف اشتغالا يرضي، وإلى  
نيل السعادة يفضي)<sup>(١)</sup>.

ثم ذكر حال المجيز وهو الشيخ (ابن الملقن) وأضاف عليه ألقابا علمية  
عالية، وذلك لأن الذي كتب الإجازة هو القاضي تاج الدين بن غنوم موقع الحكم  
العزیز بالإسكندرية، مما يدلنا أيضا أن كتابة الإجازة قد تكون من غير المجيز  
وأن الإجازات الكبيرة يتحرى المجاز فيها أن يكتبها عند القضاة حتى تأخذ صورة  
علمية قوية مع إبقاء خط المجيز عليها كما في هذه الإجازة حيث كتب عليها بعد  
ذلك (ابن الملقن) بخطه<sup>(٢)</sup>.

ثم بعد ذلك ذكر القلقشندي نص الإجازة وجاء فيه: (وأذن وأجاز لفلان  
المسمى فيه، أدام الله تعالى معاليه، أن يدرس مذهب الإمام المجتهد المطلق العالم  
الرباني، أبي عبد الله محمد بن إدريس المطلبي الشافعي رضي الله عنه وأرضاه  
وجعل الجنة متقلبه ومثواه، وأن يقرأ ما شاء من الكتب المصنفة فيه، وأن يعين  
ذلك لطالبه حيث حل وأقام كيف ما شاء متى شاء وأين شاء، وأن يفتى من قصد  
استفتاءه خطأ ونظما على مقتضى مذهبه الشريف المشار إليه، لعلمه بديانته  
وأمانته، ومعرفته ودرأيته وأهليته لذلك وكفايته)<sup>(٣)</sup>.

ويتضح لنا من هذا أن الشروط الواجب توافرها في من يتصدى لذلك هي:  
الأمانة والديانة ، والمعرفة، والدراية بالمذهب، وقد زاد (ابن الملقن) فيما كتبه  
بخطه أسفل هذه الإجازة، أن القلقشندي حفظ "مختصر الجوامع" للنسائي، وأنه

(١) القلقشندي، نفسه، ج ١٤، ص ٣٢٤.

(٢) القلقشندي: نفسه، ج ١٤، ص ٣٢٤.

(٣) القلقشندي: نفسه، ج ١٤، ص ٣٢٥.

استحضر أمامه مواضع منه، وشرحها في حضرته، وهذا هو الدافع لمنحه هذه الإجازة<sup>(١)</sup>.

ومما جاء أيضا في هذه الإجازة التي خص بها القلقشندي: (وليعلم قدر ما أنعم الله تعالى عليه، وأسدى من الإحسان الوافر إليه، وليراقبه مراقبة من يعلم إطلاعه على خائنة الأعين وما تخفى الصدور، وليعامله معاملة من يتحقق أنه يعلم ما يخفيه العبد وما يبيده في الورود والصدور، ولا يستتف أن يقول فيما لا يعلم: لا أعلم، فذاك قول سعد قائله)<sup>(٢)</sup>.

وقد جاء فيما كتبه (ابن الملقن) عقب كتابة القاضي الإجازة لتأليفه ومروياته فقال: (أجزت له مع ذلك أن يروى عنى مالي من التأليف، ومنها "جامع الجوامع) أعان الله على إكماله، وكذا "شرح صحيح الإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري").. وذكر جملة تأليف ثم قال: (وأجزت له مع ذلك ما جاز لى وعنى روايته بشرطه عند أهله، زاده الله وإياي من فضله، ومنها الكتب الستة.. والمسانيد.. وغير ذلك، ثم ذكر التاريخ وكتب اسمه وأشهد عليه جماعة من أهل العلم بآخره)<sup>(٣)</sup>.

وقد عقب القلقشندي بأنه إذا ذكر المجيز اسم المجاز فإنه يكتب له لقباً يوافقه، وإنما أهمل ذكر الألقاب في هذه الإجازة من حيث أنه لا يليق بأحد أن يذكر ألقاب نفسه في مصنف له، لأنه يصير كأنه أتى على نفسه<sup>(٤)</sup>.

فهذه الإجازة تعتبر من الإجازات المهمة التي صدرت من الإسكندرية في القرن الثامن الهجري والتي تعطينا صورة واضحة عن أسلوب إنشاء الإجازات

(١) السابق، ج ١٤، ص ٣٢٦.

(٢) السابق، ج ١٤، ص ٣٢٦.

(٣) السابق، ج ١٤، ص ٣٢٧.

(٤) السابق، ج ١٤، ص ٢٣٧.

وأنواعها، فهي تمثل نموذج الشهادة العلمية العالية<sup>(١)</sup>، كذلك تعيين الكتب موضوع الإجازة، ولفظ الإجازة بقوله: أجزت له، أيضا ذيلت هذه الشهادة بإشهاد جماعة من أهل العلم عليها توثيقا، وبذلك تكون الإجازة جمعت عدة توثيقات، الأول: كون الذي كتبها هو القاضي، وذيلها الشيخ بخطه، وجاءت خطوط جماعة من أهل العلم بالشهادة عليها، فصار ذلك من أعلى درجات التوثيق.

كما نلاحظ فيها الوصية المباركة في آخرها والتي تضمنت مراقبة الله في السر والعلز، وأن لا يفتي إلا بما يعلم، وأن لا يترك قول (لا أعلم) فيما لا يعلمه. ومن الإجازة بالتدريس والإفتاء أيضا ما أجاز به الفاكهاني السكندري للشيخ محمد بن محمد بن عبد الله الحسني الفاسي المكي (ت ٧٣٧هـ/ ١٣٣٦م)، فقد أذن له الفاكهاني بالإفتاء والتدريس لما زار الإسكندرية للطلب، وقد عاد الفاسي إلى مكة واستمر بها يفتي ويدرس حتى وافته المنية<sup>(٢)</sup>.

ومن أنواع الإجازات أيضا ما يقال له: الإجازة بعراضة الكتب، فقد ذكر القلقشندي أنه جرت العادة أن بعض الطلبة إذا حفظ كتابا في الفقه أو أصول الفقه أو النحو أو غير ذلك من الفنون، يعرضه على مشايخ العصر فيأخذ الشيخ المعروف عليه ذلك الكتاب ويفتح منه أبوابا ومواقع يستقرئه إياها من أي مكان اتفق، فإن مضى فيها من غير توقف ولا تلثم، استدل بحفظه تلك المواضع على حفظه جميع الكتاب، وكتب له بذلك كل من عرض عليه في ورق مربع صغير<sup>(٣)</sup>، ويمكن أن يكون من أمثلة هذا النوع عرض القلقشندي "مختصر الجوامع" على ابن الملن بالإسكندرية كما تقدم قريبا.

- 
- (١) ومما يذكر أن بعض المؤسسات التعليمية الدينية تمنح شهادتها باسم (الإجازات) حتى يومنا هذا، ويحلوا للكثيرين أن يسمى درجة الماجستير (إجازة التخصص)، ودرجة الدكتوراة بـ (الإجازة العالمية)، كما هو معروف مشهور.
- (٢) ابن حجر: الدرر الكامنة، ج ٤، ص ٣٤٢.
- (٣) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ١٤، ص ٣٢٧.

وقد تكون الإجازة بعرض الكتب قراءة لا حفظاً ، كما كتب بدر الدين الدماميني إجازة أخرى للقلقشندي بعراضة شيء من كتب الحديث واللغة<sup>(١)</sup>.  
وقد تكون إجازة بكتب ومؤلفات بغير عرض أيضاً، ومن أشهر الكتب الحديثية التي كان الطلاب بالإسكندرية يحرصون على الإسناد والإجازة فيها كتاب "الموطأ" للإمام مالك<sup>(٢)</sup>، وذلك لوجود مدرسة (ابن عوف) بها ولأن المذهب المالكي كان المذهب المعتمد بالإسكندرية طيلة عهدي الأيوبيين والمماليك تقريباً.  
وقد نص البلوي على إسناده بالموطأ من طريق علماء الإسكندرية، فذكر أنه يرويه برواية الثبت يحيى بن يحيى الليثي<sup>(٣)</sup>، حيث قال: أخبرني به عن أبي عبد الله البلوي<sup>(٤)</sup> عن أبي شامل الشمني قال أخبرنا به عبد الوهاب الإسكندري بقرائتي عليه بها، وعبد الله بن أبي بكر بن محمد الدماميني سماعاً، قال أنا الخطيب ... وذكر باقي الإسناد إلى يحيى بن يحيى الليثي<sup>(٥)</sup>.

كما ذكر البلوي أيضاً أنه: ( في أسانيد العلامة ابن مرزوق في الموطأ أنه قرأ السيد الإمام والد شيخنا مقدار النصف منه على المسند المعمر بهاء الدين أبي محمد عبد الله بن القاضي تاج الدين أبي بكر ابن معين الدين محمد المخزومي

- 
- (١) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ١٤، ص ٣٢٧-٣٢٩، وانظر نص الإجازة بالملحق ص ٦١٢.  
(٢) قال القاضي عياض في المدارك: لم يعتن بكتاب من كتب الحديث والعلم اعتناء الناس بالموطأ، من مقدمة الموطأ ص (هي).  
(٣) للموطأ عدة نسخ باعتبار رواته عن الإمام مالك ، والمشهور منها أربع عشرة نسخة أصحها هي نسخة يحيى الليثي قال فيها الشنقيطي: من مقدمة الموطأ ص (هي):  
وأشهر الموطآت ذكراً إذا كان بالصححة منها أخرى  
موطأ الإمام يحيى الليثي من كان في العزم شبيه الليث  
فهذا الذي شرحه النقاد وانتفعت بدره العباد  
وبلغت شروحه نحو المائة فكلها عما حواه منبئه  
(٤) هو أحمد بن سلامة بن أحمد البلوي القضاعي الإسكندري المالكي، كان من أنظر الفقهاء وأوسعهم علماً، عرف بالعفة والصرامة والديانة والوقار والحشمة، توفي سنة (٧١٨هـ/١٣١٨م). انظر في ترجمته: ابن فرحون: الديباج، ج ١، ص ٢٤٩.  
(٥) البلوي: ثبت البلوي، ص ٤٦٨-٤٦٩.

الشافعي وناوله إياه، وأجاز له وجميع ما يجوز له عنه روايته بثغر الإسكندرية في أواسط شوال سنة ٧٩٣هـ/ أواسط سبتمبر سنة ١٣٩١م بحق سماعه له من الشيخ الإمام الخطيب جلال الدين أبي الحسين يحيى بن محمد التميمي<sup>(١)</sup> .. وساق السند<sup>(٢)</sup>.

ويلاحظ أن هذه الإجازة مشتملة على المناولة، وهي كما سبق في أول هذا المبحث أعلى أنواع الإجازة.

كما يلاحظ الاهتمام بتذييل الإجازة بالتاريخين الهجري والميلادي مما يدل على شدة الاهتمام بها

كذلك كانت الإجازة بالمصنفات معروفة وكثيرة في هذا العصر، وسبق أن القلقشندي أخذ من ابن الملقن إجازة بمصنفاته وذلك بالإسكندرية.

كما أن الحافظ شرف الدين الدمياطي أخذ إجازة من أبي العباس أحمد بن عمر القرطبي الإسكندراني بمصنفاته، وكان القرطبي له مصنفات عدة منها المفهم شرح مختصر مسلم وغيرها<sup>(٣)</sup>.

ومن طرائف الإجازات في هذا العصر: الإجازة بالقصائد الشعرية والمنظومات اللطيفة، ومن طرائف ما ذكره الصفدي أنه أنشده إجازة الحافظ فتح الدين بن سيد الناس أخبرنا الزاهد الحريري الإسكندري لنفسه:

عد للحمى ودع الرسائل وعن الأحبة قف وسائل  
واجعل خضوعك والتذل — ل في طلابهم وسائل  
والدمع من فرط البكا ء عليهم جار وسائل  
وأسأل مراحمهم فه — من لكل محروم وسائل<sup>(٤)</sup>.

وإنما وقعت الإجازة بها للتورية اللطيفة في آخر الأبيات في (وسائل)<sup>(٥)</sup>.

(١) البلوي: ثبت البلوي، ص ٤٧٠.

(٢) البلوي: ثبت البلوي، ص ٤٦٩.

(٣) ابن تغري بردي: المنهل، ج ٢، ص ٤٤ — ٤٥.

(٤) الصفدي: أعيان العصر، ج ٣، ص ٦٤١، ٦٤٢.

(٥) يأتي بيان معنى التورية واستخدامها في العصر المملوكي في الفصل الخامس ص ٥٣٧.

## المناظرات والندوات العلمية

الاختلاف الفكري بين بني الإنسان يتولد معه نقاش دائم حول أفضل الأفكار وأسببها، ولما كان العصر المملوكي مليئاً بالعلماء والفقهاء في مصر من أهلها ومن الوافدين عليها فضلاً عن اختلاف الديانات والأفكار والمذاهب، فمن المتوقع أن يشهد مناظرات وندوات علمية نشطة، ومما يؤكد على اهتمام علماء هذا العصر بالمناظرات أن منهم من ألف المصنفات فيها كأبي علي السكوني (ت ٧٢٢هـ/١٣٢٢م)<sup>(١)</sup>، الذي ألف كتاباً سماه "عيون المناظرات"<sup>(٢)</sup>.

كما رعى سلاطين المماليك ونوابهم المناظرات العلمية الهادفة، فقد ذكر الحافظ ابن حجر قصة مناظرته للحافظ الهروي<sup>(٣)</sup> بين يدي السلطان المؤيد وكيف دار نقاش حاد حول أحاديث عدة منها حديث ((سبعة يظلهم الله ..))<sup>(٤)</sup>، وما جرى من السؤال حول وجود من يظلم الله غير هؤلاء السبعة، حيث أدلى كل بدلائه في هذا المجال<sup>(٥)</sup>، ومما هو جدير بالذكر أن هذا كان دافعاً للحافظ ابن حجر إلى مزيد من الجمع في هذه المسألة وصنف فيها رسالة وضمن خلاصتها في "فتح الباري شرح صحيح البخاري"<sup>(٦)</sup>.

كما شهد هذا العصر ظاهرة (الردود) كما هو الحال بين العيني وابن حجر في عصرهما، وبين السيوطي والسخاوي في العصر الذي يليه وهكذا، ومثله رد

---

(١) هو أبو علي عمر بن محمد بن محمد بن أحمد بن خليل السكوني التونسي المغربي الإشبيلي،

له عدة مؤلفات انظر ترجمته في: البغدادي: هدية العارفين، ج ٥، ص ٦٢٨.

(٢) وهو كتاب جمع فيه صاحبه ١٦٠ مناظرة كلها تدور حول التوحيد على وجهة نظر المذهب

الأشعري، انظر المحمود: موقف ابن تيمية من الأشاعرة، ج ٢، ص ٦٩١.

(٣) هو شمس الدين محمد بن عطاء الله بن محمد بن محمود الرازي الشافعي الشهير بالهروي

(ت ٨٢٩هـ/١٤٢٥م)، كان عالماً فاضلاً، له تصانيف مفيدة، انظر ترجمته الصيرفي: نزهة

النفوس والأبدان، ج ٣، ص ١٠٩.

(٤) البخاري: الجامع الصحيح، في كتاب الأذان، ج ٢، ص ١٤٣ (ح ٦٦٠).

(٥) ابن حجر: فتح الباري: ج ٢، ص ١٤٤.

(٦) وقد سماها ابن حجر "معرفة الخصال الموجبة للظلال"، انظر فتح الباري، ج ٢، ص ١٤٤.

شيخ الإسلام ابن تيمية على النصارى في "الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح"<sup>(١)</sup>، وكذلك الرسالة القبرصية له والتي وجهها إلى ملك قبرص يدعو إلى الله تعالى ويحذره من الوقوع بأسرى المسلمين عنده، ويبين له فساد مذهب النصارى وما بدلوا فيه، والكثير من هذه المباحث على صورة بما يسمى بـ(الفنقلة)، أي فإن قيل كذا، قيل كذا وكذا، وهي مناظرة صورية متخيلة، غير ما تحمله من ردود على شبه النصارى<sup>(٢)</sup> وغير ذلك، وهذه الردود في الجملة نوع من المناظرة الورقية التي يبذل فيها العالم كل ما لديه من أدلة تؤيد مذهبه وتدحض شبه الخصم.

وعلى الرغم من كثرة المناظرات بهذا العصر إلا أن المصادر التاريخية التي تيسر لي الإطلاع عليها لم تحفل بذكر شيء من المناقشات الحادة وظهور منتصر وخاسر في مدينة الإسكندرية، وهذا أمر يحتاج إلى وقفة للنظر في العوامل التي أدت إلى قلة ذلك في الإسكندرية ولعل منها:

أولاً: كون الثغر السكندري محل رباط دائم، والعادة أن المجاهدين يتناسون خلافاتهم وقت الجهاد وقد ورد في ذلك حديث لفظه: ((إن الله لا يجمع على هذه الأمة سيفين : سيفاً من نفسها وسيفاً من عدوها))<sup>(٣)</sup>.

ثانياً: أن الثغر السكندري كان يعج بعلماء برزوا في علمي القراءات والحديث، والخلاف في هذين العلمين في الجملة أقل من الخلاف في الفقه واللغة وكان غالب فقهاء الإسكندرية من المالكية ثم الشافعية، ولم يكن بين هذين المذهبين في العادة التشاحن المعروف بين الحنفية والشافعية والذي صنفت فيه

---

(١) وقد طبع غير مرة وتم طبعه في ست مجلدات كبار بتحقيق العسكر وآخرين بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

(٢) وهي رسالة مطبوعة ضمن مجموع الفتاوى باسم الرسالة القبرصية ج ٢٨، ص ٦٠١-٦٣٠.

(٣) أبو داود : السنن، في كتاب الملاحم، ج ٤، ص ١٢٢ (ح ٤٣٠١)، وأخرجه الإمام أحمد : المسند، ج ٦، ص ٢٦ (ح ٢٤٠٤٤) عن عوف بن مالك رضي الله عنه.

المصنفات في بغداد وغيرها من العواصم العلمية في المشرق<sup>(١)</sup>، وحتى مع دخول بعض قضاة الحنفية في الإسكندرية، إلا أن وجود المذهب الحنفي لم يكن بالقوة الكافية لوجود المناظرات والندوات العلمية في مسائل الفقه المختلف فيها بينهما<sup>(٢)</sup> كالثالث: كثر علماء الإسكندرية اللذين كانوا يمتنون التجارة، مثل أبناء ابن المنير والدماميني وبيت بني كويك وغير هؤلاء ممن سبق ذكر بعضهم في الفصل الثاني في بحث الأسر العلمية وغير هؤلاء<sup>(٣)</sup>، ومن المعلوم أن التاجر يكون ذا خلق واسع في العادة بحيث يسمح له بأخذ وجهة النظر المخالفة بسعة صدر أكثر ولا ينشط في الغالب في الرد المباشر، إنما قد يلجأ للرد المكتوب إن احتاج الأمر عند الضرورة.

رابعاً: كان الثغر السكندري يعج بالكثير من الصوفية الذين نزلوا فيه وكثير منهم من صوفية المغاربة<sup>(٤)</sup>، والتصوف مذهب أخلاقي، ليس لأصحابه كبير علم بل منهم من كان ينهى عن العلم والتعلم<sup>(٥)</sup>، فلم تكن سوق المناظرة رائجة في الثغر لهذا السبب.

خامساً: كان لبعض علماء الإسكندرية ميل إلى منع المناظرات، وكان ذلك يرجع إلى مهابته ووجاهته، كابن المنير ناصر الدين، فإنه كان لا يناظر تعظيماً لفضيلته، بل تورد الأسئلة بين يديه ثم يسمع ما يجيب فيها<sup>(٦)</sup>، بل أن الشيخ

(١) وعليه أكثر علم الخلاف الذي يعرف به كيفية إيراد الحجج الشرعية، ودفع الشبه، وقوادح الأدلة الخلافية بإيراد البراهين القطعية، وكتب الحنفية والشافعية أكثر من تأليف المالكية... وكتاب الخلافات للحافظ أبي بكر البيهقي المتوفى سنة (٤٥٨هـ/١٠٦٥م)، جمع فيه المسائل الخلافية بين الشافعي وأبي حنيفة" حاجي خليفة: كشف الظنون، ج ١، ص ٥٥٣.

(٢) انظر الفصل الأول: الحياة الدينية، ص ١٤٠.

(٣) راجع في ذلك ما سبق ص ٢٠٥.

(٤) سبق ذكر طرف من ذلك في الحديث عن الأربطة والخانقاوات ص ٣١٦.

(٥) يقول أحد أقطاب الصوفية وهو ابن عربي: (من قال لك: لا تبرح من العلم، فقد قتلك بسيف الأبد، العلم ليل لا صبح له، ومن قطع المفاوز في الظلمات وهو غير خريت زاد تيتها على تيه)، انظر محمود عبد الرؤوف القاسم: الكشف عن حقيقة الصوفية، ص ٥٧٢.

(٦) ابن تغري بردي: المنهل، ج ٢، ص ١٨٥ - ١٨٦.



القاضي ابن دقيق العيد لما اجتمع به ترك مناظرته في أحد المسائل، وعلل ذلك بأن المناظرة ما كانت تقضي إلا إلى غضب ابن المنير فتركها لذلك<sup>(١)</sup>، وقال بأنه: (لا يقف في البحث على حد)، رغم أن ابن دقيق العيد كان يوصف بأن ذهنه ثلقب وأنه إمام عصره في المذهبيين<sup>(٢)</sup>.

وهذا يبين أنه كانت المناظرات في الثغر تجري في اتجاه واحد، بمعنى أن ما تحدثنا به المصادر التاريخية من مناظرات كان ينتهي برجوع أحد المتناظرين لرأي الآخر أو ترك المناظرة تعففاً عنها، ولم يكن ثمة تعصب كما كانت المناظرات في كثير من البلدان والأمصار<sup>(٣)</sup>.

ومع ذلك لم يخل الثغر من بحث أو مناظرة يحسن إيراد شيء منها:

فعلى سبيل المثال يذكر السخاوي في ترجمة خلف بن علي بن محمد بن أحمد بن دارد بن عيسى السكندري الشافعي (ت ٨٤٤هـ / ١٤٤٠م) أنه صار شيخ الشافعية بل والمالكية بالثغر بغير منازع، وأنه ذكر عنه أنه بحث مع أحد العلماء في مسألة كان الحق فيها مع خلف، فترك المراء وأظهر أن الحق مع الخصم وأنشد:

إذا قالت حذام فصدقوها فإن القول ما قالت حذام<sup>(٤)</sup>.

ومن أبرز المناظرات مناظرة سجلها العبدري في رحلته، كانت مع الفقيه زين الدين ابن المنير حول ثلاث مسائل فقهية: الأولى: في عدم انعقاد البيع بالإشارة إلا للأخرس وهي مسألة مشهورة في الفقه، فالشافعية يرون منع ذلك لأن

(١) وهي أنه لما سأله عن الحجة في كون عمل أهل المدينة حجة، فقال: وهل يتجه غير هذا؟ وتكلم بكلام طويل، فلم يتكلم ابن دقيق العيد معه، فلما خرج سئل عن ترك الكلام معه، فقال: (رأيت رجلاً لا ينتقص منه إلا بالإساءة إليه)، انظر: الموسوي الأصبهاني: روضات الجنات في أحوال السادات، ج ١، ص ٣٠٥ - ٣٠٦.

(٢) الشوكاني: البدر الطالع، ج ٢، ص ٢٣٠.

(٣) انظر على سبيل المثال في ذلك ابن حجر: إنباء الغمر، ج ٩، ص ١٢٩، حوادث سنة ٨٤٤هـ، وفي ص ١٦١ حوادث سنة ٨٤٥هـ.

(٤) السخاوي: الإضواء اللامع، ج ٣، ص ١٨٤.

الإشارة غير دالة، والمالكية يرونها تدل على المراد، فأورد العبدري أن إشارة الأخرس وإن كانت غير دالة فهي عند غيره دالة أيضا، وقد اشترك في هذه الندوة أو المناظرة العبدري وزين الدين بن المنير وأحد الشيوخ الذين يقرأون على الزين، وهي تدل على الإنصاف والقوة والمتانة العلمية، والمسألة الثانية: في تفسير عبارة للفقيه المالكي (ابن الحاجب) صاحب "المختصر"، وهي عبارة مشكلة في باب الطهارة، أما الثالثة: فكانت في مسألة الطهارة بالماء في جراب الماء المصنوعة من الجلد<sup>(١)</sup>.

ومن أبرز المناظرات التي جرت بالإسكندرية هي التي أشار إليها الشيخ شرف الدين عبد الله بن تيمية وهو شقيق شيخ الإسلام أحمد بن تيمية وكان معه إبان سجنه بالإسكندرية، فقد ذكر فيما ذكر من حال الشيخ في الإسكندرية أنه بدأ يعلم الناس بالثغر إلى أن قال: (وانفق أنه وجد بها الفرق الضالة<sup>(٢)</sup>) فكشف أسرارهم وفضحهم واستتاب جماعات منهم، وتوب رئيسا من رؤسائهم واشتهر ذلك واستقر عند عموم المؤمنين وخدامهم من أمير وقاض وفقيه ومفت وشيخ وعموم المجاهدين وعلت كلمة الله بها على أعداء الله ورسوله<sup>(٣)</sup>، وهذا النص يفيد أمورا منها:

أولاً: أنه حصلت مناظرات بين شيخ الإسلام أحمد ابن تيمية وبين هذا الرئيس الصوفي والتعبير بكونه (رئيسا) يدل على أن المناظرة لا بد أن تكون هامة وقوية وربما طويلة، لأن الرؤساء أكثر علما من الأتباع في الجملة، وربما لم تكتب هذه المناظرة ولم ينص اسم هذا الرئيس سترا عليه، وعموما فإن كتب شيخ الإسلام فيها الردود على شبه القوم بوضوح وإسهاب<sup>(٤)</sup>.

ثانياً: أن المناظرة انتهت بتسليم هذا الرئيس وتوبته مما كان عليه من أمور مخالفة للدين الإسلامي.

(١) انظر هذه المناظرة في العبدري: الرحلة، ص ١٢٣ - ١٢٥.

(٢) يعني الصوفية الاتحادية كما سبق تقريره في مبحث أثر شيخ الإسلام على الحياة العلمية.

(٣) محمد العبدري: رسائل ابن تيمية، ص ٢٩.

(٤) أي الاتحادية من السبعينية والعربية، وسبق التعريف بهما ص ٣٣٩.

ثالثاً: أن أخبار هذه المناظرة قد عمت الثغر الإسكندري حتى بلغت كافة الفئات من طلاب العلم والدولة فقد نص مؤرخ هذه المناظرة على أصحاب الحركة العلمية وهم القاضي والمفتي والفقير والشيخ، كما نص على الأمير وعموم المجاهدين من المرابطة في الثغر، وهذا يدل على وجود متابعة من الرأي العام ولا سيما المهتمون بأمور العلم لما يحدث من مناظرات علمية ولا سيما مع هؤلاء الاتحادية الصوفية، كما يبين مدى الأثر الذي أحدثه شيخ الإسلام في الثغر الإسكندري على الرغم من اعتقاله به أشهراً، ويؤكد أيضاً ما ذكرناه سابقاً من أن التصوف لا يقارع الدعوة السلفية الصحيحة بأي حال من الأحوال.

وإلى جانب هذا فقد وجدت مناظرات وندوات عملية داخل المدارس، ومن أمثلة هذا النوع ما كان يحدث داخل المدرسة العوفية في عهد تدريس حفيد أبي الطاهر بن عوف فيها، وهو الإمام أبو الحرم مكي نفيس الدين، فقد كان يدرس كتاباً في الفقه المالكي، وهو كتاب التهذيب لأبي سعيد البراذعي<sup>(١)</sup>، قال ابن فرحون: (وكان يحضر عنده فضلاء، ويتحرر بينهم بحوث، فيكتبها في الحواشي فكمل على هذا الحال)<sup>(٢)</sup>.

---

(١) هو شيخ المالكية أبو سعيد خلف بن أبي القاسم الأزدي البراذعي القيرواني المالكي، قال عنه القاضي عياض: كان من كبار أصحاب أبين أبي زيد القيرواني، توفي بعد سنة (٤٣٠هـ/١٠٣٦م)، وكتابه التهذيب هو اختصاره للمدونة للإمام مالك التي جمعها أصحابه من أقواله وفتاواه، انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ١٧، ص ٥٢٣.

(٢) ابن فرحون: الديباج، ج ١، ص ٢٩٣. وهذا الكتاب ضخيم في ستة وثلاثين مجلداً، وهو كما سبق نتاج الندوات العلمية التي كانت تحدث في المدرسة العوفية، وقد وصفه ابن فرحون بأنه كتاب نفيس إلى الغاية، وقد عد منه خمسة كراريس ونصف في مسطرة قدرها سبعة وعشرون سطراً في الكلام على سجود التلاوة فقط، انظر الديباج، ج ١، ص ٢٩٣.

## المدرسون وطرق التدريس

أن مهنة التدريس مهنة شريفة، فالعلماء ورثة الأنبياء، وفضلها عظيم حتى ورد أن الله وملائكته وأهل السموات والأرض حتى النملة في حجرها وحتى الحوت ليصلون على معلم الناس الخير<sup>(١)</sup>.

وقد شهد العصر المملوكي تخصصاً في وظائف التدريس، والتي من أهمها وظيفة المدرس: الذي يلقي الدروس على الطلبة، وعادة ما يكون متقناً فناً أو أكثر، وإذا بلغ الغاية في فنه فهو العالم، والعلماء فرق كثيرة، قال السبكي: (منهم المفسر والمحدث والفقير والأصولي والنحوي وغيرهم، وتتشعب كل فرقة من هؤلاء شعوباً وقبائل، ويجمع الكل أنه حق عليهم إرشاد المتعلمين وإفتاء المستفتين ونصح الطالبين وإظهار العلم للسائلين)<sup>(٢)</sup>.

و درج العلماء على التنبيه على آداب المعلم وما الذي ينبغي له أن يفعله أثناء الدرس وبعده، ومن جملة ذلك أن يكون من أهل العلم والصلاح صحيح الاعتقاد، حسن النية، متحلياً بالأخلاق الكريمة، حسن الهيئة<sup>(٣)</sup>، لا يكثر من الكلام والضحك، حليماً متواضعاً، متجنباً للكبرياء والإعجاب، متساماً بالعمو والصفح مع المهابة والوقار<sup>(٤)</sup>، وأن يكون سليم النطق مجيداً للغة العربية التي يدرس بها، وأن يراعي الفروق الفردية بين الطلبة من حيث مستوى استيعابهم ومدى فهمهم واختلاف أعمارهم، (فإن كان الطلبة من المبتدئين فلا يلقي عليهم ما لا يناسبهم من المشكلات، بل يدرّبهم ويأخذهم بالأهون فالأهون إلى أن ينتهوا إلى درجة التحقيق)<sup>(٥)</sup>، كذلك عليه أن يراعي الجوانب النفسية للطلبة، فلا يفضل بعض

(١) ورد هذا في حديث أخرجه الترمذي في سننه، كتاب العلم باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة، ج ٥، ص ٤٨، إلا أنه قال عنه: هذا حديث غريب.

(٢) السبكي: معيد النعم، ص ٦٧.

(٣) من وثيقة وقف جمال الدين الاستادار في مدرسة الشافعية، نقلاً عن محمد أمين: الأوقاف، ص ٢٤٣.

(٤) ابن الحاج، المدخل، ج ١، ص ٨٨، ٨٩، ١١٤.

(٥) السبكي: معيد النعم، ص ١٠٥.

الطلبة على بعض، إلا أن كان أحدهم أكثر اجتهادا أو أدبا، فيظهر ذلك أمام الطلبة من أجل أن يحذوا حذوه<sup>(١)</sup>، كذلك عليه أن يراعي الآداب الاجتماعية بمعنى أن يتودد للطالب الغريب وينبسط له ولا يكثر النظر إليه استغرابا لئلا يخجله<sup>(٢)</sup>، وأن لا يفتى فيما يعلمه وما لا يعلمه، فإذا سئل عما لا يعلمه، قال: لا أعلمه أو لا أدري، وأن يقول عند ختم كل درس (والله أعلم)<sup>(٣)</sup>، وأن ينزه مجلسه من اللغو والنميمة والكذب واللغو ورفع الصوت، متيقظا لما يفعله الطلبة بحيث يزر كل من يتعدى في بحثه أو ظهر منه سوء أدب<sup>(٤)</sup>.

ومما حكاه البدر الدماميني من عقوبة علمية وزجر لأحد الطلاب بلطفية علمية، وسجلها في حاشيته على المغني أنه كان يوما بمجلس الشيخ ابن عرفة عند قدومه إلى الإسكندرية سنة (٧٩٢هـ/١٣٨٩م)، قال: وأنا أقرأ عليه درسا في كتاب الحج من مختصره، وكان شخص من الطلبة الموسومين بالتمشوق والإكثار بما لا يجدي حاضرا في المجلس، فمر موضع من كلام الشيخ عاد فيه ضمير على المضاف عليه، فقال ذلك الشخص: كيف أعدتم الضمير على المضاف إليه والتدويون بخلافه، فأجابه الشيخ فورا: قال تعالى: {كمثل الحمير يحمل أسفارا}<sup>(٥)</sup>، قال البدر: وفيه من اللطف ما لا يخفى<sup>(٦)</sup>.

ولأهمية هذه المهنة الشريفة (التدريس) فقد أولاه المماليك ومن قبلهم من السلاطين برعاية واهتمام لدرجة أن سجل مهنة التدريس كان يخرج من قبل الخليفة أو السلطان، وقد ذكر القلقشندي نسخة سجل التدريس بالمدرسة الحافظية بالإسكندرية الصادرة من الخليفة الفاطمي إلى الفقيه أبي الطاهر بن عوف اشتملت على الوصية بالإخلاص في طاعة الله سرا وجهرا، والتفويض في توزيع الرواتب

(١) ابن جماعة: تذكرة السامع، ص ٥٩.

(٢) ابن جماعة، تذكرة السامع، ٤٣، ٤٤.

(٣) ابن جماعة: تذكرة السامع، ص ٤٢.

(٤) ابن جماعة: تذكرة السامع، ص ٢٢ - ٤١.

(٥) سورة الجمعة، آية: ٥.

(٦) الوزير السراج، الحلل السندسية، ج ١، ص ٥٦٢.

والتقريب والإبعاد للطلاب، والوصية بالمدرسة، وتلاوة ذلك السجل بالمسجد الجامع وقد استمرت المدرسة الحافظية قائمة حتى العصر المملوكي<sup>(١)</sup>.

ولقد حظي المدرس طوال العصر المملوكي بألقاب علمية عالية، كالحافظ والمحدث والمسند<sup>(٢)</sup>، والشيخ، والعالم، والفاضل، والإمام، والفييه والمفتي، وكانت هذه الألقاب الشريفة لا تطلق إلا لمن من كانت له الأهلية التامة، فعلى سبيل المثال لقب وجيه الدين منصور بن سليم (٦٧٣هـ/—/١٢٧٤م)، بالحافظ المحدث، وصف بأنه جلس يدرس بالثغر سواء للطلبة المقيمين به أو القادمين إليه من الخارج<sup>(٣)</sup>، كذلك لقب رشيد الدين أبو محمد عبد الوهاب بن ظافر الإسكندراني المعروف بابن رواج (ت٦٤٨هـ/—/١٢٥٠) بالمسند الإمام المحدث<sup>(٤)</sup>، أيضاً تاج الدين أبو بكر عبد الله بن أبي طالب الإسكندري (ت٦٦٣هـ/—/١٢٦٤م)، لقب بالمحدث والمفتي<sup>(٥)</sup>، وكذلك الإمام المحدث المدرس أبو العباس أحمد بن عمر بن إبراهيم بن عمر الأنصاري المالكي، فقد ظل يحدث ويدرس بالثغر حتى وافته المنية به سنة (٦٥٦هـ/—/١٢٥٨م)<sup>(٦)</sup>، أيضاً العالمان المحدثان أولاد الجرافي تاج الدين وشرف الدين فقد تنقلا للتدريس في عدة مدارس وأخذ عنهما جمع غفير من الطلبة سواء من أهل الإسكندرية أو من خارجها، فقد كانت الرحلة إليهما

(١) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ١٠، ص ٤٥٨، ٤٥٩.

(٢) من أشهر الألقاب التي أطلقها العلماء على المحدثين: المسند: وهو من يروي الحديث بإسناده، سواء أكان عنده علم به أم ليس له إلا مجرد روايته، والمحدث أرفع منه بحيث عرف الأسانيد والعلل، وأسماء الرجال، والعالي والنازل، وحفظ مع ذلك جملة مستكثرة من المتون، وسمع الكتب الستة وبسند أحمد وسنن البيهقي ومعجم الطبراني، وضم إلى هذا القدر ألف جزء من الأجزاء الحديثية، أما الحافظ فهو أعلاهم درجة وأرفعهم مقاماً، فمن صفاته: ( أن يكون عارفاً بسنن الرسول صلى الله عليه وسلم، حافظاً لصحيحها مميّزاً لأسانيدها، عارفاً برجالها، وبشيوخه وشيوخه طبقة بعد طبقة، انظر: صبحي الصالح: علوم الحديث، ص ٧٥.

(٣) اليافعي: مرآة الجنان، ج ٤، ص ١٧٣؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٥، ص ٣٤١.

(٤) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ٢٣، ص ٢٣٧—٢٣٨؛ المعين في طبقات المحدثين، ص ٢٠٤.

(٥) السيوطي: حسن المحاضرة، ج ١، ص ٤١٥.

(٦) الذهبي: تاريخ الإسلام ص ٢٢٤—٢٢٥.

في طلب الحديث<sup>(١)</sup>، ومنهم المحدث جمال الدين محمد بن عبد الرحمن بن أحمد البلوي السكندري المالكي ، حدث وتولى التدريس بالإسكندرية، وتوفي في القرن الثامن الهجري<sup>(٢)</sup>، أيضا أبو الفتح عبد الله بن أبي الفضل السكندري المالكي (ت ٦٧١هـ/٢٧٢م) الذي حدث بالإسكندرية واشتغل بالتدريس فيها، نعته كل من صاحب زبدة الفكرة وعقد الجمان بـ(الشيخ الفاضل)<sup>(٣)</sup>، وكذلك الحال بالنسبة لشرف الدين أبي عبد الله محمد بن الحسن بن إبراهيم الأنصاري (ت ٧٤٠هـ/٢٣٣٩م) فقد جاء في وصفه بأنه: (كان إماما عالما، حدث ودرس بالإسكندرية)<sup>(٤)</sup> ولقب حسين بن أبي عمرو أبو العلاء الإسكندري (٦٦٢هـ/٢٦٣م)، بالفقيه<sup>(٥)</sup>، ومنهم الفقيه محمد بن يوسف الإسكندراني المالكي (ت ٨٠٥هـ/٤٠٢م)، وصف بأنه فقيه أهل الثغر ، درس وأفتى وانتهت إليه الرياسة في العلم<sup>(٦)</sup>.

كما وجد بالإسكندرية جماعة من العلماء جمعوا بين مهنة التدريس والمناصب الدينية العالية كالقضاء والحسبة ، فمنهم: شرف الدين ابن المرجاني ، أحمد بن سليمان بن أحمد بن سليمان المالكي المقريء، فقد جمع بين التدريس والقضاء، توفي سنة (٦٥٩هـ/٢٦٠م)<sup>(٧)</sup>، ووجيه الدين منصور بن سليم فقد جمع بين التدريس والحسبة<sup>(٨)</sup>، وناصر الدين ابن المنير، وصف بأنه علامة الإسكندرية ، فقد برع ودرس في عدد كبير من العلوم منها القراءات والفقاه

(١) ابن رشيد: ملء العيبة، ج ٥، ص ٣٥، كذلك انظر ترجمتهما فيما سبق في الفصل الثاني - الأسر العلمية ، ص ٢٢٩.

(٢) ابن حجر: الدرر الكامنة الكامنة، ج ٤، ص ٢٩٨ - ٢٩٩.

(٣) بيبيرس الدوادار: زبدة الفكرة، ج ٩، ص ١٩٠؛ العيني: عقد الجمان، ج ٢، ص ١٠٨.

(٤) ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج ٢، ص ٣١٩.

(٥) الذهبي: تاريخ الإسلام، ص ٩٧.

(٦) ابن حجر: انباء الغمر، ج ٢، ص ٢٥٢.

(٧) الصفدي: الوافي بالوفيات، ج ٦، ص ٤٠٤؛ ابن تغري بردي: المنهل، ج ١، ص ٢٩٣.

(٨) اليافعي: مرآة الجنان، ج ٤، ص ١٧٣.

والحديث والتفسير والأصول واللغة والأدب<sup>(١)</sup>، وكان له درس بالجامع الجيوشي<sup>(٢)</sup>، ومنهم: قاضي القضاة أبو الحسين أبو بكر بن أبي الحسين الكندي الإسكندري (ت ٧٤١هـ/١٣٤٠م)، فقد حدث ودرس بالإسكندرية<sup>(٣)</sup>. ومنهم جمال الدين يوسف بن محمد بن عبد الله الحميدي الإسكندري، فقد تولى قضاء الإسكندرية وكان يدرس بالثغر إلى أن توفي به سنة (٨٢١هـ/١٤١٨م)<sup>(٤)</sup>، ومنهم جلال الدين محمد بن عبد الرحمن بن محمد الديروطي الشافعي البكري (ت ٨٩١هـ/١٤٨٦م)، كان عالماً فاضلاً بارعاً في العلوم خاصة الفقه على المذهب الشافعي، كان يدرس في أكثر من مكان، تولى قضاء الإسكندرية فترة طويلة<sup>(٥)</sup>.

وممن تولى التدريس بالإضافة إلى توليته وظائف دينية أخرى كالإمامة والخطابة أو نظر الأحباس بالثغر، بدر الدين محمد بن أبي بكر بن عمر بن أبي بكر بن محمد الدماميني السكندري المالكي (ت ٨٢٧هـ/١٤٢٣م)، فقد تولى إمامة وخطابة الجامع الغربي بالإضافة إلى تصدره إلى تدريس العلوم التي مهر بها سواء الأدب أو العربية أو الفقه في مدارس عدة<sup>(٦)</sup>، وعلي بن محمد بن محمد بن محمد بن عبد الوهاب بن أبي بكر بن يفتح الله السكندري المالكي (ت ٨٦٢هـ/١٤٥٧م)، ولد بالإسكندرية ونشأ بها وقرأ القرآن على خطيب وإمام الجامع الغربي الزين عبد الرحمن الفكري، وسمع الحديث والفقه على علمائها ثم بعد ذلك تولى خطابة الجامع الغربي، إلى أن توفاه الله، وكان متصدراً لإقراء الطلبة فانتفع به عدد كبير منهم، لدرجة أن السخاوي قال عنه: (كان غالب قراء

(١) ابن فرحون: الديباج، ج ١، ص ٢٤٥ - ٢٤٦.

(٢) العماد: الخريدة، ص ١٩٣.

(٣) ابن فرحون: الديباج، ج ١، ص ٣١٢.

(٤) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٧، ص ١٥٣.

(٥) ابن أبياس: بدائع الزهور، ج ٣، ص ٢٢٨.

(٦) القرافي: توشيح الديباج، ص ١٧٥ - ١٧٦.



البلاد من تلامذته<sup>(١)</sup>، وبهاء الدين أبو العباس أحمد بن أبي بكر بن عرام بن ياسين بن أبي القاسم (ت ٧٢١هـ/١٣٢١م) ، سمع الحديث وقرأ النحو، ولى نظر الأعباس بالإسكندرية ، وتصدر لإقراء العربية بها<sup>(٢)</sup> .

وربما وصف الشيخ بأنه من أعيان علماء الثغر، أو من أعيان فقهاء الثغر، مع اشتغاله بالتدريس، فقد وصف شرف الدين ابن المرجاني بأنه من أعيان فقهاء الثغر، مع وصفه بالتدريس<sup>(٣)</sup>، وشرف الدين أحمد بن علي بن عبد العزيز بن المصنفى الإسكندراني المالكي، وصف بأنه من أعيان علماء الإسكندرية<sup>(٤)</sup> .

هذا ولم يكن عمل المدرس قاصراً على مدرسة واحدة ، بل قد ينتقل الشيخ بين عدد من المدارس ، وذلك مثل الشيخ بدر الدين الدماميني، وكذلك الشيخ عبد الملك بن أحمد بن رستم المالكي الإسكندراني (ت ٧٥٣هـ/١٣٥٢م)، فقد حمل الفقه عن القاضي عبد الواحد بن المنير وأخذ العربية عن أبي حيان، وقرأ الأصول والمعاني والبيان على القويدي الشافعي، تولى التدريس بعدد من مدارس بالإسكندرية، بالإضافة إلى تولية نيابة القضاء بالإسكندرية سنة (٦٩٨هـ/١٢١٨م)<sup>(٥)</sup> . كذلك بالنسبة لجلال الدين محمد بن عبد الرحمن بن محمد الديروطي الشافعي البكري، فقد عمل بعدد من مدارس الإسكندرية، كما تولى قضاءها فترة طويلة<sup>(٦)</sup>، أيضاً تولى العلامة تاج الدين أبو الحسن علي بن أبي

(١) السخاوي: الضوء اللامع، ج ٥، ص ١٧ - ١٨ .

(٢) المقرئزي: السلوك، ج ٢، ق ١، ص ٢١٢ .

(٣) ابن تغري بردي: المنهل، ج ١، ص ٢٩٣ .

(٤) ابن حجر: الدرر الكامنة الكامنة، ج ١، ص ٢٢٩ - ٢٣٠ .

(٥) ابن فرحون: الديباج، ج ٢، ص ٢١ .

(٦) ابن اياس: بدائع الزهور، ج ٣، ص ٢٢٨ .

العباس الفراني التدريس بعدد من مدارس الإسكندرية كالمدرسة النبيهية ومدرسة ابن الأبيزاري<sup>(١)</sup>.

وأما وظائف التدريس الأخرى، ومنها (المعيد) وهو الذي يقوم بإعادة الدرس بعد فراغ المدرس من إلقائه<sup>(٢)</sup>، وذلك لأن وقت المدرس لا يتسع لإعادة شرح بعض الدروس لمن يحتاج إلى ذلك من الطلبة، لذا فإن الطالب المتقدم يساعد المدرس في مادة التخصص في أعماله، ويعيد الدرس للطلاب، ويحضر كذلك الدروس التي يكلفه بها المدرس والطلبة يسمعون ذلك، ويجلس مع الطلبة لاستذكار بعض الدروس، وعادة ما يحضر المعيد قبل حضور مدرسه، ويحث الطلبة على الاشتغال بمراجعة الدروس ويبين لهم ما يشكل عليهم فيما يشتغلون فيه عليه، فيشرح لمن احتاج الشرح، أو يكرر أو يزيد، لمن لم يستوعب ما ألقى عليه من الدرس<sup>(٣)</sup>.

وفي الحقيقة أن مهمة المعيد تبين مدى الترابط والتكامل بين المدرس ومعيده، بحيث يتم المعيد ما يكون من نقص لدى الطلاب حتى تتم العملية التعليمية على أفضل وجه ممكن، وهذا بدوره يؤكد علو شأن التعليم في المدارس المملوكية خلافا للأصوات التي تبرز من حين لآخر بانحطاط التعليم في هذا العصر، وتسميته بعصر الركود العلمي.

وحتى تتم العملية التعليمية على الوجه الصحيح لم ينس العلماء أن يبينوا آداب طالب العلم بين يدي الطلبة لتتم الاستفادة، ومنها أن يصلح نيته في التعليم لله تعالى، وأن يتحلى بالتواضع والتقوى والصدق والبعد عن الغيبة والنميمة، ويبتعد عن المراء والجدال الذي لا فائدة منه<sup>(٤)</sup>.

وقد نص العلماء كذلك على احترام مجلس العلم وطريقة الجلوس به، وأن الطالب إذا حضر يسلم على الجميع ويخص الشيخ بالتحية والإكرام، وأن يصبر

(١) ابن رشيد: ملء العيبة، ج ٣، ص ٧١، ٧٦، ٩١.

(٢) ابن جماعة: تذكرة السامع، ص ١٥٠.

(٣) السبكي: معيد النعم، ص ١٠٨؛ محمد أمين الأوقاف، ص ٢٤٦.

(٤) ابن الحاج: المدخل، ج ١، ص ٣١٦ - ٣٢٨.

على الشيخ إن كان في خلقه أو خلقته شيء غير محبب، فمن اللطائف في هذا الباب أن الإمام الذهبي حين كان بالإسكندرية ذكر الإمام شرف الدين يحيى بن أحمد ابن عبد العزيز بن علي بن عبد الباقي بن الصواف الجذامي الإسكندراني، وكان قد عمّر طويلاً مما جعل سمعه يضعف، قال الذهبي: (فوجدته صعب المراس، فقرأت عليه، فانقطع صوتي مما أرفعه، فسمعت منه ثلاثة أجزاء، وتركت القراءة، ولحقه بعدي القاضي تقي الدين السبكي بآخر رمق فلقنه أحاديث سمعها منه)<sup>(١)</sup>.

وهذا يدل على احترام الشيخ والصبر عليه في التحصيل، فإن ابن الصواف هذا هو آخر من حدث عن ابن العماد بالسماع، وآخر من قرأ على الصفاوي<sup>(٢)</sup>، فأراد كل من الذهبي والسبكي أن تطول أسانيدهما من طريقه فرحلا إليه وصبرا على ضعف سمعه.

وأما طريقة التدريس فلقد كانت طريقة فريدة في عصر المماليك في الإسكندرية وغيرها، فهي تبدأ من طريقة تنظيم الطلاب في الحلقة، ويكون ذلك عن طريق النقيب، وهو طالب يعين من كل مجموعة دراسية، يتولى ضبط الحضور وترتيب جلوسهم على قدر منازلهم، وضبط الغياب، لذا يقال له أيضاً (كاتب الغيبة)، ويوقظ النائم وينبه الغافل، ويشير إلى ترك ما لا ينبغي فعله، فيأمر بسماع الدروس والإنصات لها، وفي العادة ما كان يخصص له زيادة على معلوم الطلبة لأجل ذلك<sup>(٣)</sup>.

فإذا تم جلوس الطلاب جلس الشيخ قبالة وجوههم، ويكون المتميز من الطلاب والمعيد قبالاته وجهته، ثم يبدأ الطالب في القراءة، فيستعيز وييسمّل ويحمد الله تعالى ويصلي على النبي صلى الله عليه وسلم، ويدعو للشيخ ولوالديه ومشائخه، ولنفسه ولسائر المسلمين ويترحم على مصنف الكتاب، فإن ترك شيئاً

(١) ابن حجر: الدرر الكامنة، ج ٥، ص ١٨٥ - ١٨٦.

(٢) ابن حجر: الدرر الكامنة، ج ٥، ص ١٨٥ - ١٨٦.

(٣) ابن جماعة: تذكرة السامع، ص ٤١.

من ذلك نبهه الشيخ<sup>(١)</sup>، ثم يبدأ الشيخ بشرح وتوضيح المسائل بالأمثلة، وكذلك يشرح عبارات المصنف، وبعد أن ينتهي من الشرح، ويتأكد من فهم الطلبة له، يبدأ بطرح المسائل عليهم لامتحانهم ومعرفة فهمهم وضبطهم لما شرح لهم ليثبت في أذهانهم، ويطالبهم بإعادة المحفوظات في بعض الأوقات، ويجري لهم الامتحانات، ويوصي الطلاب بالرفق<sup>(٢)</sup> لحديث: (إن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى)<sup>(٣)</sup>.

وفي العادة كان الطلبة يفضلون تلقى العلوم بالتدرّج وكذلك التنقل بين الكتب من السهولة إلى الصعوبة حتى لا يحدث الخلط وكذلك يسهل عليهم الفهم والحفظ.

فاين خلدون يقرر ذلك ويرى أن المتعلم عليه أن لا يخلط مسائل الكتاب الذي أكب على التعليم منه بغيره، ويعلل ذلك: (بأن المتعلم إذا حصل ملكة ما في علم من العلوم استعد بها لقبول ما بقى وحصل له نشاط في طلب المزيد والنهوض إلى ما فترقه حتى يستولي على غايات العلم، وإذا خلط عليه الأمر عجز عن الفهم وأدركه الكائل وانطمس فكره ويئس من التحصيل، وهجر العلم والتعليم)<sup>(٤)</sup>.

ولكي تكون العملية العلمية ذات جدوى، فقد حددت المدارس النظامية مواعيد الدراسة بها وصار هذا الأمر معتمداً به في كافة الدولة المملوكية، ففي العادة ما يبدأ اليوم الدراسي من طلوع الشمس إلى أذان العصر، وتتراوح أيام الدراسة بها ما بين ثلاثة وخمسة أيام في الأسبوع، وأما بالنسبة للعطلة الأسبوعية فتكون في يومي الاثنين والجمعة، أو الثلاثاء والجمعة، بالإضافة للعطلة السنوية والتي تتراوح ما بين ثلاثة أشهر إلى أربعة أشهر، تبدأ من شهر رجب حتى

(١) ابن جماعة: تذكرة السامع، ١٦٢.

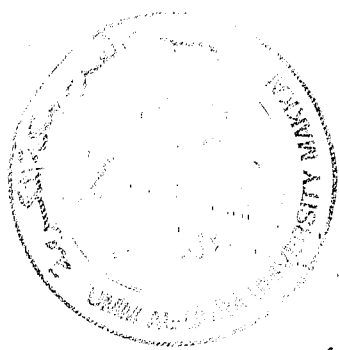
(٢) ابن جماعة، : تذكرة السامع، ص ٥٧، ١٦٣.

(٣) البيهقي السنن الكبرى، في باب القصد في العبادة والجهد في المداومة، ج ٣، ص ١٩، ومعناه: لا تحمل على نفسك فيكون مثالك مثال من تابع السير، فبقى منقطعاً لم يقض سفره وأهلك راحته.

(٤) ابن خلدون، المقدمة، ص ٥٣٤.

العشرين من شهر شوال<sup>(١)</sup>، أما بالنسبة للطلبة غير النظامين خاصة الرحالة الذين ينزلون الثغر السكندري ، فكانت المدارس تفتح لهم أبوابها في أي وقت جاءوا ، وكذلك بالنسبة للشيوخ والمدرسين الذين كانوا يبذلون أنفسهم في كل وقت للطلاب محبة للعلم ورغبة في نشره<sup>(٢)</sup>.

أما بالنسبة للكتب التي كانت تدرس في المدارس بالثغر السكندري، فقد كانت من الكثرة بمكان، وسيأتي بيانها بالتفصيل في الفصل الخامس من هذه الرسالة إن شاء الله تعالى.



٣٧٤٣

(١) محمد أمين: الأوقاف ، ص ٢٤٩ - ٢٥١.

(٢) انظر في ذلك الفصل الرابع من هذه الرسالة، وكيف كان الرحالة يأتون إلى الإسكندرية ويفدون على مدارسها ومدرسيها في أي وقت كان .